الكتاب السادس

الدكتور محمد التيجاني السماوي

فسيروا في الأرض فانظروا

مكتبة الفقيه
الكويت - السالمية

دار المحجة البيضاء
بيروت - لبنان



فسيروا في الأرض
فانظروا



١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م
الطبعة الثانية

طبع بإذن خاص من المؤلف



E-mail: alfaqeeh5@hotmail.com

الكويت - السالمية - شارع أبوهريرة (متفرع من شارع عمان) مقابل مدرسة سالم الحسينان
تلفون: ٥٦١٣٩١٣ - فاكس: ٥٦١٤١٨٧ - ص.ب: ٣٠٥٢ - السالمية، الرمز البريدي: 22031 الكويت

الكتاب السادس



تأليف:

الدكتور محمد التيجاني السماوي

دكتوراه فلسفة من جامعة السوربون - باريس

دار المحجة البيضاء
بيروت - لبنان

مكتبة الفقيه
الكويت - السالمية

المقـــدمة

الحمد للّه ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرســـلين سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله الطيّبين الطّاهرين الذين جعلهم اللّه سبحانه قـدوة العالمين وسفينة النّجاة لمن ركبها من المسلمين.

ورضي اللّه عن صحابته الميامين الذين اتبعوهم ولم يغيّروا بعـــد نبيّـــهم وثبتوا على العهد وكانوا من الشّاكرين، والتّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدّين.

وسحقا وبعدا لأعدائهم الذين باعوا دينهم بدنياهم وكانوا لهم من المعـــاندين فأبعدوهم وقاتلوهم بغية هدم أركان الدّين فلعنة اللّـــه الدّائمـــة عليـــهم وعلـــى أنصارهم وكلّ من أعانهم من الأولّين والآخرين حتّى يقوم النّاس لربّ العالمين.

اللّهم إنّا ندعوك ونتوسّل إليك بحبيبك محمّد وخيرتك مـــن خلقـــك وبآلـــه الطّاهرين أن تفتح قلوب المؤمنين الصّادقين وتعينهم على إدراك الحقيقة بفضلـك ومنك يا ذا المنّ ولا يمنّ عليك، فقد قلت في كتابك العزيز وقولك الحق:

﴿**يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم، بل اللّه يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾ الحجرات 17.

اللّهم فاهد قلوب الباحثين والأبرياء من المسلمين الذين تاهوا في متاهـــات المزيّفين الذين ألبسوا الحقّ بالباطل وكانوا عونا للشّياطين إنّك تهدي من تشـــاء إلى صراط مستقيم..

أمّا بعد، فإنّي أقدّم لقرّائي الأعزّاء هذا الكتاب الذي أسميته "فســيروا فـــي الأرض فانظروا..." وهو عبارة عن مذكّرات جمعتها طيلة ثلاثين عامـــا فيـــها الخير والشر، فيها الحلو والمرّ، فيها البرد والحرّ، فيها الكرّ والفرّ وفيها الأخـــذ والعطاء، فيها اليأس والرّجاء فيها الخوف والجبن وفيها الجرأة والشّجاعة فيـــها

الأخبار والأسرار, فيها الضّحك والبكاء، فيها الشدّة والرّخاء، إنّها المغامرات التي دخل فيها رجل باع دنياه بأخراه لمّا عرف الحقّ واكتشف الباطل وأزاح قناع الخداع والتّزييف فحماه اللّه تعالى من كيد الكائدين وحفظه من شرّ الحاسدين ونصره في ميدان الصرّاع تجاه المعاندين من النّواصب والضّالين.

أقدّم للقرّاء الكرام ولكلّ الأحرار هذه الرّحلات العمليّة، كما وقعت بدون زيادة ولا نقصان وسيجدون فيها مفاجآت ومسامرات لا تخلو من المأساة كما لا تهمل بعض التّحديّات وقد حاولت الاختصار الشّديد مراعاة لظروف القرّاء الكرام دون تفريط فيما هو واجب ذكره ودون تفويت لما هو واجب تركه وقسّمت الكتاب إلى جزأين تناولت في الأوّل رحلاتي في البلدان العربيّة وفي الجزء الثّاني رحلاتي في البلدان الإسلاميّة والغربيّة، علماً بأن كلّ البلدان التي ذكرتها في رحلاتي زرتها أكثر من مرّة وقد تتعدّد الزّيارات إلى بعضها بالعشرات كالعراق وإيران ولندن والحجاز وسوريا ولبنان وأمريكا وتركيا والأردن ومصر. أمّا السّنغال والسّيراليون وموريتانيا وتنزانيا والسّودان، وكذلك إيطاليا وسويسرا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وبلجيكا وإيرلندا وألمانيا والنّمسا وبلغاريا ويوغسلافيا وسكوتلاندا، ودول الشّمال كالنروج والدّنمارك وفنلندا وكندا وروسيا وبعض دول الخليج ، فقد زرت كلّ هذه الدّول مرات عديدة وألقيت فيها المحاضرات ودارت لي فيها المحاورات والمناقشات ولي فيها بعض الذّكريات.

ولكنّها في معظمها لا تستحقّ التّدوين، لأنّها قد تشبه أو تقارب ما وقع لي في الدّول المذكورة، وقد رمت الاختصار وذكر ما هو مفيد للقرّاء الذين يتوخون الصّدق في القول والإخلاص في العمل وأسأل اللّه سبحانه أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم وأن يوفّقنا جميعا لمرضاته، وأن يعيننا على توحيد الكلمة ووحدة العقيدة لنكون خير أمّة أخرجت للنّاس كما أرادها اللّه تعالى ولا نكون أمّة متفرّقة مختلفة منحرفة كما أرادها الشّيطان الملعون.

أمر اللّه عباده بالمسير في الأرض لينظروا عاقبة الذين من قبلهم، وليتعرّفوا على بعضهم؛ كما أمرهم بالنّفور ليتفقّهوا في الدّين ويُنذروا قومهم إذا رجعوا؛ ففي الأسفار رحمة وشفاء ومعرفة وعلم؛ أوليست الحياة كلّها سفر إلى

الفناء ثمّ انتقال إلى الحياة الأبديّة. إنّ اللّه سبحانه يأمُرنا أن لا نُنهي سفرتنا إلاّ بالاستبصار إلى الحقّ، ولاحقّ إلاّ بمحمّد وآله الطّاهرين فاعتبروا يا أُولي الألباب.

بسم اللّه الرحمان الرّحيم: **﴿ يا أيّها الذين آمنوا إتّقوا اللّه حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ۞ واعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرّقوا واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها كذلك يبيّن اللّه لكم آياته لعلّكم تهتدون ۞ ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون۞ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾** آل عمران101-105 .

وتصديقا للرّحمن وتكذيبا للشّيطان فإنّا نتضرّع إلى اللّه سبحانه أن يجعلنا من المتّقين ولا يميتنا إلاّ ونحن مسلمون وأن يؤلّف بين قلوبنا ويجعلنا من المهتدين المعتصمين بحبله المتين ولا يجعلنا من المتفرّقين والمختلفين بحقّ محمّد وآله الطّاهرين صلوات اللّه عليهم أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

الفقير لرحمة ربّه محمّد التّيجاني السّماوي

الرحلة المصرية
مصر

مساحتها: **1.000.000** كلم مربّع

عدد سكانها: **65** مليون ساكن

موقعها الجغرافي: شرق أفريقيا

عاصمتها: القاهرة

حدودها من الغرب: ليبيا

ومن الشرق: البحر الأحمر والأردن

ومن الشمال: البحر الأبيض المتوسّط

ومن الجنوب: السّودان

الـــرّحلــة المصرية

في سبيل توحيد المسلمين والعمل على جمع كلمتهم وقطع دابـــر الخـــلاف بينهم عملت الجمهورية الإسلامية في إيران عدة أعمال جليلة من بينـــها إقامــة مؤتمرات في مناسبات مختلفة وبأسماء مختلفة كمؤتمر أئمّة الجمعة والجماعـــة ومؤتمر رجال الفكر الإسلامي ومؤتمر التقريب بين المذاهـــب ومؤتمـــر نـــهج البلاغة ومؤتمر الوحدة الإسلامية الذي اختير له مناسبة المولد النبوي الشـــريف باعتبار أن تاريخ مولد النبي صلى الله عليه وآله عند السنّة هو **12** ربيـــع الأول وعند الشيّعة هو**17** ربيع الأول فسمي ذلك الأسبوع كله أسبوع الوحدة ورصدت له الجمهورية الإسلامية إمكانيات ضخمة مادّية وبشرية ودعت له الشـــخصيات الإسلامية من كل أنحاء العالم وأغلبهم مـــن رجـــال الســـنّة والجماعـــة ليلقـــوا المحاضرات والمقالات ويحضروا النّدوات والمداولات والمناقشـــات ويتبـــادلوا الأفكار والنظريات وقد حضرتُ شخصيّا في هذه المناسبة أربع مرّات وأدركـــت ما لهذا المؤتمر من أبعاد وفوائد كبيرة قد لا تصل إلى الهدف المنشـــود وهـــو وحدة المسلمين جميعا ولكنّها عرّفت كثيرًا من النّاس وبالخصوص العلماء منـــهم والمفكّرين بحقائق أهل البيت المطموسة عبر القرون وبالتّـــالي تعرّفـــوا علـــى إخوانهم من الشّيعة وزالت كثير من الشبهات والأباطيل وقَرّبَتْ وُجهات النّظـــر التي كانت متباينة.

ولمّا كان الإعداد للمؤتمر الخامس للوحدة الإسلامية في سنة **1985** وكنـــت من بين اللّجنة المكلّفة، فكّرنا في دعوة شخصيات علمية من مصر تكون رفيعـــة المستوى ولها وزنها على السّاحة الإسلامية وذكرنا من بين هؤلاء الشيخ عبـــد الباسط عبد الصّمد والشيخ عبد الحميد كشك والدكتور خالد محمد خالد والدكتـــور محمد عمارة والدكتور جمال البنّا والشيخ سعيد رمضان والصحفيّـــة المشـــهورة إسلاميا صفيناز كاظم، ولمّا كانت العلاقات بين إيران ومصـــر مقطوعـــة ولا يمكن الإتصال بهؤلاء إلاّ عن طريق شخص يوصل الدّعوات بيده ولمّـــا كنـــت شخصيا أعرف جُلّ الشخصيات المذكورة ولي بهم علاقات قديمة ذكرت بعضـــها

في كتابي الأول "ثم اهتديت" ووجدت نفسي من بين الحاضرين الوحيد الذي يعرف مصر وقد سافرت إليها مرات في ما مضى ولي بها أصدقاء كثيرون، تطوّعت أن أقوم بهذه المهمّة التي بدت سهلة ميسورة بالنّسبة لي فكتبت الدعوات رسميّا باسم الأشخاص المذكورين وقطعت تذكرة السفر من باريس إلى القاهرة ذهابا وإيابا كما تسلمت أربعة آلاف دولار لشراء تذاكر السفر للمدعوين من القاهرة إلى إيران.

وتوكّلت على الله قبل موعد المؤتمر بنصف شهر متّجها إلى القاهرة عبر الخطوط الجوية المصرية. وفي الطائرة وُزّعت الصّحف اليومية المصرية وكان نصيبي جريدة الأهرام، نشرتْ الصّحيفة لأقرأ عنوانا كبيرا كتب على الصفحة الأولى بالأحمر "إيران تدّرب مجموعة من التونسيين على الإرهاب" فقلت: يا فتّاح يا رزّاق اللهم اجعل عاقبتها خيراً.

عند وصول الطائرة إلى المطار الدولي بالقاهرة تقدّمنا كما هو معروف إلى شرطة المطار بالجوازات وخرج النّاس كافّة إلا أنا بقيت أنتظر أكثر من ساعة، بعدها جيء إليّ بالجواز وقيل لي تفضّل، أهلا وسهلا بالدكتور.

خرجتُ من المطار وركبت سيّارة أجرة أوصلتني إلى باب اللّوق حيث أعرف ذلك المكان ولي به بعض المعارف والأصدقاء. استأجرت غرفة في فندق شعبي وخرجت لأغيّر العملة وأتصل ببعض أصدقائي، فوجئت بأن أحدهم قد أدركته المنيّة خلال السنوات العشر التي غبتها عن مصر والحمد لله أن بقية المكالمات الهاتفية إيجابية.

تكلّمتُ مع الشيخ عبد الباسط عبد الصمد وعرفني بالتلفون وألح عليَّ أن ألتحق به فورا ليراني وفرحت بدعوته وعلى جناح السرعة انتقلت إلى بيته حيث استقبلني بحفاوة بالغة ومعه ولديه الحسن والحسين وأحد الفضلاء من علماء الأزهر المعمّمين، وتجاذبنا أطراف الحديث وتذاكرنا الأيام الخالية. واغتنمت الفرصة لأقول له : يا شيخ : جئتك بدعوة لحضور مؤتمر الوحدة في طهران لتفتتح المؤتمر بتلاوة مباركة بصوتك الخالد ولك ما تطلب وكل شيء خالص، فضحك من قولي قائلا : أنت تريد قطع رأسي!؟

قلت : ولماذا ؟ أجاب : لا يا عزيزي أنا لا أخاطر بنفسي وأروح لإيران. حاولت إقناعه بأنه مؤتمر إسلامي لوحدة المسلمين لا علاقة له بالسياسة، وأفهمني بأنه لا يمكن أن يغامر مثل هذه المغامرة الخطيرة.

وأحسست بخيبة الأمل في أوّل يوم وصلت فيه القاهرة وهذا الشيخ عبد الباسط الذي كنت أعتقد أنه رجل القرآن ولا علاقة له بما يجري هنا وهناك من مشاكل سياسية يرفض المشاركة حتى بتلاوة القرآن في مؤتمر يدعو لتوحيد المسلمين فكيف بالأشخاص الآخرين الذين يشتغلون بالسياسة؟

اعتذرت بعد انتهائي من شرب "عصير المنغو" وودعته للانصراف، فسألني: هل جئت إلى القاهرة من أجل دعوتي لإيران؟ قلت نعم وكذلك دعوة أشخاص آخرين !قال : هل رأيت بعضهم؟ قلت أنت أول من قابلتُ وأتمنّى أن لا يكون الآخرون بموقفك.

قال : أنا وأنت أصدقاء من زمان قبل إيران وأنا لابدّ أن أدعوك غدا للغداء، حاولت الاعتذار فلم يقبل وقبلت على مضض شاكرا له دعوته واتّفقنا على الغد في الساعة الواحة بعد الزوال في هذا المكان.

قضيت بقيّة اليوم في الاتصالات بمعارفي هاتفيّا وعرف البعض منهم مكان إقامتي ووعدني بعضهم بالزيارة القريبة.

الشيخ عبد الباسط عبد الصمد

ومن الغد وحسب الموعد توجهت إلى بيت الشيخ عبد الباسط. وهناك وجدت شيخا أزهريّا معمّما ومحلوق الذقن يتحدّث مع عبد الباسط وولديه الحسن والحسين وفرح الجميع بقدومي على الوقت الموعود ودعانا الشيخ عبد الباسط للخروج في سيارته الخاصة فقلت إلى أين؟ قال : حيث ينتظرنا الغداء.

وكان الحسن يسوق السيارة وبجانبه الشيخ الأزهري بينما ركبت أنا بين الشيخ عبد الباسط وابنه الحسين في المقعد الخلفي.

وصلنا بعد فترة إلى الزّمالك حيث نزلنا أفخم المطاعم هناك وبمجرد دخولنا تغيّر الغناء إلى ترتيل القرآن بصوت عبد الباسط واستقبلنا في المدخل رجلان وسلّما علينا سلاما حارا وقدمني إليهما عبد الباسط ثم عرّفني على أحدهما قائلا بأنه رئيس بلدية القاهرة وقد حضر معنا لتناول الغداء على شرفك.

فرحت كثيرا بهذه الحفاوة المتزايدة وجلسنا على طاولة فخمة هُيئت قبل مجيئنا فكنت دائما متوسّطاً عبد الباسط وابنه الحسين بينما جلس الحسن مقابل أخيه وجلس العالم الأزهري مقابلي وجلس رئيس بلدية القاهرة مقابل الشيخ عبد الباسط.

وبدأت أطباق اللّحوم المشوية والأكلات الشهيّة تتوالى وشرعنا في الغداء وإذا برئيس البلدية يسألني عن "جاك شيراك" وهو رئيس بلدية باريس في ذلك الوقت، فأجبته بأن لا علاقة لي به وإنما أنا دكتور متخرج من السربون من قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية والمقارنة بين الأديان فإذا كان يهمك شيء من ذلك فأنا مستعد لأي سؤال!.

وقاطعني العالم الأزهري ليقول له: اسألني أنا عن "جاك شيراك" وعن كلّ فرنسا فأنا حديث العهد بها وقد زرت باريس في المدّة الأخيرة وهناك رأيت العجب العجاب وقد تعرّفتُ على امرأة فرنسية اعتنقت الإسلام هي وابنتها

وعشت معهما أحلى الأيام وكانتا تسألانني عن الخميني فحذّرتهما وقلت لهما إنّه كافر ولا يعرف الإسلام

واستفزّني بكلماته الأخيرة ووقفت اللّقمةُ في حلقي وكذّبت أذنيّ في ما سمعت، فقلت له: أعد ما قلت!

فأعادها صريحة وزاد عليها، فاندفعت أقول يا سبحان اللّه إذا كان الإسلام يتجسد اليوم في شخص فلن يجدَ أفضل من الإمام الخميني، فكيف تكفّره يا شيخ وتقول بأنه لا يعرف الإسلام؟

قال: أولا إنهم شيعة والشّيعة أبعد ما يكونون عن الإسلام.

ثانيا إنه مجرم سفّاح قتل أبناء الثورة الذين أوصلوه إلى الحكم.

قلت: أمّا أنهم شيعة والشيعة بعيدون عن الإسلام فيجب عليك تصحيح معلوماتك يا شيخ فأين أنت من فتوى العالم الكبير شيخ الأزهر محمود شلتوت الذي أجاز التعبّد بمذهب الشّيعة على أنهم مسلمون كبقية المذاهب الأخرى وهذا قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران بعشرات السّنين، أما بعد قيام الثورة الإسلامية فقد عرف الخاص والعام بعد اتصالهم بالشّيعة في إيران وفي غير إيران بأنّ ما يقال عن الشّيعة هو محض كذب وافتراء وما وجودي أنا بينكم إلا لهذا الغرض فقد جئت لدعوة الشيخ عبد الباسط وبعض العلماء لحضور المؤتمر الإسلامي للوحدة الإسلامية لكي يتعرّفوا من قريب على الشّيعة ومذهب أهل البيت الذي يتّبعونه فتزول بذلك الدّعايات والإشاعات الكاذبة.

أمّا قولك بأن الإمام الخميني مجرد سفّاح قتل أبناء الثورة الذين أوصلوه إلى الحكم، فهي إشاعات باطلة تبثّها دوائر معادية للإسلام والمسلمين وإلاّ فالخميني لم يقتل ذبابة واحدة وهو بعيد عن الحكم ولم يقبله أبدا وإنما جلس في بيت صهره زاهدا في الدنيا أكْلُه خبز ولبن ولباسه كلّه في صرّة يتكّىء عليها.

ضحك الشيخ من قولي مستنكرا عليّ وهو يقول:

يا بني أنت لا تعرف الخميني إنه هو الحاكم في إيران ولا يقع شيء إلاّ بإذنه وأوامره، ألم تسمع بالإعدامات التي نقلتها كل وكالات الأنباء العالمية وقد ذهب ضحيّتها كل أبناء الثورة.

قلت بلا تردّد أنت الذي لا تعرف الخميني وإنما تسمع عنه ما يعجبك سماعه، أما أنا فأعرفه غاية المعرفة وقد جالسته ثلاث مرّات في "نوفل لوشاتو" بفرنسا وفي قم بعد عودته إلى إيران وتكلمت معه. أمّا بخصوص الإعدامات التي تذكرها فهي صادرة عن محكمة شرعية إسلامية أدانت كلّ المنافقين الذين قتلوا الأبرياء في المساجد كما قتلوا رئيس الجمهورية محمد علي رجائي ورئيس الوزراء بهنار وكل أعضاء الحكومة الإسلامية وعددهم 72 وزيرا أتريد بعد هذا أن يعفو عنهم الإمام الخميني؟

قال :الذي أعرفه أنّه لا يجوز قتل المسلمين!

قلت : يا سبحان الله منذ قليل كنت تقول أن الشيعة غير مسلمين.

ولكن بما أنك تريد إدانة الإمام الخميني فأنت في المقابل تدافع عن المجرمين والمنافقين الذين يحاربون الإسلام والمسلمين ويريدون إسقاط الجمهورية الإسلامية بأي ثمن، فاتّق اللّه يا شيخ في عباده الصّالحين، وإذا كنت تدين الإمام الخميني لقتله المجرمين فلماذا لا تدين أبا بكر الصدّيق الذي قتل المسلمين من أجل منع الزكاة فقط؟

فصاح قائلاً: أتمثّل أبا بكر الصدّيق بهذا الخنزير؟

فأخذني الغضب وقلت: إن الذي تسمّيه أنت بالخنزير هو أفضل من أبي بكر الصدّيق.

فقال على الفور: أنت شيعي إذا تبغض سيدنا أبا بكر الصدّيق؟

فقلت : دعك من هذا وناقشني في موضوع قتال المسلمين إن كنت تعرف التاريخ، وكيف تعرفه وأنت تجهل أبسط الأمور التي عرفها النّاس كافة فلم تعرف حتى فتوى الشيخ شلتوت التي صدرت في الأزهر ورغم أنك من علماء الأزهر لكنّك ما سمعت بها.

فقال : الشيخ شلتوت لا يعبّر إلا عن رأيه وقد كفّره جماعة من علمائنا.

قلت : فالحمد لله إذا فتكفيركم للإمام الخميني هو على قياس تكفيركم للشيخ شلتوت إمام الأزهر في زمانه وهذا ليس عليكم بغريب فالشيء من مأتاه لا يستغرب.

بعد كل هذه المحاورة الحادّة التي دامت أكثر من ساعة تقريبا استيقظت فجأة وكأنني كنت في سبات عميق لأرى بأنّي ورّطتُ نفسي في مواضيع خطيرة أنا في غنى عنها ولأرى رئيس بلدية القاهرة المزعوم لا ينبس ببنت شفة وهو يحدّق فيّ تارة وفي عبد الباسط أخرى.

وقلت في نفسي: يا تيجاني لقد ورطت نفسك في مشاكل مع أُناس لا تعرفهم، وشككت بالمسرحية والسيناريو والفخ الذي نصب لي لكي أكشف عن هويتي والمهمّة التي جئت من أجلها. لماذا لم يتكلم أحد من الحاضرين ولم يشارك بالمناقشة؟ لماذا كانت كلمات الشيخ الأزهري كلّها استفزازية وموجهة إليّ بالذات، لماذا كنت أنا المتكلم الوحيد؟ كل هذه الأسئلة جالت بخاطري والجواب عليها كان واضحا لا يتطلب مزيدا من التوضيح، وتبين لي أن رئيس بلدية القاهرة المزعوم ليس غير ضابط في المخابرات المصريّة، ومَنْ غيرُه سيغطّي شطر وجهه خلف نظّارات سوداء لا تظهر من ملامحه إلاّ ما خرج عنها.

ووجدت نفسي متحرّجا منقبضا ألعن المناسبة التي جمعتني بهؤلاء العصابة التي ظاهرها الولاء والمحبّة وباطنها خداع واحتيال، والتفتُ إلى جانبي قائلا لعبد الباسط بعدما ألقيتُ نظرة استعجالية على ساعتي: يا شيخ أعتذر لك للإنسحاب فورا لأني واعدت صديقا لي في الثالثة بالضبّط أمام بيتك لأنني كنت أظنّ أن الغداء سيكون هناك وبما أني أحافظ على المواعيد أطلب منك أن توصلني هناك قبل فوات الأوان.

التفت الشيخ إلى ابنه الذي كان في مواجهتي قائلا: أوصله يا حسن وعد إلينا بسرعة.

ودّعت الجميع وخرجت مسرعا وأنا أعلم أن المسافة من الزمالك إلى بيت الشيخ تستغرق نصف ساعة في أحسن الظروف وكنت طيلة هذه المسافة أتحدّث إلى مرافقي عن إيران والخميني والجمهورية الإسلامية وأن الله سبحانه وتعالى عوّض المسلمين بإيران بعدما خرجت مصر عن الصف العربي وصالحت إسرائيل وقاطعتها كلّ الدّول العربية وكيف أثر الإعلام الصهيوني على

المصريين فأصبحوا يخافون من الجمهورية الإسلامية ويأمنون جانب إسـرائيل؛ كل هذا وهو يسمع ولا يتكلّم بكلمة واحدة كأنه أبكم.

أوصلني إلى جانب البيت أنزلني ورجع بعدما سلّم على صديقي عبده الذي كان ينتظرني هنالك. فرح عبده بلقائي فرحا شديدا وبادلته نفس الشعور وأكثر فقد تغيّر هذا الشاب الذي عرفته من عشر سنين يوم نزلت ضيفا عندهم في البيت بحلوان الحمّامات، وأعلمني بأنه تزوج وأنّ والدته التي تحبّني كثيرا بعثته ليأخذني معه إلى البيت، وحاولت جهدي الامتناع ولكنه أصرّ إصرارا كثيرا وذهب بصحبتي إلى الفندق؛ هناك جمع كل أدباشي في الحقيبة وحملها بنفسه فتبعته طائعا وكلّي شوق للقاء تلك الأسرة الكريمة التي عرفتها يوم صاحبت السيّد عبد الحميد خاطر من ليبيا إلى مصر ونزلت عنده ضيفا وتعرفت على كل أفراد عائلته وكنت أصحب في جولاتي الشاب عبده طيلة إقامتي في مصر، ثم رجعت إلى مصر مرّة أخرى وفاجأت عائلة خاطر بزيارة غير موعودة وبقيت معهم في بيتهم الجديد أكثر من أسبوع، وها أنا الآن أدخل عليهم وهم في انتظاري وعرفت الجميع بما في ذلك زوجة عبده وسهرنا سهرة تاريخية حتى الصّباح كانت أم عبده تلومني بين الحين والآخر مداعبة، كيف أنزل في "اللّوكندة" وعندي في مصر أهل وحبايب ثم عرّفني عبده بابن خالته الشاب طه الذي قدم منذ أيام من النّمسا حيث أكمل دراسته وهو يُجهّز نفسه للخطوبة وإعداد بيت الزوجية، وعرفت فيه الرّصانة والهدوء مع سعة ثقافة واطلاع على مجريات الأمور، وتعرفت من خلال عبده وطه على نخبة من الشباب المثقف الذين تعوّدوا على المجيء إلينا والسّهر معنا إلى منتصف اللّيل، كنت أغتنم كل فرصة يسمح بها المقام لأثير معهم قضية المذاهب الإسلامية ومشكلة السّنة والشّيعة وكانت المناقشات بين كرّ وفرّ وإقبال وإدبار، كنّا نتفاعل مع الأحداث فنغضب أحيانا ونضحك أخرى، وأحسست بأني أثّرتُ بكلامي في أغلبهم وبالخصوص طه الذي بدأ يتبعني في كل تجوالي لأنه ليس له شغل وهو في انتظار الانتداب للوظيفة الجديدة فكان يأتي كل صباح إلى بيت عبده حيث نفطر مع العائلة ثم أخرج وإياه من حلوان مُتّجهين إلى القاهرة التي تبعد مسافة 30 كلم وصادف ذات يوم أن دخلنا إلى مسجد سيدنا الحسين لأداء صلاة الظهر وما

أنهيتُ الصلاة ورفعت رأسي أقرأ الكتابات والنقوش الدائرة على جدران المسجد حتّى شدّني حديث الثقلين المكتوب قرب المحراب وفيه إضاءة كهربائية، ناديت طه وطلبت منه قراءة الحديث قرأ :"إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي أبدا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي" فصاح يقول : مش معقول أنت يا تيجاني جئت بهذا الحديث وعلقته هنا.

وزادني استغراب طه فرحاً وسروراً لأنه طالما جادلني في مضمون هذا الحديث وأنكر أن يقول الرّسول كتاب الله وعترتي بل كان دائما يردّد "كتاب الله وسنتي" وادّعى أنه ما سمع طيلة عمره أحدا يحدث بحديث "كتاب الله وعترتي."

أخرجته من المسجد ثم اتجهت به إلى الأزهر الشريف حيث كان هناك معرض للكتاب، قلت له، يا طه إتق الله ولا تتكبّر فأنا ما جئت بشيء من عندي وإن كان الحديث المكتوب في المسجد قد علقته أنا في هذه الأيام، فما هو ردّك على صحيح مسلم الذي بين يديك الآن وهو يباع في معرض الكتاب وهو من أقدم الكتب الإسلامية؟

قال : وهل فيه حديث عترتي؟

فتحت له باب فضائل أهل البيت، وأطلعته على الحديث، فقرأه مرّتين أو ثلاثا، فسكت طويلا وكأنه يفكّر مصفرّا وجهه وكأنه يعيد أنفاسه، قلت : هذا غيض من فيض فلو أردت سأطلعك على عشرات الأحاديث التي تؤيّد هذا المعنى وكلّها من صحاح السّنة؛ قال بصوت خافت : الآن تشيعتُ واقتنعت بكلّ أقوالك في حقّ أهل البيت عليهم السّلام..

وعمل طه في السّهرات المتتالية على إقناع من تبقّى من المجموعة وكان يُؤيّدُ كل ما أقول بالشواهد والأدلّة ويتحمّس لها، فتشيّع بقية الشبان وعددهم ثمانية.

خالد محمد خالد

أطلعت الأخ طه على برنامج زيارتي للقاهرة وطلبت منه مصاحبتي لأولئك الشخصيات الذين أحمل لهم دعوة المؤتمر باعتباره من أهل البلد ويعرف العناوين أكثر منّي.

كان موعدنا في القاهرة لزيارة الدكتور خالد محمد خالد الكاتب الشهير في مكتبه وبعد وصولنا أعلمتنا السكرتيرة بأنها في انتظارنا من نصف ساعة فاعتذرنا عن التأخير لسبب المواصلات المزدحمة في شوارع القاهرة، قالت: انتظرا قليلا لأن مع حضرة الدكتور بعض الضيوف!

انتظرنا قليلا وفُتح الباب لاستقبالنا فلم يكن هناك ضيوف كما ادعت السكرتيرة، ورحّب بنا شاب في الثلاثين من عمره وقدّم نفسه بأنه الدكتور أسامة ابن الدكتور خالد محمد خالد قائلا : أعتذر عن أبي لأنه مريض وقد سافر إلى النمسا لإجراء فحوص طبية هناك، فتفضّلوا ماذا عندكم؟

قلت: نأسف جدّا لمرض السيد الوالد حفظه اللّه وأطال عمره وكنت أودّ مقابلته شخصيّا لتسليمه دعوة رسميّة لحضور المؤتمر الإسلامي في إيران فمتى تتوقع عودته إن شاء اللّه.

قال: ليس قبل شهر، ولكن أعطني الدّعوة وكن مطمئنا بأنها ستصل إليه!
قلت: لا فائدة لأن موعد المؤتمر سيكون بعد عشرة أيام والوالد سيكون في هذه الفترة رهين العلاج، فلنتركها لفرصة أخرى إن شاء اللّه.

وحاول الدكتور أسامة بكلّ جهوده أن يحبسنا في مكتبه أكثر وقت ممكن لانتظار العصير الذي طلبه لنا هاتفياً؛ وحاول أيضا معرفة تفاصيل المهمّة ومن يقوم على المؤتمر، وأمطرني بأسئلة محرجة أجبت على بعضها باقتضاب ثم اعتذرت وغادرت المكتب وكأني خرجت من مكتب التحقيق

وفي الطريق لم يُخفْني طه شُكوكه في الدكتور أسامة مؤكّدا بأنه سمع عند دخولنا تشغيل آلة تسجيل مضيفا بأن السكرتيرة أوهمتنا بأنه مشغول مع الضيوف في حين أنه كان يعدّ آلة التسجيل، ليسجّل علينا الحديث!

قلت: لا يهمّك نحن لم نقل ولم نعمل شيئا نخافه، وإذا كانت دعوة الكتّاب والمفكّرين لحضور مؤتمر الوحدة يُعدّ جريمة فعلى الدنيا السلام. قال: كلامك صحيح ولكن الحكومات تخاف من كل شيء اسمه إسلام وبالخصوص من إيران.

قلت: إيران في عهد الشاه المقبور كانت صديقة الجميع والكلّ يخطب ودّها ولكن إيران في عهد الإمام الخميني الذي رفع راية الإسلام وأسّس الجمهورية الإسلامية أصبحت عدوة للجميع والكلّ يقطع علاقته بها.

قال طه: الأمر واضح لأن الشاه كان حليفا لأمريكا. أما الخميني فهو العدو اللدّود لأمريكا وقد سمّاها الشيطان الأكبر ومرّغ وجهها في التراب فالمسلمون والعرب كلّهم تسوقهم العصا الأمريكية وتوجههم حيث تريد.

ارتحت كثيرا لسماع مثل هذه العبارات وحمدت الله سبحانه أن جعل في النّاس من يفهم الأمور على حقيقتها ويزن الأمور بموازينها فيعطي كل ذي حقّ حقّه ولا يبخس النّاس أشياءهم.

الدكتور محمد عمارة

خرجت صباحاً بصحبة الأخ طه متوجّها إلى بيت الدكتور محمد عمارة الكاتب المشهور في الشؤون الإسلامية. والدكتور يسكن بعيدا عن القاهرة في ضواحيها.

استقبلنا الدكتور بالتّرحاب وهو يعلم مسبّقا بأنّ الذي كلّمه في التلفون هو دكتور تونسي مقيم في باريس وقدم إلى القاهرة من أجل لقائه والتّحدث معه.

وبعد الترحيب وتناول بعض الفواكه المعدّة، عرف الدكتور محمد عمارة بأنّ مرافقي مصري وأن أخواله معروفين وقد سأله عن بعضهم وعرفت أنا من خلال الحديث أن لطه خال من علماء الأزهر وخال ثان يشتغل في المباحث الأمنية وثالث من المقاولين الكبار. وقلت لطه ممازحا : ما شاء اللّه أنت من عائلة علميّة وأمنيَة وبورجوازية، فقال: ولكنّي أنا حتى الآن لم أجد عملا وقد طال انتظاري منذ رجوعي من النّمسا.

قال الدكتور محمد عمارة لطه: بالمناسبة كيف المعيشة في النّمسا؟ فأخبره طه ببعض الأمور الحياتية هناك، واغتنمت الفرصة فقلت لقد جاءتك المناسبة يا دكتور لتزور النّمسا وتتعرف عليها من قريب قال: ليه هو أنت نمساوي؟ قلت: لا أنا تونسي مقيم في باريس وجئتك بدعوة شخصية لتشارك في مؤتمر الوحدة بطهران، ولكن الطريق سيكون عبر النّمسا فإذا حصلت على التأشيرة للنمسا فستكون التذكرة من القاهرة إلى فيينّا ومنها إلى طهران وبإمكانك النّزول في العاصمة النمساوية إمّا في الذهاب أو في الرجوع.

قال مبتهجا مسروراً: ومتى يعقد المؤتمر إن شاء اللّه؟

قلت بعد تسعة أيام ولمدة أسبوع بمناسبة المولد النبوي الشريف ولكن بإمكانك أن تبقى بعد المؤتمر في إيران كما تشاء في ضيافة الجمهورية الإسلامية.

فقال متأسفاً: يا خسارة يا خسارة، لو جئتني قبل يومين لما تردّدتُ لحظة واحدة، ولكن اليوم فات الأوان.

استغربت لهذا التعليل متسائلا عن السبب المانع. فقال: بدأتْ عطلتي السنوية منذ أسبوع وأنا قاسم مع زوجتي قسمة عادلة فمرّة نقضي العطلة عند أهلي ومرّة نقضّيها عند أهلها بعيدين عن القاهرة وضجيجها ومنذ يومين ونحن نجمع لوازم السفر لكي نسافر غدا أن شاء اللّه عند أهل زوجتي وهم في انتظارنا لأنّا أعلمناهم بقدومنا، فلو جئت قبل يومين لألغيت كلّ شيء ولكن اليوم أصبح الأمر مستحيلا!

قلت: سبحان اللّه ولا قوة إلاّ باللّه مضى أسبوع كامل وأنا بالقاهرة أبحث عن عنوانك ورقم تلفونك ولم يسعفني الحظ إلا بالأمس، ولولا أن استنجد طه بخاله في الجامع الأزهر لما عرفنا عنوانك ولا رقم تلفونك.

قال: وما تشاؤون إلاّ أن يشاء اللّه، وعلى كل حال أنا متشكّر لك وللجمهورية الإسلامية التي فكّرت فينا ودعتنا وسوف نلبّي الدعوة كلّما سمحت لنا الظروف، فأنا في أشد الشوق للتعرف على إيران وعلى علمائها الأفاضل، وقد كتبت كتابا عن الإمام الخميني هذا الرجل العظيم الذي هزّ العالم بثورته الإسلامية.

قلت: يا ليتني أقرأ هذا الكتاب،قال: ستقرأه حالاً دخل إلى مكتبه وجاءني بنسخة من كتاب بعنوان "الفكر القائد في الثورة الإيرانية" وأهداني إياه.

تكلّمنا عن الإمام وعن الثورة وعن رجال الدين المصلحين عبر التاريخ، والحديث ذو شجون.

قال: حتّى جمال الدّين الأفغاني المصلح الكبير لم ينصفه التاريخ وأنا بصدد كتابة حياته كلّها وأعماله وتأثيره في العالم الإسلامي وقد كتبت الآن ثلاثة أجزاء، وأطلعني على بعضها ووعدني بإهدائي نسخة منها بعد الطّبع.

سلّمته بطاقتي الشخصيّة وشكرته على حسن استقباله وتأسفت مرّة أخرى لعدم تمكّنه من المشاركة في المؤتمر، وبادلني نفس الشعور. ثم ودّعناه أنا وطه

وخرجنا وخرج معنا إلى الشارع مودّعا وبقي واقفا معنا حتى استوقفنا سيارة أجرة وركبنا راجعين إلى القاهرة ومنها إلى حلوان الحمامات.

سهرنا كالعادة مع مجموعة الشباب وعند المغادرة أستأذن مني طه ليغيب عني ثلاثة أيام سيسافر خلالها إلى الإسكندرية لبعض مشاغله، أما عبده فكان يتمنى الخروج معي ويتحسّر إلاّ أنّ عمله لا يسمح له بذلك فكنت لا أراه إلاّ في الليل عند العشاء والسّهرة، وكانت والدته تتحسّر على غياب زوجها عبد الحميد الذي يشتغل في القطر اللّيبي وتتمنى أن يأتي خلال وجودي بينهم، وأعلمتني ذات يوم بأن زوجها كلّمهم عبر الهاتف في بيت الجيران وأعلمته بقدومي ففرح كثيراً وألحّ عليهم أن لا يتركوني أغادر البيت، كما أخبرتني بأنه سيعيد المكالمة في السهرة ليسلم عليّ.

وبالفعل فقد جاء بعض أطفال الجيران مسرعين ينادونني وتكلمت مع الصديق الوفي عبد الحميد ولا زالت كلماته ترنّ في أذنيّ قائلا : سيدي سواء أكنتُ حاضرا أو غائبا فالبيت بيتك وأنت في أعيننا وكلّنا خدّامك.

الشيخ عبد الحميد كشك

خرجت في الصباح التالي بمفردي وتوجهت عبر القطار إلى القاهرة. توجهت إلى المسجد الذي كان يؤمّه الشيخ عبد الحميد كشك الخطيب المشهور في كل الأقطار العربية والإسلامية بصراحته وجرأته إضافة إلى بلاغته وحسن إلقائه وله معجبُون في كل أنحاء العالم وأشرطته الصّوتية تباع كالخبز.

كنت أعرف المسجد من سفرتي الأولى لمصر ولكن لم تكن علاقتي بالشيخ عبد الحميد علاقة شخصية وإنما حضرت له بعض المحاضرات مع جملة المستمعين فهو مكفوف البصر ولا يمكن لعابر سبيل مثلي أن يتعرف عليه لمجرد الاستماع إليه.

سألت عنه داخل المسجد فقيل لي بأنه حبيس داره لا يخرج منها وحاولت معرفة الأسباب بدون جدوى وبعد جهد أعطاني أحد المصلّين عنوانه مكتوب على قطعة من الورق.

ولمّا قرأ سائق التاكسي العنوان وعرف بأني غريب سألني : أتريد زيارة الشيخ؟ قلت: أي شيخ؟ قال: الشيخ كشك!قلت : بلى.

قال: خذ حذرك لأنه تحت الرقابة ولا أحد يزوره: النّاس يخافون، وحتى محبّيه والمعجبين به تركوه.

قلت: أنا تونسي ولست مصري ولا علاقة لي بالسيّاسة، أوصلني سائق التاكسي إلى العنوان وأراني العمارة التي يسكنها الشيخ من بعيد وهو يقول : تجده في تلك العمارة في الطابق الثاني اسمه مكتوب على الباب، باللّه خذ حذرك، مع السلامة.

دخلت العمارة صعدت إلى الطوابق وأنا أتصفح الكتابات المعلقة على الأبواب حتى قرأت إسم الشيخ، طرقت بابه ففتحت زوجته قليلاً وكلّمتني من

وراء الباب بينما كان ولدان صغيران يحاولان الخروج ليتعرفا على الطـــارق، وبعدما عرّفت بنفسي وقلت أنا تونسي جئت لزيارة الشيخ.

قالت: الشيخ يكون جاهزاً لاستقبالك بعد نصف ساعة، نزلت أتجـول فـي الحي في انتظار الوقت ومررت بدكّان يبيع المواد الغذائية فخطر ببالي أن أعـود لبيت الشيخ بهديّة لأولئك الصبية الصغار الذين تظهر عليهم آثار البؤس والفقر.

اشتريت بعض الحلويّات للأطفال مع بعض الألعاب كما اشـتريت للشـيخ بعض العطورات.

استقبلني الشيخ بالأحضان يعانقني ويقبّلني وكأنه يعرفنـي مـن زمـان. وفهمت من خلال كلماته أنه لم ير زائراً منذ شهور وكأن قدومي إليه هوّن عليـه بعض المأساة والعزلة التي يعيشها داخل بيته.

شكرني على الهدايا ودعا لي بكلّ خير فاغرورقت عيناي بـالدّموع لمـا شاهدته داخل بيته من بساطة وفقر ظاهرين وتذكّرت ما رأيته في بيـت الشـيخ عبد الباسط عبد الصمد من الأثاث والصالونات المتعدّدة والمفروشات الوثـيرة، بينما جلست مع الشيخ عبد الحميد على منضدة خشبية مغطاة بقطعة مرقعة بعدة ألوان.

سألني، عرّفته بنفسي وأنني كملايين المسلمين المعجبين به ودعـوتُ لـه بطول العمر، لأنّ المسلمين في أشدّ الحاجة لأمثاله كما عرّفته بغاية قدومي إليـه والدعوة التي جئته بها من إيران، بكى عند سماعه هذا الكلام وقال مقسما:

"واللّه العظيم لو أعرف بأني أتمكّن من الذّهاب إلى إيـران لسـلّمت فـي زوجتي وأطفالي وما عدت إلى هنا أبداً".

فرحت عند سماع هذا الكلام وقلت ما المانع؟ !

قال: أنا لا أقدر على الخروج من بيتي ولا حتى الـنزول إلـى المسـجد المجاور وأنت تقول إيران مرّة واحدة؟ ! !

أفهمني الشيخ بأنه في سجن داخل بيته وأنه في عزلة تامة فحتى أصدقـاؤه ومعارفه لا يأتون إليه.

ودارت الهواجس في رأسي وتذكّرت الشيخ عبد الباسط وخوفه من زيارة إيران بينما الشيخ عبد الحميد كشك يقول : لو يتركوني لهاجرت إليها وسلّمت في عائلتي. وشتّان بين الموقفين، بين القادر المتمكن ولكنه يمتنع لمجرّد الدّعايات التي تثار ضدّ إيران وبين العاجز المكبّل الذي يتمنى إطلاق سراحه ليهرع إليها بالأحضان.

وشتان بين الرجلين في حياتهما الاجتماعية، هذا مقرئ للقرآن يعيش حياة الإمبراطور وهذا العالم المتبحر في شتى العلوم يعيش حياة الفقير المعدم، هذا حرّ طليق ينعم بالحياة، وهذا سجينٌ معزولٌ عن كل أسباب الحياة، إنه ظلم السياسة ورجالها.

حاورت الشيخ كشك في مسائل متعدّدة، فأشفى غليلي في كلّ موضوع، وكان كلامه ينزل على قلبي كالعسل.

سألته رأيه في الجمهورية الإسلامية الإيرانية. فاندفع يقول: إن اللّه سبحانه وتعالى استبدل مصر بإيران خرجت مصر من الصفّ العربي لتصافح إسرائيل وتقيم معها علاقات وديّة، لكن إيران خرجت من الحلف الأمريكي الإسرائيلي ودخلت في الصف العربي لنصرة الإسلام والمسلمين، ولذلك شنّت عليها الدول المعادية للإسلام والمسلمين هذه الحرب الظالمة بقيادة العميل صدّام.

قلت : سبحان اللّه أنت تسمي صدّام عميلاً بينما العرب مخدوعين به يسمّونه سيف العرب وبطل القادسية.

قال: إنهم جهلة أو عملاء، اللّه "يخرب بيتهم" ثم سألني: اللّه! أنت لم تسمع الشريط الذي سجلته بخصوص صدّام العميل وحربه الظّالمة؟ قلت : لم أسمعه بعد وسأسعى لشرائه والإستماع إليه إن شاء الله. استطرد يقول: لمّا كانت إيران في عهد الشاه إسرائيلية أمريكية كان صدّام وكل العرب يحترمونها ويخافون منها؛ والآن تحولت إيران ببركة هذا الرجل الصّالح إلى الإسلام ورفع الخميني كتاب الله وسنة رسوله،فقام صدّام وكل العرب من ورائه لحربها والقضاء عليها.

استغرق كلامه أكثر من نصف ساعة في إطراء الثورة المباركة وقائدها الإمام الخميني والدعاء له بطول العمر والنصر على أعداء الإسلام.

قلت للشيخ مستطلعا رأيه : إن إيران كلها شيعة فما رأيك؟ قال: كلّنا إسلام شيعة سنّة مش ده المهّم، المهّم أن يكون المسلمون يداً واحدة على أعدائهم.

قلت: سؤالي لا يتعلق بإيران والحرب العراقية، ولكن يتعلّق بالعقيدة، فهل تعتقد سماحتك سلامة عقيدة الشّيعة؟ قال: إمامنا الشافعي رضوان اللّه عليه يقول: إن كان حبّ آل محمّد من الرّفض فليشهد الثّقلان بأني أوّل رافضي، وأنا أقول مثله فما هي الشيعة؟ أليست هي حب آل النبي وأتّباعهم فأنا أحب آل البيت وأقتدي بهم فالمسلمون الذين يعملون بهذا كلّهم شيعة.

أخذ الشيخ يقصّ عليّ بعض القصص الطريفة التي تخصّ رجال الصوفية وأنهم شيعة وأضاف بأنّ كلّ صالح بلغ مرتبة الصلاح لا يمكن إلاّ أن يكون شيعياً.

تأسّفت لهذا اللّقاء الذي لم يسجّل لما فيه من فوائد عديدة وكان يكون أفضل وأحسن شريط يسجّل للشيخ عبد الحميد كشك، اكتفيت بأخذ بعض الصور مع الشيخ ثم ناولته مبلغا بسيطا قدره مائة جنيه مصري ودعوت له سائلا منه الدّعاء فقام يشيّعني إلى الباب ودّعته كما وعدته بالرجوع إليه قبل سفري.

رجعت إلى حلوان وأنا متحسّرٌ وسهرت مع الشباب بدون طه وحكيت لهم مقابلتي مع الشيخ عبد الحميد كشك والحديث الذي دار بيننا، استغربوا جرأتي وتمنوا لو سجلت المقابلة.

وأعلموني بأن الشيخ لا يتمكن الآن من إلقاء الدّروس والمحاضرات بسبب ولائه لإيران لأنه وبعد المحاضرة التي تكلم فيها عن الحرب العراقية إتّهم بولائه للخميني وهذا يُعدّ جريمة في مصر.

قرّرت أن أتجول طيلة اليومين وقبل عودة طه من السّفر لأستعين به على الإتصال ببقية الأشخاص المدعوين.

وخرجت في الصباح التالي بآلة التصوير لأزور الاهرامات والآثار المصرية القديمة، ركبت تاكسي وكما هو معروف في بعض البلاد العربية والإسلامية تقف التاكسي لكل من يسير في اتجاهها ولو كانت حاملة لراكبين أو ثلاثة، فوجدت نفسي جانب فتاة في المقعد الخلفي أمّا المقعد الأمامي ففيه السّائق

وإلى جانبه شاب في العقد الثالث من عمره، وكان مذياع السيّارة يذيع شـــريطا للشيخ عبد الحميد كشك.

تكلمت الفتاة مشمئزّة وهي تخاطب سائق السيّارة قائلة:

سكّت هذا المجنون إن أعصابي تتوتّر عند سماعه. فأجابها الشاب: أنـــت المجنونة وليس هو ولو كان في مصر عندنا عشرة منه لما بقـــي فـــي مصـــر مجنون واحد، ثم قال للسائق: علّي الصوت شويّة. ودارت مناقشة حـــادّة بيـــن الشاب والفتاة التّي ادعت بأن الشيخ عبد الحميد قضى أكثر مـــن ســـنتين فـــي مستشفى المجانين وكان الشاب يردّ عليها بحماس مفنّدا كل مزاعمها، كلّ ذلـــك والسائق ساكت يسوق التاكسي وكأنه ليس حاضراً، التفت الشاب إلي يسألني عن رأيي في الشيخ عبد الحميد كشك بعدما عرف أني تونسي، قلت أمّا أنا فإني أحبه كثيرا والدّليل على ذلك أنّي بالأمس كنت عنده في بيته، أخذ الشاب يدي فقبّلـــها وهو يسألني بلهفة عن صحّة الشيخ وأحواله، نظرتْ إليَّ الفتاة باشمئزاز وطلبـتْ من السائق أن ينزلها ففعل وبقينا ثلاثتنا وبدأ السائق والشاب يسألانني من جديـــد كيف وجدتَ الشيخ وماذا قال لك.

كان الشاب أكثر حماسا وكان يقسم باللّه أنّه مستعدّ لإعطاء عينيه للشـــيخ المكفوف لو أمكن ذلك لأن الشيخ كما يقول في حاجة إلى العينين أمّا هـــو فـــلا فائدة من ورائه.

بعد فترة وجيزة نزل الشاب وبقيت بصحبة السائق الذي طلب مني التحـوّل إلى جانبه وهو يعلم أنّ مشواري طويل لأنه سيوصلني إلى الأهرام، بدأ يحدثنـــي بعدما أسكت صوت المذياع وأعلمني بأنه يهيم بحبّ عبد الحميد كشك وأرانـــي في صندوقه عشرين شريطاً كلّها للشيخ، قلت لماذا لم تتكلم للدفاع عنـــه: قـــال: المجالس بالأمانات وأنا لا أثقُ بأي واحد، ولو ترى وتسمع ما أسمعه أنا لجننت، ولكن أنا غالبهم بالسكوت.

قلت متحسّراً: آه لو أقدرعلى إخراج الشيخ مـــن مصر، لو يذهـــب إلـــى إيران وتسخّر له إذاعة عربية هناك لأحدث ثورة لا تقل أهمية عن ثورة الإمـــام الخميني، لأن كل الشباب المسلمين يعشقون محاضراته ويتداولونها سرّا وعلانية.

قال: يا سلام لو يحدث ذلك لرأيت كلّ المسلمين تحوّلوا إلى شيعة.

قلت: ماذا تعرف عن الشيعة؟ قال: أنا واحد منهم وحاول جاهدا إقناعي بأن الشيعة على حقّ ولكن النّاس أعداء ما جهلوا.

قلت في نفسي: ربّ صدفة خير من ألف ميعاد سبحان اللّه الذي يجمع القلوب ويؤلّف بينها بدون سوابق.

قلت له: وأنا أيضاً واحد منهم وقد أقنعتُ مجموعة من الشباب المثقّف منذ قدومي إلى مصر ولعلّي سأعرّفك عليهم إذا أحببت.

فرح كثيراً وعاد يقول: لو يتمكن الإيرانيون من جلب الشيخ كشك إلى إيران لانقلب العالم.

قلت: وهل هناك طريقة لإخراجه من مصر؟

قال: بلى، بالفلوس كل شيء ممكن، المستحيل يصير ممكن!

قلت: أفدني رحمك اللّه. كيف يمكن إخراجه لعلّ اللّه سبحانه يجعل له مخرجاً من هذا السجن.

قال: الشيخ مريض وإذا وافق جمع من الأطباء على علاجه بالخارج في لندن أو فرنسا أو ألمانيا فإنه يخرج بلا شكّ.

وخامرتني فكرة، يا إلهي لماذا لا أعمل على إخراجه، بما عندي من الأموال وإن كانت لشراء تذاكر السّفر للمدعوين، والمدعوّون لم يستجب منهم أحد حتى الآن، وما فائدة المدعوين وحضورهم في المؤتمر مقارنة لخروج الشيخ كشك وإقامته في إيران ليكون الصوت الدّاعية للحق، وبالتأكيد لو يُطلب من المسؤولين في إيران لدفعوا من أجل ذلك الملايين، ولو نجحت أنا شخصياً في إخراجه لكان في ذلك أجر كبير وشهرة عظيمة، ولكنّها عمليّة خطيرة تتحدّى السلطة المحليّة الذين يمنعون النّاس من زيارة الشيخ عبد الحميد فكيف أعمل أنا الأجنبي على إخراجه من قبضتهم.

وصلنا إلى الاهرام فلم يتركني السائق لوحدي بل نزل معي بعد أن استودع سيارته وقال: لا أتركك لوحدك بين هؤلاء الحرامية إنهم يسرقونك ويأكلون أموالك، عرفت اسمه.

قلت يا حسنين: دعنا نفكر في إخراج الشيخ لإيران فهذا من أفضل الأعمال التي يحبها اللّه.

قال: كم عندك فلوس؟ قلت: أربعة آلاف دولار.

تهلّل وجهه وقال مستكثراً: بأربعة آلاف دولار تخرج الشيخ وأبو الشيخ كمان. قلت: وكيف ذلك؟

قال: خالي طبيب ويعمل في نقابة الأطبّاء وأنا على علمي أنّه إذا أعطى لبعضهم مبلغا من المال فسيوافقون على معالجته في خارج مصر فأنا إن شاء اللّه سأعرض عليه هذا المبلغ وسيعمل على إخراجه إلى باريس حيث تقيم أنت ومن هناك تصرّف في تحويله لإيران.

فرحت فرحاً شديداً وقلت: لو لم يكن في رحلتي إلاّ هذا العمل لكان فيه الخير العميم ولعلّ الله سبحانه وتعالى قد بعثني لإنقاذ الشيخ لأكون السبب في هذا الحدث العظيم.

تجولّنا ونحن كأخوين مضى على صحبتهما عقدان كاملان تحدثنا عن مواضيع كثيرة وبدون تحفّظ بعدما اختبرت تشيّعه رجعنا بعدها إلى القاهرة وفي طريقنا وقف برهة ليريني من بعيد منزل الشهيد البطل فخر مصر والمصريين الأحرار كما كان يسمّيه،قلت:من هو؟ قال: الشهيد خالد الإسلامبولي قاتل الخونة.

تواعدنا لنتقابل في الغد إن شاء اللّه في مسجد سيدنا الحسين وقت صلاة العصر بعد الغداء مع بعضنا افترقنا وكلّ منّا يدعو للثاني ويشكر اللّه على هذه الصدفة السّعيدة.

وبتّ ليلتي وأنا أحلم بهذا الإنجاز وأخطط للمستقبل وبدأت أفكر بالتّخطيط لما بعد الخروج وماذا سأفعل في باريس وهل أخبر بذلك الشيخ عبد الحميد وأهيّئُه للعملية حتى يكون على استعداد أم أتركها له مفاجأة.

وأصبحت أعدّ السّاعات وأنشد: "يا ليل الصبّ متى غده، أقيام الساعة موعده".

وقلت في نفسي لو يعلم طه ما حققته في غيابه لطار فرحا لعلمي بأنه من عشاق الشيخ عبد الحميد كشك فقد كان دائما في معارضتي للتشيّع يستشهد

بالشيخ قائلاً: لو كان الأمر كما تقول ما كان ليغيب عن الشيخ كشك وقد استمعت لكل أشرطته فلم يأتي مرة واحدة على صحّة عقائد الشيعة.

سأفاجئ طه بأنّ الشيخ عبد الحميد يعتزّ بأن يكون شيعيّا وبالتأكيد سيفرح بعدما اقتنع هو بصدق ما أقول.

وسافرت للقاهرة مبكّرا استعدادا للقاء حسنين في مسجد الحسين طمعا أن ألقاه قبل الموعد صدفة في بعض الشوارع فكنت أستطلع كلّ تاكسي تمّر بقربي.

أمضيت الوقت في الأزهر وفي معرض الكتاب أتصفح الكتب والمجلّدات وأتكلم مع بعض الذين يبدون اهتماما خاصا كلما علموا بأني غير مصري من لهجة كلامي.

وجاء الموعد والتقينا أنا وحسنين فأخرجني من المسجد إلى بعض المقاهي المجاورة وفاجأني بحسرته وتأسّفه الشديد قائلا: إن خالي بعدما حدثته عنك وعن مشروعك ينصحك بأن تغادر مصر فورا ولا تضيّع فلوسك.

قلت: لماذا؟ قال: سألت خالي عن محاولة إخراج الشيخ فقال لي بالحرف: لو يوافق كل الأطباء في مصر ويتفقون على علاجه بالخارج فسوف لن يخرج أبدا حتى يموت في بيته، هكذا محكوم عليه.

تبخرتْ كل أحلامي وآمالي بين عشية وضحاها وحمدت اللّه أني ما تسرّعت لإعلام الشيخ وما منّيته بالخروج، ومازال حسنين يلحّ عليّ ويشعرني بالخطر ويستعجلني السّفر حتّى ودّعته.

رجعت إلى حلوان قضيت السّهرة مشوش الفكر مضطرب النفس أتساءل لماذا يخوّفني حسنين بخطورة الموقف وجالت بخاطري بعض الشكوك، وقلت: لعلّ حسنين مخابراتي يعمل لصالح المخابرات وقد نصب لي فخّا ليعرف سرّ قدومي إلى القاهرة وسرعان ما تبدّد هذا الطرح وقلت: لو كان ذلك كذلك لما نصحني بالمغادرة الفورية ولواصل معي لآخر المشوار حتى يعرف عني الكثير.

ثم لماذا أخاف؟ هل فعلت جريمة أو خرجت عن القانون أو تآمرت ضد أمن البلاد ما فعلت شيئاً من ذلك، كل ما في الأمر أن أحد المصريين أطمعني بأن يأتي بالشيخ عبدالحميد إلى باريس فأنقله إلى إيران وليس في ذلك تآمر على أحد.

بقيت ذلك اليوم في حلوان بصحبة بعض الأصدقاء نتجّول في الحمامات ونتجاذب أطراف الحديث وما علم أحد منهم عن الموضوع شيئا. في الليل قدم خلال السهرة الأخ طه وهو يلعن السفرة التي ما كسب من ورائها إلا التعب والمشقّة وخسارة الفلوس.

قلت له: كلّنا في الهواء سواء، فأنا أيضا تعبت وما وفّقت لشيء مما جئت من أجله، قال: ولكننا استفدنا منك وأنقذتنا من الضلالة وهذا خير لك من الدنيا وما فيها.

انتشلني بهذا الكلام من هواجس التفكير وأبدل غمي سرورا وقلت في نفسي "عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم".

سألني طه ماذا فعلتَ خلال غيابه، وقلت: لا شيء جديد سوى أنني زرت الشيخ عبد الحميد كشك في بيته، وطار فرحا لهذا النبأ وقال: غيّبتني وعملتها، أنا كنت أنتظر بفارغ الصبّر لأروح معك وأتعرّف عليه، قلت: أتدري أنه ممنوع من الزيارات؟

قال: أدري ولكن معك أنت أعتقد ما فيش مشكل.

حكيت له عن حديثي مع الشيخ خصوصا رأيه في الشيعة، فقال: الحمد للّه هذا لم يخطر ببالي أبدا ولو سجّلت هذه المحاورة لكسبنا من ورائها ملايين الجنيهات، ضحكنا كثيراً.

سألني ماذا بقي في القائمة؟ قلت: أي قائمة قال: قائمة المدعوين قلت: ما زال الشيخ سعيد رمضان، والدكتور جمال البنّا، وصفيناز كاظم.

قال: سألت عن الشيخ سعيد رمضان، أتدري أنه متزوج إبنة الشهيد حسن البنّا؟ قلت: أعرف ذلك، قال: فإنه من المغضوب عليهم ولا يعيش في مصر بل هو يقيم حاليا في سويسرا في مدينة «جنيف». قلت: إذا لم يبق إلا جمال البنّا وصفيناز كاظم، قال: إن شاء الله بعد غد إذا أردت نزورهم، قلت: لماذا بعد غد فلنذهب إليهم غدا قال: غدا إن شاء الله نسأل عنهم ونعرف مكانهم وعناوينهم لأن الدكتور جمال البنّا هو شقيق الشهيد حسن البنّا ولا نعرف إذا كان في المعارضة أو في المغضوب عليهم.

في اللّيلة التالية جاءني بالعناوين المطلوبة وأعلمني بأن له صديق اسمه صلاح مصطفى وهو من الإسلاميين المرموقين يسكن في المعادي قريبا من حلوان وهو يتلهف شوقا لزيارة إيران وطلب منّي طه أن أدعوه إذا أمكن لي، مكان الدكتور محمد عمارة، فقلت: لا مانع من ذلك إذا وافق، قال: تحدثت معه وهو موافق على طول: اتصلنا به هاتفيا في تلك اللّيلة في مسكنه وسُرّ سرورا كبيرا وتواعدنا على اللقاء في صباح الغد في بيته عند الساعة التاسعة.

استقبلنا في بيته بحرارة شربنا عنده القهوة وأعجبت به واتفقنا أن أشتري له تذكرة السّفر فور حصوله على التأشيرة من السّفارة النّمساوية.

ثم توجهنا جميعا إلى القاهرة فقصد هو السفارة بينما اتجهنا أنا وطه إلى مكتب اتحاد العمّال العرب في القاهرة حيث يشتغل الدكتور جمال البنّا وطلبنا مقابلته. فرح بنا وعرف بأني أحمل له دعوة للمشاركة في المؤتمر الإسلامي فازداد سروره وسألني من سيشارك معي من مصر وحكيت له بعجالة عن اعتذار البعض منهم وقلت: المأمول أن يشارك الدكتور جمال وصفيناز كاظم، فقال أعندك دعوة لصفيناز كمان؟ قلت : نعم، قال: هذه زي ابنتي.

فأخذ الهاتف أمامه وأدار أرقاما واتصل بها وهو يقول: صباح الخير يا صفيناز أنا أحمل لك بشرى سنسافر أنا وأنت لإيران، وأفهمها قصّة المؤتمر والدعوات في عجالة وأضاف بأن الأخ المسؤول سيزورك بعد قليل، ولو لم أكن مشغولاً لجئت معه لزيارتك!

اتفقت معه أيضا أن يتصل بي فور حصوله على التأشيرة النّمساوية لأشتري له تذكرة السّفر. قال: كيف الاتصال بحضرتك؟ قلت: أنا الذي سأتصل بك غداً في مثل هذا الوقت بالتلفون لأعرف ماذا فعلت.

انطلقنا أنا وطه في اتجاه العتبة والعبّاسية حيث منزل الصحفية المعروفة صفيناز كاظم وبغير صعوبة وصلنا إلى بيتها في عمارة كبيرة بالدور الثاني.

صفيناز كاظم

صعدت الدرج وأنا أفكر كيف سألقاها وقد تعرفت عليها في مؤتمر إسلامي بلندن عاصمة بريطانيا وأعجبت بفصاحتها وطرحها وذلك منذ سنة واحدة وعلمت منها قصّة مأساتها وكيف كانت تدرّس في إحدى جامعات بغداد وقد أجبر صدّام زوجها وجنّده غصباً في الحرب الدائرة ضدّ إيران وقد استشهد المسكين وهربت هي مع ابنتها الوحيدة ورجعت إلى وطنها مصر واشتغلت بالصحافة ولها مقالات تنشر من حين لآخر ومشاركات في المؤتمرات الإسلامية التي تقام هنا وهناك.

طرقنا الباب واستقبلتنا بصحبة ابنتها وأدخلتنا الصّالون وجاءتنا بالعصير وقد عرفتني وأنكرت من معي فقلت إنه طه أخ مصري من حلوان الحمّامات وهو صديق عزيز عليّ يرافقني في كل يوم ليعرفني العناوين التي أبحث عنها فأهل مكة أدرى بشعابها.

قالت: أهلاً وسهلاً متى القدوم إلى مصر وما هي المناسبة؟ قلت: جئت منذ أكثر من عشرة أيام بالتحديد من نصف شهر ولكن فضّلت أن تكوني أنت مسك الختام، وأنا أحمل لك دعوة لزيارة إيران كما سمعت منذ قليل من الدكتور جمال البنّا، شكرتني على عواطفي ثم قالت: يا دكتور أنا أعلم أنّك صاحب رأي وسمعت بعض آرائك في لندن وإني ألّفت كتابا عن السيدة سكينة بنت سيدنا الحسين فأطلب منك قراءته وإبداء رأيك فيه قبل طبعه.

شكرتها على حسن ظنّها فدخلت إلى حجرة أخرى ولم تتأخّر إلاّ قليلا وجاءتني بكتاب وضعته بين يدي وانسحبت، فتحت الكتاب على أول صفحة فوجدت ورقة كتب عليها "يا دكتور أرجوك أن لا تتكلم عن إيران الآن، وارجع إليّ وحدك غداً بعد صلاة العصر".

فهمت قصدها وعرفت بأنّها شديدة الاحتياط فلا تثق بأحد وإنها تحرّجت من وجود طه معي، أغلقت الكتاب بما فيه، وقلت لها: يا سيدة أنا الآن مشغول

البال والكتاب كبير ما شاء الله فسأعود إليك مرّة أخرى لقراءته وإبداء رأيي فيه، قالت: "ما عليش حاستنّاك."

شربنا العصير ثم استأذنتها بالإنصراف وودّعناها ولمّا خرجنا سألني طه : لماذا لم تأخذ رأيها في السّفر لإيران؟ أجبته بأن الظرف غير مناسب وسأعود إليها مرة أخرى ولم يقتنع طه بهذا الجواب ولكنه سكت على مضض.

رجعنا إلى حلوان في المساء وكالعادة سهرت مع المجموعة ثم قضيت بعدها يومين في انتظار الدكتور صلاح مصطفى والدكتور جمال البنّا في كلّ يوم أتصل بهما هاتفيا فيعلمني كلّ منهما بأنه قدّم الطلب ولا يزال ينتظر الجواب.

أقلقني الانتظار وأنا أعلم أنّه لم يعد هنالك وقت كاف لأن موعد المؤتمر سيكون بعد خمسة أيام ولا بدّ من عودتي إلى باريس ثم التوجّه من هناك إلى طهران على الخطوط الإيرانية التي تسافر مرّتين في الأسبوع، لم أعد إلى صفيناز كاظم ورأيت أن الدكتور جمال البنّا حريص على ذهابها أكثر منّي فإذا حصلت هي الأخرى على التأشيرة ستسافرمعه.واتصلت في اليوم الثالث بالدكتور صلاح مصطفى فأعلمني بأنه لم يحصل على التأشيرة وأن مطلبه رفض.

وأعلمني الدكتور جمال البنّا الخبر نفسه متأسفاً هو الآخر وهكذا انتهت مسرحية الدّعوات وأغلقت ذلك الباب ونزلت مع طه إلى القاهرة لقضاء يومي الأخير فقد قرّرت أن أسافر غدا إن شاء اللّه إلى باريس وأعلمت عبده وأمّه بذلك.

حجزت في شركة الطيران المصري تذكرة الرّجوع إلى باريس ومنها ذهبت إلى مركز التلفونات وتكلمت مع زوجتي لأول مرّة منذ خرجت من عندها وبدأت زوجتي باللّوم والعتاب على عدم الإتصال بهم وتطمينهم فقلت لها: غدا إن شاء اللّه سأكون عندكم في الساعة الثالثة ظهراً.

رجعت إلى حلوان باكرا لعلمي بأن مجموعة الشباب سيأتون لتوديعي فقد علموا بسفري، وكانت سهرة الختام اجتمعت كل العائلة عبده وزوجته وأمّه

وأخته وطه وكل الإخوة الذين استبصروا وسهرنا إلى الساعة الواحدة وبعد خروجهم جمعت حقيبتي، ثم استغرقت في نوم عميق وأنا أحلم بالرجوع إلى زوجتي وأولادي بعد غياب طال سبعة عشرة يوما، أتأسّف حينا على إخفاقي في مهمّتي وأبتهج أحيانا لما قدّمته لهؤلاء الشباب المثقفين من هداية لحقيقة أهل البيت عليهم السّلام فأقول في نفسي: إنها المهمّة التي أرسلني اللّه من أجلها.

الهجوم على البيت

استغرقت في النوم بعد يوم متعب وسهرة طويلة وأنا أوطّئُ نفسي للقيام في السابعة صباحا لأن المسافة من حلوان إلى القاهرة ومنها إلى المطـــار تتطلـب مزيداً من الوقت.

ولم تمض ساعة واحدة حتى استيقظت على طرق الباب بقوة عنيفـــة فـــي ضربات متتالية وبدون انقطاع، وبما أني كنت أنام في الصالون الذي يفتح علـــى الباب مباشرة، نهضت مذعورا، أنرت الكهرباء فتحت الباب ورأيت أكـــثر مـــن سبعة أشخاص اقتحموا عليّ الباب وأوّلهم يسألني : ما اسمك؟ قلت: التيجـــاني، قال: إقبضوا عليه، وارتمى عليّ ثلاثة وفي لحظة كتّفوني وبدأ الآخـــرون فـــي تفتيش البيت.

عرفت أنهم رجال الأمن فهم مدنيون يرتدون البدلات الفخمة وكلما تحـرّك أحدهم رأيت المسدّس تحت إبطه، وما هي إلا لحظات حتى رأيت ويا لهول مـــا رأيت، أخرجوا عبده وزوجته من غرفة النوم شبه عراة وهم يرتعشون وأوقفوهم أمامي ثم جاؤوا بأم عبده وابنتها الصبية في لباس شفاف وهي تصيح : يا ماما يا ماما هو إحنا عملنا إيه "وسمعت الأم ويا لهول ما سمعت وهي تقول لي : ليـــه عملت فينا كده يا سيد، اللّه يتولاّك: وعبده يصيح في أمه: "بس يا ماما بس."

وتسمّرتُ لا أقدر على الكلام ولا على الحركة وأنا أتفرّج علــــى هـــؤلاء القساة يأتون بالشّنط والحقائب ويفرغونها ويقلّبون الأسّرة وينـــثرون الملابـس ويجمعون بعض الأشياء.

ساعة بأكملها مضت ونحن على تلك الحالة. ثم أخذوا حقيبتـــي وأنزلونـــي على الدرج، في الدور الثاني سمعت المسؤول يأمرهم بإنزال عبده، كان إثنـــان منهما يمسكان بذراعيّ يميناً وشمالاً وعند كلّ درجة وجدتُ شرطياً واقفاً بلباســه الإداري ويحمل رشاشاً كانت الدروج كلها مضيئة ولمّا خرجنـــا مـــن العمـــارة

فوجئت بالجيش يطوّق كل العمارة وأفراده مدججون بالسّلاح ورأيت ثلاث شاحنات عسكرية وسيارتين صغيرتين من نوع "جيب".

التفت المسؤول يصيح بعبده قائلاً: أين طه؟ قال: في بيته، وسمّى المكان فقال: جيبوه، ثم صاح: التونسي خلّوا معاه عشرة، فحملوني وألقوني في الشاحنة العسكرية هناك وجدت نفسي بين عشرين وبسرعة مذهلة عصّبوا عينيّ ووضعوا الحديد في يديّ.

كنت أرتعش من شدة البرد فقد كان منتصف فصل الشتاء والشهر جانفي والساعة الثالثة صباحا وكنت في لباس النّوم فأحسست بشيء من الدفء داخل الشاحنة المغطاة.

أنزلوني بعد ربع ساعة من المسير وفتحوا عينيّ وعرفت أنّي في مركز الشرطة بحلوان وأدخلوا عبده ومعه طه المسكين في لباس النّوم هو الآخر وهو ينظر إليّ وكأنه يسألني ماذا فعلت وأراني المسؤول حقيبتي وفتحها أمامي وعدّ الفلوس التي فيها وجمع الشنطة كلها مع لباسي وجواز سفري ثم أغمضوا عينيّ بعصابة سوداء من جديد وأنزلوني إلى الشاحنة وبدأت المسيرة الطّويلة التي استغرقت أكثر من ساعتين، كنت أسمع أزيز الشاحنات فقد كان عددهن ثلاثا وسيارتين صغيرتين وتوقفت المسيرة لأسمع فتح أبواب حديدية كبيرة وتحيات عسكرية. وأدخلوني يقودونني في صمت رهيب تقدّم أحدهم فتّش ملابسي بدقة انتزع منّي الحزام ثم استلمني شخصان آخران بدءا يركلانني ويقودانني ماسكين بعضديّ ويأمراني في كلّ مرة: اطلع ست سلالم، إنزل ست سلالم إلى أن أوصلوني إلى الزّنزانة هناك فتحوا عينيّ وقذفوا بي داخلها فإذا بي داخل غرفة صغيرة مثلّثة لا يزيد طولها عن ثلاثة أمتار في متر ونصف. أغلقوا عليّ الباب وتركوني.

كان في أعلى الزنزانة فتحة صغيرة بقضبان حديدية سميكة يدخلها ضوء الكهرباء في الليل وضوء الشمس في النهار، كان الوقت لازال مظلما لأن الشمس لا تشرق إلاّ بعد السّابعة والنصف، وقفت أتفرج على إقامتي الجديدة، الباب الحديدي في أعلاه ثقوب صغيرة ولكنها تفتح من الخارج، إلى جانب الباب

وضع محبس من الطين به ماء كدر ومحبس آخر نتن فهمت أنه للبول ثم حائط عن يمين الباب وحائط عن شماله يلتقيان في زاوية، بهما كتابات بشتى الألوان واقشعرّ جلدي وأنا أقرأ "يا ظالم لك يوم" مكتوبة بالدم بخط عريض، واضح أنّ صاحبها كتبها بإصبعه، ونظرت في الأرض فما وجدت غير غطاء أسود ملطخ بالدّم وتحته حشرات مختلفة الأشكال والألوان فقلت: لا حول ولا قوة إلا باللّه العليّ العظيم، إنا للّه وإنا إليه راجعون، وبدأت أتساءل ماذا فعلت، وما هو الذنب الذي اقترفته؟

كان بودّي أن أصيح: يا جماعة اتركوني أسافر فمكاني محجوز في الطائرة في هذا الصّباح وأقسم لكم أني لا أعود لمصر مرّة أخرى ولكن مع من تتكلم ومن يستمع إليك: يا جماعة إن زوجتي وأولادي ينتظرونني في هذا اليوم وهو يوم عرس بالنسبة إليهم فلا تجعلوه يوم حزن ونكد، أنا ما فعلت شيئا أستحقّ من أجله هذه المعاملة الدّنيئة.

أجهشت بالبكاء لمّا تصوّرت انتظار زوجتي وأولادي ولا أدري إلى أي مدى سيطول انتظارهم، ومن يدريهم أني أنا موجود وفي أيّة حالة، تذكرت الرّفاهة والفُرش الوثيرة التي كنت أنعم بها ونظرت إلى الزنزانة وما فيها فازداد بكائي وكثرت همومي وهواجسي ورجعت أستعرض شريط الاتصالات التي قمت بها وتذكّرت تحذير سائق التاكسي ونصيحته لي بالاستعجال بالسفر، كما تذكرت تحذير طه لمّا خرجنا من مكتب الدكتور خالد محمد خالد، وجالت بخاطري شكوك السّيدة صفيناز كاظم عندما حذّرتني من الكلام عن إيران بمحضر طه، ولكني ما وجدت في كل ذلك شيئاً يدينني، ثم لماذا استعملوا معي هذا الأسلوب في القبض عليّ وترويع العائلة التي استضافتني ولماذا كلّ هذه الحشود من الشرطة والجيش المدجّج بالسّلاح وكأنّهم سيقاومون عصابة خطيرة مسلّحة، ثم لماذا يُقبض على عبده وطه من بين كلّ الشبان الذين عرفتهم واستبصروا على يديّ ودارت في ذهني أسئلة متعددة لم تجد من الأجوبة إلاّ البكاء والحيرة، حاولت أن أنام لأستريح قليلا فقد قضيت ليلة بيضاء كلّها رعب، وخوف، ولكن أين للنّوم أن يجد سبيله إليّ فكلّما غفوت غفوة انتفضت مذعورا مرعوباً لأواجه حقيقة الزنزانة التي أضاء جنباتها ضوء النهار وبدت الكتابات

واضحة تنبئ عن أن أصحابها اضطهدوا وظلموا كما يفهم منها أنهم كلّهم مسلمون ملتزمون حبسوا أو قتلوا من أجل عقيدتهم وذكّرتني بعض الكتابات بما حكاه الشيخ عبد الحميد كشك عمّا لاقاه من الاضطهاد داخل الزنزانة في محنة الإخوان المسلمين وما حكته زينب الغزالي أيضاً.

كما أن هناك من يرسم رزنامة الأيام التي قضاها يعدّدها بما يحفر أو ينقش على الحائط الذي بدا طريّاً من الرطوبة وعدم الترميم.

وسمعت بعض الأصوات للحرّاس المتنقّلين بين الزنزانات وبدأت الأحذية العسكرية تجول ودخل ضوء الشمس إلى الزنزانة وفتح الباب ودخل رجل ليملأ المحبس بالماء ويخرج بدون أن ينظر إليّ. وفي منتصف النّهار جاء آخر ومعه صحن من الرز وضعه قرب الباب وخرج.

قضيت كامل اليوم وأنا أبكي لا تجفّ عيناي من الدموع، لم ألتفت إلى الصحن الأول والثاني، كيف لي أن آكل وأنا مقبوض النّفس بتّ تلك الليلة على ذلك الغطاء المتعفّن رغم أنفي والحشرات تجري فوق جسمي لتمنعني من الاستغراق في النوم، وبدأت أحكّ جلدي وأتقلّب في كلّ الجهات، تذكّرت زوجتي وأولادي الذين ينامون فوق الأسرّة الوثيرة، وتخيلت أنهم لم يناموا تلك اللّيلة وهم حيارى لا يدرون ماذا حدث، ثم لا أحد يخبرهم بمكاني. جلست متكئا على الحائط ووضعت رأسي بين ركبتيّ إلى أن بدأ طلوع الفجر، استعذت باللّه من الشيطان وقمت فتوضأت بالماء ثم صلّيت في الاتجاه الذي تسمح به الزنزانة وقضيت الفروض التي فاتتني بالأمس مستغفرا ربّي فهو العليم بأني ما تركتها عمدا ولكنّ الهموم التي توالت والحال التي انتابتني أنستني ذكرى نفسي، فلا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم.

في صباح اليوم الثاني فتح الباب ودخل جنديان مسلّحان أوقفاني وكتفا يديّ إلى الخلف ثم عصّبا عينيّ بشدّة، وأخرجاني أتعثّر وهما يقولان: إطلع ست سلالم فأصعد وأنا أعدّ. ثم أنزل ست سلالم إلى أن أدخلاني في غرفة وتركاني واقفا ثم أدّيا التحيّة العسكرية وخرجا، غالقين الباب.

بقيت واقفاً مكتوف الأيدي معصّب العينين دقائق معدودة ثم أحسست برجل يجلسني على كرسي قائلا: تفضل إجلس يا دكتور جلست واجما أنتظر ما يفعل بي. فقال بلهجة مصرية: يا دكتور، طبعاً أنت عارف ليه أنت هنا؟

قلت: لا أعرف لماذا أنا هنا وما هو ذنبي حتّى أعامل بمثل هذا!

قال: يا دكتور أنت ما شاء اللّه رجل مثقف ومتخرج من السوربون ولفّيت العالم كلّه، واحنا عايزين نعاملك على قدر مقامك العلمي، فأطلب من حضرتك أن تحكي لي عن المهمّة التي جئت من أجلها إلى مصر، واليوم تخرج وتسافر، مش عايزين وجع رأس.

قلت في نفسي: لا فائدة من اللّف والدّوران كما تعلّمت من الإمام علي عليه السلام قوله: "الحيلة في ترك الحيل" فقلت: ليست لي أية مهمّة، وإنّما جئت من باريس أحمل دعوات لبعض العلماء لحضور مؤتمر الوحدة في طهران وقد اتصلت بهم ورفضوا السفر والمشاركة، وأنا كنت عائدا إلى باريس أول أمس فعطّلتموني، هذا كلّ ما في الأمر.

قال: لا يا دكتور دي بسيطة احنا عايزين المهمّة الرّسمية؟ مش دعوات المؤتمر اللي تهمّنا.

ومن كلامه هذا عرفت بأنّ رجال الأمن المصري أعطوني حجما أكبر مني ولعلهم يوجّهون إليّ اتهامات خطيرة أنا منها بريء.

اطمئن لذلك قلبي وهانت عليّ مشكلتي وقلت:

اطمئن يا سيد ما عندي أي مهمة رسمية أو غير رسمية وما جئت إلى مصر إلاّ من أجل مقابلة العلماء ودعوتهم للمؤتمر فاسأل إن شئت الشيخ عبد الباسط أو الدكتور محمد عمارة أو الدكتور خالد محمد خالد حقيقة الأمر.

قال: لعلّك تريد الوقت للتفكير، أنا مش حازعل منّك وحأعطيك عشرة دقائق للتفكير، ثم دقّ الجرس وفتح الباب وسمعت قعقعة الحذاء للتّحية وهو يقول: حاضر يا سعادة الباشا.

قال له: أخرج الدكتور برّه وسيبو يفكّر عشر دقائق.

أخرجني إلى حيث لا أعلم فكّ يديّ من الحديد، وبدأ ينزع ثيابي واستغربت منه هذا التصرّف فقلت له: وأنا لا أراه فالعصابة لم تنزع، المسؤول قال لك: أخرجه ليفكّر لم يأمرك بنزع لباسي فقال : اللّه اللّه، أنت حاتورّيني شغلي وإلاّ إيه؟ بس أسكت أنت ما تزيد ولا كلمة.

ثم واصل نزع لباسي حتى تركني عاريا تماما كما خلقني ربّي، ثم كتّف يدي إلى الوراء وتركني واقفا.

وعرفت أنها الأوامر وإلاّ ليس لمثله أن يتصرّف معي هذا التصرف وفهمت أنهم بدأوا بالتعذيب النفسي، فصبرت وأنا أظنّ أنه سيدخلني بعد فترة قصيرة قد لا تتجاوز نصف ساعة، ولكنّ العشر دقائق التي منحني إياها للتفكير امتدت أكثر من عشر ساعات فقد سمعت أذان الظهر وعرفت أن السّجن الذي أنا فيه على مقربة من جامع تقام فيه الصّلوات، ثم جاء وقت العصر وسمعت بعض الحرّاس يصلّون على مقربة منّي، وجاء أذان المغرب وانحنى ظهري من التّعب وأحسست كأنّ أمامي حائطا، انتهرني الحارس وأمرني بالاستقامة وبدأت أرجف من شدّة البرد ففي فصل الشتاء عندما تغيب الشمس يبرد الطقس وأحسست جلدي كأنه شوك، وحدثتني نفسي أن أصيح ولكن ما الفائدة، فالصّبر هو تاج الفضائل، وسمعت أذان العشاء والحراس يصلّون على مقربة منّي، فأقول في نفسي كيف يصلّون؟ هل هم مسلمون حقّاً؟ كيف تسمح لهم نفوسهم أن يصلّوا وأمامهم شخص عريان؟ ثم أقول يا إلهي تقبل مني صلاة القلب واللّسان فأنا ممنوع من أداء الصلاة، وأنا مكشوف العورة رغم أنفي فالملعون من ينظر إليّ، بعد أذان العشاء بساعتين تقريبا أخذ الحارس يجرّني من ذراعي وأنا منحني الظهر لا أكاد أقوى على الحركة، أدخلني على مسؤول وإذا به يصيح:

الله الله، ليه عملت كده في الدكتور؟

فقال الحارس: العفو يا سعادة الباشا سامحني، وأخرجني من جديد وهو يعتذر إليّ قائلا: العفو يا دكتور وأخذ يلبسني ثيابي ثم كتفني من جديد وأدخلني وأجلسني على الكرسي وخرج.

تكلّم المسؤول ليقول: فكرت كويس يا دكتور؟

فصحت منفعلاً أهذه هي العشرة دقائق عندك؟ فقال متهكّما: هو أنت بعدك شفت حاجة؟ فإذا ما كنتش معانا صريح حاتشوف أشكال وألوان، قلت: أنا ما قلت لك إلاّ الحقيقة وبمنتهى الصّراحة قال: ما هو قولك بعد التفكير؟ قلت: هو ما قلته ولا أعرف غير ذلك.

تكلّم رجل من خلفي بصوت جدي ما سمعته قبل ليقول للمسؤول: هذا نذل لا يستحقّ منك الإحترام واللّين، فقال له: ماعليش حاسيبو يفكر اللّيلة.

أرجعوني إلى الزنزانة في ساعة متأخرة من اللّيل وهناك نزعوا العصابة عن عينيّ فوقعت على الأرض لا أرى شيئا ولا أقدر على الحركة وأغمي عليّ فلم أستيقظ إلاّ في الصّباح عندما فتح الباب وجيء بالطعام.

قضيت يومين الأول في الزنزانة والثاني في البحث واقفا عريانا وها هو اليوم الثالث ولم يدخل جوفي شيء وليس عندي أي شهية للأكل. قمت أتوضأ لأصلي وفتح الباب وجاء حرّاس جدد كتّفوني كالعادة وعصّبوا عينيّ. وأوصلوني إلى المسؤول..

سمعته يقول: كيف حالك يا دكتور؟

قلت : الحمد لله، قال: مضرب عن الطعام والاّ إيه؟ قلت: ماليش نفس للأكل، فقال: ليه تعمل في نفسك كده ما تريّحنا وتريّح نفسك حتى ترجع لعيالك فإنهم بلا شك مَتحيرين عليك، وتوتّرت أعصابي عند سماعه يتكلم على عائلتي فقد ضرب على الوتر الحسّاس فقلت منفعلاً:

أنا لا أتكلم بشيء وأريد مقابلة وزير الدّاخلية وإذا كنت مُداناً بشيء فحاكموني، فليس من حقّكم أن تسجنوني بدون محاكمة. وسمعت ورائي رجلا يضحك بصوت عال، أمّا الذي كان في مواجهتي فإنه قام ومسكني من كتفي وهو يقول: إسمع يا تيجاني؛ المغفّل جمال عبد الناصر مات اللّه لا والمقبور السّادات لقي حتفه، ر مبارك إن شئت حاجيبهولك للزنزانة. ما فيش حدّ يحكم في هالبلاد غيرنا..

ثم قال: عايز تفكر مرة ثانية؟

قلت: لا أرجوك، أنا فكرت وما وجدت شيئا أكثر ممّا صارحتك به. تكلم الرّجل الذي من خلفي يقول: أنت حاتحكي لنا قصّة حياتك كلها من يوم ولدت حتى اليوم.

قلت: سأحكي لكم قصّة حياتي من يوم عقلت، لأنّي لا أتذكّر من يوم ولدتُ، قال: ما عليش.

وبدأت أتكلم عن طفولتي وعن الكُتّاب وعن المدرسة الإبتدائية ثم عن كل مراحل حياتي في التعليم الثانوي وانتقالي من مدينة لأخرى ثم عن عملي وانتدابي لمهمة التدريس طيلة سبعة عشر عاما في المعهد الثانوي بمدينة قفصة، ثم التحاقي بالجامعة الأولى في باريس لمزاولة التعليم وحصولي على ديبلوم الدراسات المعمّقة في السوربون ثم الدكتوراه، ولازلت أحضّر للحصول على دكتوراه دولة.

وحكيت لهم قصّة انتقالي من المذهب المالكي إلى الجعفري والرحلة التي بدأت من مصر إلى العراق.

ثم حكيت عن أوّل لقاء بالخميني في "نوفل لوشاتو" في ضواحي باريس ضمن مجموعة من الطّلبة والأساتذة الجامعيين.

ثم عن حضوري بعد نجاح الثورة إلى عدّة مؤتمرات إسلامية ثم قدومي إلى مصر لدعوة بعض العلماء لحضور المؤتمر وكيف كان اتصالي بهم والحديث الذي دار بيننا إلى أن أُلقيَ عليّ القبض.

وكنت في كل مرّة أسكت للتفكير وصياغة بعض الجمل أسمع صوته يقول: واصل.

وما إن أنهيت القصّة التي استغرقت أكثر من ساعة حتى سمعته يقول: أعدها من الأوّل.

وتنهّدتُ وبدأت أسردّها من جديد وأنا في ظلام دائم لا أدري من هم الأشخاص الذين يستمعون إليّ وكم عددهم، وفي كلّ مرّة أسكت لأتحسّس وجودهم،فما أسمع غير كلمة واصل،وأواصل كالمرّة الأولى أحكي كل أطوار حياتي ودراستي وأعمالي واتصالاتي وأسفاري حتى أصل إلى القبض علي.

وتكلّم صوت جديد ليقول لي: أعدها من الأوّل يا تيجاني وحاولت أن أقول أي شيء فقاطعني الذي هو أمامي قائلا: أنت عايز سيجارة والاّ شاي؟

قلت وأنا متماسك فخور: الحمد لله ما دخّنت طيلة حياتي ولا أشرب الشاي.

قال: أجيبلك قهوة تريح أعصابك أنت باين عليك تعبان!

فقلت: لا أريد شيئاً وإذا أردتم سأعيدها عشر مرّات لتتأكّدوا بأن كلامي الأول هو كلامي الأخير ولا أكذب عليكم.

قال: طيّب الآن بدأت تعقل هات ما عندك!

وعاودت قصّة حياتي للمرّة الثالثة ولكن هذه المرّة استوقفني يسألني عن هويّتي واسم أبي وما هو شغله وعن أمّي وعن اخوتي من الإناث والذكور وعمل كلّ منهم وأعمارهم، ثم عن أصدقائي المقرّبين،ثم عن البلدان التي سافرت إليها ومن أعرف فيها، ثم سألني عن إقامتي في باريس وكيف أحصل على المعاش وأسباب الرزق وكنت أجيب على كلّ هذه الأسئلة بصدق وعلى الفور.

قضيت كامل اليوم عندهم وعرفت ذلك عندما أرجعوني إلى الزنزانة وفتحوا عينيّ ويديّ فإذا باللّيل قد أسدل أستاره.

وهكذا قضيت خمسة أيّام بدون أكل وكلّما أحسست بالجوع ملأت جوفي بالماء، وما طلبت مرّة أن يخرجوني إلى المرحاض ولكن أبول فقط داخل الزنزانة في الشقفة المعدّة لذلك، وحصلت لي حالة من الضعف والإرهاق وبان في وجهي التّعب، عرفت ذلك من زيارة أحد الممرّضين إلى زنزانتي، وتكلم معي محاولا إقناعي بالأكل وإلاّ سوف أموت وأراد أن يحقنني بحقنة شرجيّة فرفضت.

ولمّا ألحّ عليّ متلطفا ومعزّيًا إياي على مصابي يفكّرني بسيدنا يوسف عليه السلام الذي سجن ظلما فصبر على قضاء اللّه.

أنست بكلامه وطلبت منه أن يأتيني بمصحف قرآن فوعدني بذلك على شرط قبول الأكل، قلت: أنا مريض ولا أريد أكلا فإذا تفضلت عليّ تأتيني بالحليب عوضا عن الأكل.

ومن ذلك اليوم جاؤوني بنصف لتر حليب في المساء وبرتقالة وأصبح أكلي في كل يوم نصف لتر حليب وبرتقالة في الغداء ومثلهم في العشاء. ودامت هذه التغذية من اليوم الخامس إلى يوم خروجي من الزنزانة نهائيّا. ووفى الممرّض بوعده فجاءني بمصحف صغير في جيبه وزارني بعدها مرتين أو ثلاث للعلاج.

كنت أصلّي وأبكي على مصابي أتذكر موعد المؤتمر الذي بدأ هذه الأيام فأتساءل: هل يفتقدني أصدقائي، هل يسألون عن مصيري وهل لازالوا ينتظرون قدوم العلماء من مصر، وبدأت أحسب الأيام بما أخطّه على الحائط بأظفاري كان اليوم الأول يوم 17 جانفي، فلا يمكن لي معرفة الأيام إلا بعدَ الخطوط التي رسمتها أما السّاعات فلا أعرفها إلاّ بأوقات الأذان الذي يبلغ صداه إلى زنزانتي، فأصلّي وأقرأ وأبكي.

أخرجوني في اليوم السابع من الزنزانة كالعادة مكتّفاً ومعصّباً وعرفت بأني ذاهب إلى التحقيق أو إلى التعذيب

وبدأ البحثُ هذه المرّة عنيفا وصاح يقول: لماذا لم تحك عن اتصالك بالشيخ كشك؟ قلت: بلى في كل مرّة تكلمت عن الأشخاص الذين زرتهم ذكرت من بينهم الشيخ عبد الحميد كشك.

قال: لم تحك بالتفصيل: قلت: اسألني عن كل ما تريد وسأجيب فقال غاضباً: أنا مش حاسأل، أنت وحدك تتكلم.

حكيت له زيارتي للشيخ عبد الحميد كشك بكلّ تفاصيلها وفصولها وما دار من الحديث بيننا. قال: كم أعطيته فلوس؟

قلت: مائة جنيه، فصاح: كذّاب أنت أعطيته ألف.

وفهمت أنه قرأ مذكراتي التي أسجل فيها كل المصاريف، فقلت: أسجل مصاريفي المصرية بالقيمة الفرنسية، فقيمة مائة جنيه مصري تساوي ألف فرنك فرنسي، وإذا أردت التحقيق فاقرأ مصاريف الفندق في الأيام الأولى وكذلك مصاريف المطعم فكلها مسجّلة.

قال: بكم دخلت مصر؟ قلت: بأربعة آلاف دولار.

صاح أحدهم خلفي: أربعة آلاف دولار؟! تشتري ثكنة عسكرية.

قلت: هي ثمن لتذاكر السفر لستة أشخاص،فليس لي شغل بالثكنة العسكرية.

قال: من منهم استجاب للدعوة وسافر لإيران.

قلت: ولا واحد.

تكلم شخص آخر بصوت غريب عنّي لم أسمعه من قبل فقال:

أنت جاي مصر تدعو للثورة الإيرانية وجايبلي كتاب يمدح الخميني!

قلت : أنا ما جئت أدعو للثورة الإيرانية ولا جئت بأي كتاب معي وسمعته يقرأ وكأنه يسمع الآخرين معه:

الفكر القائد في الثورة الإيرانية، وتذكّرت الكتاب الذي أهدانيه الدكتور محمد عمارة، فقلت:

هذا الكتاب ما جئت به ولكنّ الدكتور محمد عمارة مؤلفه هو الذي أهداه إليّ وهو يباع في مصر عندكم وحتى الثمن مكتوب عليه.

قال أحدهم: أنت شيعي؟ لا تنكر أنّك شيعي؟

قلت: وكيف أنكر وهذه مفخرتي حتى في السوربون يعرفونني وأني دائماً أفخر بتشيعي لأهل البيت عليهم السّلام.

قال متهّكما : أنت بعت نفسك لإيران.

وأردت الردّ عليه ولكنّ المسؤول قاطعني قائلاً: هات الحقيقة وحدثنا عن المهمة التي بعثتك بها إيران!

قلت: ما عندي مهمّة مبعوث بها من إيران، كل ما عندي حدّثتكم به، صاح بصوت عال: بلاش ألاعيب، ما تخلنيش أزعل.

وتكلم رجل آخر فقال: يا تيجاني يا سماوي احنا عارفين عنك كل شيء ونحن كنّا ننتظر قدومك ومن يوم خروجك من باريس ونحن نراقبك وعارفين المهمّة التي جئت من أجلها.

قلت: ما دمتم عارفين عنّي كل شيء حتى الأشياء التي لا أعرفها أنا بنفسي، فلا فائدة من الكلام.

قال: عايزين نسمعها منّك وباعترافك، أحسن لك من استعمال القوّة والتعذيب.

قلت: القوّة والتعذيب لن يُخرجا منّي أكثر مما قلته لكم : أتريدون مني أن أكذب على نفسي؟ !

بأيّ شيء تريدون أن أقسم لكم، أقسم باللّه العلي العظيم.

قاطعني أحدهم مستهزئا يقول: اللّه لو يجي سأدخله معك في الزنزانة.

واقشعر بدني لسماع هذا الكفر وهذا التحدّي لربّ العالمين وقلت في نفسي: صدق رسول الله (ص) عندما قال: "**إن لم تستح فافعل ما شئت**"، وتبين لي أن هؤلاء ملحدون لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وعند ذلك فقط خفت على نفسي وركبني شيء من اليأس، اليأس من هؤلاء الذين لا يرجى منهم أي خير.

قلت: أنا أعرف أن مصر هي فخر العروبة والإسلام، فقاطعني أحدهم بعبارة بذيئة شنيعة لا أقدر على كتابتها: فقال:

..أمك و.. أم الإسلام، أنت لا تستحق إلا التعذيب والتنكيل.

وبدأت الركلات والصفعات. ولا أدري من أين تأتيني الضربات، قال أحدهم: نحن على علم بأنك أنت الذي حاولت اغتيال ملك الكويت وقمت بالتفجيرات هناك.

وقال الثاني: وأنت شاركت في اغتيال السادات، ولكنك جبان، الشجاع هو خالد الاسلامبولي الذي جلس في مكانك هذا واعترف بكل شيء أما أنت فلست رجلاً.

وقال آخر: وبعثتك إيران لتفجر المنشئات الاقتصادية في مصر وتغتال بعض المسؤولين. فمن هم الأشخاص المكلّف بقتلهم؟

ماذا أقول وأنا أسمع هذه الاتهامات التي لم تخطر ببالي حتى في الخيال، وعرفت عندئذ أنّ الجماعة سيجعلون مني كبش الفداء لأغراضهم السياسية

الدنيئة كل ذلك لإدانة إيران الإسلامية. استغفرت ربي، وتمالكت أعصابي وجمعتُ أنفاسي وقلت لهم: أنا أفعل كل هذا؟ أنا الذي ما مسكت حتى اليوم سلاحا في يدي ولا أحب العنف أبدا وامتنعتُ من الخدمة العسكرية في بلادي.

قال أحدهم : أحنا ضبطنا عندك متفجرات.

قلت : ما عرفت في عمري متفجرات ولا رأيتها.

قال : سنريك إياها في حقيبتك.

وتملكني هاجس من الخوف وظننت أنهم وضعوها لإدانتي كما يفعلون بأي شخص يريدون التخلص منه.

وأداروني إلى الحائط واقفا ورفع العصابة قليلا بإصبعيه ووضع شيئا أمام عيني فما رأيت شيئا، فقلت أبعدها قليلا حتى أشوف فإذا بي أرى قارورة صغيرة من الكحل الذي اشتريته من مكة المكرمة لأكتحل به تبعا لما ورد في السنة النبوية من فضائل الاكتحال يوم الأربعاء.

فاطمئن لذلك قلبي وعرّفتهم بأنه كحل وليس هو متفجرات ولكن بقيت أشك كيف لا يعرف رجال الأمن والمخابرات ولا يفرقون بين الكحل والمتفجرات، إنه لا شك تلاعب بالأعصاب.

رجعت إلى الزنزانة متعبا ولكني أحمد الله سبحانه أن التعذيب الذي أسمع عنه ما رأيته بعد، والركلات التي أكلتها سرعان ما نسيتها، فألقيت بنفسي على الأرض لا أقدر على شيء.

في اليوم التالي أخرجوني كالعادة من الزنزانة وبدأ التحقيق كأعنف ما يكون وهم يحاولون أن ينتزعوا مني الاعتراف بما نسب إلي من تهم ويسألونني كيف كانت مشاركتي في اغتيال الرئيس المصري أنور السادات وكيف فجرت الكويت، وماذا أريد أن أفجر في مصر ومن هم الأشخاص المكلف باغتيالهم.

وصرت أضحك مرة وأغضب أخرى وهكذا كانت حرب الأعصاب طيلة اليوم كله.

في اليوم العاشر لما أجلسوني سألوني عن زوجتي وأولادي قلت: زوجتي تعيش في باريس مع بناتي الأربعة.

قال: وابنك شرف أين هو؟ قلت : يدرس في قم.

تكلم الرجل من خلفي فقال: فرخ الوز عوام، فما رددت عليه بشيء.

قال المسؤول: ليش ما ترحم نفسك وعيالك وكلهم نسوان، إذا قتلناك وبالتأكيد سنقتلك إذا لم تعترف، فإن زوجتك وبناتك سيصبحن مومسات في باريس، أيرضيك أن يقال زوجة الدكتور التيجاني الداعية الإسلامي زوجته أو ابنته مومس؟

قلت في رباطة جأش : بعدي أنا فليكن الطوفان فأنا لست مسؤولاً عليهن.

فقال: أنت ولا واحد من أهلك أو أصدقائك يعرف إنت فين فيمكن التخلص منك بسهولة، ثم يكتب في الصحف أن الدكتور التيجاني لقي حتفه إثر حادث سيارة.

قلت: تعددت الأسباب والموت واحد.

فقال: أنت مازلت لا تعرف التعذيب واحنا حتى الآن مازلنا طامعين في اتّقاء شرّك، فاعترف هو أحسن، وأنا أوعدك أنك تخرج من السجن وتسافر إلى فرنسا، فاحنا واثقين من أنك ضحية والنظام الإيراني هو اللي يحب توريطك، شوف أنت فين وإيران لا تبحث عنك ولا حتى تحس بيك.

قلت: حرام علي أن أتهم غيري بفعلي أنا، وإيران ما ورطتني أبدا وكل ما فعلته أنا هو دعوة العلماء لحضور مؤتمر يعمل على توحيد المسلمين فإذا كانت هذه عندكم جريمة فأنا غير نادم عليها.

وثارت ثائرته وصاح بأعلى صوته يشتمني ويسبني ويصفع وجهي.

في اليوم الحادي عشر لما أجلسوني قال لي:

أتدري لماذا جئنا بك؟ قلت: للبحث والتحقيق كالعادة، قال: لا في هذه المرة حانريحك تماما، لأننا قررنا إعدامك، وقد حكمت عليك محكمة أمن الدولة بالإعدام، ولكننا، في قانون الإعدام لا بد من تخيير المعدوم قبل إعدامه. وبما أنك تونسي تقيم في باريس نحن نخيرك في إرسال جثتك إلى أهلك في تونس أو إلى زوجتك في فرنسا.

قلت: لا حاجة لأهلي في تونس ولا لزوجتي في باريس بجثّتي فأنا أهديها لكم وإلى الباحثين في الجامعات الطبية.

قال: خلاص أنت إذا اقتنعت بما نسب إليك واعترفتَ، قاطعته قائلاً: ما اقتنعت ولا اعترفتُ، ولكن ما حيلتي معكم وأنتم تريدون اتهامي بتهم خطيرة أنا منها بريء تريدون أن تجعلوا مني كبش الفداء من أجل إدانة إيران، وصدق من قال: ودعوى القوي كدعوى السّباع من النّاب والظّفر برهانها.

قال رجل منهم: يا سلام إنت شاعر كمان؟ ثم وقف يلمس جسمي من كل مكان: قائلاً: بالتأكيد إن هذا الجسم لا يصل إلى ثلاث مراحل من التعذيب، إحنا عندنا عشر مراحل، وأقوى جسم جاء لنا لم يتعد ست مراحل فأنت مش حتتحمّل ثلاث منها، رأيك إيه؟!

قلت: لا رأي لمن لا يطاع، ومادمت بين أيديكم فافعلوا بي ما شئتم، والله سبحانه سيحاسب كل واحد بما اقترفت يداه.

أرجعوني إلى الزنزانة في ساعة متأخرة من الليل بعد تعب شديد فما أن ألقوا بجسدي وأغلقوا الباب حتى أغمي علي.

وفجأة أفقت على صياح ووجدت نفسي بين رجلين عسكريين وبأيديهما رشاشات صغيرة الحجم ورجل ثالث يسألني وهو يصيح:

اسمك إيه؟ قلت: التيجاني.

قال: اسمك أربعين يا كلب: ثم أعاد السؤال: اسمك إيه؟

قلت: إسمي محمد التيجاني فصفعني بقوة قائلاً: أنا قلت اسمك أربعين يا كلب قلت: خلاص إسمي أربعين. التفت إلى الذين يمسكون بذراعيَّ وأنا أرتعش كالسّعفة بين نوم ويقظة منهوك من التعب الذي واجهته كامل اليوم قال لهما: جاء الإذن بإعدامه حالاً، فانتظرا حتى يصل الضابط الموكّل بإعدامه.

وأيقنت بالهلاك فتشهّدت مرات عديدة وخارت قوّاي وارتخت ركبتاي وأنا أنظر لأول مرة بدون عصابة على عيني إلى عسكري واضع رشاشة فوق قلبي وكان الضوء من شباك الزنزانة خافتاً وكنت أسمع كثرة المشي بالأحذية

العسكرية ومن حين لآخر أسمع إطلاق رصاص وصياح، وخيل إلي أنهم أعدموا شخصين قبلي وبعد لحظات سيكون دوري.

وطال الانتظار، كلها عشر دقائق وكأنها عشر ساعات وجاء الضّابط ومعه إثنان آخران وكلهم مُدجّجون بالسّلاح وكثرت دقّات قلبي ولم أعد أُفكّر إلاّ في الشّهادة.

قال الضابط: اسمك إيه؟ قلت: أربعين وأنا ألهث وقد جف حلقي ولم يعد فيه ريق.

قال: أربعين إيه؟ ! فرد عليه أحدهم: هو رقم الزنزانة.

قال: عايز اسمه الحقيقي؟ فقال: التيجاني.

قال: تيجاني إيه؟ قلت: التيجاني السماوي من تونس.

فقال : أتركوه ليس هو في هذه الليلة. وتركوني بين الموت والحياة، أغلقوا الباب فلم أتحرك.

والغريب أنني أيقنت بالموت في تلك الأيام لأني رأيت في المنام أمي وأبي وهما ميتان من زمان، رأيتهما جاءا إلي وحملاني معهما في سيارة، وكنا نفسر أمثال هذه المنامات بالموت، فقلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنهم إن لم يعدموني هذه الليلة فسيفعلونها ليلة أخرى.

وأخرجوني في اليوم التالي إلى التحقيق ونزعوا ثيابي كلها وكتفوا يدي من جديد ووضعوا كمّاشة في حلمة ثدي اليمين وكمّاشة في حلمة ثدي اليسار وثالث في رأس الذكر وفهمت أن التعذيب سيبلغ أقصاه.

قال الأول: دي الوقت حيعترف بكل حاجة.

قال الثاني: يعترف أو ما يعترف ما يهمنيش فات الأوان.

تكلم صوت ثالث وقال: يا تيجاني دي آخر مرّة، ودي آخر فرصة، تكلم.

قلت: ماذا تريدون أن أقول؟ فلم أسمع جواباً، ولكن جوابهم كان هزة كهربائية خضت كلّ بدني فصحت صيحة عالية رغم أنفي لأنها خضة فجائية ووجع لا يوصف.

وتذكّرت أن الكهرباء ضربني مرتين أو ثلاثة في كلّ حياتي عندما ألمسه غير مبال، ولكن هناك فرق كبير بين لمسة بالأصابع وبين حلمة الثدي ورأس الذكر، وما إن رجعت لحالتي وانتهى صياحي حتى عاودوني هزة أخرى أقوى من الأولى، وأنا أسمع أحدهم يقول: صَعّد "الفولت" أكثر، وكثر صياحي وحاولت جهدي أن أصمد، أن أسكت، تمنيت أن يُغمى عليَّ كي لا أحس، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، وفي كل مرة يقول: إعترف يُصعّد قوة الكهرباء حتى سقطت على الأرض من شدة الرجّات وانفلتت الكمّاشات من جسدي في وجع رهيب ظننت أن لحمي انتزع معها.

أوقفوني من جديد، وأثبتوا الكمّاشات مرة أخرى في الأماكن المذكورة وأحدهم يقول: ألم أقلك أنك لا تتحمل ثلاث مراحل تعذيب، هو أنت بعدك في المرحلة الأولى، حتتكلم والاّ انخش في المرحلة الثانية؟

قلت: حاتكلم خلّوني أرتاح شوية! قال: ما عندناش وقت.

قلت: أرجوكم بلاش تعذيب اقتلوني وريّحوني: اكتبوا ما تريدون واعطوني أوقّع عليه.

وكان الجواب في هذه المرة بالكهرباء أقوى وأشد فصرت مرة أقفز وأخرى أسقط والصّياح جفف حلقي، ثم فقدت الوعي تماما وما شعرت بعدها بشيء.

استيقظت داخل الزنزانة وأنا عارٍ تماماً وثيابي مكدّسة بالقرب مني وكانت الشمس قد طلعت فما عرفت ترتيب الأيام وأخذت أعدّ من جديد الخطوط المرسومة وأحسب أنها أربعة عشر وتذكرت أنني أشرفت على يوم مولدي الذي يصادف الثاني من شهر فيفري، والذي كنت أقضيه مع عائلتي في فرح وسرور وتهاني، وها أنا اليوم أقضيه في زنزانة مظلمة نتنة تجول فيها الحشرات، ولكن همّ الزنزانة هان أمام هذا التعذيب المستمر، وهذه الإهانة اللامحدودة، فقد مرّ علي نصف شهر تقريبا ولم أدخل المرحاض إلاّ مرتين فقط، وهذا هو سروالي يسقط عندما أقوم وليس عندي حزام لربطه، وكلما لامست وجهي أحسّه كالقنفد، لا شك أن وجهي تغير كما تغير جسمي.

وفي مثل هذه الحالات لا يلجأ الإنسان إلاّ لخالقه، فتصوّرتُ أن اللّه سبحانه ابتلاني بهذه المصيبة لأنال من قربه: أو أنه عاقبني لأني كفرتُ ببعض نعمته وابتعدت عنه، أكثرت من الصلاة وقراءة القرآن. نصف شهر مضى وانقضى كلّه تعذيب نفسي وجسدي والجماعة ما عرفوا حقيقتي حتى الآن أو أنهم يعرفونها ولكنهم يريدون ضحيّة يلصقونها بإيران من أجل العداء المستفحل بينهما من يوم احتضنت مصر شاه إيران المخلوع الذي طردته حليفته أمريكا ورفضت كلّ الدول إيواءه ومنحه اللّجوء عدا مصر العربية الإسلامية فإنها آوته ومنحته اللجوء حتى مات ودفن في أرضها: من أجل ذلك أدانت إيران الحكومة المصرية. وها هي الحكومة المصرية الآن تبحث عن علّة لإدانة إيران، وما أسهل أن تدعي الحكومة المصرية بأن إيران تبعث بالإرهابيين لتدمير اقتصادها واغتيال شخصياتها والتدخّل في شؤونها الداخلية، وما أسهل أن يؤتى بشخص في التلفزيون ليعترف بما نسب إليه تحت تأثير التعذيب والتخدير وهذا آخر ما يلجأ إليه رجال السياسة لتبرير مواقفهم وأعمالهم.

لكن هيهات هيهات أن يكون ذلك مني فالموت والشهادة أحب إلي من ذلك لأني مقتنع بأن الذين يعترفون تحت وقع التعذيب بأشياء لم يفعلوها، يعدونهم بإطلاق سراحهم بعد الاعتراف، ولكنهم يقتلونهم ويموت سرّهم معهم وهذه الطريقة معروفة من أقدم العصور.

وبينما أنا أفكر والهواجس تراودني فُتح الباب ودخل الضّابط ومعه حماية يمشون وراءه، فنظر إليَّ وسألني إن كنت في حاجة لأي شيء، فقلت: لا، فخرج وأغلق الباب وفتح غطاء الثقوب الذي يفتح من خارج الزنزانة عندما يطرق السجين الباب لقضاء حاجته يطل عليه الحارس من خلالها ليعرف ماذا يريد.

واستغربت هذه الزيارة لأول مرة فنهضت لأطل من خلال الثقوب خارج الزنزانة ولأرى لأول مرة أبوابا حديدية لزنزانات متعددة تحمل أرقاما ولأرى بعض الحرّاس يغدون ويروحون وفي جانب رأيت حارسا يقود سجينا معصّب العنين فيصعد به ثلاث درجات وعرفت بأنه ذاهب إلى المرحاض لقضاء حاجته، قضيت كامل اليوم في انتظار الحراس الذين يذهبون بي إلى التحقيق

ولكن مرّ ذلك اليوم بسلام دون بحث وتحقيق وبت تلك الليلة نائما ولأول مرة أشعر بالرّاحة حتى الصبّاح.

قضيت الصلوات الفائتة وقررت أن أصلي مع كل فريضة فريضة أخرى لقضاء ما فاتني وقمت أمشي من الباب إلى الزاوية وأعد أربع خطوات وأنا أحفظ بعض سور القرآن التي نسيتها ومن حين لآخر أطل من ثقب الباب لأتفرج من خلالها على العسكريّين والمكلّفين بالحراسة. وأطرق الباب من وقت لآخر مّدعياً قضاء الحاجة وأنا أريد الخروج لأمشي قليلا خارج الزنزانة ولأقرأ بعض ما كتب على جدران الحمام من بعض المساجين.

ومرّت أيام وأنا أعدّها ففي كل سطر رسمت عشرة خطوط وها أنا الآن معي أربعة أسطر، أربعون يوما انقضت داخل الزنزانة معنى ذلك أني أشرفت على شهر مارس. قضيت نصف شهر منها في التعذيب ومن يوم عيدي ميلادي تقريباً ما أُخذت للتحقيق وقد نسوني تماما أكثر من شهر بعد التعذيب مر بسلام في صباح كل يوم يأتيني الضابط ومعه حراسته فيزورني ويسألني إن كنت أريد شيئا ثم ينصرف حتى تعوّدتُ على موعده من خلال سماعي لفتح أبواب الزنزانات الواحدة تلو الأخرى، فهو يؤدي زيارته لكل المساجين ويبدو أنه لا يزور إلا المساجين الذين أكملوا التحقيق.

الحمد لله تعوّدتُ على تلك الحياة البسيطة جسمي خف كثيرا حتى صرت أربط جنبات السروال لكي لا يسقط، جاءني أحدهم وحلق ذقني حلاقة سوف لن أنساها.

زارني مرة الممرّض الذي أهداني مصحف القرآن، وفرحت بزيارته ومرة أخرى تكلمنا عن سجن سيدنا يوسف، فقلت له مداعبا: المصريون هم الذين سجنوا سيدنا يوسف ظلما، وسجنوني ظلما، فضحك من قولي وقال: الصبر مفتاح الفرج.

وقلت في نفسي: لو أن زوجتي وبناتي يعلمن مصيري، ولو أني أنا أيضاً أعرف مصيرهن وما وقع لهن طيلة غيابي لصبرت سنة كاملة ولكن من يعلم كم سيطول بقائي وما هي نهايتي الله وحده يعلم، فما علي إلا بالصبر أحببت أم

كرهت. وحفظت نصف المصحف الشريف بعدما كدت أنساه وحمدت ربي على العافية وأصبح عندي بصيص من الأمل في الحياة والخروج من هذه المصيبة والاجتماع بعيالي فأقول: "وهو على جمعهم إذا يشاء قدير."

وفي ليلة بكيت فيها كثيرا وصليت فيها كثيرا وتوسّلت بمحمّد وآل بيته كثيراً،رأيت فيها أمير المؤمنين سلام الله عليه، نعم سيدنا علي بن أبي طالب كما عرفته في الصورة الجميلة التي اشتريتها أول مرة زرت فيها النجف الأشرف.

إبتسم إلي طويلاً وقال: لا بأس عليك اليوم ستخرج إن شاء الله، واستيقظت مستبشرا فرحاناً مستيقناً، لأني رأيته مرة وأنا في تونس موقوف في أمن الدولة وبشرني بالخروج مثل هذه المرة وخرجت لوقتي.

قمت أتوضأ وأصلي وأحمد اللّه سبحانه على تلك الرؤية وما أن جاء الضّابط لزيارتي كالعادة في الصباح وسألني إن كنت عايز حاجة قلت: نعم أريد ورقة وقلم، وجاءني في الحال بما طلبت وكتبت رسالة إلى وزير الداخلي: أشرح فيها قدومي إلى مصر واتصالي بالأشخاص الذين ذكرتهم ودعوتهم لحضور مؤتمر الوحدة في إيران وذكرت له أن رجال الأمن أوقفوني من مدة شهر ونصف ووجّهوا إليّ اتهامات أنا منها بريء، فإن كنت اخترقت القانون فأطلب محاكمتي علنياً وإلاّ فالرجاء إطلاق سراحي فوراً لألتحق بعيالي الذين ينتظرون قدومي ولا يعلمون عني شيئاً.

سلّمتُ الورقة والقلم للحارس الذي كان واقفا ينتظرني، وبقيت أفكّر في الرؤيا التي رأيتها، ولما جاء وقت العصر وقفت أصلي وإذا بالباب يفتح هذه المرة على مصراعيه والحارس يقول: جاك الفرج يا تيجاني.. وسقطت على الأرض ساجدا أشكر الله سبحانه وأحمده وبعد قليل أدخلوا علي طه وعبدو، وتركونا لوحدنا وتبادلنا النظرات فالسجن قد أبدل ملامحنا طيلة هذه المدة وكان طه محلوق الرأس تماماً وأما عبدو فكان يرتعش ويقول: سيعدموننا، فرد عليه طه:ما يعدمونا ويريّحونا،سألتهم عن أحوالهم قالوا:نحن بخير وكنّا خائفين عليك.

كنّا ثلاثتنا في الزنزانة التي بقي بابها مفتوحا لأول مرة وكان طه يجلس أقرب إلي من عبدو الذي بان عليه الاضطراب والخوف وهو يقول من حين

لآخر وكأنه يسألني: سيعدموننا؟ فأقول: لا اليوم سنخرج إن شاء الله أبشّركم كما بشّرني أمير المؤمنين.

التفت إلي طه يقول : أتدري من كان وراء هذه المصائب؟

قلت: لا. فقال: بصوت خافت إنه عبد الباسط.

استغربت وقلت متعجباً: الشيخ عبد الباسط عبد الصمّد؟! !

قال: هو لا غير، قلت: وكيف عرفت ذلك؟

قال: إن خالي يشتغل في أمن الدولة، وقد جاء لزيارتي هنا في السّجن وحكى لي كل شيء وأوصى الحرّاس المكلفين بي لحسن معاملتي.

كنا نتكلم همسا خوفا من المكايد التي قد تحصل.

وبعد ربع ساعة تقريبا أوقفونا وعصّبوا أعيننا وجعلوني في المقدمة وخلفي طه ويداه على كتفي وعبدو من خلف طه ويداه على كتفيه وساقونا إلى غرفة حيث كشفوا عن أعيننا وأخرجوا عبدو وطه من الغرفة وبقيت أنتظر وحدي، جاؤوني بالشنطة التي فيها ثيابي وأدباشي حسبوا الفلوس أمامي، وقلت: ناقصة سبعمائة دولار. انتهرني المكلف: أتتّهمنا بالسرقة؟ ! غمزني العسكري الذي كان يقودني وأخذت شنطتي فاستلمها العسكري وأخرجني إلى سيارة المساجين هناك وجدت طه وعبدو راكبين وما أن سارت السيارة قليلاً وطه ينظر من الثقوب فقال: نحن كنا في سجن القلعة، طبعاً كان طه وعبدو مكتفين مع بعضهم وأنا كنت مكتّفا مع العسكري، سألته: أين نحن ذاهبون، فقال: أنت خرجت من القلعة اللي داخلها مفقود وخارجها مولود، ما تروح في داهية بعد خروجك منها.

أنزلونا في سجن بوزارة الداخلية وهناك في قاعة مفروشة بالموكيت الأخضر جلست أنا وطه وعبدو بينما جلس حارس خارج الباب، وتمكّنت من الكلام مع طه بأكثر تفاصيل وشرح لي بأن عبد الباسط عبد الصمد له ولدان أحدهما يعمل في المخابرات كما حدثني بأن مدير الأمن أو نائبه هو الذي حضر معنا في مأدبة الغداء التي أقامها عبد الباسط. ووجدت فرصة لأعتذر لعبدو الذي هدأ روعه واطمأنّ وقلت له: بلّغ سلامي إلى أمك واعتذاري إليها وفهمّها بأنّي بريءٌ كما أنتما بريئان.

فقال طه: بالمناسبة نحن ما ضربونا ولا عذّبونا وإنما قيل لنا لا تخرجان إلا إذا خرج التيجاني، وليست هناك تهمة موجهة إلينا غير أنه قيل لنا كان من المفروض أن تخبرا السلطة المحلية بقدوم أجنبي عندكم.

فقلت: أكنتما مع بعضكما في زنزانة واحدة؟

قالا: بلى، وكنّا طيلة الوقت نفكّر فيك لأننا نعرف براءتك. تحدثنا ولأول مرة ارتسمت على وجهي ضحكة وأنا أنظر إلى الحلاقة التي تغيّر بها رأس طه، فضحك هو الآخر قائلاً لو رأيت وجهك لضحكت أكثر.

بعد ساعة جاء الحارس ينادي طه وعبدو فقاما مسرعين وقمت أقبلهما وأودّعهما وأنا أتمنّى بقاءهما معي، ولكن أمّيهما وعائلتيهما أولى مني فهما لا شك في شديد الشوق وسيجمع الله شملهم جميعا بعد الفراق.

أما أنا فبقيت أنتظر حتى نادوا على إسمي خرجت فصعدوا بي في مصعد كهربائي إلى الدور الرابع وأدخلوني مكتبا، وهناك وجدت رجال الأمن الذين هجموا على البيت ليلة إلقاء القبض علي، وكلّهم يلبسون البدلات المدنية فاستقبلوني بالترحيب والابتسام، قائلين:

حمدا للّه عالسلامة يا دكتور: كيف الحال؟

قلت: الحمد للّه والشكر له في السراء والضراء.

قالوا: لا تؤخذانا فنحن ننفذ أوامر تأتينا من فوق.

قلت: لا لوم عليكم، إنه إبتلاء أحمد الله عليه.

أجلسوني وجاؤوني بعصير بارد وداروا حولي يقولون:

شوف يا حضرة الدكتور، الإنسان المتّهم الذي تثبت براءته أفضل من البريء الذي تثبت إدانته، وأنت ثبتت براءتك والحمد لله.

قلت مبتسما: ولكنها لم تثبت حتى أشرفت على الهلاك.

قالوا: ما عليش كل شي حيرجع كما كان والمثل يقول تكبر وتنسى.

ثم بدأوا يسألونني عن رأيي في جمال عبدالناصر والسَّادات ضحكت قائلا:

هيهات أن تسمعوا مني كلمة واحدة، فلولا لساني ما دخلت سجنكم ولعله كان لي من أكبر الدروس والمواعظ.

ضحكوا من قولي، وسألوني إن كنت أريد منهم شيئاً. قلت:

أتوسل إليكم أن تسمحوا لي أتلفن لزوجتي في باريس لأطمئنها هذه أكبر خدمة تقدمونها إليَّ.

قالوا: نأسف لذلك لأن كل التلفونات التي عندنا في المكاتب ليس لها خط خارجي كلها داخل مصر. وبعد ساعة جاءني ضابط فكتّف يديّ بالحديد وحمل شنطتي وخرج بي من وزارة الداخلية وركبنا سيارة، أعطيته عشرين جنيهاً حتى يعلمني أين نحن ذاهبون. قال: إلى التّخشيبة.

قلت: وما هي التّخشيبة؟ قال : هي هيلتون بالنسبة للقلعة، ووصلنا إلى التخشيبة وهي سجن يوضع فيه الموقوفون الأجانب الذين سيسفّرونهم إلى بلدانهم، سلمني للمسؤول هناك بعد أن أسرّ له حديثاً فهمت فيما بعد فحواه، قال لي المسؤول يا دكتور إذا كان معاك "مصاري" ضعها عندي في الأمانات لأن داخل السجن حرامية، فوضعت كل الدولارات الباقية عنده وما تركت عندي غير الجنيهات المصرية التي لا تتعدى المائة والخمسين، سهرت معه وعرّفني على دكتور سوداني سجنوه ويريدون تسفيره لأنه انتقد وحدة السودان مع مصر حسب ما يقول.

دخلت إلى قاعة المساجين فإذا فيها أسرّة وفرش وكأنها مبيت جامعي ويوجد مراحيض وأدواش ورأيت وجهي هناك في المرآة لأول مرة منذ إيقافي، وما عرفت نفسي، بكيت التف حولي جمع من السجناء وأغلبهم أجانب فرنسيون وهولنديون وغيرهم موقوفون من أجل المخدّرات وينتظرون تسفيرهم، تكلّموا معي بالفرنسية أعطوني أدوات الحلاقة والصابون ولأول مرة بعد شهرين أو أكثر أدخل الحمّام لأُطهّر جسمي الذي نقص نصفه.

وخرجت من الحمّام لابسا ثيابا نظيفة كانت في شنطتي وأخذت آلة التصوير وطلبت من بعضهم أن يلتقط لي بعض الصور التذكارية.

بتَ تلك الليلة وأنا أتلهّفُ على الرجوع إلى عائلتي وكلّما حاولت الإتصال بهم لم أتمكن لأن الخطوط كلّها داخلية حسبما يقولون.

وبقيت في التخشيبة ثلاثة أيام أخرى في كل يوم أطمع في السفر بدون جدوى ونصحني الدكتور السوداني بأن أشتري تذكرة السفر من فلوسي وإلا سأبقى أنتظر أكثر من شهر حتى يتّصلوا بالسّفارة التّونسية التي تتكفّل بعودتي إلى أرض الوطن على حسابها وهناك سيكون مصيري السجن أيضاً.

وكان الأمر كذلك ودفعت خمسمائة دولار لشراء تذكرة السفر من القاهرة إلى باريس وجاءت التذكرة بعد يومين، وما أطول اليومين أحسب الساعات والدقائق.

وجاء يوم السفر وكتّفوني بعدما ودّعوني وسلّموني ما تبقى من الدولارات وهي ما يقرب من ألفين وخمسمائة دولار وفي المطار أدخلوني بابا غير باب المسافرين وأنا مكتوف الأيدي يحمل شنطتي عسكري سألني خلسة: عندك فلوس؟ قلت: لا أدخلني من باب الجمارك بعدما سجل شنطتي وهناك فتّشني رجل الجمارك وأخرج الدولارات قائلا: أنت مهرب عملة؟ قلت: أنا مسجون من شهرين وهذه الفلوس ليست ملكي: قال: إذا كنت تريد ترجع إلى مصر وتقوم بقضية وتثبت أنها لك إرجع.

وحاولت أن أتوسل إليه ولكن العسكري الذي كان يقودني جذبني بشدة وأخرجني وهو يقول: تريد أن ترجع ثاني إلى القلعة، خلّص نفسك يلعن أبو الفلوس.

وتبعته متحسّرا على المؤامرات التي لازالت تحاك ضدّي ولكن قلت كما قال: يلعن أبو الفلوس بعد سراحي.

أصعدني إلى الطائرة التي كانت في انتظاري وفي المقعد الأمامي فكَ قيودي وأجلسني وسلّمني بطاقة الركوب وتسجيل الشنطة، ونزل وأُغلق باب الطائرة استعدادا للإقلاع.

جلست أبكي وأنا لا أُصدّق أن الطائرة ستقلع، أبكي للغلبة، أبكي للظلم والقهر، أبكي لدخولي إلى الطائرة على تلك الحالة وكأني مجرم ونظرات الركاب إلي وهم لا يعلمون قصتي وما وقع لي.

جاءت امرأة فرنسية كبيرة في السن جلست إلـــى جـــانبي أخـــذت بيـــدي وأمسكتني، سألتني عن قصتي، حكيت لها باختصار، قـــامت ورجعـــت ومعـــها طبيب وبعض الركاب من الفرنسيين عرفت بأنهم فريق سواح، فحصني الطبيـب بالسّماعة وكشف عن صدري وظهري، ثم أعطاني إبرة وألقمني بعض الحبوب، وكانت الفرنسية العجوز تبكي لبكائي وتقول: إنهم وحوش مجانين، إنهم تجسّسوا علينا كثيرا، سألتني عن زوجتي وأطفالي وأعلمتها بجهلهم بما وقع لي، وكيـــف أنهم ينتظرون قدومي منذ شهرين أو أكثر.

أعطتني عشرين فرنكاً فرنسياً ورجتني أن لا أدخل علـــى بيتـــي إلا بعـــد مكالمتهم بالتلفون من مطار باريس.

ثم أعطتني صندوقا من الحلويات المصرية التي اشترتها لنفســـها وقـــالت: هذه تقدمها لزوجتك وبناتك، شكرتُها كثيرا على شهامتها وإنسانيتها وكنت طيلـــة الرّحلة أبكي وهي تحاول تسليتي، ومن وقت لآخر يأتيني طبيبـــهم ويفحصنـــي وأفهمني أن أعرض نفسي على طبيبي الخاص في باريس بعد الوصول.

نزلت من الطائرة، ودّعت المجموعة السيّاحية الفرنسية وخرجت اســـتلمت شنطتي ثم توجّهت إلى التلفون وسمعته يرنُ في بيتي وسمعت صوت زوجتـــي فأجهشت بالبكاء وأنا أقول: أنا تيجاني. وسمعت الصيّاح وازداد نحيبي وخـــارت قواي وسمعت ابنتي الكبرى تقول وتصيح: أنت وين يا بابا، قلت: أنا في المطار بعد نصف ساعة أجيكم، وعلقت التلفون وأنا لا أصدق أفي حلم أنا أم في يقظة.

وكان اللّقاء وياله من لقاء، كل من في البيت يبكي وكأنها جنـــازة. ابنتـــي الكبرى لمّا نظرتني أُصيبت بصدمة نفسية، فبقيت تبكي يومان كاملان ولا تتكلـــم بشيء حتّى خفنا عليها وابنتي الصغرى أنكرتني وما عرفتني إلاّ بعـــد أســـبوع كامل.

واكتشفتُ بأنّ وزني قد نقص تسعة عشر كيلو وأنّ جسمي أصبح عليـــلاً، فهذه أذني اليمنى لا أسمع بها فقد ثقبت طبلتها وهذا ظهري فيـــه فقرتـــان مـــن العمود إحتكّتا وسببتا لي عرق النسا وبقيت أعالج طيلة شهرين كاملين من أجـــل مرض الكلى أيضا الذي سببه التعذيب وشرب الماء المتعفّن وستبقى آثار كـــلّ

هذه الأمراض تلازمني إلى ما تبقّى من حياتي حسبما تثبته التقــــارير الطبيّــة، والحمد للّه أولا وأخرا فكم من بريء عذّب عذابا لا يطاق حتـــى مـــات تحــت التعذيب. وهكذا هي الدنيا ينعم فيها الفسّاق الذيـــن يشـــربون الخمــر ويزنـــون ويأكلون أموال النّاس بالباطل والسرقة، فلا أحد يحاسبهم أو يستنكر عليهم، أمّـــا المؤمنون الذين يلتزمون صراط اللّه المستقيم، أمّا المسلمون الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويهربون من الفاحشــــة، فهؤلاء تُحسب عليهم أنفاسهم ويُسجنون ويُعذّبون لمجرّد شبهة سياســـية وتقطــع رؤوسهم لأنهم انتقدوا النظام أو شتموا رئيس الدّولة، فهل يخفى علـــى أحـــد أنّ الذي يسبّ اللّه لا يستنكر عليه أحد، بينما يذوب الذي يسبّ الملك أو الرئيس كما يذوب الملح، وهذا ما يقع في كلّ الدوّل العربية ولذلك تسمع الكفر وسب الجلالــة بشتى الألوان في كلّ البلاد العربية ولكنّك لا تسمع أبداً مـــن ينتقــد الملــك أو الرئيس فضلاً عن سبّه.

وهكذا هي الدنيا الدّنيئة التي كلّ شيء فيها معكوس، إذ يقتل العالم الجليـــل محمد باقر الصّدر الذي ملأ فكره وعلمه الخافقين فلا يسمع به أحد بينما يمــوت عبد الحليم حافظ المطرب الذي ملأ غناؤه الخافقين فتقوم مصر بأكملها والعــــالم العربي ويعلن الحداد وينتحر النّاس لخبر موته. فَعلى الإسلام السّلام وعلى الدنيا العفا ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العلي العظيم.

الـــرّحلــة الحجازية

الحجاز أو المملكة العربية السعودية

مساحتها: 2.150.000 كلم مربّع

عدد سكانها: 19 مليون نسمة

موقعها الجغرافي: القارة الآسيوية

عاصمتها: الرّياض

حدودها شمالاً: الأردن والعراق

وشرقاً: الكويت والإمارات

وغرباً: البحر الأحمر

وجنوباً: اليمن وعُمان



الـــرّحلـة الحجازية

بسم الله الرحمان الرحيم

﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل اللـّه، والمسجد الحرام الذي جعلنـــاه للنّاس سواء العاكف فيه والباد...﴾ الحج 25.

كانت هذه الآية الكريمة هي شعار المؤتمر الذي أُقيم في مدينة باريس باسم مؤتمر الحج والذي أشرفت عليه جمعيّة الطلبة المسلمين بفرنســـا وكنـــت مـــن المسؤولين على إدارته وقد دعوتُ له من تونس عشرة أشخاص وشاركتْ فيــــه أكثر من عشرين دولة عربية وإسلامية، وألقيتُ فيـــه المحـــاضرات والكلمـــات ودارت فيه النقاشات والندوات وكان الجميع متفقين علـــى تفســـير هـــذه الآيـــة الكريمة، بأن اللّه سبحانه وتعالى قد جعل المسجد الحرام ملكا لجميع المســـلمين لا فرق بين الذين يقطنون بإقامة دائمة والذين يسكنون بعيدا عنه وهو معنى قوله تعالى: **﴿جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾** .

فلماذا تحتكره المملكة السعودية لنفسها فيصبح من أملاكها الخاصة فتســـمح لمن تحب بدخوله وتمنع منه من لا تحب.

وجوهر الفكرة هو مطالبة الدول العربية والإسلامية بجعل بيت اللّه الحـــرام مستقلاً عن كل الدّول، أو ملكاً لكل الدول الإسلامية التي تتولى شؤونه بـــالتداول والتناوب كما أراده اللّه تعالى.

وهذا طبعاً لا يعجب المملكة العربية السعودية ولا توافق عليه أبداً بل تعتبر من يدعو لهذه الفكرة عدوّاً لها.

ولا شك أن أخبار المؤتمر وتوصيّاته قد وصلت إلى المسؤولين في المملكة بما لديهم من وسائل الاستخبارات العالمية. ولا شكّ بأنّ قائمة المشـــاركين فـــي المؤتمر باتت معروفة لديهم فأصبحت بعض الأسماء مرسومة عندهم فـــي مـــا يسمّونه بالقائمة السوداء، ولا شك بأن اسمي كان من بينهم.

وفي العام التالي نويت الحجّ إلى بيت اللّه الحرام بصحبة حماتي البالغة من العمر ثمانين عاماً وابني شرف الذي كان عمره ست عشرة سنة ليخدمنا ويقوم بشؤوننا.

ولمّا علم بعض أصدقائي بذلك عزموا على الحجّ أيضا فكان عددهم إثني عشر من الطلبة الجامعيين والدكاترة المتخرّجين، وكل هؤلاء كانوا من المستبصرين الذين يتراودون على مكتبة أهل البيت(ع) في باريس وهم من التونسيين والجزائريين، أضف إلى هؤلاء خمسة من اللبنانيين أذكر منهم السيّد محمد باقر فضل الله أبو جعفر.

واتفقنا على الحج الجماعي كي لا تكون المصاريف باهظة وتكون إقامتنا بأقل التكاليف وبما أني أعرف السعوديّة من قديم وقد حججت قبلها مرتين أخذت على عاتقي مسؤوليّة إيجار البيت وما يلزمنا من تغذيّة على أن تُقسم المصاريف بالتّساوي على كل أفراد المجموعة وكما يقال "حمل الجماعة ريش" ويد الله مع الجماعة.

وسافرتُ إلى المدينة المنوّرة مع حماتي وابني قبل المجموعة بأسبوع للتحضير، واخترت لإقامتنا فندقاً مريّحاً من النّمط المتوسّط في شارع أبي ذر الغفاري لأني أحب هذا الصحابي الجليل وأحترم مواقفه البطوليّة، واتفقت مع المسؤول على إدارته وكان مصرياً أن يحجز للمجموعة غرفتين في كل واحدة ثمانية أسرّة باعتبار أن أحد اللّبنانيين "أبو علي" سيحج بصحبة زوجته وستكون إقامتهما معنا في نفس الغرفة التي يسكنها ابني وحماتي وأعطيت للمسؤول تسبقة على شرط أن لا يحسب الإيجار إلاّ ابتداء من قدوم المجموعة.

واكتشفتُ بأنّ البعثة الإيرانيّة للحجّ التي توفدها الجمهوريّة الإسلاميّة من إيران ينزلون في عمارة بجانب الفندق.

فكنت طيلة الأسبوع أتردد عليهم بصحبة ابني شرف وتعرّفت على بعض العلماء الكبار من بينهم، واقترحوا عليّ الإقامة معهم مجاناً فاعتذرت لهم بأن إيجار الفندق قد دفع مسبقا وأني لست وحيداً.

بعد أسبوع وصلت المجموعة،وبدأت ملاحتقهم من المطار فقد انتزعوا منهم كل الجوازات وطلبوا منهم مراجعة أحد المكاتب في المدينة المنورة، وبما أنهم يعرفون عنوان الفندق ووصلوا متعبين وضعوا أمتعتهم وخرجوا متفرقين يبحثون عني وأعلمهم إبني شرف بأني ذهبت لاستقبالهم ولما طال انتظارهم استضافهم بعض الإيرانيين ووجدوا الأكل والشرب والمكيّفات فبقوا هناك حتى رجعتُ فأعلمني إبني شرف أن بعض السعوديّين قد أخذوا صلاح البطل ومعه محمد خليفة أحد اللّبنانيين إلى حيث لا يعلم وأراني المكان الذي كانوا يجلسون فيه، فرأيت أنّ دكانا مقابل العمارة التي تسكنها البعثة الإيرانيّة، فيه أربعة من رجال الأمن والاستخبارات يرتدون اللّباس المدني فلا يعرفهم إلاّ من عنده خبرة بهم، وهم يراقبون كلّ من يدخل أو يخرج من عند الإيرانيين فإذا عرفوا بأنّه غير إيراني أخذوه وسلّموه إلى فرقة مختصّة تحمله إلى حيث يعلم اللّه سبحانه.

واتّصلتُ على الفور بالسيّد محمد باقر فضل الله الذي كان هو الآخر يبحث عنّي واتّجهنا إلى المكتب لكي نستلم جوازات السّفر المحجوزة والتي لا بدّ منها كي يتم تسجيل المجموعة في الفندق بالأمور القانونيّة وفي الطريق تحدّثنا عن صلاح البطل واللبناني محمد خليفة الذين أخذتهما الشرطة السعوديّة واستزهدنا الأمر وقلنا سنبحث عنهما بعد استلام الجوازات.

واستقبلنا صاحب المكتب على أنّه مطوّف وفرح بنا وقال سأعطيكم الجوازات كلّها بعد أن تشربوا معي الشاي، وتكلّم في التلفون يطلب لنا الشاي وجلسنا ننتظر وصول الشاي. وبدل وصول الشاي وصلت سيارة عسكريّة بها ثلاثة من رجال الأمن فأركبونا السيارة وخرجت تجوب شوارع المدينة حتى خرجنا من المدينة المنورة في طرقات غير مألوفة ولا معروفة ووصلنا بعد نصف ساعة إلى عمارة في الخلاء قائمة وسط الرّمال وحدها، فوجئنا عند نزولنا ودخولنا إلى العمارة بكل المجموعة وهم جالسون في قاعة كبرى على الأرض المفروشة "بالموكيت" بما فيهم صلاح البطل ومحمد خليفة ومعهم أحد الحرّاس القائمين على منعهم من التحدث مع بعضهم البعض وهو جالس على أريكة يراقب الجميع.

بعد ربع ساعة من الانتظار وتبادل النظرات جاء أحدهم ينـــادي باســمي وأصعدني بعنف إلى الطابق الرابع في مصعد كهربائي حيث أدخلني وهو ماسك بذراعي إلى قاعةٍ أُحكم بابها بجلد مصفّح وتركني وأغلق الباب من خلفي.

بقيت واقفا وأنا أنظر أمامي إلى مكتب جلس عليه أحد الرجال يبــدو مــن ملامحه أنّه مسؤول المخابرات في المدينة المنّورة، وقد ارتدى اللّباس السّــعودي الفخم كلباس الأمراء وعلّق على صدره مسدّساً مستطيلاً ما رأيت مثله حتى فــي أفلام رعاة البقر الأمريكية، نظر إليّ ثم قال: قرّب هنا، ففعلت، قــال: إجلــس، جلست، قال: إغلق الباب وتحركت فوق الكرسي حركة لا إرادية ثم قلت: البــاب مغلق.

وفهمت بأنّه يعلم ذلك غير أنّه يستفزني ويريد اختبار ذكائي كما يقولون.

قال: إش اسمك؟ ذكرت إسمي وكنيتي.

قال: شو مهنتك؟ قلت أستاذ في جامعة السوربون بباريس، فقام غاضبا مــن مجلسه وجاء نحوي شاهرا المسدّس في وجهي وهو يقول: يا نجس، أنت جئــت للبلد الأمين والأرض الطاهرة تريد تنجيسها والعبث فيها، إحنا نقتلك ونرتاح مــن شرّك يا خبيث.

داخلني الخوف والفزع من تهديده وصياحه واحمرار عينيه وتساءلتُ مــاذا فعلت حتى أستوجب كل هذا السبّ والشتم والإهانة وأنا من ضيــوف الرحمــان جئت لأداء فريضة الحجّ.

وأدركت في لحظات، خطورة الموقف، وتذكّرت مشــاركتي الفعّالــة فــي مؤتمر الحجّ الذي أقيم العام الماضي عندنا في باريس وكنت من المشرفين عليــه والدّاعين إليه، وقلت في نفسي: جاء وقت الانتقام منك يا تيجاني فلا تلم إلاّ نفسك لأنّك جئت إليهم طائعا بعدما أثرت ضدّهم عديد العلماء والمفكّرين مــن خــلال المحاضرات والمقالات.

وتصوّرت أنني ميّت لا محالة لما أعرفه عنهم من غلظة وقسوة وتهوّر في قتل الأبرياء الذين يخشون تأثيرهم في النّاس، وقد قتلوا عديد الشخصيات لمجّــرد الكتابة ضدّهم والتعريف بهويّتهم.

وأدركتُ بأنّي ارتكبت هفوة كبيرة عندما صاحبت السيد أبو جعفر إلى "المطوف" دون أن يعلم أحد بمسيري ولا حتى إبني.

وجالت بخاطري وهو يهدّدني والمسدّس أمام وجهي أن أتوسّل إلى اللّه سبحانه بمحمد وآل بيته الطّاهرين عليهم السّلام لينقذوني من هذه الورطة.

فاسترجعت أنفاسي وهدّأت من روعي وكلّمتُه بهدوء في غير انفعال، قلت لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم : يا شيخ ماذا فعلتُ حتى تتهمني بهذه التهمة الشنيعة وهي قدومي لتنجيس الأرض الطّاهرة والعبث فيها؟.

قال: لأنّك جئت بمجموعة من المخرّبين وتريدون مشاركة الإيرانيين في أعمالهم الإرهابية!

قلت: أين رأيت مجموعة المخرّبين والإرهابيين وهل يعقل أن تكون حماتي العجوز وابني القاصر من المخرّبين؟ قال: كلّهم موقوفون معك هنا وقد اعترفوا بذلك. ولم تنطلي عليّ حيلته فقلت بهدوء:

إتق اللّه يا شيخ هؤلاء دكاترة وطلبة جامعيون وكلّهم من المثقفين ولا يعرفون الإرهاب والتخريب ولا يعترفون به؟ وقد قدمنا كلّنا لأداء فريضة الحجّ من باب: وتعاونوا على البرّ والتقوى، ونحن إنّما اجتمعنا لمصلحتنا الدنيوية والأخروية.

قال: لماذا كان اتصالكم بالبعثة الإيرانية فور وصولكم إلى المدينة؟

قلت: إنه من باب الصّدفة، عند وصولهم إلى الفندق لم أكن أنا موجود هناك فدخلوا إلى عمارة الإيرانيين الذين فرحوا بهم وقدّموا لهم الأكل والشرب البارد وكانوا متعبين فاستحسنوا البقاء عندهم إلى حين قدومي.

قال: إنّك تعترف بدخولهم عند الإيرانيين والإقامة معهم على الأكل والشرب وهذا دليل يكفيني.

قلت : هل كان الإتصال بالإيرانيين والأكل عندهم يعدّ عندكم جريمة يعاقب عليها قانون المملكة؟وإذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد فرض على المسلمين حج البيت ليشهدوا منافع لهم، فإن من أكبر المنافع لهم، وأعظمها أن يتعرّف

المسلمون على بعضهم البعض، قال سبحانه:**﴿يأيها النّاس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾** الحجرات 13، وأنت تقول بأن تعارف الشعوب ببعضها ببعض هو إرهاب وتخريب، فهل نترك قول اللّه سبحانه ونتبع قولك، ثم إذا كنتم تعتقدون بأن الإيرانيين إرهابيون ومخرّبون فلماذا لا تمنعوهم من الدّخول إلى المملكة وتستريحوا أنتم كما تريحوا الناس من مشاكلهم وفتنتهم؟

قاطعني قائلاً: أنا أعرف أنك دكتور فلسفة فلا تتفلسف علي؛ فقط أجب على أسئلتي، فما جئتُ بك هنا حتى تعلّمني تفسير القرآن.

قلت: تفضل إسأل حتى أجيبك. قال لماذا شاركت الإيرانيين في مسيرتهم بالأمس؟ قلت: سمعنا بمأساة صبرا وشاتيلا فخرجنا معهم نهتف: الموت لإسرائيل الموت "لبيغن"

قال: أنت شيعي أو سني؟

وجاء الجواب فورا بدون تفكير ولا أدري كيف تكلّمتُ:

نحن في تونس كلّنا سنة مالكية ليس عندنا شيعة في تونس واستغربت أنا في نفسي في الردّ السريع الذي خرج بدون تفكير وفهمت بأن التقية هنا لا مفرّ منها بل لا بدّ منها، وإلاّ سيحمّلني هذا المسؤول تبعية الإيرانيين وسأجرّ المصائب على كلّ المجموعة البريئة.

أعاد السؤال: أنت شيعي أو سني؟ ما تحدثني على تونس وسكان تونس أنا اللي يهمني شخصك أنت فقط؟

قلت: أنا سنّي مالكي.

قال : أنت متأكّد مما تقول؟

قلت: بلى كما أني متأكد من وجودي معك في مكتبك.

قال: فما هي علاقتك بفضل اللّه وهو شيعي؟

قلت: هذا أستاذ معي في الجامعة وهو زميلي وأنا أعرف أفكاره إنه شيعي قريب جداً من أفكار أهل السنّة وأنا أطمع أن أهديه إلى الحق إن شاء اللّه.

قال: أتدري أن اللّبنانيين الذين معك في المجموعة كلّهم شيعة؟

قلت: لا علاقة لي باللّبنانيين إنما جاؤوا بصحبة السيد محمد باقر فضل اللّه وهم يحترمونه ويقدّمونه وإذا ما اهتدى إلى الحق فسيؤثّر فيهم أيّما تأثير، قال: والبقيّة من الجزائريين والتّوانسة؟

قلت: علاقتي بهم إمّا زملاء وإما تلامذتي الذين درّستهم وفيهم من يقرب إليّ نسبيّاً كصلاح البطل وناصيبور الشريف. فهما من قفصة وهما تلامذتي من أيام طفولتهم.

وبدأ الشيخ يهدأ شيئاً فشيئاً حتى جلس قبالتي وهو يعاود سؤاله للمرّة الثالثة، إذا أنت لست شيعياً؟

وحتى أطمئن قلبه وأهدّئُ من روعه قلت له مشمئزاً: أي شيعة يا شيخ؟ هؤلاء الذين يعتقدون بزواج المتعة وبالمهدي المنتظر الإمام الغائب، وقد قرأت عنهم أشياء عجيبة وغريبة.

وانقلب الرجل على هذه الكلمات الأخيرة من عدّو قال إلى محب غال، فاستدعى أحد الحرّاس بالجرس وأمره أن يأتيني بالقهوة، وبدأ الرجل ليّناً في كلامه وهو يخطب ودّي قائلاً: أتدري من هم القادمون في البعثة الإيرانية؟ قلت: لا أعلم.

قال: إنهم المجرمون الذين كانوا يحتجزون الرهائن الأمريكان في طهران والذين يسمّونهم بحرّاس الثورة.

قلت متحسّراً: مساكين الأمريكان، لقد ذاقوا العذاب الأليم وهم أبرياء لا ذنب لهم إلاّ أنهم من السلك الديبلوماسي العاملين في إيران.

وزاد إطمئنانه إليّ أكثر فأكثر عند سماعه هذه الكلمات فأصبح يناديني يا حضرة الدكتور يا شيخ التوانسة. وزاد إعجابه بي حتى رشّحني لجائزة الملك عبد العزيز.

وحكيت معه على أوّل زيارتي للمملكة في سنة 1964 في زمان الملك فيصل بن عبد العزيز وقد صافحته شخصيّاً وأكل من عندي البقلاوة التونسية، وسُرّ سروراً كبيراً معتذراً إليّ عمّا صدر منه من التّهديد في الأوّل، فقلت له:

هذا من حقّك يا شيخ وطال الحديث بيننا وتظاهرت له وكـــأنّي أميــل للأفكـــار الوهابية فزاد سروره واستدعى أحد الحرّاس وقال له:

إئت بسيّارة مريحة كي توصّل الدكتور شيخ التوانسة إلى محلّ إقامته بكــلّ رفق واحترام.

واستغرب الشرطي لهذا التحوّل السّريع فقد أصعدني بعنف وغلظة وهـــو يظنّ أني سوف لن أخرج سالما وها هو الآن يتبعني كما يتبع الخادم أثر ســـيّده، ولا شكّ بأنّه تعجّب من وقت دعاه ليأتيني بالقهوة وقد رأى تحوّل سيّده ورئيســه من تهديد ووعيد إلى رقّة ولطف شديد فما كان منه إلاّ أن سألني داخل المصعــد الكهربائي ونحن نازلون: قل لي بربّك ماذا فعلت؟ قلت: مـــا فعلــت إلاّ الخـــير والحمد للّه.

نظرتُ إلى المجموعة وأنا باسم الثغر كي أطمئن قلوبهم المخلوعة وزاد في إطمئنانهم قول الحارس لزميله: اسرع هات سيارة مريحـــة لســيادة الدكتــور، واستغرب هو الآخر وخرجا معاً إلى خارج العمارة يتحدّثـــان ويبحثــان عــن السيّارة، فاغتنمتها فرصة وتحدثت مع السيد محمد باقر وأفهمته بأني أحبّه مـــن أجل أفكاره القريبة لأهل السنة كما أفهمته أمام الجماعة بأنهم إنّما دخلـــوا عنــد الإيرانيّين صدفة للبحث عنّي .

واستغرب أفراد المجموعة هذا التحوّل وزادهم اطمئنانا وبعث فيهم نشاطاً وحيويّة بعدما كانوا متعبين ومرعوبين.

أوصلني الحارس في سيارة أمريكية فخمة إلى الفندق وكان طيلة الطريـــق يسألني ماذا فعلت حتّى أقنعت المسؤول الأمني، وكنت أجيبه ما فعلت إلاّ الخير.

في الفندق وجدت حماتي وأم علي اللّبنانية وابني شرف يبكون وقد حدّثـــهم شرف فبقوا في حيرة ينتظروننا من منتصف النّهار حتّـــى الليـــل، واستبشـــروا لقدومي وسألوني عن بقيّة الشباب فقلت: إن شاء اللّه يكون خيراً.

دخلت مع إبني غرفة الشباب الأولى وفوجئت بأحد اللبنانيين مستلقي علـــى السّرير، وسألته كيف تركه رجال الأمن السّعودي، فأعلمني بأنّ معه جواز ســفر دبلوماسي وكان هو الأخير مشغول البال على السيّد محمد باقر وبقية اللّبنانيين.

وقلت: إنهم لا يزالون رهن الاعتقال والأبحاث، ولكن لا بدّ أن نفتّش أمتعتهم ونطهّرها قبل أن تفتّش من رجال الأمن وفتحنا كلّ الشنط في الغرفتين وأزلنا منها كل ما يمسّ بالنظام السّعودي كاللّوائح والصورّ التي كانت معلّقة بمؤتمر الحجّ وبعض المناشير المعادية.

يا سبحان اللّه ملهم العباد ما هي إلاّ دقائق من انتهاء العملية حتّى جاء أربعة من رجال الأمن ومعهم سيارة عسكرية وحملوا كلّ الشنط والأمتعة، كما سألوا المصري القائم على إدارة الفندق إن كنتُ حجزتُ لهم الغرف قبل وصولهم، فأجابهم : حجزوا عندي من أسبوع.

في الصباح وبعد الصّلاة دخلت على اللّبناني الدبلوماسي وطلبت منه أن يصاحبني إلى بعثة دار التوحيد الكويتية لنعلم السيد محمد حسين فضل اللّه بأن أخاه موقوف في السجن لعلّه يفعل شيئا لأن معارفه هناك كُثر.

أجابني بأنه سيعمل خيرة: أي استخارة وأخذ المسبحة وعدّ بعض الحبّات ثم قال: مش مليحة.

وقضيت ذلك اليوم مشغول البال على المجموعة وخصوصا عندما أدخلُ على حماتي وأم علي فيسألاني وأعينهم حمراء من أثر البكاء وعاودت الدبلوماسي مرّتين أو ثلاث وكان في كلّ مرّة يستخير مسبحته والنتيجة دائما مش مليحة.

في اليوم الثاني وفي الصباح الباكر توجهت أبحث عن مقرّ حملة دار التوحيد الكويتية لعلمي بأنهم يستضيفون معهم في كل موسم السيّد محمد حسين فضل اللّه ليصلّي بهم ويحاضر بعض الدرّوس الدينية ويؤدي معهم فريضة الحجّ.

إتصلت بسماحته وأعلمته الخبر وقام بدوره فاتّصل بأحد العاملين في السّلك الدبلوماسي بالسفارة اللبنانية وأعلمه هذا الأخير بأن شيخ التّوانسة أنقذ المجموعة كلّها من هذه الورطة وسيفرج عنهم في القريب العاجل، وبشّرني السيّد بهذا الخبر وهو يبتسم لهذا اللقب الجديد "شيخ التوانسة" وهو إلى اليوم عندما يراني يقول: مرحبا بشيخ التوانسة.

وفي اليوم التالي أُفرج عن الجميع ما عدا محمد خليفة اللّبناني الذي بدا لهم كثير الحديث المتناقض، فأدّى مناسك الحجّ وهو مكتّف اليد مع أحـــد الشـــرطة المدنية، فكان من رواياته المضحكة التي بقينا نذكرها؛ قال :كنت في كلّ مـــرّة أطوف بالبيت في كلّ شوط من الأشواط السّبعة أطلب من مرافقي الذي يمســـك بطرف السلسلة أن أُصلّي ركعتين فيسمح لي بذلك، فلمّا أرفع يديّ لدعاء القنــوت يجد نفسه مضطراً لرفع يده معي فتنكشف السلسلة وأطيل الدعـــاء حتـــى يقلـــق فيجذبني بقوة لأنزل يديّ وكررت ذلك في كل شوط حتّى أخرجتُ روحه.

وبعد أن أدّى محمد خليفة فريضة الحج وهو مقرون لأحد أعـــوان الأمـــن سفّروه إلى بيروت ولم يتركوه يعود إلى باريس وهو يعمل الآن صيدلـــي فـــي افريقيا.

أمّا بقية المجموعة فأدّوا مناسكهم على أحسن ما يرام وكنّا نجلس نتذاكـــر فنحمد اللّه سبحانه وتعالى على نعمه وعلى حفظه ورعايته... وكنت كلّما التقيت بالسيد محمد باقر فضل اللّه أسأله: هل استبصرت أم ما زلت على ضلالتك؟

فيضحك قائلاً: أنا مستبصر والحمد للّه.

الـــرّحلـــة السورية

سوريا

مساحتها: **185.000** كلم مربع

عدد سكانها: **16** مليون نسمة

موقعها الجغرافي: القارة الآسيوية

عاصمتها: دمشق

حدودها شمالاً: تركيا

وشرقاً: العراق

وغرباً: لبنان

وجنوباً: الأردن وفلسطين



الــــرّحلــة السورية

في مؤتمر الغدير الذي أقامه المجمع الإسلامي في ديـــــترويت بالولايـــات المتحدة دعيت من طرف الشيخ عبد اللطيف برّي مع نخبة من العلماء الأفاضل من لبنان والعراق وسوريا وهناك التقيت بالسيد مصطفى جمال الديـــن الشـــاعر المعروف.

قال لي بعدما سلّم عليّ: أنت أقمت سوريا ولم تقعدها؟

قلت: بحمد الله لم أزرها من زمان وفي نيتي أن أزورها خـــلال الأشـــهر القادمة إن شاء الله تعالى.

قال: إيّاك أن تدخلها قبل إعلامي لأكون في استقبالك ونهيئ لـــك الدخـــول بالسلامة، لأن هناك من يستحل قتلك بل يتقرب إلى الله بذلك.

قلت: كيف ما الذي حدث، وقد التقيت بالدكتور أسعد علي في إيران ووجّـه إلي الدّعوة، ولم يحدّثني بخطورة الموقف.

قال: إن جماعة المستشارية الثقافية الإيرانية طبعوا كتابك "ثـــم اهتديـــت" ووزعوه مجانا على بعض المصلّين وفيه ختم المستشارية الإيرانية، ووصلـــت نسخة منه إلى مفتي الجمهورية الشيخ أحمد كفتارو، فقرأه وجاء يـــوم الجمعـــة وبعدما خطب النّاس أخرج لهم الكتاب وقال: إن إيران التي تدّعي وحدة المسلمين ها هي تعمل على تمزيقهم وتشتيتهم، وه هم علماء إيران كتبوا هذا الكتاب وكلّـه كفر ونسبوه إلى شخصية وهمية لا وجود لها، وإن وجد هذا الشخص الذي اسمه محمد التيجاني السماوي فلعنة الله عليه فهو أخطر على الإســـلام مـــن سلمان رشدي، فإذا كان الخميني أفتى بقتل سلمان رشدي فأنا أيضا أفتـــي بقتـــل هـــذا المرتد، وخرج بعد الصلاة جماعة من أتباعه وجابوا في شوارع المدينـــة وفـــي المكتبات متظاهرين وحرقوا بعضاً من الكتب التي وجدوها وتسببوا في أحـــداث دامية وتدخلت القوات الخاصة لتفريقهم.

ولما سمع الرئيس حافظ الأسد بذلك طلب أن يأتوه بالكتاب فقرأه ثم أصدر قراراً بمنعه.

استغربت لهذه القضية التي لم أسمع بها وقلت: سوف ألغي زيارتي إذا كان الأمر بهذه الخطورة.

قال: لا، أنت تعرف أن سوريا فيها السنّة والشيعة وفيها العلويون والنصيريون وفيها الدروز والأقباط وفيها النّصارى بشتى طوائفهم وفيها الأرمن واليهود وكل هؤلاء يتعايشون في أمن واستقرار بفضل سياسة الأسد الحكيمة، فمنعه لكتابك ليس عداء لأهل البيت ولكنه لتهدئة الجو وتفويت الفرصة على الذين يريدون أن يحرّكوا السواكن ويبعثون البلبلة بين السوريين المسلمين.

أما الحقيقة فإن أحد المسؤولين الكبار من السوريّين طبع في لبنان أربعة آلاف نسخة من الكتاب على حسابه الخاص وأدخلها إلى سوريا ووزّعها فليس هناك بيت علوي يخلو من كتاب "ثم اهتديت."

فلا تخف ولا تلغي زيارتك لأنك مسدّد من أهل البيت عليهم السلام فهم الذين يحرسونك ويتولّون الدفاع عنك.

أُعجب الحاضرون لهذه الكلمات وصاحوا : اللهم صل على محمد وآل محمد فاستطرد السيد جمال الدين يقول: نعم سأعطيكم قصة أخرى وقعت خلال هذه الأيام.

لقد كتب وزير الدّفاع السوري العماد مصطفى طلاس كتابا بعنوان "رد على الشيطان"، وهذا الكتاب هو ردّ على سلمان رشدي في كتابه "الآيات الشيطانية". ومن يقرأ الكتاب يحس بالنّفس الشيعي لأنه يمدح الإمام الخميني ويذم رابطة العالم الإسلامي التي لم تستنكر على سلمان رشدي شيئاً مما كتبه في شتم الإسلام ونبي الإسلام.

وقد نفذت الطبعة الأولى ولقي الكتاب نجاحا كبيرا فأعاد طباعته للمرة الثانية وسرعان ما نفدت، وأراد طباعته للمرة الثالثة فجاءه جماعة كفتارو وطلبوا منه أن يضيف إلى المقدمة فقرة جديدة وفيها هذه الجملة: ولقد ابتلي

الإسلام في هذه الفترة بأمثال المرتدّين سلمان رشدي والتيجاني السماوي فقبل منهم العماد طلاس ذلك.

وكان للعماد طلاس معاون يدير مكتبه وهو لبناني الأصل مثقف هو الذي يحضّرُ له بعض الكلمات التي يلقيها. ويقال هو الذي أعانه على كتابة الكتاب "رد على الشيطان"

ولما جاء المعاون في الصباح ووجد الفقرة الجديدة على مكتب الوزير وقد وافق على إضافتها في الطبعة الجديدة استغرب من هذا الإسم الجديد وسأل معالي الوزير عن التيجاني السماوي قائلاً: سمعنا بسلمان رشدي ولكن هذا لم نسمع به.

فأخرج له الوزير كتاب "ثم اهتديت" من مكتبه وقال: هو صاحب هذا الكتاب، فطلب منه أن يمهله إلى الغد ريثما يقرأ الكتاب، ولما كان من الغد جاء إلى سيده الوزير وقال له: هذه مفاتيحك سيدي وأنا اعتبرني مستقيل وسوف أعود إلى أهلي في لبنان استغرب الوزير وسأله ما الخبر؟

قال: قرأت هذا الكتاب فما وجدت فيه غير حب أهل البيت فإذا كان محب أهل البيت يسمى عندكم مرتداً وتبيحون قتله فأنا مثله مرتد لأني أحب أهل البيت عليهم السلام، ولذا أنا أخاف على نفسي إن بقيت هنا.

فمسك الوزير على ذراعه وأخذ التلفون واتصل بالمطبعة بنفسه مباشرة، وأمرهم أن يعيدوا المقدمة في الطبعة الجديدة كما هي بدون أية زيادة، والتفت إلى معاونه قائلاً:

أيرضيك هذا ! قال: بارك الله فيك.

فقال السيد مصطفى جمال الدين بلغني أنهم أنزلوها من المطبعة بعدما نقشت على الزنك، أفليس هذا عناية من الله ومن أهل البيت عليهم السلام، يدافعون عنك وأنت لا تعلم.

قلت: الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيده وإحسانه. بقيت هذه القصص تجول بخاطري لمدة وجيزة، فذكرتني بطريقة أخرى رواها إلي أبو زهراء النجدي الذي التقيت به وتعرّفتُ عليه في مؤتمر الإمام الرّضا سلام الله

عليه وكان مصحوبا بالقاضي السيد حيدر العرفي، فكنا متلازمين ثلاثتنا صباحاً ومساء لا نفترق طيلة المدة التي قضيناها في مدينة مشهد وفي قم المقدسة.

ولما رجعا إلى الشام ودار الحديث في يوم من الأيام مع مجموعة من الدكاترة والمثقفين من أهل السنة والجماعة حول كتاب "ثم اهتديت" فقالوا: إن التيجاني شخصية وهمية لا أساس لها من الصحة، فقال: الدكتور أبو زهراء النجدي كيف يكون التيجاني شخصية وهمية وقد التقيت به في إيران وعشت معه أياما عديدة، فلم يقتنعوا بقوله فأقسم لهم بكل الأيمان ومع ذلك بقوا مترددين لا يصدقون وإذا بالباب يطرق وساعي البريد يسلّمه رسالة منّي بعثتها إليه وفاء بوعدي أن أرسل إليه بعضاً من الصور التي التقطناها معا بصحبة السيد حيدر العرفي، فصاح عندئذ: الله أكبر ها هو التيجاني جاءكم بنفسه، قال: فلما رأوا الرسالة وفيها اسم التيجاني وعنوانه في باريس وفتحوها بطلب من الدكتور أبو زهراء ووجدوا فيها الصور فقرأوها جميعا وهي مختومة بختمي عند ذلك فقط صدّقوا بوجودي والبعض منهم استبصر.

وجاءتني دعوة من سوريا من الأخ العزيز أبو علاء سمير الكحال رئيس جمعية الإمام الصادق، فعقدت العزم على السفر وتوكلت على الله الذي من توكل عليه كفاه.

ركبت الطائرة من باريس إلى دمشق وأنا متخوف ترسم في مخيلتي صورة دمشق عاصمة الأمويين الذين لا يحبّون أهل البيت ولا من تشيع لهم، وقد زرتها من قبل مرتين أو ثلاث ولكن قبل الاستبصار فما كان عندي هاجس الخوف إذ كنت أموياً قلباً وقالباً. أما الآن فالأمور تغيرت أصبحت أكره تلك الشجرة الملعونة وكل من يلوذ بها وهذا بحد ذاته ليس خطيراً إذ لا يعلم ما في القلوب إلا خالقها، ولكن بالنسبة إلي فقد عرف النّاس مدى حقدي عليهم من خلال كتبي المنشورة في العالم بكلّ اللغات ويكفي أن يعرفني أحدهم في المطار من خلال جواز السفر فتقوم قيامتي.

صحيح أن مظهري الخارجي ولباسي لا يوحي من قريب أو من بعيد بأنني أنا الدكتور التيجاني صاحب المؤلفات التي انتشرت في أنحاء العالم ولذلك كثيرا

ما ألتقي صدفة مع بعض المحبّين والمعجبين فلا يعرفونني ولا يعيروني اهتماماً ولكنهم يفاجأون عندما يقدمني إليهم بعض أصدقائي ولي في ذلك طرائف متعددة سوف نأتي على ذكرها في الوقت المناسب إن شاء الله.

وصلت الطائرة إلى دمشق ليلا وقبل أن يبدأ الناس في النزول نودي على إسمي لكي أُعرّف بنفسي قبل النزول، فاطمأنّ لذلك قلبي إذ وجدت في استقبالي على باب النزول من الطائرة السيد أبو علاء وبعض الشخصيّات من المسؤولين، وخرجت من المطار بسرعة فائقة.

وفي دمشق تعَرفتُ على المحبين الموالين لأهل البيت عليهم السلام وخلال السهرات والمحاضرات التي ألقيتها وكان يحضرها المئات من الناس رجالاً ونساء كنت مصحوباً في كل أوقاتي بالأخوة السيد حيدر العرفي والدكتور أبو زهراء النجدي،كما جمعني الله سبحانه بصديق قديم من أيام السوربون في باريس وهو الأخ أبو حسن علي السنقنقي الذي اعتقلته السلطات الفرنسية من غير ذنب اقترفه سوى أنه كان من الناشطين في المحافل الإسلامية والتظاهرات الدينية.

تعرفت على الأخ الحبيب رياض علي ديب الذي جاء يعترض علي بأني من المموّلين، وذكّرني بقول الشيخ إسماعيل: من كانت بدايته محرقة تكون نهايته مشرقة، وبالفعل أصبح هذا الشاب من أعز الأحباب إلى قلبي لأنه أصبح كظلّي لا يفارقني طيلة إقامتي في سوريا، وقد أعجبت به لاحترامه أوقات المواعيد بدقة وكذلك تفانيه في حب أهل البيت وكل من يدعو إليهم فتراه لا يغادر مجالس العلماء ويسافر المسافات الطويلة من أجل حضور المحاضرات والتنسيق بينها والعمل على إنجاحها. كما تعرفت على الأخ العزيز مازن فاعور و كل أفراد عائلته الذين استبصروا بعد قراءة كتبي كلها وكانوا يترصدون قدومي إلى سوريا حتى يجمعوا لي أقاربهم وأصدقاءهم ليتحاوروا معي وكانوا بذلك سبباً لهداية الكثير من معارفهم.

وفاجأت السيد مصطفى جمال الدين الذي التقيت به داخل الحرم في السيدة زينب "عليها السّلام" سألني متى القدوم؟ قلت: منذ أكثر من أسبوع قال: ألم أقل لك بأنك مسدد وعندك حماية أهل البيت.

التقيت بشخصيات متعددة وبكبار العلماء من خلال السادة العلويّين الذين تعرفت عليهم في بيت الصديق العزيز الدكتور أسعد علي الذي كان يحضر مجالسه كل الفئات وكل الطوائف ولقد تعجبت كيف يجمع الدكتور أسعد علي في بيته السني والشيعي والدرزي والمسيحي والأرمني واليهودي الذي جاءه من الولايات المتحدة الأمريكية وكلهم من العلماء ورجال الدين المرموقين.

وتستمر السهرة مع الدكتور أسعد علي إلى الثلث الأخير من الليل متناولة شتى المواضيع العقائدية والفلسفية والمذهبية والعلمية وحتى الطبية فقد تعَرفتُ عنده على الدكتور غانم عبد الكريم المشهور بطب الأعشاب ويطلق على طريقة العلاج "طب الرضا" نسبة للإمام الثامن لأهل البيت عليهم السلام.

وعندما تحدّثتُ مع الدكتور غانم عبد الكريم قال لي بالحرف الواحد:

كل ما أصنع من دواء وعلاج هو من بركات الدكتور أسعد علي.

رجعت مرة أخرى إلى سوريا وعند وصول الطائرة ما وجدت أحدا في استقبالي وذلك لسوء الفهم الذي حصل في موعد الوصول.

وأخرجت دفتر أرقام التلفون فجاء مباشرة اسم الدكتور أسعد علي وتكلمت معه وأرسل على الفور سيارة إلى المطار، ولما وصلت إلى البيت خرج يستقبلني وهو يقول: وما رميت إذ رميت ولكن في هذه المرة عليٌّ رمى، قلت كيف ذلك؟

قال : من عادتي أن لا أرفع سماعة التلفون وأرجئ كل المكالمات إلى الغد ولكن لما رن الجرس أحسست بقوة تجذبني فرفعت السماعة فوجدتك، وقد تخلى عنك المحبون والأصدقاء. فعليٌّ هو الذي بعثك إليّ.

وعرفت الدكتور أسعد علي أكثر فأكثر فقد كنت أنام على فراشه وأُصلّي في محرابه الذي كان مخصصا لخلوته فلا يعرفه أصدقاؤه.

والدكتور أسعد علي قد بلغ العقد السادس من عمره ومع ذلك بقي أعزبا لم يتزوج وهو أشبه ما يكون بأقطاب التصوف الذين زهدوا في هذه الدنيا وزينتها وزهدوا في المرأة وشهوتها، وتفرّغوا للعبادة والخلوة مع ربّهم لا يبغون عنه بدلاً.

وطلب مني الدكتور أسعد علي أن أصحبه إلى قرية في جبال العلويين لحضور حفل تأبين أحد العلماء وهو الدكتورعلي سليمان وأبديت عدم الرغبة في الحضور معه ذلك الحفل.

فقال لي: إذا أردت أن أريك يوما يعدل سنة فتعال معي.

وذهبت معه فإذا آلاف النّاس من وجوه العشائر والقبائل قد اجتمعت وإذا بالقصائد الشعرية والكلمات التأبينية وإذا بالعلماء والمسؤولين على جميع المستويات حاضرون هناك وتواصلت الكلمات حتى الساعة الواحدة بعد الزوال وكان من المفروض أن يختم الدكتور أسعد علي ذلك الحفل بكلمته قبل انتقال الحاضرين للغداء الذي أُعدّ هناك، ولكنه ألقى كلمته معلقا بأن مسك الختام سيكون للدكتور التيجاني.

ووجدت نفسي مضطراً للمشاركة في التأبين لرجل ما عرفته قبل ذلك، فارتجلت كلمة اتسمت بالواقعية. وما أن نزلت من المنصة حتى انهالت علي تلك الجموع الحاشدة تقبل رأسي ويدي ولم أخلص منهم إلا بعد ساعة تقريباً عندما جلست ألتقط أنفاسي على مأدبة الغداء. جاءني الدكتور أسعد علي وجلس إلى جانبي يسألني ما رأيت؟ قلت: رأيتُ ما فعل بي النّاس قال: ألم أقل لك سترى يوماً بسنة.

قلت: إنه يوم بعشر سنوات.

تعرفت في القرداحة على السيد جمال الأسد أبو كفاح وهو أديب وشاعر مولع بالمطالعة وجمع الكتب، وهو شخص متواضع إلى أبعد الحدود، يحب أهل البيت ومن يتشيع إليهم يجمع مجلسه نخبة من الأساتذة والأطباء والشباب المثقف من المهندسين وغيرهم: والغريب أني كلما تشرفت بزيارة الأخ العزيز جمال الأسد وجدت عنده كتاباً جديداً باسمي ولا علم لي به.

سألني مرة: متى يصدر كتابك الخامس قلت: الرابع، قال: الرابع عندي، استغربت وكأني ظننت أنه حصل له اشتباه.

قال: لا يا دكتور سأعدهم لك: (1) ثم اهتديت (2) مع الصادقين (3) فاسألوا أهل الذكر، (4) إتّقوا الله.

قلت: لا أعرف هذا الكتاب: فأخرج لي الكتاب وقرأت على غلافه الدكتور محمد التيجاني السماوي، وأخذني العجب وفتحته وقرأت المقدمة فإذا بها محاضرة ألقيتها في إحدى المناسبات تحت عنوان إتقوا الله: نقلها بعضهم إلى كتاب من أجل الكسب والتجارة.

مرة أخرى زرته في بيته في اللاذقية، فقال: متى يصدر كتابك السّابع؟ قلت: السّادس قال: السّادس عندنا.

وظننت أنه يمازحني، ولكنه جاءني بكتاب يحمل عنوان: إعرف الحق، وإذا به كالسّابق: محاضرة تصبح كتاباً.

وفي المرة الأخيرة فاجأني بقوله متى سيصدر كتابك التّاسع؟ قلت: لا هذه المرة أنت تمزح.

قال: لا والله لا أمزح، وأخرج لي كتاباً يحمل إسمي تحت عنوان مؤتمر السقيفة. استغربت متسائلاً كيف يحصل على هذه الكتب؟ قال: من بيروت، أنا عندي جماعة يبعثون إلي كل ما يصدر عن التيجاني. وبعد جلسة قدّم إلي سجل المكتبة فكتبت: كلّما زرتُ الأخ أبو كفاح وجدتُ عنده كتابا جديدا باسمي ولكني لا أعرفه، فإن كان هؤلاء يتاجرون باسمي غفر اللّه لهم وإن كان القصد هو خدمة الحقيقة والتعريف بأهل البيت فأسأل الله سبحانه أن يثيبهم في الدنيا والآخرة.

وتجولّت في مدن العلويين وفي قراهم وفي جبالهم، وعشتُ بينهم وفي بيوتهم وعرفت عقائدهم الظاهرية والباطنية كما يقولون. ومكثتُ في اللاذقية وفي القرداحة وفي بانياس وفي ماشقيطة والشبطلية وفي جبلة وقرى أخرى كثيرة لا أتذكر أسماءها

وجلستُ مع علمائهم ومتكلّميهم إضافة إلى الدكتور أسعد علي عرفت الشيخ الجليل محمود صالح الزللو والشيخ الفاضل كامل حاتم والشيخ الجليل فاضل الغزال، والدكتور علي سليمان الأحمد وغيرهم كثير من الدكاترة والفلاسفة ورجال الفكر وكذلك رجال الحكم والسياسة.

فما وجدت عندهم شيئاً من الغلوّ الذي يحكى عنهم ولا شيئاً من البدع المزعومة، وقد صلّيتُ خلف بعض أئمتهم في مساجدهم فلم أنكر شيئا مما يفعلون ويقولون، وما وجدت أي فرق بينهم وبين ما عليه الشيعة الاثنا عشرية في كل عقائدهم.

نعم قد يلاحظ مثلي عند عوامّهم بعض التسامح في الأحكام كشرب الكحول وترك الصّلاة والسفور عند النساء والمصافحة وهي أعمال لا يختصّون بها، ففي عالمنا العربي والإسلامي أغلب النّاس هم على هذه الصفات لا يلتزمون ولا يتقيّدون بالأحكام الشرعية إلاّ نادرا ولو قمنا بإحصاء في العالم الإسلامي لما وجدنا من يلتزم بأحكام الدين إلا نسبة ضئيلة قد لا تتجاوز عشرة بالمائة وفي بعض الدول الإسلامية النسبة المئوية أقل من ذلك بكثير.

وهذه الحقيقة يحدّثكم بها خبير مثلي سافر إلى البلدان العربية والإسلامية وعرف ظاهرها وخفاياها.

وما دامت الحالة هكذا، فلماذا يتركّزُ العويل والإستنكار، إلاّ على العلويين دون غيرهم من بين جميع فرق الإسلام.

ومن المفروض أن يلتمس المحقّقون والمؤرّخون عذراً لإخوانهم العلويّين الذين كانوا وعلى مرّ التاريخ منذ نشأتهم وانتمائهم إلى إمامهم علي بعد النّبي (ص) ولذلك اختصوا بهذا الاسم العظيم ومن أجل ذلك كانوا مضطهدين من قبل الأمويّين والعبّاسيّين الذين تتبعّوهم تحت كلّ حجر ومدر واضطرّوهم للهروب في كهوف الجبال والابتعاد عن كل مرافق الحياة وعزلوهم ومنعوا النّاس أن يتّصلوا بهم، فعاشوا مشرّدين منبوذين خائفين، منغلقين على أنفسهم، فلا يقدرون على تأسيس جمعية خيرية ولا مؤسسة دينية ولا بناء مسجد، وجاء الاستعمار الفرنسي فزاد على طينهم بلة، وحاربهم أشدّ المحاربة لأنهم قاوموه أشدّ المقاومة في جبالهم، أضف إلى ذلك الحكومات التي توالت على بلاد الشام وآخرها الحكومة العثمانية التي شدّدت في التنكيل بهم والحطّ من كرامتهم فكانوا إلى وقت قريب لا يسمحون لهم بالتعليم والانخراط في المعاهد والجامعات وكان الأولاد منهم يخافون أن يخرجوا إلى الشارع كبقية الأطفال. أيعقل بعد كل هذا

أن نُلقي اللّوم والعتاب على العلويّين ونمدح الفسّاق المجرمين والمتزلّفين الذين أرادوا محق العلويّين أو تحويلهم عن ولائهم ومحبّتهم لسيد الوصيّين وإمام المتّقين علي بن أبي طالب وشاهدنا على ذلك هو التاريخ، تاريخ المسلمين الذي يحدثنا بأن عليا نفسه لم يسلم من سبّهم وشتمهم إياه طيلة سبعين عاماً على منابر المساجد وإذا كان عليا وأولاده تعرّضوا إلى القتل والذبح والتنكيل فما بالكم بمن أحبّوه ووالوه واقتدوا به وجعلوه مثلهم الأعلى حتى لقّبهم أعداؤهم بالعلويّين نسبة إليه عليه السّلام.

ودع عنك الافتراءات والأباطيل التي تُموّه على النّاس البسطاء بأن العلويّين هم الذين يقدّمون علياً على محمد رسول اللّه، أو يعتبرونه هو اللّه فهذه خرافات المجانين التي لا تقوم على دليل والقصد منها معروف عند العقلاء، وهو تنفير النّاس منهم وتكفيرهم حتى يستبيح المسلمون قتلهم وسبي نسائهم وذراريهم.

أما الحقيقة فهي العكس تمامًا وكما سبق أن قلتُ في كتابي "الشيعة هم أهل السنة" بأن أتباع علي والذين ساروا على هديه هم المحمّديون الحقيقيّون، وأعيد هنا للتّأكيد على هذه الحقيقة المطموسة فأقول: بأن كلّ علوي هو محمّدي بلا فصل ولا فرق فمحمّد هو علي وكذلك عليّ هو محمّد ألم يصرّح القرآن الكريم بهذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ **قل تعالوا ندعو أنفسنا وأنفسكم** ﴾ آل عمران 61. فدعا بعليّ وقال: "عليٌّ كنفسي" ألم يقل رسول اللّه فيه: "يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي".

وعلى هذا يحق لكل عاقل أن يعترف بأن كل علوي هو محمّدي والعكس غير صحيح أعني ليس كل محمّدي هو علوي لأن كثيرا من الصحابة الذين اتبعوا محمدًا وانقلبوا من بعده على الأعقاب فلم يتّبعوا وصيّه وخليفته من بعده، بل اتبعوا خليفة قريش يوم السّقيفة فالمحمّديون انقسموا بعد وفاته إلى قسمين، قسم فيه عدد قليل اتبعوا وصيّة نبيّهم فلم يخونوا العهد وكانوا من الشّاكرين وهم العلويّون وقسم فيه عدد كثير انتخبوا لأنفسهم خليفة فلم يكونوا علويّين بل كانوا بكريّين وعمريّين وعثمانيّين ومعاويّين ويزيديّين وما شئت فسمّ فالأسماء كثيرة.

والعلويّون هم الذين فازوا بسبق الولاء والبيعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وتبعهم على ذلك الشيعة من بعدهم.

وإذا أردتُ تبسيط هذا المعنى للقارئ الكريم سأقول:

إن كل رسول هو نبي وليس كل نبي رسول:

إن كل علوي هو محمّدي وليس كل محمدي علوي.

فالعلويون هم الامتداد الطُبيعي للخط الإسلامي الصحيح المتمثل بمحمد والأئمة من عترته الطاهرة.

ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشار إلى هذا المعنى عندما قال "يا علي أنت الذي تبيّن للنّاس ما اختلفوا فيه من بعدي"، وقوله: "أنا المنذر وعلي الهادي ".

كنت أردد مثل هذه الاستنتاجات على مسمع من بعض العلماء العراقيين فعارضني قائلاً. لا تغالي في العلويّين كما غالوا هم في عليّ.

قلت: مهما غاليتُ فيهم فلن أوفّيهم حقّهم، فهم مثّلُ الفداء والتضحية في سبيل ولاية أمير المؤمنين.

قال: ما هو دليلك على ذلك؟

قلت: يكفيني دليل التاريخ أنهم أكثر الفرق الإسلامية اضطهادا من قبل الحكومات الإسلامية المتتالية ويكفيني تاريخ حجر بن عدي الكندي الذي ذبح في مرج عذراء مع ولده وأصحابه لأنهم لم يتبرّأوا من ولاية عليّ فسمّاهم التاريخ العلويّون.

قال: العلويون يؤلّهون عليّاً عليه السلام ويقولون بأنه هو الله.

قلت: ألا تستحي من هذا القول الذي ليس لك عليه دليل، أسمعت أحدا منهم يقول بذلك؟

فقال: لا، هم لا يقولونها أمام النّاس خوفاً، أما في داخلهم فهذه هي عقيدتهم.

قلتُ: أدخلتَ في داخلهم وعرفتَ خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ إنّ هذه الأقوال وهذه التّهم هي نفسها توجّه إليكم أنتم الشّيعة من قبل علماء السنة

والجماعة، ألم أوجّه أنا بنفسي هذه التّهم إلى السيد الخوئي عندما التقيت به أوّل مرّة في النّجف وقلت له: أنتم الشيعة تقولون بأن جبريل خان الأمانة وأعطى الرسالة إلى محمد بدلاً من علي ، والبعض منكم يجعل علياً إلهاً، إني عندما أتذكّر كل ذلك أضحك على نفسي وأقول كم كنت بسيط التفكير وجاهلا بالأمور فالأفضل لكم إذا كنتم أنتم أنفسكم ضحايا الكذب والتدجيل ألاّ تُلصقوا هذه التّهم نفسها بالعلويّين وإذا كنتم أبرياء منها فالعلويّون أقرب إلى البراءة منكم.

قال متشنّجا: اذهب إليهم وسوف تشاهد بنفسك سفُور النّساء فهم لا يعرفون الحجاب والرّجال يشربون الخمر ولا يصلّون.

قلت: ذهبت إليهم وشاهدت كل ما ذكرت ولكن هذا لا علاقة له بموضوعنا وهو عبادة علي بن أبي طالب.

وأنا أطلب منك أن تخرج من النّجف إلى بغداد وستشاهد بعينيك السّفور وشرب الخمر والزنى حتى في عائلات شيعيّة فضلا عن العائلات السنّية وهذا بقربك في بغداد فضلا عن مصر وشمال أفريقيا. كالمغرب والجزائر وتونس.

قال: فما يمنعهم الآن وقد أصبحت عندهم سلطة فما يمنعهم من الاستقامة والرجوع إلى أحكام الدّين؟

قلت: هذا دورك أنت ودور كلّ العلماء المعمّمين، واجب عليكم أن تشتغلوا قليلا وتعرّفوا الناس أحكام الدّين.

قال: أوه، لقد ذهب إليهم كثير من العلماء ولكن جهودهم باءت بالفشل كمن يزرع في البحر .

قلت: وهذه هي الطّامة الكبرى عند كلّ المصلحين إنّهم يحبّون إصلاح ما أفسده الدّهر طيلة أربعة عشر قرنا يصلحونه في أيام معدودة، كلّكم تستعجلون وكأنّ بأيديكم عصا سحرية تقلّبون بها الأسود إلى بياض في رمشة العين، فهذا أمر مستحيل، وإذا كان رسول الله (ص) مؤيداً بروح القدس طيلة خمسة وعشرين عاماً وهو يدعو النّاس لعبادة الله وترك الأصنام، ومع ذلك بقي في بعض أصحابه نعرات جاهلية فضلا عن أعدائه الذين لم يتّبعوه، أتريد أنت أن تغير النّاس بمحاضرة تلقيها أو بموعظة تُصيغها؟ ! !

أنظر النّاس في مصر بالرّغم من وجود الجامع الأزهر وعلماء الأزهر الذين يُعدّون بالآلاف فهم عاجزون على تغيير النّاس، لا أقول: يغيّروهم كي ينتهوا من شرب الخمور ويبتعدوا عن الزنى ويقيموا الصّلاة فهذا أمر بعيد ولكن فقط ليقنعوهم بالحجاب وعدم مصافحة المرأة ! فهم عاجزون عن ذلك.

أنتم - وأقصد العلماء الذين تربّعوا على عرش العلم والمعرفة - عاجزون عن التّغيير، أتدرون لماذا؟ لأنّكم لم تتّبعوا الأسلوب الإلهي الذي أمر به القرآن: ﴿ **وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ النحل 125. الأسلوب الذي يقول لرسوله: ﴿ **لو كنتَ فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ آل عمران 159 .

إن التغيير لا يكون بالقوّة والسّيطرة والإرهاب ولهذا السبب فشلت كل الحركات الإسلامية في العالم ولم تفلح لأنها اعتمدت هذه الأساليب واعتبرت أن النّاس ارتدّوا عن الإسلام فيجب قتالهم أو قتلهم، وهذا في حدّ ذاته خطأ فادح لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله والآيات والأحاديث قائمة على عكسه، وأقصد بذلك قتل المرتد، وإنما وضعت أحاديث مكذوبة على رسول اللّه لتأييد ما فعله أبو بكر بعد وفاة النّبي صلى الله عليه وآله وإلاّ فإن القرآن صريح بإعطاء الناس حرية الاعتقاد: ﴿ **قل الحقّ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ الكهف29. وقوله بصراحة أكثر: ﴿ **فذكر إنما أنت مذكّر، لست عليهم بمصيطر، إلا من تولّى وكفر، فيعذّبه الله العذاب الأكبر، إن إلينا إيّابهم، ثم إنّ علينا حسابهم**﴾ الغاشية 21 - 26.

نظر الرجل إلى بعض أصدقائه وغمزه قائلاً:

يبدو أن الدكتور التيجاني أصبح لسان دفاع العلويّين!

قال صديقه ضاحكا: وسيكتب مرّة ثانية "ثم اهتديتُ إلى العلويّين"

فقلت وأنا أضحك معهم: ثم اهتديت إلى الحق فأنا أتبع الحقّ أينما وجدته وسأكون لسان دفاع عن الحق مهما كان الثّمن.

الـــرّحلــة اللبنانية

لبنان

مساحته: **10.425** كلم مربع

عدد سكانه: **3,5** مليون نسمة

موقعه الجغرافي: القارة الآسيوية

عاصمته: بيروت

حدوده: شرقاً وشمالاً: سوريا

وغرباً: البحر الأبيض المتوسط

وجنوباً: فلسطين



الـــرّحلـة اللـبنـانيـة

تلقّيت دعوة من المركز الإسلامي لتعليم القرآن الكريم في بيروت وذلـــك بمناسبة عيد ميلاد الإمام المهدي عليه السلام الذي وافق ذلك العام عيـــد ميــلاد السيد المسيح عليه السلام.

تهيأت للسفر بعد الحصول على تأشيرة وأنا لازلت أتذكر رحلتي الأخـــيرة إلى لبنان عندما سافرتُ إليها من الشّام بصحبة صديقي العزيز الأستاذ والأديـــب منجي بن زكري.

وقد التقينا في الطريق بالسيد زين العابدين الشهرستاني الذي رحـــب بنـــا وأنزلنا في شقّته بعمارة كليوباترة في حارة حَريك ثم سلّم لنـــا مفـــاتيح الشـــقة ورجع إلى الشام بعد أن دعته الضرورة إلى ذلك ولم تطل إقامتنا طويلا هنـــاك ونحن لازلنا في يومنا الثاني نتمتع بمناظر بيروت السّاحرة، وكنا جالسين فـــي دار المجتبى وإذا بالقذائف بدأت تقصف من كل اتجاه، وبـــدأ النّـــاس يغلقـــون محلاّتهم ويتسابقون يميناً وشمالاً، والبعض يجري في كل الاتجاهات وسألنا عـــن الخبر فقيل لنا بأن إسرائيل قصفت مبنى الشورى ومركز حزب اللّـــه، ورأينـــا بعض الفتيات المحجّبات يبكين، فاضطررنا للخروج محاولين الرجوع إلى عمارة كليوباترة حيث مقّرنا ولكن منعنا بعض الحرّاس وقيل لنا بأن المبنى نزلت عليــه قذيفة وتحيّرنا ولم نعرف أين نتوجه ومشينا في الطريق وإذا بصـــوت ينـــاديني باسمي التفتّ فإذا به صديقي حامد العزيزي صاحب دار التعارف الذي تعرّفـــت عليه في رحلة سابقة مع الأخ الحبيب محمد الحكيمي الذي كان سببا في شهرتي.

دخلت عنده في المكتبة حيث توضأنا وأدّينا صلاتنا، ثم حملنا في ســـيارته إلى بيته فتغدينا هناك واسترحنا قليلا ثم انتقلنا حسب الموعد إلى بيـــت الحـــاج أحمد عبد اللّه، ولكنّه كان مشغولاً باستقبال أخواته وبعض الأقارب الذين هربـــوا بأطفالهم إلى بيته.

في ذلك الوقت كان السيد محمد باقر فضل اللّه أبو جعفر يبحث عنّي في كل مكان متحيّراً، وتتبّع أخباري فقيل له بأنهم رأوني في دار التعارف ومن هناك وجهوه إلى الحاج أحمد، وعثر علينا قبل الغروب.

وطلب مني السيّد أن أخرج من بيروت لأنام تلك الليلة خارج المدينة وذهب هو بنفسه معنا إلى الحرّاس فتركونا نمرّ إلى داخل العمارة فأخذنا متاعنا وخرجنا بسيارته متجهين إلى مبّرة الأيتام.

هناك سهرنا سهرة مع مجموعة من الشباب ذكروني بزيارتي السابقة إلى لبنان قائلين : أين هذه من تلك، لقد تمتّعنا بوجودك في المرّة الماضية، أما هذه المرّة فلعنة اللّه على إسرائيل التي حرمتنا من الأمن والاطمئنان.

نعم ذكّروني بالزيارة السّابقة عندما استقبلتني مجموعة من الشباب واستضافوني في أماكن عديدة في بيروت وفي الجنوب حيث زرنا النبطية والبقاع وجبشيت والنبي شيث وبعلبك ومدينة صور وصيدا والقرى المجاورة للشريط الحدودي المحتل من إسرائيل، كما زرنا بيت الشيخ راغب حرب الشهيد الذي عاشرته مدّة طويلة في سيراليون ولندن وكان من أعز أصدقائي.

وكان من همّة الشباب في ذلك الوقت أنهم أرادوا أن يخرجوا كتاب "ثم اهتديت" في فيلم سينمائي أو على شريط الفيديو. وطلبوا مني الموافقة على ذلك فاستجبت لهم شاكرا، ولا أدري ماذا وقع بعد ذلك.

كما استقبلني صديقي العزيز إبراهيم محمود الذي عرفته بالولايات المتحدة الأمريكية في مدينة توليدو بولاية أوهايو، والذي جاءني بسيارته فور وصولي إلى لبنان واستضافني في قريته لبّايا حيث هرع سكّان القرية إلى المسجد للاستماع إلى محاضرتي.

لكن أين نحن من تلك الزيارة التي تعرفنا خلالها على أكثر العلماء والمناضلين والشباب المجاهدين. من هذه الزيارة التي لم تترك لنا الوقت للاتصال بأحبابنا وأصدقائنا إذ أن إسرائيل لم تدع لنا هذه المرّة إلاّ الرّعب والفزع فقد قصفت أكثر المدن والقرى اللّبنانية وأشعلت مدينة "قانا" بتلك المجزرة الرهيبة التي قُتل فيها أكثر من مائة من النساء والأطفال الأبرياء.

لكل ذلك نصحنا السيّد محمد باقر بالرجوع إلى سوريا وعدم البقاء في لبنان لاحتمال تطوّر الأوضاع إلى أسوأ، وبالفعل رجعنا في اليوم الثالث إلى سوريا وواصلنا إقامتنا هناك في الأمن والاطمئنان ونحن نتتبع أخبار لبنان يوما بيوم.

في هذه المرّة ركبت الطائرة السّورية وأنا أستعرض ذلك الشريط المتراكم بالأحداث التي عشتها في لبنان،ولكني متفائل في هذه المرة بمشاركتي في احتفال مولد المهدي والمسيح عليهما السلام بقيت ثلاثة أيام في دمشق مع الأصدقاء والأحباب، ثم توجهت في اليوم الرابع إلى بيروت على متن سيارة أجرة.

وصلت إلى بيروت وطلبت من السّائق أن ينزلني بالقرب من بئر العبد وحارة حريك ففعل، نزلت أجرّ حقيبتي على عجلات وأنا أستطلع الشوارع والطرقات، وكثرت في عينيّ البناءات والعمارات وتشابهت عليّ الأماكن والأنهج فتهتُ في الطُرقات أكثر من ساعة وبدأت أسأل المارّة فاستوقفت رجلاً في العقد الخامس من عمره تقريباً وسألته عن دار التعارف للتوزيع والنشر، ففكّر قليلا ثم أمرني باتّباعه ليوصلني هناك، فاتّبعته وأنا أمشي بجانبه.

فقال: يبدو أنك غريب، فلهجتك ليست لبنانية.

قلت: بلى أنا لست لبنانياً.

قال: أكيد إنك من المغرب العربي.

قلت: بلى، قال: من الجزائر؟ قلت: لا، قال: من المغرب؟

قلت: لا، قال: أنت ليبي؟

قلت: سبحان اللّه، أنت ذكرت كل البلدان إلاّ بلادي.

قال: وما هي بلادك؟

قلت: تونس، أنا تونسي.

توقف عن المشي وكأنه تذكر شيئاً مهمّاً، قطب حاجبيه وسألني مرة ثانية مستفسراً.

أنت من تونس؟ قلت : بلى

قال: يمكن أسألك عن شخص تونسي؟

قلت : من هو؟

قال: الدكتور محمد التيجاني السماوي.

وخفق قلبي وأنا أستمع لرجل يسأل عنّي وأنا إلى جانبه وهو لا يعرفني وظننت أنه من شيعة لبنان الذين يعرفوني من خلال كتبي.

فقلت بدون تردد : أنا هو الدكتور التيجاني.

فقال : لا مش معقول!

قلت : لماذا مش معقول؟

قال: قيل لنا أنه شخص وهمي لا وجود له.

قلت : كيف عرفته وتسأل عنه إذا ؟

قال: أنا عرفته في كتاب "ثم اهتديت" وهو كتاب رائع وكله حقائق ولكن شيخنا قال بأن هذا الشخص لا وجود له.

اطمأن قلبي لكلامه وقلت له : سبحان الله، ربّ صدفة خير من ألف ميعاد يا أخي أنت تكلم الدكتور التيجاني وهو أمامك بلحمه ودمه وعظمه.

قال: كيف: أُصدّق وأنت لا زلت شابًا وبهذا اللّباس!؟

أخرجت له جواز السفر وقلت: هاك الدليل.

فتح الجواز وقرأ هويّتي ونظر صورتي وهو يقول: الآن تشيعت، وصافحني بحرارة وأخذ يقبلني ويعتذر إليّ، سألته إن كان قرأ لي غير "ثم اهتديت" قال: لا أعرف أن عندك كتباً أخرى، قلت: عندي ستة كتب أخرى، قال: أين أجدها ؟

قلت: في دار التعارف التي سألتك عنها.

قال: سأشتريها كلّها وسأعطيها للإمام وسأعرّفه بأنك شخص حقيقي وصلنا إلى دار التعارف وقبل التسليم على أصدقائي طلبت مجموعة من كتبي وكتبت على آخرها "الشيعة هم أهل السنة" إهداءً باسمه وقلت إذا كان اسمك نور الدين فإني أسأل اللّه سبحانه أن ينوّر بك عقول المسلمين حتى يظهر الحق جليًا.

شكرني كثيراً وانصرف غير بعيد ثم عاد مسرعاً يطلب منّي أن أصحبه إلى أستديو التصوير القريب ليأخذ معي صورة تذكارية عرفت قصده وذهبت معه وكان ما أراد والحمد لله.

وما إن دخلتُ وسلّمت حتى أعلمني الأخ الحبيب حامد العزيزي بأن هناك طبيبة تلحّ دائماً عليهم بأن يعلموها بقدومي فور الوصول وقد تركتْ لهم رقم تلفون العيادة. فقلت: لا مانع.

وما هي إلاّ دقائق حتى جُاءت بسيّارتها، وعرّفتني على نفسها وإذا بها من المستبصرات، وحكت قصّتها في عجالة وهي تقول: كانت تزور عيادتي إحدى الفتيات للعلاج، فكانت تعجبني في شكلها وفي لباسها وفي أخلاقها، وكنت أناقشها بعض الأوقات لأنها شيعيّة لم تكمل المسكينة دراستها لظروف قاهرة، فكان في يوم من الأيام أن جاءتني إلى العيّادة، ورحّبت بها وتهيأت لفحصها، فقالت ما جئت للفحص، ولكن جئتك بكتابٍ سيكون الحكمُ بيني وبينك لأن مؤلّفه من علماء السنة والجماعة، وأعطتني "ثم اهتديت ".

ثم ابتسمت وهي تقول: ما شاء اللّه يا دكتور عندك أسلوب ساحر فما بدأت أقرأ حتى شدّني الكتاب إليه شدّا عجيباً فلم أتركه حتى أنهيته كلّه، ثم أعدته مرّة أخرى فأقنعني بأدلّته، فأعطيت الكتاب لأخي فجاءني بعد يومين فقال لي: الشيعة على حقّ، وهكذا تشيعت أنا وأخي المهندس في علوم الذرة.

وأصبحتْ علاقتي بالفتاة علاقة حميمة وأعلمتني بأن لك كتبا أخرى تباع في دار التعارف فجئت إليها واشتريت كلّ كتبك وأعلمني صاحب المكتبة يومها بأنك كنت عندهم وسافرتَ إلى سوريا وأبديتُ رغبتي في مقابلتك وتركت رقم تلفوني عندهم.

فالحمد لّله الذي منّ علينا بلقائك والتعرّف عليك ونحن في انتظار كتاب جديد.

اللّهم لك الحمد والشكر فقد تعوّدت على مثل هذه اللّقاءات سواء منها المفاجئة أو المنتظرة فكم من طبيبة وكم من مثقفة في لبنان استبصرتْ على كتاب "ثم اهتديت" وكم من عائلات شيعية يترصّدون قدومي لاستضافتي والتعرّف عليّ، ولولا خوف الإطالة والملل لأفردت كتابا خاصا لمثل هذه الصّدف المفاجئة.

شاركت في الاحتفال الذي أقيم في بيروت في حسينيّة المصطفى وشاركت أيضا في الاحتفال الذي دُعيت من أجله في المركز الإسلامي لتعليم القرآن الكريم وكانت لي محاضرة في كل ليلة يحضرها جمع غفير من النّساء والرجال ويعقبها منبر حرّ للسؤال والجواب.

كما دعيت إلى الجنوبُ وألقيتُ محاضرة في مسجد الإمام علي "بالحوش" في مدينة صور حضرها كل سكان المنطقة من الشيّعة والبعض من علماء السنة جاؤوا ليستمعوا إليّ وكان من بينهم إمام مسجد أهل السنة والجماعة في "شبريحة"، جاءني بعد المحاضرة يصافحني ويقول: واللّه كلامك كله معقول وأشكرك على ذلك وأطلب منك أن تخصّص بعض الوقت لإلقاء محاضرة في مسجدنا فكلامك الذي سمعته منك الآن ليس فيه تعصّب وليس فيه غلوّ وكل النّاس يفهمونه وبودّي أن يسمعك النّاس عندنا في "شبريحة."

وقلت له بلا تردّد: اليوم إن شاء الله عندي بعض الوقت لأني سأسافر غدا، قال: أهلاً وسهلاً وسأهيئُ لك الأجواء، واتفقنا على صلاة العصر، قال: سأبعث لك سيارة تأخذك من بيت السيد والسيد هو إمام جامع علي بن أبي طالب، وهو الذي دعاني لتناول الغداء عنده، وكنا في بيته وجيء إليّ بالتلفون فإذا به الشيخ محمد باقر الشرّي الصحافي اللّبناني المشهور رئيس التحرير في جريدة "الديار" اللبنانية. قال: أنا من يومين أبحث عنك وأنت كالعصفور لا تستقر على مقام، والحمد للّه أني قبضت عليك الآن وسآتيك فوراً في بيت السيد، سلّم عليه السيد ودعاه للغداء معنا ووصل بعد نصف ساعة وتعانقنا وتذكّرنا بعض الذكريات في طهران وكذلك في الولايات المتحدة. والشيخ باقر الشرّي يعجبني كثيرا في كتاباته الجريئة وتحاليله الصّائبة.

وحان موعد الصّلاة وجاءت السيارة وتهيأتُ للخروج بعد الاستئذان فقال الشيخ باقر الشرّي: إلى أين؟ قلت: إلى مسجد الفلسطينيّين "بشبريحة" لإلقاء محاضرة هناك. أتريد أن تذهب معي لأستأنس بك، فأنا ذاهب وحدي.

قال: دعني آخذ خيرة، سحب مسبحته وتمتم قليلا ثم قال: أنصحك أن تلغي هذا اللقاء.

قلت لماذا؟

قال: لأنهم سيذبحونك.

قلت: ما أحلاها من نهاية تُتوّج بالشّهادة، وإن كنت نجوت ثلاث مرّات من الاغتيال، فلعلّ هذه المرّة تكون الخاتمة؟

قال: دع عنك هذه الفلسفة وخذ حذرك يا رجل، فأنا متعجّب كيف يتجـول رجل مثلك بدون حراسة.

قلت: قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿**قل إنّ الموت الذي تفـرّون منـه فإنـه ملاقيكم..**﴾.

فقاطعني قائلا: إنّه ملاقيكم في" شبريحة"

وضحكت وضحك الحاضرون من سرعة إجابته التي تتّسم دائمـاً بالنكتـة الطريفة والمعنى المعبّر.

قلت : طيّب، أنا أتوكّل على اللّه لأن من علامات المؤمن أنه إذا وعد لـم يُخلف، وأنا وعدتهم وهم الآن في انتظاري وهذه سيّارتهم تحت البيت فإذا كـان ولا بدّ فأنا أطلب منك أن تأتي بعد المحاضرة لتلّم أشلائي وتترحم عليّ.

قال: دعني آخذ خيرة مرّة أخرى .

قلت: تفضّل: أخذ مسبحته من جديد وتمتم وقال : هذه مليحة سآتيك بعدمـا يُقضى عليك.

ودّعت الجميع ولاحظت في وجوههم الخوف عليّ ولكني ركبت السـيارة وأنا أردّد: ﴿**قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلـى الله فليتوكـل المؤمنون**﴾.

وصلت إلى" شبريحة "ومنها إلى الجامع الذي امتلأ بالمصلّين الذين أقـاموا الأذان وجلسوا ينتظرونني، وتهلّل وجه الإمام عندما رآني ورحّب بي وقدّمنـي لأصلّي بهم صلاة الجماعة فرفضت وقلت: سأصلّي خلفـك، وصلّيـت صـلاة العصر خلفه، واستأنس الحاضرون عندما رأوني أصلّي خلـف إمامـهم وتقـدّم

بعض اللذين تخلّفوا ولاحظتُ أن فيهم بعض السلفيّين، أعرفهم من لباسهم ولحاهم، ألقيت المحاضرة التي دامت ساعة كاملة تناولت فيها أخطر موضوع قصداً وهو عدالة الصّحابة.

وذكرت الآيات التي صنّفت الصّحابة إلى ثلاثة أقسام، منهم الشّاكرون، ومنهم المنقلبون، ومنهم المنافقون.

كما ذكرت الأحاديث الصحيحة الواردة في البخاري ومسلم والتي تذكر أيضاً هذه الأصناف الثلاثة بوضوح.

واستدللت بعد ذلك بالتاريخ الإسلامي الذي يكشف لنا بوضوح كبير ما فعله كلّ من الأصناف الثلاثة تجاه النّبي وأهل بيته الأطهار وتجاه الإسلام والمسلمين، وضربت لذلك أمثلة يعرفها كلّ النّاس.

وبعد انتهاء المحاضرة فُتح باب المناقشة والجدال وجادلتُهم بالتي هي أحسن، وقلت: لا أغشّكم ولا أُخفي عنكم ما أعتقد أنه الحق وشعاري في كلّ ذلك قول الله سبحانه وتعالى:

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

فواللّه ما أنهيت كلامي ونزلت من المنبر حتى وقف الجميع يصافحوني ويقبّلوني ويطلبون منّي الكتب التي ألّفتُها، وخرج الإمام وكان أقرب الناس منّي وهو ماسكٌ بيدي ليفتح لي الطريق من شدة الازدحام، ولمّا خرجنا من المسجد وتقدّمنا نحو السيّارة للركوب وكان النّاس يتزاحمون لتوديعي عندها قدم الشيخ باقر الشرّي في تاكسي، فلما رآني تهلّل وجهه فرحاً وقال الحمد لله على السّلامة يا سيّد.

قبّلته من شدّة الفرح وكأن لسان حالي يقول: أرأيت عناية الله بي، أرأيت النّاس الذين خوّفتني منهم، أنظر إليهم كيف يتسابقون لتقبيلي وتوديعي.

ركب معي السيّارة التي أوصلتنا إلى بيروت وبات معي عند السيد الجليل جعفر عقيل الصديق الحميم الذي رغم مسؤولياته الكبرى فإنّه يترك شغله لمرافقتي وقضاء شؤوني.

وتولّى السيّد جعفر عقيل مرافقتي إلى سوريا بسيارته الخاصة واستخار الشيخ باقر الشرّي كعادته للسفر معنا إلى سوريا ولكنّه وبعد قضاء يوم واحدٍ في دمشق استخار مرّة أخرى ورجع إلى بيروت بسرعة هائلة واعتذر بأن شغله في جريدة الديّار تعطّل بغيابه ولا بدّ له من الرجوع فوراً.

والتقيت بالشيخ باقر الشرّي بعد ذلك في مدينة "ديترويت" بالولايات المتحدة الأمريكية وفي مركز الإمام الشرّي رحمة الله عليه، وهو الذي ألقى كلمة الترحيب بالمناسبة.

ودعاني لحضور ذكرى وفاة المرحوم الشيخ جواد الشرّي وهو شقيقه وهو أول من أسس المركز الإسلامي في أمريكا.

ولما كان الموعد لا يتناسب ورجوعي من تونس إلى أمريكا اعتذرت له فعسى أن يكون عذري عنده وعند الكرام مقبولا.



الــــرّحلــة العراقية
العراق

مساحته: **434.000** كلم مربع

عدد سكانه:**21,5** مليون نسمة

عاصمته: بغداد

موقعه الجغرافي: الشرق الأوسط من آسيا

حدوده من الشرق: إيران

ومن الشمال والغرب: تركيا وسوريا والأردن

ومن الجنوب: الكويت والسعودية



الــــرّحلــة العراقية

أمّا العراق فزياراتي إليه قد تعدّدت، والمغامرات فيه ومنه قد ابتدأت، وكلّما أذكره إلاّ وأشواقي تجدّدت، وكلّما أذكر الأخطار والمحن والخطوب التي أحدقت به إلاّ ونفسي تحسّرت واللّوعة من داخل القلب قد تمدّدت، وإذا ذكرت الشهيد الصدر وما لاقاه في آخر أيّامه من الطّغاة عروقي تمزّقت وأنفاسي انقطعت.

وسوف لا أذكر من كلّ زياراتي للعراق التي فاقت العشر إلاّ الأخيرة، التي طبعت في مخيّلتي تلك الأحداث الجسام التي كنت إذا ذكرت شيئاً منها لأصدقائي فإنهم يتهامسون ويتغامزون وتراهم لا يصدّقون.

وما يضرّني إذا ذكرتُها هنا للتاريخ ما دمتُ صادقاً في نقل الرّوايات التي سمعتها من الثقات ومن أربابها الذين عاشوها وتفاعلوا معها وأنا واحد منهم عشت بعضها وعاشرت أبطالها وضحاياها.

بعد استبصاري سنة السّبعين آليت على نفسي أن أقضي عطلة الصّيف التي أتمتّع بها كأستاذ لمدّة ثلاثة أشهر من كلّ سنة، أقضيها في العراق مع العلماء والمراجع مع الطلبة والأصدقاء والأحبّة في كلّ مكان من أرض العراق في بغداد والنّجف وكربلاء وفي الكوفة وفي سامرّاء.

سافرت مرّة بصحبة زوجتي وقضينا عطلة ممتعة في جوار الأئمّة عليهم السلام.

ومرّة أخرى بصحبة عديلي وكذلك مرةً بصحبة إبني شرف الذي كنت أنوي أن يتبنّاه السيّد محمد باقر الصّدر حسب اتفاقي معه.

أجلس السيّد محمد باقر الصدر إبني شرف في حجره وكان عمره إذ ذاك عشرة أعوام وأخذ يداعب شعر رأسه ويدعو له، ثم غمزني فخرجت مودّعاً من عنده وذهبت إلى مرقد الإمام حيث صلّيت هناك وقضيت بعض الوقت ولمّا رجعتُ إلى بيته همس السيّد رحمة الله عليه في أذني وقال: شرف لا يزال

صغيراً لأنه بمجرد خروجك بقي يبكي ولم يسكت، فبعثت به إلى العائلة داخل البيت، ولهذا فأنا أنصحك بان تأتيني به بعد سنتين إن شاء اللّه سيصبر عند ذلك.

شكرته على ذلك وما كنت أعلم ماذا خبّأت له الأقدار، ونجحت الثورة الإسلامية في إيران بعد عامين بالضبط وذهبت للعراق كالعادة في الصّيف ومنها تحوّلت إلى إيران على طريق البرّ من خانقين والعمارة وقصر شرين وخسرو شاه حتى وصلت إلى طهران ومنها ذهبت إلى قم المقدّسة حيث يقيم الإمام الخميني في بيت صهره وهناك حظيت بمقابلته لأول مرّة في إيران بعد انتصار الثّورة فكنت من جملة المباركين المهنّئين وعرفني الإمام إذ كنت من المتردّدين عليه في "نوفل لوشاتو" بفرنسا والعهد قريب وكانت في ذلك الوقت علاقتي ودّية بالمرجع الكبير السيد شريعت مداري الذي زرته في بيته وكذلك السيد الكلبايكاني والسيد المرعشي النجفي وكلّهم في قم المقدسة.

كما زرت السيد عبد الله الشيرازي في مشهد الإمام الرضا عليه السلام.

وحملت بعض الصور الحائطية ورجعت إلى العراق في نفس الطريق التي خرجت منها،

وفي الحدود العراقية مسكوني من أجل صور الإمام وأوقفوني ساعتين كاملتين حتى حضر ضابط الحدود ونظر في الصورّ وقال لي: احمد ربّك أنك لست عراقياً، وإلا كنّا أعدمناك. ضحكت وأنا أسمع كلامه وظننت أنه يمازحني، غير أن الجنود الذين كانوا معه عنّفوني وقالوا: أترك هذه الصورّ وامش بغير رجعة، وما صدّقت أنهم يتركوني أدخل العراق.

وصلت إلى النّجف بعد مراقبة شديدة أنزلوني مرتين من السيّارة العموميّة لا لشيء إلاّ أنّي أعفيت لحيتي فشرطي الدورية عندما يصعد في الحافلة وينظر في وجهي يسألني عن اسمي فأقول له : السّماوي فيقول: إنزل بسرعة، وفي نزولي يتلقفني اثنين من الشرطة فيطلبون هويّتي فأُعطيهم جواز السفر التونسي، فيصيحوا، أنت عراقي أو تونسي؟ فأقول: أنا تونسي، فيتركوا سبيلي.

ووصلت إلى النّجف ووجدت الأمور متوتّرة للغاية، بعض الأصدقاء بعث يعتذر إليّ أن لا أقترب من دكّانه بالسّوق الكبير خوفا عليّ، ذهبت إلى بيت السيد محمد باقر الصدر، فوجدتُ السيّد مع إثنين فقط من المعمّمين ووجدت الحزن والكآبة مخيّمين على البيت، الذي كان عادة يزخر بالطلبة والزائرين.

نظرت إلى وجه السيد فاستغربتُ أن يكون السيّد تغيّرت ملامحه بهذه السرعة وبان عليه الضعف والكبر والحزن، تكلمت معه فكانت أجوبته في غاية الاختصار وسألني من أين قدمُت، ولما قلت له من إيران وقد رأيت الإمام الخميني، دمعت عيناه وسكت فلم أسمعه تكلم بعدها.

قام السيّد فاعتذر إلينا ودخل إلى البيت، واختلى بي أحد المعمّمين وقال لي: تعال معي لنخرج لأن السيد يخاف عليك.

قلت:ممّ يخاف عليّ؟

قال: ألم تسمع بما حدث هذه الأيام؟

قلت: ما سمعت شيئا واليوم وصلت من السّفر.

فأخذ الرجل يروي لي القصّة ونحن نمشي في أزقّة النجف الضيقة وكلّما رأى شبحا سكت حتى يمرّ ذلك الشبح فيواصل حديثه بكلّ خفية، قال:

إنّ حزب البعث، نكالة برجال الدّين وبالشيعة ومراجعهم يعرفون أنّ مدينة النّجف الأشرف كلّها شيعة محافظون فشيّدوا فرعاً للجامعة في مدينة النّجف من أجل كسر هاجس الاختلاط بين الطلبة والطّالبات.

لمّا انتهت بناية الجامعة الفرعية في النجف وأعدّوا لتدشينها، جاء بعض الطلبة للسيّد الخوئي واستفتوه في جواز الإنخراط بالجامعة، فأحالهم السيّد الخوئي على السيد محمد باقر الصدر الذي أفتى لهم بعدم الجواز، فطلبوا منه الفتوى كتابيّا بخطه وتوقيعه حتى يعرف أهالي النجف رأيه في ذلك، فكتب السيد محمد باقر الصدر بتحريم الانتماء لحزب البعث وكشف النّقاب عن حقيقة حزب البعث الذي أُسّس لهدم شريعة الإسلام.

وما أن أخذ بعض الطلبة هذه الفتوى حتى طبعوا منها آلاف النسخ ووزعوها على كل سكان النجف.

وجاء اليوم الموعود للتدشين وحضر رئيس الجمهورية وقائد حزب البعث أحمد حسن البكر ومعه نائبه صدام حسين وجمع غفير من الوزراء وضباط الجيش والحرس الجمهوري والمحافظ لمدينة النجف وكل الدوائر الرسمية.

ولكنهم فوجئوا جميعاً بعدم وجود حشود شعبية تنتظرهم كالعادة لتصفق وتهتف بحياتهم، فتحيروا وغضبوا على المحافظ الذي تهاون في لم الجماهير وتعبئتهم للاستقبال.

ولكن المحافظ أخرج لهم من جيبه نسخة من الفتوى التي وزعت بالآلاف على الأهالي والسكان.

وما إن قرأوا الفتوى حتى جن جنونهم وأمروا باعتقال السيد محمد باقر الصدر فوراً وترحيله إلى قصر الرئاسة في بغداد، وبطل الاحتفال ورجعوا خائبين ناقمين وجاء الجيش بسيارة عسكرية في الليل الأخير وأخرجوا السيد محمد باقر الصدر من فراشه إلى حيث لا نعلم.

وخرجت أخته السيدة بنت الهدى في صلاة الفجر إلى مرقد الإمام علي حيث أخبرت الناس والمصلين باعتقال السيد محمد باقر الصدر، وخرجت بعد الصلاة الجماهير الحاشدة في النجف وفي بغداد وفي مدينة الثورة وفي كربلاء وفي كل المدن العراقية حيث يوجد وكلاء للسيد محمد باقر الصدر والذين اتصلوا بهم هاتفياً وأعلموهم باعتقال السيد الصدر7 خرجوا كلهم بعد صلاة الصبح في مظاهرات عارمة وساخطة تصدت لها قوات الأمن في كل مكان وعناصر وميليشيات حزب البعث المنتشرة في كل مكان أيضاً وكانت المواجهة عنيفة كبدت خسائر كبيرة في الأرواح من الطرفين.

ولما وصلت التقارير إلى السلطة بأن الشعب العراقي كله سيثور وسيشكل ذلك خطورة كبيرة على حزب البعث ووجوده في العراق، وأن عدد القتلى والجرحى يعد بالمئات، عند ذلك لعب حزب البعث لعبته الخبيثة الدنيئة ومال للاحتيال والنفاق، فأرجع السيد محمد باقر الصدر إلى بيته على جناح السرعة في طائرة عمودية، وبثت أجهزة الإعلام الإذاعية والتلفزيونية منددة بما أسمتهم الخونة الذين يعملون لصالح النظام الإيراني والذين يزعمون بأن الحكومة قد

اعتقلت السيد المرجع محمد باقر الصدر، وهم يكذبون لأن السيد محمد باقر الصدر موجود في بيته موفور الصحة والعافية وهو يدين أعمال الشغب من الذين باعوا وطنهم للأجنبي.

وهكذا أخمدت الثورة بعد فورتها المتأججة وكل من اتصل بالسيد في بيته هاتفياً وجده معافى حتى أن مكتب السيد الخميني بقم اتصل تلفونياً ببيت السيد محمد باقر الصدر وتكلم معه شخصيا مستفسراً عن صحة الأحداث فقال السيد: بأنه يحمد الله على السلامة، لكن حزب البعث الخبيث وضع البيت الذي يسكنه السيد محمد باقر الصدر تحت المراقبة الخفية ببعض الأجهزة ورصد له بعض العيون، بذلك جمعوا أغلب الطلبة الذين يتعاطفوا مع السيد محمد باقر الصدر وأعدموهم بدون محاكمة وخلقوا بذلك جواً متوتراً، فليس هناك بيت في النجف إلا وهو منكوب في أحد أولاده، وبلغنا أنهم أعدموا أكثر من ألفين من خيرة الشباب المتدينين بتهمة انتمائهم لحزب الدعوة وأن الآباء والأمهات منعوا أبناءهم من الخروج إلى الشارع خوفاً عليهم ولا أحد يقدر على شيء في هذه الفتنة السوداء.

ولذلك يا أخي كان السيد يخاف عليك شديد الخوف وقد طلب مني أن أخرجك من البيت قبل أن تداهمك عناصر البعث والسيد يبكي عليك وعلى طلبته الذين أعدموا ظلماً وزوراً.

بكيت وأنا أسمع هذه القصة، وأنا أستعيد نظرات السيد محمد باقر الصدر إليّ وكأنه يعتذر إلي عن شيء لم يكن هو سببه، بكيت وأنا أتحسر على ما وصلت إليه حالة السيد محمد باقر الصدر في بضعة أيام فلا أشك بأنه تحمل أعباء تنهد لها الجبال، بكيت وأنا أتصور بأن حزب البعث لن يترك السيد الصدر حتى يقتله ويفتك به.

بكيت أخيراً وأنا أتذكر قوله لي: أنصحك أن ترجع بابنك شرف بعد عامين إن شاء الله سيصير عند ذلك.

فها أنا قد رجعت بعد عامين وحدي لأعيش تلك المأساة الأليمة وأشاهد السيد في أيامه الأخيرة وهو وحيد قد قتل أنصاره وطلبته وانقطع الزوار عنه جملة وتفصيلاً.

سألت السيد المعمم الذي خرج معي وشيعني وقص علي هـــذه الأحـــداث المؤلمة التي تقطع القلوب حسرة وأسى. سألته عن اسمه فامتنع وقال أنـــا مـــن أقرباء السيد والذي رأيته معي في البيت هو أخي ونحن الوحيدان اللذان سمح لنا النظام بالدخول إلى بيت السيد الصدر لقضاء ما يحتاجه أهل البيت من المـــأكل، أما أصحابه وتلامذته فالذين بقوا على قيد الحياة، منهم من هرب مـــن النجـــف ومنهم من بقي حبيس داره لا يخرج منها، ونحن في الحقيقة فوجئنـــا بمجيئـــك ولذلك سألك السيد من أين أتيت، فقلت من إيران ثم ذكـــرت الإمـــام الخمينـــي، فخشي السيد عليك وأوصاني أن أبلغك بمغادرة النجف على الفور قبل أن تقـــع فريسة لهؤلاء الظلمة الذين لا يراعون إلاً ولا ذمة، كما أبلغك اعتذار السيد إليـك وطلبه منك الدعاء.

أحسست بأن الأرض تزلزلت تحت قدمي وأنا أستمع لهذه الكلمات الحزينة المخيفة..

أضاف يقول: نحن خائفون على السيد كثيراً ونعرف أنهم سيغتالونه قريبـــاً لأن أمريكا أوعزت للنظام البعثي أن يقتل السيد محمد باقر الصدر قبل أن يصنع ما صنع الخميني في إيران، فهم لا يريدون خسران العراق كما خسروا إيـــران والسيد على علم بكل ذلك وهو الذي حدثني به بعد رجوعه من الاعتقال، وها قد بدأ النظام البعثي في العراق يشن حملات عدائية للثورة الإسلامية فـــي إيـــران ويعلن بحرب وشيكة لإنهاء الإسلام في إيران، لأنهم يخافون أن يلتحم الشيعة في العراق بإخوانهم من شيعة إيران الإسلامية لأن الشيعة في العراق يمثلون سبعين بالمائة من سكان العراق والبقية فهم سنة وأكراد وتكريتيون،والأمريكان أصبحوا يحسبون للشيعة ألف حساب بعد ثورة الإمام الخميني وما فعله في الأمريكان.

على هذه الكلمات ودعني، وعانقني وقبلني وأنا أركب سيارة أجـــرة إلـــى بغداد، لأضع رأسي بين ذراعي وأخفي بكائي عن الركاب.

رجعت إلى تونس وأنا لا أصدق بالنجاة وبعد أيام قلائل سمعت بمقتل السيد محمد باقر الصدر في خبر موجز أذاعته الإذاعة البريطانية.

وكانت الواقعة، حزنت لها أكثر من حزني على والدي، وعرفت بأن مـــن هوان الدنيا على الله أن يقتل الشهيد الصدر وما أدراك ما محمد باقر الصـــدر ،

فلا يسمع بموته واستشهاده حتى أقرب الناس إليه في العراق ولا يُذاع خبر استشهاده من الإذاعات العربية أحد فضلاً عن الإدانة والاستنكار، بينما يموت فريد الأطرش أو عبد الحليم حافظ فتقوم الدنيا ولا تقعد وينتحر الناس لموتهم، ومن هوان الدنيا على الله أن يقتل نبي الله يحيى بن زكريا ويهدى رأسه إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، ومن هوان الدنيا على الله أن يذبح سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبي من هذه الأمة ويهدى رأسه إلى يزيد الفسق والفجور، وكذلك من هوان الدنيا على الله أن يقتل السيد محمد باقر الصدر وتحرق لحيته وبشرته تحت التعذيب وكذلك يفعل بأخته المؤمنة الشهيدة بنت الهدى بينما يتحكم صدام التكريتي المجرم الفاسق الكافر بالله ورسوله والذي يسبّح بحمد البعث ومؤسسه ميشال عفلق، يتحكم بمصير العراق كله فيقتل من يشاء ويعفو عمن يشاء.

أُف لك يا دنيا ما أخسك وما أوطاك، ولو أن الإنسان مات كمداً وحسرة لكان أفضل له من عيشه في ذلة وهوان.

رجعتُ بعد عام واحد إلى العراق وقد بدأت الحرب مشتعلة، أشعلها البعث العراقي مدعوماً بكل القوات الغربية وعلى رأسهم أمريكا وبريطانيا وفرنسا كلهم يحاولون ويتمنون القضاء على الجمهورية الإسلامية التي أيقظت المسلمين في كل أنحاء العالم وسببت ما سُمي بالصحوة الإسلامية التي أقضت مضاجع الدول الغربية برمتها.

نصحوني بعدم الذهاب إلى النجف الأشرف، بقيت في الكوفة أياماً وأنا أكاد لا أخرج من البيوت، سألت عن الواقعة، عن قتل السيد محمد باقر الصدر وتساءلت لماذا لم يتحرك الشيعة ولم يفعلوا شيئاً وعرفت الأساليب الشيطانية التي اتّبعها حزب البعث في مواصلة اعتداءاته على المؤمنين حتى وصلت به الحال أن أعدم ما يزيد عن عشرة آلاف من خيرة شباب المسلمين المثقفين.

وأصبح الناس في حالة هلع ورعب كل بيت يخشى أن يطرق بابه "جلاوزة" النظام الذين لا يتورعون عن قتل العائلة كلها إذا حاولت إخفاء أحد أولادها، وقد يخرجون أهل الدار كلهم بشيوخهم وأطفالهم الصغار ونسائهم ويعدمونهم تحت الحائط أمام كل الجيران، فانخلعت قلوب الناس لذلك وأصبح

البعض منهم يبلغ عن فلذة كبده إذا كان من المطلوبين خوفاً على بقية أفراد الأسرة بل أصبح البعض منهم يتبرأ من ولده إذا كان ضد البعث.

بعدما روعوا الناس في النجف وكربلاء وفي كل المدن الشيعية التي يقلّد شبابها السيد محمد. باقر الصدر أو السيد الخوئي أو السيد الحكيم، وبعدما أعدموا الأغلبية الناشطة فيهم وعرفوا أن الناس استسلموا للأمر الواقع، عند ذلك اعتقلوا السيد محمد باقر الصدر وأخته بنت الهدى في هذه المرة وقتلوهما بعد أن عذبهما عذاباً نكراً.

جاء بعض "الجلاوزة" إلى أحد أقارب الشهيد الصدر في الليل وأمروه أن يدفن الجثتين معاً بدون إعلام أحد من الناس، فاستلم المسكين الجثتين وقام بدفنهما في حفرة واحدة، وقد رأى آثار التعذيب والحرق بالنار التي أكلت لحية السيد محمد باقر الصدر ووجهه وكذلك أخته الطاهرة، تغمدهما الله برحمته الواسعة وأسكنهما فراديس الجنان مع جدهما رسول الله وعترته الطاهرة **﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾**.

نعم هذا ما وقع للشهيد الصدر بدون الدخول في التفاصيل لأني أعرضت عن ذكرها حتى لا تخرج عما هو الواقع. بقيت رواية سمعتها من أحد المقربين للوزير الشيعي، الذي كان في حكومة أحمد حسن البكر وقد حدثني بها قبل قتل الوزير نفسه من قبل صدام. يقول هذا الوزير:

بعد اعتقال السيد محمد باقر الصدر وأخته بنت الهدى بأسبوع واحد قُتل ابن البكر في حادث سيارة، وهو الابن الوحيد له لأن البكر وهو رئيس لحزب البعث العراقي كان يؤمن بتحديد النسل فلم ينجب غير ذكر وأنثى ، مات الولد في حادث سيارة هو وزوجته وبعد أيام قليلة ماتت ابنته الوحيدة مع زوجها أيضاً وفي حادث مريع.

لما وصل الخبر للرئيس البكر بوفاة ابنته وزوجها وجرحه على ولده لم يندمل، سقط على الأرض في حالة إغماء وحُمل فوراً إلى المستشفى الخاص به وبقي في غيبوبة دامت ثلاثة أيام، وكان حزب البعث قد أيس منه وبدأ الرفاق يفكرون بمن يخلفه، وكان صدام هو نائبه فشمّر عن سواعده وبدأ يتهيأ

لتعويضه. واستيقظ الرئيس أحمد حسن البكر من الغيبوبة وهو يصيح بأعلى صوته قائلاً: باقر الصدر باقر الصدر، باقر الصدر، فقال صدام: سنقتل باقر الصدر وكل من يلوذ به.

فقال أحمد حسن البكر: أقيلوني أنا لا أقدر على مواصلة الحكم.

فقال له صدام: هذا الكلام لا ينفعنا هنا في المستشفي ولكن ستقوله للجماهير من أمتنا على شاشة التلفزيون، وكان الاتفاق بين أعضاء الحزب على ذلك.

وكنت يومها في بغداد في بيت أحد الإخوة العراقيين وهو من أصدقاء الشيخ الخالصي يسكن في حي الجامعة من بيت الأسدي وهو شيعي زوج ابنته لأحد أبناء السنة العراقيين الذين يُدرّسون بالجزائر، وجاء صهرهم وهو من أعضاء الحزب البعثي، وكنا نتغدى مستغرقين في حديث المذاهب مع الأستاذ السني الذي يدرس بالجزائر، فقال: جئتكم اليوم بخبر جديد، قالوا: وما هو؟

قال: اليوم في المساء سيتنازل الرئيس البكر عن الحكم لصدام حسين.

استغرب العراقيون ولم يراهنوا معه لعلمهم بأنه من الواصلين والمطلعين على كل خفايا الحزب، وبالفعل فإن التلفزيون العراقي بدأ بعد العصر في بث إعلان يفيد بأن الرئيس العراقي سيخطب في المساء خطاباً هاماً.

جاء المساء وظهر الرئيس أحمد حسن البكر وإلى جانبه صدام حسين وبان على وجه الرئيس الإرهاق والتعب وأعلن أنه سيتخلى عن الحكم بسبب الإعياء والمرض وأن خير من يخلفه في رئاسة الجمهورية والقيادة القطرية للحزب هو رفيقه في الكفاح صدام حسين.

بدأت ــ كما هي عادة الدول العربية ــ البرقيات تتهافت على الإذاعة والتلفزة تهنىء الرئيس الجديد صدام على أثر الإعلان وبدأت الاحتفالات والأناشيد الوطنية.

وهكذا طويت صفحة أحمد حسن البكر بالمقولة المعروفة عند كل الناس: مات الملك، عاش الملك، الله ينصر من أصبح ملكاً.

واستأذنت للوضوء لأداء فريضة صلاة العشاء فلما دخلت أتوضأ وجـــدت الأستاذ يغسل رجليه في الوضوء وما كنت أعرف أنه سني وخرجت أسأل السيد عبد الله الأسدي عن صهره، فأعلمني بأنه سني، ووشوش في أذني قائلا: إفتـــح معه باب النقاش ربما أقنعته.

واستغربت وقتها كيف يزوج الشيعة بناتهم للسنيين، ولم يكـــن اســـتغرابي ناتجاً عن التحريم فأنا أعرف من خلال كتب الفقه أن الزواج جائز ولكن كنـــت أظن أن العداء والكراهية مستفحلة بينهما.

قال السيد عبد الله الأسدي صاحب البيت: نحن لا نتناقش في هذه المســـائل فهو ممنوع، ولكنك أجنبي لست عراقياً فحاول معه، فهو نازل عندنا طيلة العطلة الصيفية وبعدها سيعود إلى الجزائر مع ابنتي وأولادها.

وجاء الأستاذ بعدما أدى فريضة الصلاة بمفرده وجلس معنا، وقد سبق لنـــا أن تعارفنا وهو يمدح أخلاق التونسيين وينقل لصهره بأن سيارته تعطلـــت فـــي تونس فأصلحوها وأعانوه واستضافوه ولم يقبلوا منه أجر التصليح.

شكرته على عواطفه وسألته عن غسل رجليه في الوضوء، وانفجر الرجـل وكأنه مل الحديث من هذا الموضوع، يبدو كأنه دائم الصراع واللجاج مع زوجته في هذه المسألة، فقال غاضباً أمام صهره وأمام كل الجالسين من العائلة الشيعية:

هذا هو الوضوء الصحيح وما يفعله الشيعة في الوضوء وفي الصلاة وفـــي كل الأمور هو تأويل وتحريف لكتاب الله.

ازداد استغرابي ودهشتي وأنا أنظر إلى الجالسين وهم واجمون لا يرد أحـد منهم وكأنهم لم يسمعوا لما قاله.

قلت: يا أستاذ أنت ما شاء الله مثقف وتعلّم أولاد المسلمين والشّـــيعة هـــم أصهارك وزوجتك منهم ومع ذلك أنت تكّفرهم؟

قاطعني بعصبية وقال: أنا ما كفّرتهم.

قلت: ما معنى قولك يؤولّون ويحرّفون كتاب اللّه، أليس هو الكفر بعينـــه، فمن حرّف كتاب الله فهو كافر.

فقال بدون تردّد: نعم هم كافرون، وأنا أعرفهم أكثر منك هم يسبّون الصحابة ويسبّون عائشة أمّ المؤمنين،

عرفت من كلامه هذا أنه متحامل على الشّيعة، فهو يقفز بالكلام عن الوضوء والصّلاة والتّحريف لكتاب اللّه، إلى التّهمة المعروفة وهي سبّ الصحابة وسبّ أم المؤمنين.

كما عرفت أيضا من خلال تجربتي أن السنّي الذي يتزوج شيعية أو الشّيعي الذي يتزوج سنيّة أوّل مشكل يواجههم هو الكلام في أم المؤمنين عائشة الذي يعتبره الشّيعي كشفاً وفضحاً لما فعلته في التّاريخ والذي يعتبره السنّي سبّا لأم المؤمنين.

قلت: يا أستاذ دعنا في موضوع الوضوء والصّلاة لنبين كيف حرّف الشّيعة كتاب الله.

قال: أنا لا أناقش في هذه المسائل لأني لست عالما ولكني حاقد على الشيعة لسبّهم الصّحابة وأم المؤمنين عائشة.

قلت: دعنا من أمّ المؤمنين فقد تسببت في فتنة حرب الجمل التي أكلت الأخضر واليابس من المسلمين.

فالتفت إليّ مغضبا وقال:

أنت أيضا تسبّ أم المؤمنين؟ هذه من أقوال الشّيعة.

قلت: دعنا من أقوال الشيعة، فلقد سمّاها رسول اللّه فتنة حين أشار إلى بيتها وقال: "ها هنا الفتنة ها هنا الفتنة من هنا يطلع قرن الشيطان".

فقال وقد ازداد غضبه: هذه أقوال الشّيعة الكذّابين.

قلت: مع الأسف يا أستاذ هذه أقوال البخاري الصّادق الذي يوازي عندكم كتاب اللّه.

وكاد أن يختنق من شدّة الغضب ووقف يصيح في وجهي قائلا: أتحدّاك، لا تكذب على البخاري.

استفزّني بهذه الكلمات وغضبت لقوله: "لا تكذب على البخاري"، ولكن السيد عبد اللّه الأسدي شدّ على يدي وغمزني فقلت له: هل عندك صحيح البخاري في البيت؟ قال: نعم، وأسرع فجاء به ،فتحتُهُ في باب بيوت أزواج النبيّ وناولتُه الكتاب، فلما قرأ الحديث، ألقى الكتاب على الأرض وقال: هذا الكتاب محرّف، وبان عليه التّعب وكاد يغمى عليه، ورأيت زوجته تغمز أباها أن أقطع هذه المحاورة.

فاغتنمت دخول أخوه إلى القاعة، فاعتذرتُ إليه وقلت: لنترك هذا الموضوع ولنستمع إلى السيد المسؤول وماذا عنده من أخبار جديدة.

فقال الرّجلُ : جئتكم بأخبار عن صدّام الذي أعدم البارحة ثمانية عشر من الوزراء ومن مسؤولي حزب البعث ، أخذ السيد عبد اللّه الأسدي منه الجريدة وفتحها فإذا فيها صور المعدومين وأسماؤهم ووظائفهم وكان بين هؤلاء صهره أخ زوجته ومن بينهم الوزير الشيعي أيضاً.

وهكذا طويت صفحة أحمد حسن البكر، وبدأت صفحة صدام حسين بما فيها من مآسٍ ومن إجرام وقتل الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر وأخته بنت الهدى ونخبة كبيرة من طلبة العلوم والحوزة العلميّة ومن العلماء والوزراء والقادة وتصفية كل المعارضين من الكبار وجاء بعد ذلك دور المراجع والعلماء والطلبة والضبّاط، والنساء والأطفال والشيوخ وكلّ من تحدّثه نفسُه بكلمة واحدة ضد صدّام.

فأنسى النّاس ذكر من كان قبله ومحى إسم من يأتي بعده، وتشرّد الشعب العراقي في كل دول العالم بين مهاجرين ولاجئين وهاربين تحت المخيّمات.

وجرّ على الباقين من شعبه الجوع والفقر والدّمار والمرض والتخلّف بعدما كان العراق من أرقى الدول العربية والإسلامية.

ولا نتكلم عن الحرب الظّالمة التي شنّها نيابة عن دول الغرب[1] ضد

---

(1) صرح بذلك صدام نفسه عندما سأله الصحافي الفرنسي إن كان لا يخاف من مواجهة دول الغرب التي تهدد بضربه فقال: لا يكون ذلك أبداً لأني حاربت إيران طيلة ثمانية أعوام دفاعاً عن مصالحهم. وقد اعترف بذلك الرئيس الفرنسي (ميتران) في ندوة صحفية أثناء حرب الخليج.

الجمهورية الإسلامية الفتيّة التي لم تزل في مهد تكوينها وأراد بذلك إطفاء نـور الله وإعلاء كلمة الشيطان.

كنت في الكوفة في بيت صديقي المرحوم الشهيد عيسى عبد الرسول أذكـر اسمه لأنهم قتلوه وذهب ضحيّة الدّس والخيانة واللؤم، كان أبو شبّر مـن أعـز النّاس عندي وهو ضابط في المخابرات اللاّسلكيّة ويعمل على الرادار، تعرّفـت عليه في أيّامي الأولى من زيارتي للعراق فكان لي نعم الصّديق الوفيّ، وعرفـت فيه الرجولة والشهامة والغيرة على الدّين وعلى المذهب فهو من الذين اسـتقبلوا الرئيس السّابق للجزائر أحمد بن بلة،ولاموه وحذّروه من زيارة قبر عبد الرحمن ابن ملجم، وكان ضمن الوفد الذين استقبلوا الكاتب المصري أحمد أمين ولامـوه عما كتبه ضدّ الشيعة، كان كثيراً ما يصحبني لبيت السيّد محمد بـاقر الصـدر وكان السيّد الصدر يحبّه كثيرا للخدمات التي كان يقدّمها أبو شبر للمؤمنين.

كان كلّما علم بخطر تُبيّتُه عناصر البعث ضدّ المسلمين، يُسارع ليحـذّر الأشخاص المعنيّين في الوقت المناسب ليأخذوا كلّ احتياطاتهم ويُفوّتوا الفرصـة عليهم.

كان يتفانى في حبّ الإمام الخميني ويستبشر على أنّـه علامـة لظـهور صاحب الزمان (ع)، وكان مع كلّ ذلك لا تفوته صلاة اللّيـل وكـثرة النوافـل ومجالسة العلماء الكبار.

عندما سافرت للعراق بصحبة زوجتي اخترتُه من بين كلّ الأصدقاء ونزلت عنده طيلة إقامتي في العراق لما لمسته فيه من حسن الأخلاق والالتزام وخدمـة الضّيف رحمه اللّه رحمةً واسعة وحشره مع من أحبّ، وكان حبّه كلّـه لمحمّـد وآل محمّد.

كنت ذات يوم في بيته في الكوفة نتحدّث عن الحرب التي شـنّها حـزب البعث على الجمهوريّة الإسلاميّة، وكنت أجهل خفايا الأمور.

فكان المسكين ولشدّة احتياطه ولمعرفته بدسائس النّظام لا يتكلّم حتى يخرج خارج البيت فيتفقّد يمينا وشمالا ثم يدخل ويغلق الأبواب الواحد تلو الآخـر ثـم

يُخرج أولاده كلّهم من القاعة إلى الغرفة المجاورة، فيغلق الباب عليهم، ويجلس بعد ذلك يحدّثني بصوت خافت، قال لي فيما قال: إن أمريكا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا أعطوا لصدّام أسلحة الدّمار الشّامل وأسلحة كيماويّة فتّاكة ليقضي على الجمهوريّة الإسلاميّة، ثم بكى المسكين.

قلت: ما يبكيك وحّد ربّك ولا تخف.

قال: لقد بعث هؤلاء الملاعينَ بكلّ الخبرات التقنيّة والفنيّة وأرسلوا كلّ الخبراء العسكريين والجنرالات الكبار، وأوعزوا إلى دول الخليج وعلى رأسهم السعوديّة ليدفعوا لصدّام كلّ يوم "مليار دولار" لتغطيّة مصاريف الحرب وقد كوّنت هذه الدّول مجلس تعاون من أجل مواصلة الحرب والقضاء على الإسلام في إيران، لأنّهم عرفوا كلّهم بأن ما يدور في إيران هو الإسلام الحقيقي الذي يخوّفهم ويضرب مصالحهم ويقطع أيديهم.

ولكن أتدري لماذا أنا أبكي؟.

قلت: أنت خائف على الإسلام والمسلمين ككلّ مسلم غيور على دينه ولكن اللّه أكبر من الجميع، أكبر من أمريكا ومن كلّ دول العالم واللّه سبحانه وعدنا بالنّصر، **﴿ويمكرون ويمكر اللّه واللّه خير الماكرين﴾.**

كفكف المسكين دموعه ونظر إلي وقال: أنا خائف على الجمهوريّة الإسلاميّة وكيف يخطّط الأعداءُ لإسقاطها ،أنا لست خائفا على نفسي، وأعرف أنهم سيقتلوني في الأيام القليلة القادمة.

قلت: إتق اللّه يا أخي لا تقل هذا، فأنا مطمئن عليك لأنك معدود منهم وتشتغل مهندس رادار فهم بحاجة إليك.

قال: سأخبرك بشيء سرّي للغاية لا يعلمه إلاّ اللّه وستذكرني به في يوم من الأيام عندما يتبيّن لك صدقي.

قلت: أنا أعرف أنّك صادق في كل ما تقول ولقد تعلّمت منك الصدق والأمانة، والمجالس بالأمانات.

قال: أسمعتَ بالهجوم الإسرائيلي على المفاعل النّووي العراقي؟

قلت: طبعا، ومن لم يسمع به؟ فقد تناقلت أخباره كلّ وكالات الأنباء العربيّة والأجنبيّة، وعلّق بعضهم بأنّ إسرائيل تتعاون مع إيران في الحرب ضدّ العراق.

قال: أحسنت وهذا بيت القصيد، أتدري أني أوّل من اكتشف الطائرات الإسرائيليّة عندما دخلت الأجواء العراقيّة من الحدود الأردنيّة على شاشة الرّادار.

تعجّبتُ لهذا الخبر، وأبديت استغرابي لعلمي بأنّ الطّائرات الإسرائيليّة دخلت العراق وقصفت المفاعل النّووي العراقي في بغداد دون أن تشتغل صفارة واحدة للإنذار ودون أن يتعرض لها أحد لا في الدخول ولا في الخروج.

ولمّا أعلمني الأخ عيسى عبد الرسول "أبو شبّر" بهذا الخبر ازدادت حيرتي، وسألته كيف يمكن هذا التضليل.

قال: وهل تصدّق أنّ دولة مثل العراق التي أنشأت مفاعلا نوويّا بذلك الحجم في العاصمة بغداد تتركه بدون حراسة أهذا معقول في الحسابات العسكريّة خصوصا وأنّها في حالة حرب مع إيران الدولة القويّة؟

قلت: أنا لا أصدّق، وأنا نفسي استغربت كما استغرب الكثير من النّاس، كيف يترك العراق المفاعل النووي بدون حراسة.

ضحك عبد الرسول ضحكة استهزاء وقال: بغداد كلّها حراسة وكلّها صواريخ مضادّة للطائرات وليس هناك متر واحد خال من الحراسة المشدّدة، وإذا كنتُ أنا في الكوفة اكتشفتُ الطّائرات المعاديّة عند اختراقها الأجواء العراقيّة فكيف تغيب عن رادارات بغداد المكثّفة والمتواجدة في كلّ مكان.

قلت في لهفة : أكمل القصّة، فما الذي وقع عند اكتشافك الطّائرات الإسرائيليّة؟ وهل أخبرت المسؤولين بها؟.

قال: طبعا، بأقصى سرعة اتصلت بمركز القيادة وأخبرتُهم فكان الجواب في غاية من البرودة قالوا: أقفل التلفون نحن اكتشفناها قبلك، ولم يزيدوا على هذه العبارة شيئا واقفلوا الخطّ.

وفرحت رغم ردّهم الجاف وانتظرتُ الأخبار لحظة بلحظة علّني أسمع بأن سلاح الجوّ العراقي أسقط طائرات إسرائيلية اخترقت المجال العراقي، لأنني

أعرف أن الوقت اللاّزم من دخول الحدود إلى وصولها لبغداد يستغرق عشرين دقيقة على أقل تقدير وهو وقت كاف للتصدي لها وإسقاطها أو إجبارها على الرّجوع في أسوأ الحالات.

لكني فوجئت في الصّباح بوسائل الإعلام العراقي تعلن عن تدمير المفاعل النّووي العراقي من قبل إسرائيل المتحالفة مع إيران، كما فوجئت في نفس اليوم بإقالتي من منصبي وإحالتي على المعاش، وربما سيجنّدوني للذهاب إلى جبهة القتال لأقاتل إخواني المسلمين، ثمّ أجهش بالبكاء.

بكيتُ لبكائه ولما يُخطّط لهذه الأمة المنكوبة وقلت: لا حول ولا قوّة إلا باللّه العلي العظيم ،إنا للّه وإنا إليه راجعون.

قال: والأنكى من كلّ ذلك أني سمعتُ رئيس المكتب عندنا يقول لزميله وهو مسرور: وهكذا سيعرف العرب والمسلمون الذين تعاطفوا مع إيران بأنّ إيران تتعاون مع إسرائيل وتستنجد بها لضرب العراق وتدميره والاستيلاء عليه.

فقال زميله: وهذه عندي أكبر من المفاعل النّووي الذي ستعيد فرنسا بناءه بعد القضاء على إيران الخميني وسيكون العراق بعدها أقوى قوة في المنطقة وحزب البعث هو الذي يسود العالم العربي. وخرجت أنا من مكتبي إلى الحمّام خوفا من أن يكتشفوا ما سمعته فيعدموني. قلت للسيد أبو شبّر أستفهمه:

ما هو المقصود بهذه المسرحية؟ أيصل الأمر إلى هذا الحدّ؟

قال: وأكثر، هذا ما اكتشفناه ولكن الذي يجري وراء الكواليس في السرّية المطلقة لا يعلمه إلا اللّه وحده.

أمّا المقصود فهو واضح، لمّا أحسّتْ الدّول الغربية بتعاطف الشعوب العربية وخصوصا بعد الخطاب الذي ألقاه الشيخ عبد الحميد كشك وكشف نوايا صدّام الملحدة وتأثّر بذلك المصريُّون وسائر المسلمين، فخاف الغرب أن يكتشف المسلمون دسائسه وتآمره على الإسلام في إيران فيضربون مصالحه في كلّ الدّول العربية والإسلامية، وخصوصا وأن الإمام الخميني ينادي بذلك في كلّ خطبة.

فاتّفقوا مع صدّام لضرب المفاعل النووي العراقي في بغداد حتّى يشكّكوا المسلمين والعرب في مصداقية الثورة الإسلامية في إيران ويتّهمونها بأنها متحالفة مع إسرائيل.

كما إنك تعرف بأن العدوّ الوحيد لكلّ العرب والمسلمين هو إسرائيل ولذلك قامت وكالات الأنباء العربية والغربية باتّهام إيران بأنها تتعامل وتتحالف مع إسرائيل وأن إسرائيل تمدّها بكل ما تحتاجه من قطع الغيار والعتاد، وأذاعتْ إسرائيل من جهتها بأنها تبيع إلى إيران كلّ ما تحتاجه عبر السوق السوداء.

أثّر ذلك الإدّعاء الباطل في كثير من المسلمين والعرب بضرب المفاعل النّووي فأصبحت عندهم تلك الإشاعات بمثابة الحقائق الملموسة وجنّدت أمريكا وحلفاؤها لذلك كل وسائل الدّعاية والإعلام فأصبح النّاس الذين كانوا بالأمس يُدينون العراق لهجومه على إيران، أصبحوا ينادون بإسقاط الثورة الإيرانية المتحالفة مع إسرائيل، وما عدت تسمع من يقول: "الثورة الإسلامية " بل أصبحوا يقولون عنها "الثورة الإيرانية الشيعيّة" وأصبحت الصّحف الغربية تتحدث عن "إيران غيت" وعن الصفقات الإسرائيلية السّرية لحليفتها إيران وصديقها الحميم الخميني.

وهرع الأئمةُ والخطباء الذين باعوا ضمائرهم بالدّرهم والدولار ودخلوا المساجد في كلّ عاصمة من البلاد الغربية التي يتواجد فيها المسلمون ليمدّوا أصابع الاتهام لإيران الفارسيّة المجوسيّة، وان حرب صدّام لهم هي حرب القادسيّة، وأنّ الخميني هو عميل الإمبريالية وعميل الصهيونيّة العالميّة وأنّه عضو من أعضاء الماسونيّة.

قلت: كيف يخسرون مفاعلا نوويّا كلّفهم "ملايين الدولارات" من أجل الدّعاية لصدّام؟

قال: هم لم يخسروا شيئا بالعكس سيعيدون بناءه ويكسبون من ورائه أرباحا كثيرة تُنعش اقتصادهم.

قلت: إذا، خسره العراق؟

قال: حتى العراق لم يخسر شيئا، ربح الدّعاية التي كانت ضـــدّه فـــانقلبت لفائدته وكان ظالما فأصبح مظلومًا وكان مُعتديا فأصبح معذورا، أمّـــا المفـــاعل النّووي إذا ما قرّروا إعادة بنائه فسيدفع ثمنه دول الخليج كلّهم الذيـــن يمولّـــون الحرب بدعوى أنّ صدّام إنّما قام بهذه الحرب دفاعا عنهم وعن كيانهم ووجودهم ولولا صدّام لابْتلعتْهم إيران جميعاً، هذا ما يقوله الغرب لهم.

قلتُ: لماذا قلتَ إذا ما قرّروا إعادة بنائه، فهل هم متردّدون وكيف اتفقـــوا مع صدّام على تدميره.

قال: يا أستاذي الجليل أنت تعرف خيبة الأمل التـــي أصـــابت الولايـــات المتحدة وحلفاءها بعد سقوط الشّاه ومجيء الإمام الخميني، وتعرف أنّهم أصابتهم صدمة لا مثيل لها في التّاريخ وتعرف خفايا عملية الرّهائن في طهران وفشـــل التدخل العسكري في عملية "طبس" التي خطّط لها الرئيس "كارتر".

قلت : نعم أعرف كلّ ذلك فما هو الرّبط بينها وبين ضـــرب المفـــاعل النّووي العراقي؟

قال: إن أمريكا خاصّة ودول الغرب عامة استخلصوا العبرة من الثـــورة الإسلامية وعرفوا أن إرادة الشعوب لا تُقهر ، فهم يخافون أن يقع في العـــراق مثل ما وقع في إيران، أعني أن تقوم ثورة إسلامية في العراق فيســـتفيد النظـــام الإسلامي في العراق من الأسلحة ومن المفاعل النّووي كما استفاد المسلمون فـــي إيران من الأسلحة التي كدّسها الشاه لحماية مصالحهم فإذا بها انقلبت ضدّهم، فهم الآن يفكّرون بهذا المنطق، إذا تمكّن صدّام ونظامه من إزالة النظام الإسلامي في إيران فإنّهم سيعيدون بناء المفاعل النّووي وسيعطونه من الأســـلحة مـــا يريـــد ليصبح هو شرطي المنطقة عوضا عن شاه إيران وليخدم مصالحهم كمـــا كـــان يفعل شاه إيران، وهم في كلّ ذلك يأخذون الفاتورة من دول الخليج البترولية ثمنا لحمايتهم والمحافظة على عروشهم الملَكيّة وعلى الكيّان الصهيوني في المنطقة.

أمّا إذا عجز صدّام عن محق الثّورة الإسلامية فإنّـــهم ســـيجرّدونه مـــن أسلحة الدّمار الشامل التي قدّموها إليه، ولا يعيدون بناء المفاعل النوّوي أبدًا.

قلت: طبعا لأنهم يخافون على إسرائيل.

قال: خوفا على مصالحهم قبل كلّ شيء، فهم لا يخافون صدّام على إسرائيل لأن صدّام لا يقدر على شيء إلا بموافقتهم، إنما هم يخشون الثورة الإسلامية في العراق إذا قُدّر لها أن تنجح فإنها بلا شك ستتوحّد مع الثورة الإسلامية في إيران لأنّ منظّرها واحد وهو الشهيد محمد باقر الصدر رضوان اللّه تعالى عليه ولأن الشعب العراقي أغلبه شيعة.

فهم في الحقيقة يخافون على إسرائيل من الإسلام الشّيعي الذي بدا مصمّماً على خوض المعركة الحاسمة ضد الكيّان الصهيوني الغاشم، وقد تحققوا من عزم الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني على محق إسرائيل، ورأوا بأعينهم كيف استقبل ياسر عرفات في إيران وكيف أعطته الثورة الإسلامية السّفارة الإسرائيلية لتكون سفارة للدولة الفلسطينية وكيف قرّر الإمام الخميني جعل آخر جمعة من شهر رمضان يوم القدس لتحريض الأمة قاطبة وتحريكها من أجل تحرير القدس والقضاء على إسرائيل الغاصبة لحقوق الشعب الفلسطيني.

أمّا صدّام ، فكن على يقين من أنّهم سيحافظون عليه حتى في حالة فشله في الحرب لأنه الوحيد الذي ليس له شبيه في كراهيّته للإسلام والمسلمين، وقد جرّبوه وخبروه مرّات عديدة وهو الذي قتل الشهيد الصدر وأخته بيديه القذرتين عندما أمره أسياده الأمريكان بقتله قبل أن يصبح خميني العراق كما يقولون، وكن على يقين أنّه لو قامت ثورة إسلامية ضدّ صدّام فسيتدخّلون عسكريّا لإنقاذ نظامه وعرشه.

كان اللّيل قد انقضى ثلثاه، فقام أبو شبّر يصلّي صلاة اللّيل ويبكي وأنا أسمع دعاءه وتضرّعه، والنّوم يخالط جفوني، فنمت باكيا ورأيت في المنام أحلاما مزعجة جعلتني أستيقظ باكيا.

ودّعت صديقي عيسى عبد الرسول باكيا وأنا أنظر إليه كنظراتي الأخيرة التي ودّعت بها الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان اللّه تعالى عليه، قلت له :لعلّ الله سبحانه يلاقينا في النجف الأشرف وفي كربلاء الحسين منتصرين، أستودعك اللّه، قال : **﴿ولا تيأسوا من روح اللّه إنه لا ييأس من روح اللّه إلاّ القوم الكافرون﴾**، قلت: صدق اللّه العلي العظيم.

قبّلني، وضمّني إلى صدره وكان ذلك آخر العهد به.

التقيت بعد سنوات بولده شبّر في لنـــدن، عرفنـــي وعرّفنـــي بنفســـه، وأخبرني بأنّهم بعد إحالة والده على المعاش، سجنوه لمدة ستة أشهر ثم أطلقـــوا سراحه

قال شبّر، وجاءنا إلى البيت فما عرفناه لشدّة الضعـــف والـــهرم الـــذي أصابه وبقي معنا يومين فقط ومات إلى رحمة اللّه تعالى وقد أخبرنا قبل وفاتـــه بأنهم أطعموه سُمّا قاتلاً.

وهكذا انتهت حياة بطل من أبطال الإسلام العاملين توّجهُ اللّهُ بتاج الشّـــهادة على أيدي حزب البعث الملحد ليكون مع النّبييّن والصّديقين والشهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا.

وإني لأذكره في هذه الأيام وأذكر تحاليله للأشياء فأقول: إنه كان ينظـــر بنور اللّه وقد حدّثني عن أشياء وقعت بالفعل كما توقّعها. رحمك اللّه يـــا عبـــد الرسول يا من مثلتَ الشعب العراقي بأكمله فكنت أمّة وأنت فرداً.

رحمك الله يا من كنت مثالاً للإخلاص والتضحية في ســـبيل قيـــام دولـــة الإسلام , وفي سبيل نصرة الحق وقدّمت حياتك وكل ما تملك لإعلاء كلمة الله.

لقد وقفتُ بعدك على كل ما ذكرته لي في تحاليلك، وعرفتُ أنك كنت من شيعة آل البيت المخلصين الذين كُشف لهم الغطاء.

فهنيئاً لك الشهادة، ول اشك أنك حيٌ عند ربك بجوار العترة الطاهرة يـــا عبد الرسول. فلا تنساني من دعواتك فأنا كثير ما أذكرك وأترحم عليك وأنا على يقين بأنني سأفرح بانتصار الإسلام في العراق، عندها سأزور ضريحك إن شـــاء الله لأُجدّد العهد بك. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الـــرّحلــة الجزائرية

الجزائر

مساحتها: **2.380.000** كلم مرّبع

عدد سكانها: **29** مليون نسمة

موقعها الجغرافي: شمال إفريقيا

عاصمتها: الجزائر

حدودها شرقاً: تونس وليبيا

وشمالاً: البحر الأبيض المتوسط

وغرباً: المغرب وموريتانيا

وجنوباً: النيجر ومالي



الـــرّحلــة الجزائرية

سافرت إليها مرّتين بعد الاستقلال وقبل استبصاري فلنـــا فيــها معـــارف وأقارب كانوا يعيشون عندنا في تونس قبل التّحرير، والمعروف عن الجزائر أن فيها بعض القبائل العربية التي هي من الخوارج يسكنون في واد مزاب وبعضهم يسكن جزيرة جربة في تونس ويُعرفون بالأباضية، وقد حدّثني بعض المسؤولين في العراق أن الرئيس الأول للجزائر أحمد بن بلّة لمّا زار العراق في الســتينيّات سأل عن قبر عبد الرحمان بن ملجم الخارجي الذي اغتال الإمام علي بــن أبــي طالب فحذّره المسؤولون العراقيون وخوّفوه بأن الشّيعة في العراق سيقتلونه لــو علموا منه ذلك.

في السبعينيّات وبعد استبصار أحد الأصدقاء وهو الأخ عمر حتيرة الذي يعـدّ من علماء الزيتونة والذي أتعبني كثيراً وأرهقني بالمعاندة قبل أن يعــرف الحــقّ، انتدب للتّدريس في الجزائر العاصمة وفي ضواحيها لمدّة ثماني سنوات تقريباً.

وكان يزورني في كل عطلة صيفية في بيتي بقفصة إذ كان يجاورني فـــي السّكن ويقضي معي السّهرات الطـــوال بصحبـــة مجموعـــة مـــن الأصدقـــاء المستبصرين، فكان يحدّثنا عن نشاطه في الجزائر وأنه أقنع العشرات من تلاميذه وأصدقائه الذين استبصروا واعتنقوا مذهب أهل البيت عليهم السّلام.

وكانت تردُني بعض الرسائل من أفريقيا بعدما انتشر كتـــابي الأول « ثـــم اهتديت » ومن ضمنها رسائل من الجزائر من بعض المستبصرين الذين يطلبون منّي أن أرسل إليهم بعض النسخ من الكتاب ويطالبونني بكتابـــة المزيـــد مـــن الحقائق التي يجهلونها والبعض منهم يستفتونني في بعض المســـائل الشــرعية بعدما علموا بأنّني وكيل السيد الخوئي في شمال إفريقيا.

حتى أني كنت أستلمُ رسائل بانتظام من بعض المعلّمات الجزائريّات اللاتي يسألنني عن كلّ صغيرة وكبيرة وكانت المعلّمة مليكة هي الوفيّـــة أكـــثر مـــن

زميلاتها في المراسلة وقد وصل بها الأمر أن تستشيرني حتى في زواجها وهل يحقّ لها أن تتزوج من سنّي بعد استبصارها.

وكان جوابي لها ولغيرها دائما بأنّ الزّواج من السنّي لا غبار عليه ولكن الأفضل أن يكون الزوج مثلها مستبصراً للحق لتوفّر على نفسها كثيرا من المتاعب والمشاكل ولكي يكون الأطفال خالصين يرضعون لبن الولاية من يومهم الأول.

أقول: من الأفضل لأنّه لو تزوّجت سنّيا وهي مستبصرة فستلاقي من زوجها الاستهزاء والسخرية من معتقداتها وسيعارضها في بعض العبادات والمعلومات التي يرى أنها بدعة من بدع الشّيعة ولو كانت من عمل الرّسول صلى اللّه عليه وآله وسلم كالسّجود على التراب مثلا وكمسح الرجْلين في الوضوء.

ثم إن الأطفال سيضطربون في تربيتهم وسلوكهم وعندما يكبرون سيتذبذبون بين الأم والأب ولا يعرفون الحقّ إلاّ بمشقّة كبرى.

كلّ هذا كنت أكتبه للفتيات الجزائريّات المستبصرات.

وقد أثلج صدري رسالة مليكة التي كتبت إليّ:

الحمد لله لقد رفضت الزواج من عدّة خُطّاب حتى يسّر الله وتقدّم إلى خطبتي شاب مستبصر فقبلت الزواج منه.

وقد اتفقنا على كلّ شيء ولكنّنا أخّرنا موعد الزفاف بسبب موت السيد الخوئي رضوان اللّه عليه.

كما أنّ بعض الشباب من الجزائر كان يراسلني باستمرار وكان من بينهم رجل اسمه عبد الجواد ثامر يتمنّى على اللّه أن يراني ويقول: سيدي لو أراك لأُقبّل التراب تحت قدميك وأسأل الله سبحانه أن لا يميتني حتى أراك.

وساقتني المقادير ووجدت نفسي ذات يوم بالجزائر من أجل تسوية وضعية قانونية لسيّارتي التي لا بدّ لها أن تخرج من الأراضي التونسية للتمتع بفترة إضافية للجولان.

وجالت بخاطري فكرة زيارة مدينة تيارت التي يسكنها الأخ الحبيب عبد الجواد الذي لا أعرفه ولا يعرفني إلاّ من خلال الرسائل.

وصلت مدينة تيارت واتجهت إلى العنوان باحثا عن منزل السيّد عبد الجواد، تعرفت على ولده سعيد البالغ من العمر عشرين عاما والذي أعلمني بأنّ والده يشتغل بالتّدريس في الجامعة وركب معي في السيّارة ليوصلني إلى الجامعة، وفي الطريق سألني عن إسمي، عندما أعلمته صاح مستغربا وهو لا يصدّق أنني محمد التيجاني السماوي كيف له أن يصدّق وهو يرى "شابًا" يرتدي اللّباس الرياضي ووجه محلوق، وقد نسج في مخيّلته حسبما أعلمني بأن الشيخ التيجاني رجل طاعن في السن لحيته بيضاء وعمامته سوداء يلبس العباءة والجبّة وهو يتوكّأ على عصاه وأسنانه مهشّمة.

ولم يصدّقني وأخذ يسألني أأنت مؤلف "ثم اهتديت"؟ قلت: نعم سألني عن الكتب الأخرى وأجبته ولكنه ما اقتنع كلّيا حتى أريته جواز السفر، عند ذلك قال لي: إرجع يا شيخ إلى البيت لأن أبي لو يراك سيخرج من عقله ولا أدري لعلّه يصاب بصدمة في الجامعة.

أرجعني إلى البيت وأدخلني الصّالون، واستأذنني في الغياب لمدة وجيزة، ثم رجع بعد قليل وأعلمني بأنّ والده ذهب إلى بيت جدّه ليأتي بوالدته وأخته، وقال لي: أرجوك أن تمثّل على أبي ولا تتركه يعرفك لأنه لا يمضي يوم واحد إلاّ ويحدثنا عنك فأنت شغله الشاغل ثم أعلمني بأن له صديق تونسي يسكن في مدينة تبسّة واسمه حسين.

قلت: لا عليك فأنا أجيد فن التّمثيل وعندي في ذلك أوْسمة وشهادات.

وما هي إلاّ نصف ساعة جلب خلالها سعيد بعض الفواكه حتى دخل السيد عبد الجواد وسبقتْه زوجته وابنتها التي تخرّجت طبيبة منذ أيام كما حدثني سعيد، دخلت المرأة وابنتها إلى حيث لا أعلم أما عبد الجواد فقد دخل علينا في الصّالون وسلّم سلاما باردا وكأنّه يريد أن يعلمني بأن وجودي في بيته يسبب له إحراجا كبيرا فبادر ابنه سعيد يقول: الأخ من تونس وقد جاء يبحث عنك.

فقال عبد الجواد بمزيد القلق: أهلاً وسهلاً.

قلت: أنا صديق حسين الذي يسكن في" تبسّة "وقد مررت عليه هناك واستضافني ثلاثة أيّام ولمّا علم بأني قاصد إلى" تيارت" أعطاني عنوانك ورجاني أن أتصل بك وأتعرّف عليك.

قال: ماذا يريد منّي حسين؟ لقد أنجزت له كامل ما كلّفني به.

قلت: أنا لا دخل لي في ما كلّفك به وما أنجزتَ له وما جئتك لتنجز لي أي تكليف.

قال: أُعيدها مرة أخرى أهلا وسهلا

قلت: ولكن ليس بإمكاني البقاء عندك حتى أعرف ما أنت عليه من عقيدة، أقول لك هذا، لأني خلال إقامتي عند حسين سمعت منه عجائب وغرائب.

قال: مثل ماذا ؟!

قلت: هو يطعن في الصّحابة ويشكك في عدالتهم وحتى عائشة أم المؤمنين لم تسلم من نقده وإساءته.

قال: يا أخي أنا مالي وعقائد حسين كلّ إنسان حرّ في ما يعتقده وأنا شخصيّا لا أعتقد، ولا أنتقد، كلّ ما في الأمر نحن نحبّ أهل البيت ونواليهم. ولا شغل لنا في الصّحابة وعائشة.

قلت : نحن أولى بكم من ذلك ولكن حبّ أهل البيت ليس على حساب الطعن في صّحابة رسول اللّه وانتقاصهم، لأن ما سمعته هذه الأيام من حسين خطير جدّا لأنه تشكيك في الدين الإسلامي.

قال متسائلاً: ليش، هو اللي يشكّك في الصّحابة يشكّك في الدّين؟

قلت: طبعاً لأنّنا لم نعرف الدّين إلاّ عن طريقهم وبواسطتهم ويكفيك أنّ الرّسول صلى اللّه عليه وسلم يقول: خذوا نصف دينكم عن عائشة، ويقول أيضاً: أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم.

فكيف يصحّ بعد كلّ هذه الأدلّة أن نطعن فيهم بدعوى محبّة أهل البيت، هذه مؤامرة الشّيعة على الإسلام فهم يريدون تهديمه فيتستّرون بمحبة أهل البيت حتى لا يكتشف أمرهم.

قال يسألني: أنت من تونس؟

قلت: بلى

قال: ألم تسمع بالدكتور التيجاني؟ !

قلت : أي دكتور؟ ثم استطردت، آه الذي كتب كتاباً يحكي عن قصة حياته وأنه زار فريد الأطرش ثم تعرّف على شّيعة العراق أهل الشقاق والنفاق.

كل ذلك والرّجل واقف لم يجلس بعد، فلما حدثته على التيجاني جلس فوق الزربيّة التي فرشت على أرض الصّالون والتفت إلى ولده قائلا:

سعيد برّة جبلي "سيجارة"

ويبدو أنّ سعيد تعوّد أن يأتي لأبيه "بسيجارة " يطلبها من جاره كلما غضب واسودّت الدنيا أمامه.

وعرف سعيد بتوتّر أعصاب والده فخرج من الصّالون واتجه إلى داخل البيت وأعلم أمّه بأن الضّيف الموجود هو الشيخ التيجاني، وقام الصيّاح داخل البيت وأقبلت الزوجة وابنتُها إلى الصّالون وسعيد يجري خلفهما وهم يقولون يا بابا هذا الدكتور التيجاني.

وارتموا عليّ يسلّمون، وقفز عبد الجواد على قدميّ يحاول تقبيلها ومسكت رأسه فأخذ في البكاء وهو يقول: لا تمنعني فقد أقسمتُ أن أقبّل حذاءك أمام زوجتي وأولادي.

وبكيت لبكائه وأخذتنا حالة لا يمكن أن يصفها القلم، إنه شوق لا يعرفه غير الموالين للعترة الطّاهرة الذين تختلط أفراحهم بأحزانهم فإذا بهم في أعزّ لحظات حياتهم المترعة بالأفراح والمسرّات يتذكّرون مصرع أبي عبد اللّه الحسين وسط أبنائه وإخوته وأصحابه ولا تكاد تلك الذكرى تطفو حتى تبعث ذكريات أخرى تذكّرنا باغتيال أمير المؤمنين وبمأساة الزهراء وأبيها وباغتيال أبي محمد الحسن ابن علي وبمأساة زين العابدين وعمته العقيلة زينب وهكذا لا تكاد تنسى حادثة حتى تُفاجئك حوادث ولا تكاد تنسى مأساة واحدة حتى تُطالعك مآسي متعدّدة.

بكينا جميعا لبكاء السيّد عبد الجواد الذي لم يرض إلاّ بتقبيل رجلي وحاولت بكل جهدي منعه بدون جدوى.

وقف المسكين يكفكف دموعه ويقبّل رأسي ويديّ وأنا أبادله بالمثل، التفت إلى زوجته وابنته وأمرهما بتحضير العشاء بسرعة وأرسل ابنه سعيد إلى السّوق لقضاء بعض ما يلزم وكانت الشمس قد غربت وبدأ اللّيل ينتشر.

قال: سامحك اللّه يا سيدي ماذا فعلت بي وأنا كنت أنتظر اليوم الذي ستقدم فيه إلينا وكنت أنا ومجموعة من الأصدقاء نعّد برنامج استقبالك في المطار وأنه سيكون يوما مشهودا. كان يسكت قليلا ويعيد النّظر مليّا ثم يقول: أنا لا أصدّق، أفي يقظة أنا أم في منام، هل صحيح أنّ الدكتور التيجاني السّماوي في بيتي الآن بشخصه؟ !

قلت: نعم أنا بلحمي وعظمي ودمي وشحمي وأنت في يقظة والحمد للّه الذي جمعنا في هذا اليوم السّعيد وكلّ هذا تخطيط ولدك سعيد.

ضحك وهو يقول: الحمد للّه كثيرا الذي أحياني حتى رأيتك.

وضع العشاء ودارت الأسرة يحوطونني بالرعاية والتبجيل وكأنّي والدهم العائد من الحج بعد غياب طويل وكان السيّد عبد الجواد يطعمني ويلقمني بيده وهو لا يأكلُ شيئاً.

وبعد سهرة قصيرة لاحظ التّعب في عينيّ فقال: أعتذر لك لعدم وجود المكيّف وبما أن الطقس تغلب عليه الحرارة فأنت تنام وأنا سأتولّى الترويح عنك بالمروحة اليدويّة.

قلت: لا أقبل منك ذلك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " لنفسك عليك حق ولزوجك عليك حق ولربّك عليك حقّ فآت كل ذي حقّ حقّه". وأنا أقسم عليك باللّه أن تنام في فراشك واتركني هنا في الصّالون ولا تُحرجني وإلاّ سأخرج لأبحث عن فندق أنام فيه.

قال: سيدي أطلب منك وأترجّاك أن تنام قرير العين في بيت أخيك فهو بيتك وكلّنا ضيوفك.

قلت: إذاً اتفقنا فإلى غدٍ إن شاء اللّه تعالى، وغلبني النّوم بعد يوم كامل من السّفر، وكلّما استيقظت وفتحت عينيّ وجدته إلى جانب رأسي وبيده مروحة يروح بها عنّي.

جاءني في الصّباح بالفطور وجلس أمامي يقول: سبحان اللّه لو تلاقينا في الشّارع ما كان يخطر ببالي أبدا أنك أنت الدكتور التيجاني، ولو تدري أنّ بعض النّاس هنا لو يعلمُوا بوجودك لأقاموا الدّنيا وهم يحبّونك أكثر منّي، وأنّ بعض المناوئين لو يعلموا بوجودك لقتلوك لحقدهم الشديد عليك قلت: الحمد للّه أنّ أحداً منهم لا يعرفني سواء في ذلك المحبّين أو المبغضين.

قال: أحسنت، أنّك جئتنا على هذا الشكل وبهذا اللّباس فلا يمكن لأحد أن يعرفك ما لم نعرّفه نحن بشخصك، وسوف ترى بنفسك اليوم العجب.

قلت: إن كان ذلك خطراً عليك وعليّ فلا داعي بأن تخبر أحدا من النّاس ونكتفي بهذه الزيارة ففيها الكفاية وفيها الخير والبركة.

قال: لا تخف إن شاء اللّه لا بأس عليك وسوف لا أعرّفك إلاّ بالموالين والذين يحلمون برؤيتك بل يغالون في حبّك.

قلت: وصل الحب إلى هذا الحدّ وأنا لم أفعل لهم شيئاً.

قال: أنت فعلت كلّ شيء أنت تسبّبت في هدايتنا من الضلالة وفتحت لنا أبواب الجنّة، لا تحقر نفسك يا سيدي.

شكرته على عواطفه النبيلة ولبست ثيابي استعدادا للخروج معه إلى حيث لا أدري، وفي نفسي بعض الخوف لعلمي بأن بعض المتعصّبين لا يتورّعون عن قتلي وخصوصا الجزائريّين المعروفين بطبعهم الحاد ومزاجهم المتصلّب.

خرجت بصحبة السيّد عبد الجواد واتجهنا إلى وسط المدينة حيث الأبنية الضخمة والعمارات العالية ووصلنا إلى عمارة ذات تسع طوابق مكتوب عليها "الصندوق القومي للضّمان الاجتماعي".

دخلنا العمارة إلى الدور الثاني وهناك تكلم السيد عبد الجواد مع المسؤول الذي عرفه وسلّم عليه بحرارة ولّما سأله عن المدير، قال هو مشغول مع أحد الضيوف فإذا خرج الضيف فادخل عليه كعادتك بدون استئذان.

وانتظرنا قليلا ريثما خرج الرّجل فأخذ بيدي ودخلنا إلى مكتب المدير مرورا بموظفته الخاصّة التي رحّبت هي الأخرى بالسيّد عبد الجواد.

وقام السيد المدير من كرسيّه مُرحّبا بالسيد عبد الجواد وأخذ يلومه على غيابه الطويل. ولكن السيد عبد الجواد لم يعبأ بلومه وأخذ يشير إليّ ويقول سلّم على السيّد أولاً.

سلّم عليّ المدير ودقّ الجرس وجاءت السكرتيرة مسرعة فأمرها بإحضار ثلاث "قهوات" وأخذنا إلى جانب المكتب حيث أدخلنا إلى قاعة فسيحة بها أرائك فخمة وجلسنا فسأل المدير عبد الجواد قائلا: ألا تعرّفنا على السيد ؟

فقال عبد الجواد: لا داعي فأنت تعرفه.

قال المدير متردّداً: أنا لا أعرفه ولأول مرّة أراه.

قال عبد الجواد: لا بل تعرفه حق المعرفة، فلا تتظاهر بالجهل.

قال المدير: سامحني ومن غير تحقير أنا أقول لك لا أعرفه .

قال عبد الجواد: وأنا أقسم باللّه أنك تعرفُه.

احتار المدير وبقي ينقل النّظر بيني وبين عبد الجواد وكأنه يبحث في ذاكرته لعلّها تُسعفه.

قلت لعبد الجواد: أتريد أن تمثل على السيد المدير كما مثّلتُ أنا عليك البارحة؟

ابتسم عبد الجواد للسيد المدير وأشار إليّ قائلا هذا "ثم اهتديت" وقفز السيد المدير عند سماعه هذه الكلمة وارتمى عليّ صارخا وأخذ يعانقني ويبكي بصوت عال، عندها دخلت السكرتيرة وبيديها طبق المشروبات والقهوة ولمّا شاهدت المدير يعانقني ويبكي ظنّت المسكينة أنني جئته بخبر نعي أبيه أو أمّه فأسقطت الطبق من يدها وصاحت: "شو اللّي صار".

أشار عليها السيد المدير بالخروج والتفت إلى السيد عبد الجواد قائلا: أهكذا تفاجئني بزيارة الدكتور التيجاني؟

ابتسم عبد الجواد قائلا: ما جرى عليّ أنا بالأمس لا يقاس بما جرى عليك أنت اليوم، فالدكتور التيجاني كلّه مفاجاءات.

وهدأ المدير وأخذ يسلم عليّ ويقبلني ويحمد اللّه سبحانه على نعمته التي منّ بها عليه إذ جئتُه زائراً في مكتبه.

ثم التفت إلى عبد الجواد وقال : يا ألّله توكلنا على اللّه لنخرج الآن، قال له: والعمل، كيف تترك شغلك؟ وكأنه يريد أن يعرّفني مدى حبّه لي.

قال: يلعن أبو الشغل ،تعال نجمع الأحباب ليتعرّفوا على السيّد فهم دائما يتحدّثون عن زيارته في باريس.

خرجنا وقد أخذ المدير بعضدي الأيمن وعبد الجواد بعضدي الآخر وكل واحد منهما يحاول افتكاكي من الآخر وركبنا سيارة المدير وتركنا سيارتي هناك في موقف الإدارة.

وبعد نصف ساعة وصلنا إلى مدينة "المعسكر" التي تبعد عن "تيارت" مسافة قليلة، وما إن وصلنا إلى البيت حتى ارتفعت الزغاريد، ثم بدأت المكالمات الهاتفية والاتصالات السرّية وبدأت الوفود تأتي مثنى وثلاث ورباع وما هي إلاّ ساعة أو ساعتين حتى اجتمع في البيت أكثر من أربعين رجلا، وكلّما دخل علينا فوج إلاّ وقام التّكبير والتّهليل والعناق والتّقبيل وجاء صاحب البيت بثلاثة أو أربعة خرفان فذُبحوا وشاركنا كلنا في إحضار اللّحوم واشتغلت النساء في تحضير الطعام، وما أقبل اللّيل إلاّ وقد اكتمل عدد الشباب إلى سبعين أو يزيد عرفتُ واحدا منهم واسمه الحسيني سبق أن زارني في باريس وأعطيته بعضا من كتبي، وهو يملك مع بعض شركائه مطبعة ابن باديس في مدينة "تيارت".

وبعد انتهاء الوليمة، بدأت السّهرة التي جمعت كلّ الرّجال وشاركت النّساء معنا في الحجرة المجاورة، وصلينا كلّنا صلاة جماعة بإمامتي.

ألقيت كلمة وجيزة بالمناسبة رحّبت فيها بكلّ الحاضرين وشكرتهم على عواطفهم وحسن استقبالهم واعتذرت لهم عن الأتعاب التي سببتها لهم، ثم حمدت اللّه سبحانه وتعالى أن جمعنا على طاعته وقد ركبنا سفينة النجاة بموالاتنا واقتدائنا بمحمّد وآل بيته الأطهار صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين في وقت كثُرت فيه البدع وأصبحنا كالغُرباء وسط أهلنا وذوينا.

ثم فتحنا باب الحوار والأسئلة فسألوني عن كلّ شاردة وواردة عن كلّ صغيرة وكبيرة وأجبت في ما أعلم وامتنعت عمّا ليس لي به علم.

كما علمتُ من خلال الحوار بأنّ أغلب الحاضرين قد استبصروا من كتاب "ثم اهتديت"، وهم ينقلُون هذا الكتاب بنسخ الصور ويكلّفهم أربعين ديناراً للنسخة الواحدة، وهم بأشد الحاجة إلى مزيد من الكتب لأن الشّباب المثقّف من جماعة عبّاس مدني وعلي بالحاج بدأوا يتشيّعون لمذهب أهل البيت وهم متعطّشون لقراءة "ثم اهتديت"

قدّموا إليّ مبالغ مالية بصفتي وكيلا للسيّد الخوئي وأعلموني بأنها حقوق شرعية من الزكّاة والخمس، وفكّرت قليلا واهتديت إلى الحل الذي يُرضي الجميع، وقلت أنتم تعلمون بأن هذه الأموال وإن كثُرتْ فلا قيمة لها خارج الجزائر، فأنا نيابة عن السيد الخوئي رحمه اللّه أخوّل لكم أن تنفقوها لطبع كتاب "ثم اهتديت" وتوزّعوه مجّانا على الرّاغبين في معرفة الحقيقة وهذا الحسيني صاحب المطبعة أمامكم فاتّفقوا معه.

استحسن الجميع هذه الفكرة وشكروني على ذلك وعرف الحسيني قيمة المبلغ فوعد بطباعته في ألفي نسخة، وقبل الافتراق نصحتُ الجميع بتقوى اللّه والعمل بإخلاص لنشر الإسلام الصّحيح المتمثّل في محمد وآل البيت والابتعاد عن كل المشاكل السياسيّة وكل ما يُثير الآخرين ليقضي اللّه أمرا كان مفعولا.

الــرّحلــة الليبية

ليبيا

مساحتها: **2.000.000** كلم مربّع

عدد سكّانها: ما يقارب **6** ملايين نسمة

عاصمتها: طرابلس

موقعها الجغرافي: شمال أفريقيا

حدودها من الشمال: البحر الأبيض المتوسّط

ومن الشرق: مصر

ومن الجنوب: السودان والتشاد والنّيجر

ومن الغرب: الجزائر، وتونس من الشمال الغربي



الــرّحلــة الليبية

عرفت ليبيا بعد ثورة الفاتح عندما نظّم رجال التعليم فــي قفصــة رحلــة استطلاعية إلى القطر الشقيق للتعرّف على المنشآت التعليميّة والاقتصادية إثــر التحول الكبير الذي أحدثته ثورة الفاتح من سبتمبر.

كنت من المتحمّسين للزيارة وبذلت كلّ جهدي لتحقيقها لأني مُنعــتُ مــن السّفر إليها قبل شهور. وإليكم القصة:

اتفقت مع اثنين من الأساتذة الفرنسيّين وهما زملائي في المعــهد الثــانوي يدرّسون اللّغة الفرنسيّة وتفاهمنا على السّفر إلى ليبيا أثناء عطلة الشّتاء يعني في شهر ديسمبر وذلك بعد ثورة الفاتح بثلاثة أشهر في ذكراها الأولى.

كنت في بداية البحث للاستبصار، وقد توفّي والدي رحمهُ اللّــه وأنجبــتْ زوجتي بعد 6 أشهر مولودها الثاني أسميته "الناصر" على اسم والدي وكان آيــة في الجمال والصحّة حتى أنه كان وعمره ستة أشهر يفوق أخاه شــرف الــذي يكبره بسنة، وكنت أولعت به كثيراً فكأنه يذكّرني بوالدي.

وعندما جاءني الأستاذان حسب الموعد المضروب للسّفر إلى ليبيا وجدانــي أُحضّر أكلة خاصة لولدي الجديد، فقلت لهما: انتظراني قليلا حتى أكمل غداءه ثم نخرج بعد ذلك.

وقد أعدّت زوجتي طعاماً الغداء لضيوفي لنأكل قبل السفر ولكن الوقت كما عوّدني الفرنسيّون لا يقبل التأخير فأخذنا الطعام معنا في السيّارة وودّعت أسرتي وخرجنا قاصدين طرابلس العاصمة الليبية.

وصلنا الحدود اللّيبية التونسية في اللّيل وقدّمنا جوازات الســفر للمراقبــة التونسية فختموا على جوازات الفرنسيّين دون جوازي، وأعلموني بــأن السّــفر بالنسبة لي ممنوع ولم يعطونا سببا لذلك.

وتحيّر الفرنسيّون وطار عقلهم لأنهم لا يحسنون التكلم باللّغة العربية فكيف سيعيشون أيامهم في ليبيا وكانوا يعوّلون عليّ، وطلبنا مقابلة ضابط الحدود، ودخلنا عليه ثلاثتنا، وكلّمه الأستاذان مستفسران عن أسباب منعي من السّفر، فقال: أنتما أحرار تسافران متى شئتما أما بالنّسبة لرجال التعليم التونسيّين فليس لهم حقّ السفر في العطل الصغيرة وهذا منشور جاءنا بهذا الخصوص. حاولتُ معه فانتهرني وقال: واللّه لا أتركك تسافر أبداً.

استسلمت للقانون وأنا غاضب طبعاً لحرماني من هذه الجولة المجّانية في سيّارة مخصوصة.

خرجنا من عنده وجلسنا نأكل الطعام الذي أعدّتْه زوجتي ونحن حيارى نفكّر بالرّجوع ثلاثتنا، ولكن عون الأمن أعلمنا بأن الأستاذان الفرنسيان لا بدّ لهم من الخروج ولو لليلة واحدة لأنّ ختم الخروج من الأراضي التونسيّة قد وقع واتفقنا أخيرا على أن يسافرا وحدهما ويتركاني.

كيف يتركاني في الحدود وتسمّى" رأس جدير" واللّيل قد أسدل أستاره وليس عندي مأوى، فطلبنا من شرطة الحدود السّماح لهم بالرّجوع من أجلي إلى مدينة "بن قردان" ليوصلاني إلى الفندق ثم يعودان بعد ذلك، فقال لهما المسؤول: افعلا ما شئتما ولكن لا بدّ من الخروج قبل منتصف اللّيل وإلاّ ستجدان مشاكل في الحدود اللّيبية إذا تغيّر التاريخ بعد منتصف اللّيل.

ورجعنا بسرعة إلى مدينة بن قردان وأنا حزين متأسّفٌ. كلّمني أحدهم بلغة فرنسية ولكن معانيها قرآن كريم قال: أنتم تقولون أنه ربّما تكرهون شيئاً في مصلحتكم، فلا تبتئس يا صديقي التيجاني.

وهو يتكلم، جالت بخاطري تلك الآية العظيمة: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرٌّ لكم واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** البقرة 216.

فحمدتُ ربّي وصبرت، ودّعتهم وتمنّيت لهم سفرة ميمونة ودخلت لأستسلم لنوم عميق.

في الصّباح ركبت في حافلة عمومية إلى مدينة مدنين وهناك في المحطـــة وجدت حافلة أخرى تذهب إلى "الذهيبة "وهي نقطة حدودية أخرى للدخول إلــى ليبيا من الجنوب، ولم أتردد في أخذ تذكرة الركوب للسفر إليــها لأنّ صديقــي الحميم الذي قضيتُ معه كلّ دراستي هو مسؤول الحدود هناك، وركبت الحافلــة في انتظار خروجها بعد ربع ساعة وقلت فــي نفســي: ســوف أدرك زملائــي الفرنسيّين في العاصمة طرابلس وأبحث عنهما في كلّ الفنادق وســتكون لــهما مفاجأة كبرى.

ولكن أحسستُ بأنّي غير مرتاح لهذه السفرة، فمن يدري لعلّ صديقي حسن شريف في إجازة، فسيكون تعبي تعبين وعندها لن يكون رجوعي إلى قفصــة إلاّ في الغد لأن الحافلة العمومية تسافر مرة واحدة في اليوم من مدينة "قابس".

وسمعت في أعماقي صوت زميلي الفرنسي وهو يُذكّرني من جديــد بــأنّ الرّجوع في مصلحتي فلماذا أُغامر.

وأسرعت للنزول وبدلا من السّفر إلى" الذهيبة " ركبت إلى قــابس ومنــها مباشرة إلى قفصة.

وما إن طرقت الباب وفتح لي حتّى صاح بعضهم: الحمد للّه والشكر لــه، الآن إذا مات يموت حلال.

ودخلت مسرعاً لا أكاد أصدّق ما أسمع فإذا بزوجتي تبكي وأخواتها وأمّــها دائرون حولها، سألت ما الخبر فأشاروا إلى ابني الناصر، فنظرت حيث أشــاروا فلم أعرفه يا سبحان اللّه كيف تغيّر بين عشيّة وضحاها، نحيف الجســم وعينــاه غائرتان وانفه كمنقار الطيّر. أخذته بين أحضاني فلم يكن إلا نصف ما تركتــه بالأمس.

سألت ماذا حدث؟ قالت زوجتي وهي تبكي: البارحة أوصلته إلى الطبيــب فقال لي: فات الأوان وقال لي: إذا عاش هذا اليوم فإنه يمنع، وعاودت الســؤال، ماذا حدث له؟

وقالت : لا أدري منذ خرجتَ بدأ يتقيأ وكل ما أعطيناه أكلا وشربا تقيــأه، وجوفه يجري كالماء.

أحسست بقلبي يتمزّق وأنا أنظر إليه وهو يرمقني بعينيه الواسعتين الغائرتين وكأنّه يلومني ويقول: لماذا تركتني وسافرتَ فلو كنت موجودا ما وصلت حالتي إلى ما ترى.

بكيت حتّى ابتل وجهه بدموعي وأنا أقول: يا عزيزي وفلذة كبدي أنا رجعت ولم أسافر من أجلك من أجل أن تُشفى وترتاح من هذه الآلام والأوجاع.

كفكفتْ زوجتي المسكينة دموعها قائلة: الحمد للّه الآن وأنت هنا فليكن ما شاء اللّه فنار قلبي بردت لأني كنت أتصوّر كيف سأدفنه وأنت غائب، كنت أقول: كيف ترك زوجي ابنه يضحك ويلعب وسيعود فلا يجد له أثرا فماذا سأقول له وبماذا أعتذر إليه.؟

بهذا الكلام وبكلام الحاضرين الذين أخذوا كلّهم يحمدون اللّه سبحانه على أن أرجعني إليهم بهذه السّرعة لأنهم كانوا يتوقّعون عودتي بعد نصف شهر.

قالت إحداهن: الحمد للّه الآن إذا مات يموت حلالاً، دخلت إلى غرفتي أغلقت الباب على نفسي سقطت إلى الأرض باكيا حتى شبعت من البكاء، ثم قمت أصلّي لربّي صلاة الشكر، وقلت في نفسي: كم كنت مغفّلا البارحة عندما غضبتُ من كلام الضّابط الذي قال لي: واللّه لا أتركك تسافر.

وكم حقدتُ في نفسي عليه، أين هو الآن يا ليتني أراه لأعتذر إليه وأشكره على منعي من السّفر.

سبحانك يا إلهي كم أنت رؤوف بعبادك، كم أنت لطيفٌ بهم فقد قلتَ وأنت أصدق القائلين: ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ البقرة 216 .

كرهتُ الرّجوع من الحدود وهو خير لي لأحضر وفاة ولدي وهو خير لكلّ أسرتي التي فرحت لقدومي ولو كانت منكوبة بفقد ولدها، وهو خير لي أن أحضره بنفسي فأغسّله وأكفنه وأدفنه، وإلاّ ستبقى لوعته في قلبي ما حييت.

وبينما أنا أناجي ربّي وأكثر الحمد والشكر، تعالت الأصوات بالبكاء والنّحيب من النّساء، فعرفت أن ولدي يفارق الحياة، فأسرعتُ إليه وضعته في حجري وأنا أقول في صوت متقطّع: أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أن محمّدا

رسول اللّه: اللّهم تقبل منّا هذا القربان واجعله لنا ذخرا يوم القيامة، وفاضت روحه الطّاهرة كما تخرج روح العصفور فكانت لوعة وأسى مشوبة بفرحة ورضا بحضوري وسكتت الأصوات مبتهلة إلي خالقها تسألُه الرحمة والمغفرة، إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم. جهّزته بنفسي وحملته بين يدي إلى المقبرة حيث واريته في التّراب إلى جانب جدّه الذي توفي قبل ولادته بشهر واحد.

بعد شهور عديدة من هذه الحادثة جاءت رحلة الأساتذة ورجال التعليم التي شاركت فيها بدعوى من رجال التعليم في القطر الشقيق كما قدّمت آنفا.

كانت الاستقبالات من الأخوة اللّيبيين رائعة والضيافات متعدّدة تعرّفنا خلالها على إنجازات الثورة الفتيّة التي مازالت في عامها الثاني وعقدنا بعض النّدوات والسّهرات وقمنا ببعض الزيارات لأغلب المنشآت الحديثة ولبعض المتاحف والآثار القديمة، وتعرّفت شخصيا على عدّة أساتذة مخلصين عقدت معهم عقد الأخوة والولاء.

وبقيت أتردّد عليهم بعد تلك الرّحلة سواء بالمراسلة أو بالزّيارات.

وكنت إذ ذاك لازلت أبحث عن الحقيقة التي بدأت أكتشفها وكنت كثيرا ما أثير معهم بعض المواضيع الحسّاسة كي أختبر درجة الذكاء وسعة الصدر عندهم.

وتحدّثت مرّة مع أحدهم واسمه صالح السّعواني الذي أخذ يحدثني عن عدل عمر بن الخطاب وقوّة إيمانه وكثرة خصاله وما قدّمه للإسلام والمسلمين وعن الفتوحات التي توّج بها خلافته حتى قال: لو كان في الأمة اثنان مثله لكان العالم كلّه إسلام.

حاولت التّشكيك في صحّة ما نقله عن عمر بن الخطّاب وقلت فقط: لعلّ المؤرخين المعجبين بشخصيّة عمر قد بالغوا شيئا ما.

فغضب مني وقال : بالعكس ما لم ينقلوه أكثر بكثير مما نقلوه لنا، لأن الدّهر لم يأت بشخص مثل عمر فقلت : الشيعة لا يوافقون على كلّ ما نحكيه في فضائل عمر وخصاله المشهورة.

قال: الشيعة مجوس لا يحبّون سيدنا عمر لأنه حطّم وقوّض إمبراطوريّتهم الفارسيّة وكبرياءهم المجوسي الحاقد.

قلت: فكيف تفسّر اعتناقهم الإسلام ودخولهم في دين اللّه أفواجا؟

قال: ما اعتنقوا يوما من الأيام الإسلام ولا دخلوا في دين اللّه، وإن فعلوا فهو كيدٌ منهم للإسلام وللمسلمين، ألا ترى أن إيران تقيم أكبر العلاقات مع أمريكا وإسرائيل وأنّ الشاّه هو الذي ساهم في الاعتداء الثلاثي ضد مصر العربية الإسلامية.

قلت: أنا معك في ما تقول، ولكن هناك شيعة كثيرون في العراق وفي السعودية وفي لبنان وفي دول الخليج وكلّ هؤلاء من العرب وليسوا من الفرس، فكيف تجمع الشيعة في سلّة واحدة وتقول بأنهم مجوس لا يحبّون سيدنا عمر لأنه حطّم امبراطوريّتهم؟

قال: الشّيعة من العرب كلّهم تأثّروا بالمجوس لأنهم أصحاب حضارة قديمة وهم أصحاب الثروات الطّائلة بينما العرب كلّهم فقراء وكثيرا ما يتبع الفقير الغنيّ.

عرفت من خلال تحليله للأمور بأنّه يجهل التاريخ الصّحيح ويردّد ما سمعه من بعض أئمتهم فقلت له:

ألم تقرأ في التاريخ بأن بعض الصّحابة تشيّعوا للإمام علي بن أبي طالب بعد وفاة النّبي صلى اللّه عليه وآله وسلّمّ، حتى أنّهم امتنعوا عن مبايعة أبي بكر وتخلّفوا في بيت الزهراء فهُدّدوا بالحرق...

فقاطعني قائلا:

نحن لا نعرف هذا التاريخ ، نعم نعرف بأن الشّيعة هم الذين اعتقدوا برسالة سيدنا علي ورفضوا رسالة النّبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم فسمّاهم المؤرخون بالرّوافض لعنة اللّه عليهم.

قلت: حرام عليك لا تلعن فربّما تنقلب اللّعنة عليك.

قال: أراك تدافع عنهم وتشكّك في سيدنا عمر فهل أنت منهم؟

قلت : لا، مازلتُ أبحثُ عن الحقيقة، ولكني إلى حـدّ الآن بـدأتُ أتـأثّر بأفكارهم وعقائدهم.

استغرب صديقي صالح وفتح عينين واسعتين قائلا؟

أتعتقد مثلهم بأن سيدنا علي هو الرّسول وليس محمد؟

قلت ضاحكا ومتهكّما: أنا أعتقد مثل اعتقادهم، لأنهم لا يعتقدون ما تعتقـده أنت فيهم.

وطاش عقله ولم يفهم منّي شيئاً، فقال غاضباً:

أنت تتكلم بالألغاز، وأنا ما فهمتُ من كلامك شيئا غـير أعتقـد، وتعتقـد وتعتقدون، فماذا أعتقد أنا وماذا تعتقد أنت وماذا هم يعتقدون؟ اشرح الموضـوع لي من فضلك وبدون ألغاز؟!

ضحكت مرّة أخرى وقلت: يا أخي صالح أنا وأنت وهم نعتقد بأن لا إله إلاّ اللّه وأن محمدا عبده ورسوله. هل في ذلك لغز؟

قال: ولكنك قبل قليل قلت لي بأنهم لا يعتقدون ما أعتقده أنا وهـذا يبـدو تناقضاً.

قلت: لا أنا قلت لا يعتقدون ما تعتقده أنت فيهم: يعني لا يعتقدون بأنّ عليـاً هو رسول اللّه كما زعمتَ أنت على لسانهم

قال: هذا ما نسمعه عنهم من العلماء والأئمة المثقّفين

قلت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله: "كفى بالمرء كذبـا أن يحـدّث بكلّ ما يسمع" فليس كلّ ما نسمعه حقا يا أخي وأنت تعرف ذلك.

قال: على كلّ حال أنا أثق فيك إن كنت تعرفهم، فأنت أصدق ممّا نسـمع.
قلت: أنا جالست علماءهم وقرأت بعض كتبهم ولذلك قلت لك بأنّي بصدد البحـث عن الحقيقة، لأني في أغلب الأحيان أجد الحقّ بجانبهم كما أجـد المنطـق فـي كلامهم.

وافترقنا مدّة طويلة تبادلنا خلالها رسالتين أو ثلاث ثم انقطعت المراسلة.

وفي زيارة لي مرّة أخرى إلى طرابلس العاصمة اللّيبيّة كنت مستبصرا أحمل معي نسخة من كتاب "ثم اهتديت" لأهديها لصديقي صالح السعواني، فلم أجده وقيل لي بأنه هاجر من ليبيا إلى بلاد أخرى ولم يترك خبراً.

والتقيتُ صدفة بزميل الدّراسة الابتدائية وصديق الكشافة الأخ حمّادي الطرابلسي الذي لم أره منذ عشرين عاما وكان الكتاب من نصيبه. وما أن تكلمتُ معه حتّى وجدت فيه استعدادا هائلا، وقرأ الكتاب في ليلة واحدة واستبصر فسبحان الذي يصطفي من عباده من يشاء للهداية لهذا الطريق وربّ صدفة خير من ألف ميعاد فقد جئت باحثا عن شخص فوجدت غيره في انتظاري وجئت طامعا في هداية شخصٍ فهدى اللّه غيره على يديّ ورجعت فرحا مسرورا متعجّبا من حسن الصدف، وبقيت على اتصال به فعرفت بأنّ عددا قليلا من أصدقائه قد اتّبعوا الحقّ.

الـــرّحلــة الكويتية

الكويت

مساحته: **17.800** كلم مرّبع

عدد سكانه **1,5** مليون نسمة

عاصمته: الكويت

موقعه الجغرافي: الشرق الأوسط

حدوده من الشمال: العراق

من الغرب والجنوب: المملكة العربية السعودية

ومن الشرق: الخليج الفارسي



الـــرّحلـة الكويتية

أمّا الكويت فقد زرته في بداية الاستبصار على ما أذكر في سنة السّـــبعين عندما سافرتُ إليه من العراق على طريق البرّ.

ولم تطل زيارتي هناك أكثر من يومين فقط ولأني وقتها أحببت التعـــرّف على الشيعة في الكويت للتأكّد من سلامة المذهب، فلم أوفّق لمقابلة العلماء هنـاك وقيل لي بأنّ وكيل السيد الخوئي مريض وقد سافر للعلاج، وأذكر أنّ مجموعـــة من الشباب خوّفوني وقالوا: كيف تأتي من تونس لتسأل عن علماء الشيعة فعلماء الشيعة في الكويت مُتّهمون ومراقبون.

ورجعت من حيث أتيت عن طريق البصرة ثم إلى النجف الأشرف

وبقيت دائما تراودني فكرة الرجوع للكويت من طريق رسمي وذهبت عـدّة مرّات بعد استبصاري إلى السّفارة الكويتية في باريس وطلبـــت منـــهم تأشـــيرة للدخول فقالوا: لماذا تريد السفر للكويت؟

قلت للسياحة: قالوا: ما عندنا سياحة.

قلت : للزيارة ،عندي بعض الأصدقاء هناك.

قالوا: نحن لا نعطي تأشيرة إلا لرجال الأعمال أو التجار الذيـــن عندهـــم مصالح في دولة الكويت.

أمّا الزيارة فلا بدّ لك من دعوة وكفالة لتحصل على التأشيرة.

وتركت التفكير في الكويت بعد تلك المحاولات العديدة ولكنّي دائما أحـــنّ لزيارتها لكثرة الأصدقاء والمحبّين الذين التقيت بهم في باريس وفي لندن والذيـن كانوا لي أخوة صادقين يعملون بإخلاص وتفانٍ لخدمة أهل البيت عليهم الســـلام أذكر منهم الأخ علي المتروك والأخ عدنان الكاظمي الذي أولاني مـــن العنايـــة والرّعاية والكرم وشجّعني على مواصلة الأبحاث فجازاه اللّه عنّي وعـــن أهـــل البيت خير الجزاء.

كذلك الأخ الحبيب حسن أشكناني الذي تعرّفت عليه في أمريكا والذي كان يحبّني محبّةً فائقة حتى أنه أخذني إلى نحّات أمريكي فنحت نسخة من يدي اليمنى طبق الأصل وقال سأحتفظ باليد التي كتبتْ "ثم اهتديت".

ولكني لا أقتصر على هذا فلي مع الكويت حديث طريف لا بدّ من تسجيله ليعرف القارئ الكريم أنّ اللّه سبحانه وتعالى يُهيئُ الأسباب ويهدي من يشاء من عباده إلى هذا الطّريق وهو الصّراط المستقيم.

تلقيت ذات يوم مكالمة هاتفية من أحد الأخوة العراقيين واسمه عماد الجنابي مهندس بأمريكا. عبّر من خلالها عن إعجابه وتقديره وكذلك عن أسفه الشديد لعدم ملاقاتي في الولايات المتحدة، وقال بأنه سافر من أجلي من "سياتل" إلى كنساس سيتي" لمّا سمع بقدومي للمؤتمر هناك، ولكنه وصل يوم سفري ورجوعي إلى تونس فبقيّ يتحسّر لسوء حظّه، ووعدني بأنّه سيأتي عمّا قريب إلى تونس ليتعرّف عليّ.

وبالفعل بعد مدّة وجيزة كلّمني من تونس بالتلفون وعرفت أنه الأخ عماد الجنابي، وطلب ملاقاتي على عجل وأعلمني بأنّه نازل في بيت أصهاره لأن أخاه متزوج من تونسيّة، ودعاني للعشاء معهم لكي يعرّفني عليهم.

عرفت منه العنوان وتعجّبت من شخص عراقي لا يعرفني إلاّ من كتبي وهو يريد أن يعرّفني على عائلة تونسيّة مع العلم بأنه قدم إلى تونس للمرّة الأولى وهو يقسم أنه لم يأت إلاّ من أجلي.

ذهبت إلى البيت المذكور وهناك تعرّفت على العائلة التونسية كما تعرّفت على الأخ عماد الجنابي والأخ جواد الشكرجي مدير المسرح العراقي والذي يعمل في تونس في برنامج "الكاميرا الخفية" وكل التونسيّين يعرفونه من ذلك البرنامج الترفيهي الذي يُبثُّ في شهر رمضان المعظّم كذلك كان حاضرا الأخ نصير شمّا أستاذ المعهد الأعلى للموسيقى في تونس وهو عراقي معروف.

واكتملت العدّة بحضوري وبعد التّعارف والتسليم جلسنا على طاولة الطعلم وقُدّمت إلينا سفرة الأكل فإذا الأكلة الرّسمية الأساسية رزّ بفاكهة البحر، وفاكهة

البحر هو كل ما هبّ ودبّ في البحر من أخطبوط وصدفٍ وقريدس وبوشنب وغيره.

وبالطبّع فإن العراقيين الثلاثة شيعة وأنا رابعهم لا نأكل من البحر إلاّ ما كان مفلّسا، فرأيت الجماعة يسحبون أيديهم ويدّعون الشبّع والاكتفاء، وأهل البيت يلحّون لأنهم قدّموا أفضل ما يقدّمه التونسيّون لضيوفهم ولكنّي وكعادتي أحبّ الصّراحة وشعاري دائما إن الله لا يستحي من الحق، قلت لأهل الدّار: نحن الشّيعة لا نأكل من البحر إلى الأسماك التي لها فلس، أمّا هذا فعندنا محرّم.

استغربوا عند سماعهم هذا استغرابين، أولّهما لقولي نحن الشّيعة، فقد فاجأتهم بهذا الخبر واكتشفتُ أنا أيضا بأنهم لا يعلمون بأنّ صهرهم الذي زوّجوه ابنتهم هو شيعي ولا يعلمون أيضا بأنّ أخاه الذي قدم من أمريكا هو الآخر شيعي ولا يعلمون بأن جواد الشكرجي ونصير شمّا هما أيضا من الشّيعة، ثم أنا تونسي كيف أكون منهم أيضا أي من الشّيعة، فهذا غير مألوف.

أمّا الاستغراب الثاني، كيف يُحرّم الشيعة أكل لحوم البحر وهي عند السنة أحلّ الحلال وأفضل ما يؤكل.

والمهم أنّهم أسرعوا فرفعوا طبق الطعّام وفي ظرف وجيز حضّروا لنا طعاما غيره، وبعد العشاء، كانوا كلّهم جالسين في الصّالون يستمعون لقصّتي مع التشيّع وسهرنا جميعا إلى ساعة متأخّرة من اللّيل، ولأنّ العائلة كانت متثقّفة وعلى درجة كبيرة من العلم، رأيتهم اهتموا للموضوع اهتماما بالغًا، وسألوني أسئلة مركّزة والعراقيّون الثلاثة كانوا يؤمّنون على أقوالي ويفتخرون بأمثالي، ويتمنّون أن تطول السّهرة إلى الصباح.

ولكني أخرجت كتابي الأول "ثم اهتديت" وكان في نيّتي إهداؤه إلى الأخ عماد الجنابي الذي قدم من أمريكا.

فغيرت رأيي وأعطيته إلى العائلة وقلت لهم هذا لكم إقرأوا كتابي لعلّ اللّه سبحانه أن يفتح قلوبكم للحق، وكان من بين الحاضرين في البيت أخوات الزوجة صاحبة البيت وأزواجهما، فأخذت إحداهما الكتاب وافتكّته إفتكاكا وقالت: أنا أوّل من يقرأ الكتاب.

وألحت العائلة على دعوتنا جميعا في الأسبوع القادم للعشاء وذلك لتوديع الأخ عماد الذي سيغادر تونس للرجوع إلى أمريكا، وقبلنا جميعا الدعوة، وأحسسنا بأنهم أرادوا تعويضنا بعشاء آخر، يكون لنا عيداً.

واجتمعنا في اللّيلة الموعودة وكانت الأخت راضية التي تعمل بوزارة الاقتصاد قرأت الكتاب واقتنعت بما فيه وجاءت تطلب كتابا آخر، كذلك أخواتها والسيد المنصف ربّ الأسرة وزوجته، وقضينا السّهرة بعد العشاء وليس في البيت غير الشيعة سبحان الذي جمعنا على غير اتفاق ولا موعد مُسبق.

ودارت الأيام وإذا راضية تكلّمني هاتفيا وتعلمني بأنّ مجموعة من الشباب الذين يشتغلون معها بوزارة الاقتصاد وعددهم أربعة كلّهم شيعة، يريدون التعرّف عليّ وقالت بأنهم تحدّثوا أمامها عن الدكتور التيجاني السّماوي فقالت لهم: أنا البارحة كنت ساهرة مع الدكتور التيجاني فلم يصدّقوها، وقالوا لها: لعلّك تقصدين غير الذي نقصد، قالت: أليس هو من مدينة قفصة؟ قالوا: نعم، قالت: أليس هو شيعي؟

قالوا: بلى هو واللّه الذي نبحث عنه في كلّ مكان.

قالت: كان البارحة في بيت أختي وسهرنا معه حتى منتصف اللّيل. وعندي عنوانه ورقم تلفونه. وأنا قرأت بعض كتبه.

واكتشف الرجال الأربعة بأنّ زميلتهم تتشيّع مثلهم واكتشفت هي الأخرى بأن زملاءها الأربعة هم مستبصرون وحكت لهم قصتّها وحكوا لها أيضا قصتّهم، ثم طلبوا منها أن تُعطيهم رقم التلفون كي يتصلوا بي ويتعرّفوا عليّ ويكونوا لها شاكرين.

فقالت: يا دكتور أنا ما سمحت لنفسي أن أُعطيهم رقم تلفونك إلاّ بعد إذنك.

فقلت لها: لا مانع من ذلك وأشكرك على حسن تربيتك.

وفي اليوم التالي اتصل بي أحدهم وأعلمني بأنّ الأخت راضية هي التي أعطته رقم التلفون وطلب منّي قبول دعوته لتناول طعام الغداء بصحبة زملائه الذين يتحرّقون شوقا للقائي. واتّفقنا على يوم الأحد يوم العطلة الأسبوعية عندنا في تونس.

والتقينا بحمد اللّه بدون سابق معرفة فكانوا ستّة أشخاص مستبصرين وإليك قصّتهم حسب روايتهم.

بعد حرب الخليج واحتلال دولة الكويت من قبل الطّاغية صدّام فترت العلاقات بين الكويت وتونس للموقف الذي عبّر عنه الشّارع التونسي تجاه تأييد صدّام من قبل الجماهير العربية المخدوعة.

وبرجوع دولة الكويت وإعادة العلاقات التونسية الكويتية بعثت وزارة الاقتصاد ببعثة اقتصادية تضمّ وفدا من أربعة أشخاص لزيارة الكويت وإتمام تخطيط بعض المشاريع الإنمائية التي تموّلها الكويت.

وبوصول الوفد إلى الكويت استقبله وكيل وزارة الاقتصاد الكويتي وأوصلهم إلى محلّ إقامتهم ووضع تحت تصرّفهم أحد الأعضاء ليقوم بخدمتهم فكان لا يفارقهم إلاّ في اللّيل عندما يدخلون للنّوم.

وجاء يوم الجمعة وهو يوم العطلة الأسبوعية في الكويت وخرج الوفد التونسي بصحبة المسؤول الكويتي يطوفون في البلاد، ونودي للصّلاة فقالوا له: نريد أن نصلّي الجمعة، فأدخلهم إلى أقرب مسجد تقام فيه صلاة الجمعة، توضّأوا وجلسوا يستمعون لخطبة الإمام التي هزّت مشاعرهم.

قالوا: استغربنا لأننا ولأول مرّة نسمع خطبة بهذا النوع فهي خطبة جمعت كلّ المواضيع الاجتماعية والاقتصادية والسيّاسية والإمام يتكلم بدون قراءة ورقة مكتوبة وهو فصيح اللّسان ولكنّ لهجته غير عربية.

والذي زاد في تعجّبنا هي الأسماء التي كان يذكرُها وكثيرا ما يردّدُها وكلّما ذكر إسما يقول عليه السّلام، وظنّنا أنها أسماء أنبياء لا نعرفهم، ثم اكتشفنا أثناء الصّلاة أنّهم يختلفون عنّا وعن صلاتنا التي نعرفها في تونس.

ولمّا خرجنا بعد الصّلاة من المسجد سألنا مُرافقنا عن الإمام وعن المسجد فقال: هؤلاء هم شيعة آل البيت عليهم السلام.

قلنا: سامحك اللّه ألم تجد مسجدا غير هذا تدخلنا إليه؟

قال: ولماذا أَوَجَدْتُم خللا في الصّلاة أو في أي شيء؟

قلنا: نحن من السنّة ولا نثق بالشّيعة.

فضحك وهو يسألنا: أتعتقدون بكفر الشّيعة؟

قلنا : لعلّك منهم؟

قال: ثلاثة أرباع الكويت منهم، ولكن أحلّفكم باللّه أسمعتم أمرا منكرا في الخطبة أو في الصّلاة ؟

قلنا: لا، بالعكس ما سمعنا إلاّ ما يعجبنا وما ترك أثرا في نفوسنا ولكن الشائع عندنا أنّ الشّيعة خارجون عن الإسلام لاعتقادهم في علي أنه رسول اللّه وأنّ...

فقاطعنا قائلا: وأنّ جبريل أخطأ في أداء الرّسالة.

ضحكنا وقلنا: أنت تعرف البقيّة.

فنظر إلينا وقال: ألستم من تونس؟!

قلنا: بلى كلّنا من تونس العاصمة.

قال: أتسمعون بالدكتور التيجاني؟

قلنا: لا ما سمعنا بهذا الاسم أبدا.

فقال: يا سبحان اللّه هذا الرجل من عندكم دوّخ العالم بأبحاثه وانتم لا تعرفونه؟ !

قلنا : عرّفنا به ونكون لك من الشّاكرين.

قال: تعالوا معي إلى بيتي وتغدّوا معي وسأعطيكم كتابه.

استحيينا منه وذهبنا معه، فأعطانا كتاب "ثم اهتديت".

وقال: إقرأوا هذا وعندي بعده كتب أخرى..

قالوا: لما رجعنا إلى البيت في العشيّة بدأنا قراءة الكتاب فشدّنا شدًّا غريبا، فكنّا نتداول قراءته حتى فرغنا منه في اللّيلة الأولى، ودهشنا لما حواه من حقائق مذهلة، وأسرعنا في الصباح إلى أبي عمّار طالبين منه الكتاب الثاني، فأعطانا

كتاب "لأكون مع الصّادقين" فقرأناه في ثلاثة أيام، ثم قرأنا "فاسألوا أهل الذكر" وبعد ذلك أعطانا الكتاب الرابع "الشيعة هم أهل السنّة"

وكان في كلّ مرّة يسألنا عن رأينا فكنا نقول: لقد تشيّعنا من الكتاب الأول ولكن نريد مزيدا من المعرفة.

ولمّا قرأنا الكتاب الرّابع لم يبق عندنا أدنى شكٍّ في المذهب الإسلامي الحقيقي فتشيّعنا في الكويت وصلّينا الجمعة الثانية ونحن مستبصرون عارفون بكلّ الأسماء وكلّ الأئمة الأطهار ولم نستغرب شيئاً مما سمعناه كما استغربنا في المرّة الأولى.

ورجعنا إلى تونس وقلوبنا تنبض محبّة وولاء للعترة الطّاهرة وحكينا قصّتنا لبعض زملائنا وأهديناهم الكتب التي جئنا بها من الكويت فاستبصروا وأصبحنا مجموعة لا يُستهان بها والفضل للّه ولك يا دكتورنا العزيز.

قلت: الحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه لقد جاءت رسل ربّنا بالحق.

ضحكت قائلا لهم: ولا تنسوا فضل أبي عمّار.

قالوا: رحم اللّه والديه كان هو السبب لمعرفتنا بك.

الـــــرّحلـــة الأردنـــيـــّة

الأردن

مساحته: **92.000** كلم مربّع

عدد السّكان: **6** ملايين

موقعه الجغرافي: الشرق الأوسط

عاصمته: عمّان

حدوده من الشّمال: سوريا

ومن الجنوب: العربيّة السّعودية

ومن الغرب: العراق

ومن الشرق: فلسطين



الرحلة الأردنيّة

تكرّرت زياراتي للأردن مرّات عديدة، فأوّل زيارة عرفت فيها الأردن كانت عام 1964 بعد المؤتمر العربيّ الإسلامي للكشّافة الذي أقيم في مكّة المكرّمة والذي شاركت فيه ضمن وفد تونسيّ يتكوّن من ستّة أشخاص.

وقد كان نزولنا في مطار عمّان حيث مكثنا بالعاصمة الأردنيّة أربعة أيّام في ضيافة الجمعيّة الكشفيّة ، واستقبلنا السيّد ممدوح خرمة الذي كان يشغل منصباً وزاريّا في ذلك العهد كما استضافتنا الأميرة علياء في المعاهد النّسائيّة التي تشرف عليها شخصيّا في جبال عمّان، وتعرفّنا خلالها على العديد من الشّخصيّات الأردنيّة من النّساء والرّجال.

في ذلك الوقت كان العرب في أوج قوّتهم وهم يعدّون العدّة ويتوعّدون إسرائيل بإلقائها في البحر وإنهائها من الوجود وكان يتزعّم العالم العربي الرّئيس الرّاحل جمال عبد النّاصر والذي هو أمل كلّ العرب في ذلك الوقت والنّاس يلهجون باسمه في الأردن وفي فلسطين بالخصوص.

وصادفت زيارتنا للأردن في تلك الأيّام أن واكبتنا حملة إعلاميّة في كلّ الإذاعات والصّحف والمجلات ضدّ الرّئيس بورقيبة الذي لقّبوه "بالخائن الأكبر" من أجل التّصريحات التي أدلى بها إثر زيارته للمخيّمات الفلسطينيّة في الأردن وقال: على الفلسطينيّين أن يقبلوا بالتّقسيم الذي فرضته الأمم المتّحدة سنة 1947 ويرجعوا إلى ديارهم لمقاومة إسرائيل من الدّاخل.

فثارت ثائرة العرب القوميّين النّاصريّين وكذلك كلّ الفلسطينيّين ضدّ الرّئيس التّونسي الحبيب بورقيبة وهاجموه بالسبّ والشّتم حتى اضطر لقطع زياراته والعودة لأرض الوطن وقطع العلاقات الدّيبلوماسيّة مع مصر والأردن وسوريا والعراق.

فمن كان يجرؤ في ذلك العهد، يعني قبل ثلاث سنوات من الحرب الخاطفة التي شنّتها إسرائيل على العرب والتي سميّت بحرب الأيّام الستّة والتي احتلت فيها إسرائيل كلّ الأراضي العربيّة من مصر والأردن وسوريا ولبنان، والتي سبّبت نكسة لازال العرب يُعانون من آثارها في كل مكان إلى يومنا هذا.

من كان يجرؤ على القول قبل ذلك بالقبول والاعتراف بدولة تسمّى إسرائيل فضلا عن التّعايش السّلمي معها والقبول بقرار التّقسيم الذي فرضته الأمم المتّحدة والذي يعطي لإسرائيل أربعين بالمائة من الأراضي الفلسطينيّة وتعطيها إقراراً واعترافاً بوجودها في وقت كان العرب وعلى رأسهم الرّؤساء والملوك العرب يرفعون شعار: لا اعتراف ولا تفاوض ولا سلم مع إسرائيل، فلمّا قال بورقيبة بقبول قرار التّقسيم فذلك يعني عند العرب خيانة عظمى لحقوق الشّعب الفلسطيني واستسلاماً للأمر الواقع الذي يرفضه كلّ العرب وقامت الإذاعات والصّحف في ذلك العهد باتهام بورقيبة بكلّ أنواع العمالة والخيانة.

وأطال اللّه عمر بورقيبة ليرى ويسمع وهو مخلوع بأنّ الدّول التي اتهمته بالخيانة والعمالة تتسابق للاعتراف بإسرائيل وإقامة العلاقات معها وعلى رأس كلّ هؤلاء منظمّة التحرير الفلسطينيّة ورئيسها ياسر عرفات الذي أقام الدنيا ولم يقعدها من أجل تصريحات بورقيبة في 64 والتي تخوّل له ستّين بالمائة من أرض فلسطين بما في ذلك القدس الشّريف، فلا يقبل بها ويقول: "الكلّ وإلاّ بلاش"

يرى بورقيبة اليوم على التلفزيون بأنّ ياسر عرفات بطل التّحرير، أمل الفلسطينيّين، يتمسّح على أعتاب إسرائيل لتعطيه 13 بالمائة فقط من الضفّة الغربيّة وبثمن باهظ هو تصفية حركة حماس وكلّ الأحرار من الشّعب الفلسطيني الذين يقاومون إسرائيل من الدّاخل.

ويرفض نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل مطلب عرفات ويشحّ عليه بتلك النّسبة الضّئيلة مدّعيا أنّه لم يف بوعده في القضاء على الإرهاب.

فالمسرحية أصبحت معروفة عند كلّ النّاس بأنّ ياسر عرفات وعد الإسرائيليين إذا هم سمحوا له بالدّخول إلى الأراضي المحتلّة ولو في جزء

صغير سيقضى حتما على ثورة الحجارة وعلى حركة حماس الجهاديّة وعلى حزب اللّه وعلى كلّ من يشاغب ضد إسرائيل أو يهدّد أمنها واستقرارها.

والمُهمّ عند ياسر عرفات هو أن يصبح رئيسا للدّولة الفلسطينيّة وأن يتوّج رأسه بتاج الرّئاسة ككلّ الزّعماء العرب الذين وصلوا للرّئاسة بدون عناء ولا تعب، فكيف لا يصل هو لذلك المنصب الرّفيع بعد العناء والتّعب ؟

وما عشتَ أراك الدّهرُ عجبا، عندما كنّا نتجوّل في شوارع عمّان ونقرأ المعلّقات التي كتبت للتّشهير بتونس ورئيسها "الخائن الأكبر" كما يسمّونه، أحسسنا بالخجل ونزعنا ما كان معلّقا على أكتافنا من أعلام تونسيّة خوفا من ردّة فعل العوام من النّاس، ولكن السيّد ممدوح خرمة هدّأ من روعنا وقال: أنتم في ضيافتنا ولا تخشون شيئا بحول اللّه وكان من بين أصدقائنا الكشافة الأردنيّة من يثير بعض الجدال معنا بخصوص موقف رئيسنا، فكنّا نقول لهم بأنّنا لا نتّفق معه ونحن مثلكم لا نرضى إلاّ بالقضاء النّهائي على إسرائيل التي اغتصبت أراضينا واحتلت ثاني الحرمين وانتهكت مقدّساتنا وأعراضنا.

وكنّا ونحن لا زلنا في طور الشّباب متحمّسين لقضيّة فلسطين ونتكلّم بفخر واعتزاز وثقة عالية بأنّنا سنقضي على تلك الجرثومة التي زرعتها الإمبريالية في جسد الأمّة العربيّة وما كنّا نعرف ما خبّأه لنا الدّهر من مفاجآت وهزائم وانتكاسات وخطوب زعزعت كيان الأمّة وآذنت بفشلها على كلّ المستويات العسكريّة منها والسّياسية والاقتصادية والثّقافيّة والاجتماعية ولم يعد لها أيّ تقدير وأيّ احترام عند الأمم الأخرى.

وهذا الفشل الذّريع ما كنت لأدرك أسبابه لولا استبصاري للحقّ ومعرفة التّاريخ وما حدث للأمّة بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فلمّا استبصرت وعرفت الحقّ عند ذلك أصبحت الرّؤيا عندي واضحة وأصبحت النّتائج التي وصلنا إليها معلومة بل حتميّة لما اقترفته الأمّة تجاه نبيّها وعترته الطّاهرة.

وعندما أستعرض قول فاطمة الزّهراء سلام اللّه عليها وهي ترى بنور ربّها مآل هذه الأمّة التي تنكّبت عن صراط اللّه المستقيم وتنبّأت بمصير الأمّة

وماذا سيحدث فيها نتيجة الانحراف عن كتاب اللّه وسنّة رسوله (ص) وحبّ الزّعامة. فصوّرت لنا سيّدة نساء العالمين صورة كأنّها تلفزيونيّة نراها اليوم واضحة جليّة.

فلنستمع إليها عندما وقفت تخطب في الأمّة وقد انكسر خاطرها وانصدع قلبها وتفتّت كبدها لتقول لهم في آخر خطبة وهي تنظر إلى كلّ المهاجرين والأنصار:

"أما لعمري لقد لقُحت، فنظرة ريثما تنتُج ثم احتلبوا ملأ القعب دماً عبيطاً وذعافاً مبيداً هنالك يخسر المبطلون ويعرف التّالون غبّ ما أسّسه الأوّلون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً واطمئنوا للفتنة جأشا،وابشروا بهرج شامل وسيف صارم وسطوة معتد غاشم واستبداد من الظّالمين يدع فيأكم زهيداً وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم، وأنّى بكم، وقد عُمّيتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون".

أيبقى بعد هذا الكلام أدنى شكّ في أنّ ما وصلت إليه حالة المسلمين اليوم هو نتيجة حتميّة لما قدّمت أيديهم، وأنّ مرارة الزّقوم الذي يتجرّعونه اليوم هو حصاد لما زرعوه بالأمس.

ولعلّ ما هو آت في المستقبل هو أبشع وأسوأ وأفظع ممّا فات وانقضى، وما ظلمهم اللّه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فلا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

نعم كلّ هذه الخواطر تذكّرنا بها مأساة الشّعب العربيّ والإسلامي في كلّ مكان من العالم الذي نعيش فيه.

ولو كنت أعرف حقائق التّأريخ من قبل لهانت عليّ الأمور وما كنت لأتحمّس ذلك الحماس المفرط للقوميّة العربيّة ولتلك الرّموز الوهميّة التي مجّدناها وقدّسناها على أنّها خيرة البشر.

أذكر أنّي سافرت للأردن مرّة أخرى بعد الاستبصار، والتقيت بعديد الأصدقاء وعلى رأسهم الأخ العزيز موسى عارف صنوبر وحاولت في بعض السّهرات أن أكشف لهم زيف العقائد التي هم عليها، ولكنّي خشيت ردّة الفعل لأنّهم يحقدون على الشّيعة بصفة غريبة، فلم أقل لهم أفّ وصاحبتهم في الدّنيا معروفا وغامرت معهم مغامرة خطيرة كادت تودي بحياتي.

اقترح عليّ أحدهم أن أزور القدس بصحبة بعض الأخوة الأردنيين من أصل فلسطيني، وما كان لي أن أرفض طمعا فقط في زيارة القدس وثاني الحرمين نقطة الإسراء والمعراج. فجاءني بهويّة فلسطينيّة دخلت بها معهم على أساس زيارة أهلنا في الأرض المحتلّة.

ذهبنا في الصّباح ووصلنا بيت المقدس، بعد ساعة واحدة فالمسافة من مدينة "السّلط" أو "معان" تبعد خمسين كيلومترا فقط، هناك صلّيت وبكيت من شدّة الفرحة كما بكيت حزنا على ما فرّطنا في جنب اللّه وبيوته وشعائره.

تغدّينا عند أحد الفلسطينيين الذي صاحبنا من الأردن ثم صليّنا الظهر والعصر في المسجد الشّريف وقفلنا راجعين، وأنا لا أصدّق النّجاة من الشّرطة الإسرائيلية الذين لو ألقوا عليّ سؤالا واحدا لعرفوا أنّي غريب عن فلسطين وأهل فلسطين، والحمد للّه على ستره وعلى رعايته، رجعت إلى مدينة السّلط وهناك قضيت يومين.

مرّة أخرى سافرت إلى الأردن لآخذ تأشيرة العمرة من السّفارة السّعودية بعمّان، ونزلت أبحث عن صديقي موسى صنوبر الذي يسكن مدينة الزّرقاء فقيل لي بأنّه مسافر خارج الأردن وأردت الرّجوع إلى عمّان غير أنّ الشّاب الذي أعلمني بأخبار موسى لم يتركني وأبدى رغبته في استضافتي عنده ريثما يرجع صديقنا موسى، قال لي: ستبقى عندي في البيت ثلاثة أو أربعة أيّام يكون الأخ موسى قد رجع بإذن اللّه، وحاولت الاعتذار منه لكنّه أصرّ عليّ إصرارا كبيرا خوفا أن يعاتبه موسى إن هو تركني فبقيت معه في الورشة التي كان يشتغل بها، وفي العشيّة خرجت معه إلى بيته واستقبلوني أحسن استقبال وأفردوا لي غرفة للإقامة، ولمّا جنّ اللّيل قدم إلى منزله جماعة من الإخوان المسلمين كلّهم قد أعفى لحيته، وسلّموا عليّ، وبعد تناول العشاء جاء وقت الصّلاة وتقدّم صاحب البيت يصلّي بنا جماعة واكتشفوا بأنّي أصلّي مسدول اليدين وأنّي لا أقول آمين مثلهم وأنّي أذكر البسملة وأقرأ خلف الإمام، وما أن انتهت الصّلاة حتّى بدأ الانتقاد وسألوني على أيّ مذهب أنا ؟.

قلت: أنا كنت مالكيّاً ولكنّي غيّرت مذهبي جعفريّا وقالوا: ما معنى جعفريّ أليس هو مذهب الشّيعة ؟

وفرحت لمعرفتهم، وأجبت: بلى هو مذهب الشّيعة الإماميّة فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض وكأنّهم يتكلّمون برمش العيون وسألتهم: ما الذي تتكرونه على الشّيعة.

فقال أحدهم وهو ينظر إلى أصحابه: الشّيعة واليهود سواء فقال الثّاني: اليهود أهون من الشّيعة لأنّك تعرفهم وتحتاط منهم ومن دسائسهم، أمّا الشّيعة فمحسوبون على الإسلام وهم منافقون إذا جلسوا معنا قالوا: إنّا معكم نشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدا عبده ورسوله، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا عليّ رسول اللّه.

فقال ثالث: إنّ المنافقين كانوا في الدّرك الأسفل من النّار.

غضبتُ لهذه الأقوال وقلت لهم: كفاكم من التّحريف والتّخريف هل بينكم واحد قرأ كتابا شيعيّا ، هل منكم واحد جالس الشّيعة وتحدّث معهم في أمور الدّنيا، هل سمع أحد منكم شيعيّا واحدا في حياته يشهد أن عليّا رسول اللّه.

إنّكم واللّه تتكلّمون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وتقولونَ على النّاس أقوالا باطلة ما عندكم عليها دليل وأنا كنت مثلكم أقول أشياء على الشّيعة بمجرّد السّمع والنّقل بدون بحث ولا تحقيق، ولمّا بحثت وحقّقت وجدت أنّ الشّيعة هم المسلمون الحقيقيّون الذين اتبعوا العترة الطّاهرة من ذريّة الرّسول.

ضحك أحدهم قائلا: حتّى الحسين بن طلال ملكنا هو من ذريّة الرّسول وضحك البقيّة من الحاضرين.

قلت: نعم الحسين بن طلال والحسن الثّاني ملك المغرب هم من نسل العترة الطّاهرة رغم أنف كلّ المعاندين.

ولكن ليسوا من الأئمّة المعصومين الذين نصّ عليهم رسول اللّه (ص) وأمر الأمّة باتّباعهم والامتثال لأوامرهم.

ضحك أغلبهم وهو يردّد: معصومين! هذه هي المغالاة والتّأويل، إذا كان النّبي غير معصوم وهو يعترف بذلك في قوله: "كلّ بن آدم خطّاء وخير الخطاءين التوّابين" فكيف يكون علي وأولاده معصومين ؟

وعرفت أنّ جدالهم في هذه المسائل صعب على عقولهم أن يتقبّلوا في الأئمّة ما يشحّون به على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فقلت:

المهمّ أنّي لم أقصد بالعترة الطّاهرة ملك المغرب أو ملك الأردن، أو ملك السّعودية، والمهمّ أن تعرفوا بأنّ الشّيعة لا يشهدون لعلي بالرّسالة كما زعمتم، وإنّما هي إشاعات مغرضة.

قاطعني أحدهم قائلا: أسألك سؤالا واحدا وأجبني عليه بصراحة إن كنت تؤمن باللّه واليوم الآخر.

قلت: أجيبك بكلّ صدق وبكلّ صراحة إن شاء اللّه.

قال: أنت بالذّات هل تحبّ أبا بكر وعمر ؟

وبدون تردّد قلت: لا أحبّهما.

فقامت ضجّة بين الحاضرين وكأ نّهم اكتشفوا جاسوساً بينهم وتغيّرت ألوانهم وأراد بعضهم أن يقوم للخروج فمسكهم صاحب البيت وقال: من الأفضل أن نغيّر الموضوع، ونتكلّم عن الأمور التي تهمّنا.

وبالفعل بدأوا يتكلّمون عن أمور تخصّهم وشعرت بأنّي غير مرغوب في وجودي بينهم فاستأذنت من صاحب البيت لأنام فأدخلني إلى البيت وأغلق عليّ الباب.

ولمّا استيقظت في الصّباح لم أجد أحدا في البيت وبقيت أنتظر طويلا إلى السّاعة التّاسعة تقريبا.

وشككت في الأمر وقلت في نفسي: لماذا لم يأت صاحب البيت رغم أنّي انتظرته من الصّباح الباكر.

وجاءني والده وهو رجل كبير فسلّم عليّ وقدّم لي بعض الفطور ولكنّي امتنعت عن الأكل فأخذ يسألني أسئلة أحرجتني، فأجبت على بعضها بمضض، ثم سألته عن ابنه عماد فقال: إنّه مسافر وسوف لن يعود إلاّ بعد أسبوعين.

وفهمت بأنّ الرّجل يريد طردي من المنزل بطريقة أدبيّة فقلت له: إذا لم يبق لي مبرّر للبقاء عندكم، ثم استأذنته للخروج فقام مسرعا وفتح لي الباب وهو يقول: مع السّلامة.

ومررت بالورشة التي يشتغل فيها عماد ورأيته من بعيد ولمّا نظر إليَ دخل إلى الدّاخل واختفى عن الأنظار.

وقفت أمام باب الورشة أفكّر ماذا فعلت له حتّى يستتر منّي وخرج إليَ ولد ليقول لي بأنّ السيّد عماد مسافر، فقلت له: وهل سألتك عن عماد أو غيره.

وواصلت طريقي وأنا أتعجّب من هؤلاء البشر كيف يتقلّبون بهذه السّرعة، إنّه بالأمس كان يلحّ عليّ للإقامة عنده، وها هو اليوم يتهرّب منّي وكأنّني مجرم، وتساءلت مرّة أخرى عن ذنبي فما وجدت غير تشيّعي وانتمائي لأهل البيت وهي عند هؤلاء جريمة لا تغتفر.

وبدلا من بقائي في مدينة الزّرقاء لأنتظر قدوم صديقي موسى صنوبر، فضلت السّفر إلى عمّان ومنها أخذت تأشيرة الدّخول للعربيّة السّعودية لأداء العمرة.

ركبت سيارة شحن مع أحد الأردنيّين الذين يحملون البضائع إلى دول الخليج وطريقهم يمرّ على مدينة خيبر والمدينة المنوّرة.

وفي أثناء السّير والطّريق طويل تحدّثنا عن كلّ المواضيع وكنت أغتنم فرصة استراحته فأتوضّأ وأصلّي بعض الفرائض، وألاحظ عليه بعض الإحراج.

وسألته: لماذا لا تصلّي وأنت مسلم طيّب القلب والأخلاق ؟

قال: استمع لقصّتي سأُحدّثك بما وقع لي في السّعودية ، بما أنّني دائم المرور بالمدينة وبّخني ضميري وقلت: كيف أمرّ دائماً على مدينة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم وأنا تارك للصّلاة ؟.

أوقفت الشّاحنة وذهبت أبحث عن الماء للوضوء وبعد مشقّة وجدت حنفيّة ففتحتها لأتوضّأ منها، وإذا بالعصا تنزل على رأسي وبين كتفيّ ورجل ينهال عليّ ضربا وينتهرني، فقلت له: أريد الوضوء لأصلّي.

فقال: روح ما فيه وضوء، وأغلق الحنفيّة وطردني شرّ طردة فرجعت وأنا أسبّ السّعوديّين وألعن الزّمان الذي رفع شأن هؤلاء الحفاة العراة فأصبحوا

يُهينون كلّ النّاس وهكذا صدّني هذا الجلف عن الصّلاة لشدّة ما تلقّيت من ضربات وإهانات.

قلت له: هذا عذر غير مقبول يا صديقي ولعلّ اللّه سبحانه وتعالى أراد امتحانك، فلا تجزع ولا تنفر من الصّلاة لأنّ أحد الشّياطين استفزك، والصّلاة هي عمود الدين وبين الإسلام والكفر ترك الصّلاة، وأنت بالذّات علاقتك بالنّاس مقطوعة بحكم شغلك، فلا تقطع علاقتك بربّك الذي خلقك فسوّاك، وأقم الصّلاة وتوسّل إليه ليحفظك في أسفارك الطّويلة ويعيدك إلى عائلتك وأولادك.

تأثّر المسكين بكلامي ودمعت عيناه وقام من وقته فتوضّأ ووجد مشقّة لتجفيف رجليه وإدخالها في الحذاء، فعلّمته وضوء أهل البيت وفرح كثيراً وقال: لو كنت أعرف هذا الوضوء لما انقطعت عن الصّلاة ،علّمته الجمع بين الصّلاتين أيضاً.

قبّلني وقال: أنت أرسلك اللّه إليّ جازاك اللّه خيراً.

ووصلنا إلى المدينة المنوّرة ونزلت أبحث عن النّقود في جيبي لأدفع له ثمن الرّكوب الذي اتفقنا عليه فامتنع وقال: واللّه لو قبلتَ أنت منّي أجرة على مرافقتك لي لأدّيتها إليك شاكرا.

تصافحنا وتعانقنا وقبّل كلّ واحد منّا صاحبه وافترقنا على أمل اللّقاء في رحاب اللّه

الــــرّحلــة المغــربيّة

المغرب

مساحته: **710.000** كلم مربّع

عدد سكّانه: **28** مليون نسمة

عاصمته: الرّباط

موقعه الجغرافي: شمال غرب أفريقيا

حدوده من الغرب: المحيط الأطلنطي

ومن الشّرق: الجزائر

ومن الشّمال: البحر الأبيض المتوسّط

ومن الجنوب: موريتانيا.

الـــرّحلــة المــغــربيّة

قبل الاستبصار سافرت إلى المغرب مرّتيـــن بصحبـــة مجموعـــة مـــن الأصدقاء في سيّارة خاصّة، في رحلة سياحيّة قصد التّعرف على البلاد والعبـــاد وشراء بعض الأغراض التي تستورد من هناك بأثمان رخيصة.

وكانت الرّحلتان موفّقتان لما فيهما من أرباح ماديّة ومعنويّة تترك في ذهن الإنسان ذلك الطّابع العربيّ الإسلامي الذي تزخر به المـــدن المغربيّـــة وحســـن الضّيافة والمعاملات في القرى الصّغيرة التي بعدت عن صخب السّواح الأجـــانب الذين نزحوا من كلّ مكان ليشهدوا منافع لهم على كلّ الأصعدة ويتمتّعوا بجمـــال الطّبيعة الزّاهية التي لا يعرفونها في بلدانهم، فيقول المسلم: سبحان من حبانا بكلّ النّعم والخيرات فلم نقدّرها حقّ قدرها ولم نكن له من الشّاكرين.

وعرفت الشّعب المغربيّ في بساطته وانفتاحه في عمق عقيدتـــه وتمسّـــكه بالدّين،في صدق إخلاصه وولائه لما فيه رائحة السّلالة الطّاهرة والنّسل الشّريف وأسماء محمّد، علي، فاطمة، حسن، حسين، قد يفوق عددها في المغرب كلّ مـــا هو موجود في البلدان العربيّة الأخرى.

ولاحظت كذلك أنّ الذين يسمّون أولادهم بهذه الأسماء فإنّهم يحترمونهم فلا يسبّونهم ولا يقولون لهم كلمات بذيئة أبدا فالأشراف عندهم شيء مقدّس أكثر من كلّ الدّول العربيّة الأخرى كما أنّ المغاربة يعظّمون شعائر اللّه تعظيمـــا كبـــيرا فالمساجد والجوامع والزّوايا ومقامات الصّالحين عندهم كثيرة جدّا وهم يحتفلـــون بالأعياد الإسلاميّة ويبالغون في الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف الـــذي يطـــول كامل الشّهر،على عكس السّعوديّين الذين يحرّمون الاحتفال به ويزعمون بأنّه بدعة.

والمغرب من أجل ذلك حافظ على طابعه الإسلامي السنّي فـــي المذهـــب ولكنّه يقرب من الشّيعة في معتقداته فهو، لا يقدّم على أهل البيت أحـــدا وكذلـــك يحزنون في شهر المحرّم وفي أيّام عاشوراء وخصوصاً في اليوم العاشر بـــالذّات

تراهم لا يشتغلون ولا يتزيّنون وإنّما ترى البعض منهم يقدّمون التّعازي فيما بينهم ويذكرون مآثر أبي عبد اللّه الحسين سيّد شباب أهل الجنّة.

والوهّابية لم تجد في المغرب رواجا كبيرا لحبّ المغاربة اللاّمتناهي للعترة الطّاهرة وكل من انحدر منهم فهم دائبون على التوسّل بهم إلى اللّه وجعلهم الواسطة المنجيّة من عذاب اللّه.

لكلّ هذه الأسباب ترى المغاربة يحبّون ملكهم جلالة الحسن الثّاني ويلقّبونه بأمير المؤمنين ويقبّلون رأسه ويديه وحتى رجليه لأنّه من نسل السّلالة الطّاهرة التي انحدرت من عليّ وفاطمة والحسن والحسين فالعائلة الملكيّة أصلها حسني من أولاد سيّدنا الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام.

من أجل ذلك فكّرت في إهداء كتابي "ثم اهتديت" إلى جلالة الملك الحسن الثّاني عسى أن يجد فيه الحقيقة المطموسة التي ذهبت مع أجداده فيعود إلى أصله وفصله ويجرّ شعبه للرّكوب في سفينة النّجاة، لأنّ النّاس على دين ملوكهم.

وبقيت أتحيّن الفرصة حتى جاءت.

كنت يوما أسهر كعادتي على برنامج تلفزيوني فرنسي بعنوان "ساعة الحقيقة" الذي عوّدتنا عليه امرأة صحافيّة مشهورة اسمها "كريسيتين أوكرانت" (Christine O'krent) وهي واسعة الإطّلاع في الشّؤون السّياسية وعلى درجة ثقافيّة عالية مع جرأة في إلقاء الأسئلة وإحراج الضّيف ليجيب على أسئلتها بكلّ صدق، وعلمت خلال الأسبوع من الإشهار وتقديم البرامج الموعودة أنّ "ساعة الحقيقة" سيستضيف هذه المرّة جلالة الملك الحسن الثّاني ملك المغرب ليجيب على الأسئلة المطروحة.

وبما أنّ جلالة الملك لا يمكنه أن يتحوّل إلى فرنسا من أجل برنامج تلفزيوني: فإنّ فريق البرنامج هو الذي تحوّل إلى المغرب لمقابلة جلالة الملك. وبدأ البرنامج الذي يدوم ساعة كاملة ولذلك سمّي "ساعة الحقيقة " وبدأ فيه الملك في قصره وهو باسم الثّغر طليق الوجه منتعش الأسارير، وانهالت عليه الصّحافيّة بالأسئلة وأجاب عليها بكلّ صراحة وبدون تحفّظ.

وركزّت "كريستين اوكرانت" أغلب الأسئلة عن التّقارب بين المسيحيّة والإسلام، في ظلّ زيارة البابا يوحنّا بولس الثّاني إلى المغرب وقد استقبلته الحشود المغربيّة بالهتافات والأفراح والأحضان المفتوحة، منادين بحياته وحياة جلالة الملك.

ولكنّ الذي أقلقت به جلالة الملك هو اعتراضها، أو انتقادها لجلالته كيف يبني مسجداً في الدّار البيضاء بتلك الضّخامة وهو أكبر مسجد في العالم بمصاريف باهظة بينما هناك فقراء ومساكين في الشّعب المغربي هم أحوج إلى لقمة العيش وسدّ ألم الجوع، وهو أفضل عندهم من بناء مسجد للصّلاة.

وهنا أجاب جلالة الملك الحسن الثّاني بجواب يبدو أنّه أقنع الصّحافيّة المتطفّلة، فتحوّلت لغيره من الأسئلة.

قال لها: أنتم في القرون الوسطى كنتم جياع يأكل بعضكم بعضا من شدّة الفقر والتّخلف ومع ذلك فقد بنيتم أكبر كنيسة في باريس والتي تسمّى NOTRE DAME DE PARIS فلماذا لم تفكّروا في الجياع وقتئذ.

وسكتت الصّحافيّة ولم تبد أيّ اعتراض وانتقلت إلى سؤال آخر جاء فيه:

ـ ما رأيكم في الشّيعة يا جلالة الملك ؟

وأجاب على الفور: هم فرقة منحرفة عن الإسلام، واستطرد يقول: كنّا نحن والشّيعة أخوة طيلة أربعة عشر قرناً ولم يعكّر صفو هذه الأخوّةإلاّ الخميني.

ومن هذا الجواب طاش عقلي وتحيّر فكري ولم يكن يخطر ببالي أنّ جلالة الملك يحمل في جنباته كلّ هذا الحقد على الشّيعة وعلى الإمام الخميني بالذّات، وإذا كان جلالته يقول: كنّا نحن والشّيعة أخوة طيلة أربعة عشر قرنا ولم يعكّر صفو هذه الأخوّة إلا الخميني.

فما الذي فعله الخميني حتّى يعكّر صفو تلك الأخوّة ؟ ألأنّه طرد الشّاه المخلوع من إيران كما طردته حبيبته أمريكا، فاستقبله جلالة الملك في المغرب بالأحضان بعدما أغلقت كلّ الدّول أبوابها في وجهه ولم تعطه حقّ اللّجوء. وإذا كان جلالة الملك يحكم على الشّيعة بالانحراف عن الإسلام ومع ذلك يؤآخيهم

طيلة أربعة عشر قرنا، فلنا أن نسأله هل الذي فعله الإمام الخميني في الثّورة الإسلاميّة ضدّ المستكبرين وضدّ الظّلم والفساد، هو أخطر من انحراف الشّيعة عن الإسلام، أم أنّ الشّيعة كانوا مسلمين ولم ينحرفوا إلاّ بعد مجيء الخميني ؟

ولم يهدأ روعي بعد سماعي لتلك الأجوبة الأخيرة التي أقلقتني كثيرا وما تركت النّوم يكحّل جفني.

وقمت في الثّلث الأخير من اللّيل لأكتب لجلالة الملك الحسن الثّاني رسالة أشرح له فيها باختصار بعض خواطري لعلّ اللّه سبحانه وتعالى يفتح بصيرته على الحقّ فيراجع فكره في خصوص إخوانه من الشّيعة الذين يحبّونه ويحترمونه لا لشيء سوى أنّه من نسل الشّجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السّماء.

وها أنا أنقل نسخة من الرّسالة التي وجّهتها لجلالته:

بسم اللّه الرحمان الرّحيم والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا ومولانا محمّد وآله الطيّبين الطّاهرين.

إلى أمير المؤمنين جلالة الملك المفدّى الحسن الثّاني ملك المغرب، كان اللّه في عونه وتوفيقه.

السّلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته، وبعد.

تتبّعت المقابلة التي أُجريت لكم في القناة الأُولى للتّلفزة الفرنسيّة في برنامج "ساعة الحقيقة" وأعجبت بردودكم المقنعة على أسئلة الصّحافيّة كما أُعجبت بشخصكم المتفاني في حبّ اللّه ورسوله، وحبّ شعبكم، فاللّه أسأل أن يوفّقكم ويأخذ بأيديكم لما فيه صالح البلاد والعباد غير أنّه لا يفوتني أن ألاحظ لجلالتكم بأنّ جوابكم بخصوص الشّيعة لم يكن مقنعا عندما حكمتم عليهم بالانحراف.

فاسمحوا لي يا جلالة الملك المعظّم بأن أهدي لكم كتابي "ثم اهتديت" عسى أن يغيّر رأيكم في هذه الفرقة التي تعدّ ثلث المسلمين في العالم، وإذ كانت الشّيعة قامت لتأييد أهل البيت ونصرتهم وإرجاع الحقّ إليهم والإقتداء بهم في أمور الدّنيا والدّين، وهم آباؤكم وأجدادكم كما لا يخفى، فمن واجبكم نصرتهم بكلمة

طيّبة كلمة الحقّ التي تريدون بها وجه اللّه بقطع النّظر عن كلّ المواقف السيّاسية واختلافكم مع الخميني، وإذا كنتم يا جلالة الملك تكلّمتم في برنامج "ساعة الحقيقة" بأنّ الشّيعة إخوانكم طيلة أربعة عشر قرنا ولم يعكّر صفو هذه الأخوّة إلاّ الخميني، فكان لزاما عليكم أن تدعوا الأمّة الإسلاميّة للوحدة والأخوّة الصّادقة، وبالخصوص في هذا الظّرف العصيب.

وإذا كان جلالة الملك الحسن الثّاني، وهو بن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يلتقي بحفيد عيسى بن مريم يوحنّا بولس الثّاني، كما صرّحت بذلك وكالات الأنباء والتلفزة الفرنسيّة في محاولة منكم لتوحيد المسلمين والنّصارى، بل وكما سمعناه في مقابلتكم الأخيرة عندما دعوتم لوحدة أبناء إبراهيم عليه السّلام، فمن باب أولى وأحرى أن توحّدوا أبناء الإسلام سنّة وشيعة، وأنتم على ذلك قادرون وبه جديرون لتنالوا رضا جدّكم رسول اللّه وبالتّالي رضا اللّه سبحانه.

وإنّي تأثّرت كثيراً عندما صرّحتم إلى الصّحافية بأنّه لم يبق من عمركم لا أقلّ ممّا انقضى فسارعوا رحمكم اللّه إلى إصلاح ذات البين ووحّدوا المسلمين الذين يتلهّفون على الأخوّة والوحدة وجمع الكلمة فما نال الخميني تلك الشّهرة العالميّة إلا عندما رفع شعار الوحدة.

وإذا عجز هو عن تحقيق آماله، ولقي ربّه بكلّ أعماله فقد جاء دوركم يا جلالة أمير المؤمنين فعسى اللّه سبحانه يجمع بكم الكلمة ويوحّد بكم أمّة محمّد جدّكم فتسعدون في الدّنيا والآخرة يوم تردون على ربّكم فيحاسبكم عن كلّ صغيرة وكبيرة، وتيقّنوا يا صاحب الفخامة بأنّ حسابكم عسير لما مكّنكم اللّه جلّ جلاله من ملك وسلطان ونفوذ وقوّة، وهل أعددتم جواباً لجدّكم رسول اللّه عندما يسألكم: "ماذا فعلت يا حسن في سبيل وحدة أمّتي ؟ "ماذا فعلت في عترتي؟".

مولاي جلالة الملك المعظّم أنا أقلّ وأحقر من أن أخاطبكم بمثل هذا، ولكن من باب قول اللّه: **﴿وذكّرْ فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين ﴾** الذاريات 55.

أدعو اللّه سبحانه أن يفتح بصيرتكم لقراءة رسالتي وكتابي وتتقبّلون نصيحتي وعتابي، فقد علّمنا الإسلام بأنّ النّصيحة للّه ولرسوله ولعامّة المسلمين، فما بالكم بملوكهم ورؤسائهم وقادتهم.

كما أدعوه سبحانه بأن يحفظكم ويرعاكم ويسدّد خطاكم ويطيل عمركم لنفع البلاد والعباد وينصر بكم الحقّ وتكونوا من الفائزين.
والسلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

من العبد الحقير محمّد التّيجاني السّماوي.

كما أرسلتُ لجلالته كتابي "ثمّ اهتديت" وكتبتُ على غلافه ما يلي:
هديّتي المتواضعة إلى أمير المؤمنين صاحب السموّ والفخامة والشّرف

جلالة الملك المعظّم الحسن الثّاني سُلالة العترة الطّاهرة أهل بيت المصطفى وسفينة نجاة الأمّة وأعلام الهدى ومصابيح الدّجى، سائلا اللّه له مزيدا من الهداية والتّوفيق وأن يصلح به أمّة جدّه ويجعله من الممهّدين لصاحب الزّمان روحي وأرواح العالمين له الفداء.

المؤلف : محمّد التّيجاني السّماوي

أرسلت الكتاب مصحوبا بالرّسالة في البريد المضمون الوصول مع الإفادة بالاستلام، وبعد أسبوع واحد وصلتني رسالة من الديوان الملكيّ في المغرب يعلمني بأنّ رسالتي وكتابي وصلا إلى جلالة الملك.ويشكرني على هذه المبادرة.

وبقيت أتتبّع الأخبار والأحداث المغربيّة، وسرّني كثيرا عندما علمت بأنّ جلالة الملك وجّه دعوة لبعض علماء الشّيعة الذين حضروا في أمسيّاته الرّمضانيّة وألقوا بعض المحاضرات الدينيّة بمحضر جلالته.

كما وجّهت دعوة رسميّة لآية اللّه الشيّخ محمّد علي التسخيري الأمين العام للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السّلام لحضور مؤتمر إسلامي تحت إشراف جلالة الملك المغربي وعادت العلاقات بين المغرب والجمهوريّة الإسلاميّة في إيران بعدما كانت مقطوعة والحمد للّه ربّ العالمين فلعلّ كتابي ورسالتي قد أثّرا بالفعل في هذا التّحول السّريع، واللّه وحده يعلم.

وبقيت أتشوّق لزيارة المغرب بعد الاستبصار ولكنّني كنت أخشى أن تسبّب لي رسالتي الجريئة بعض المشاكل لأنّ بلداننا تحاسب الإنسان على أفكاره حسابا عسيرا في بعض الأحيان.

وقدّر الله لي زيارة ساحل العاج فكان لا بدّ لي من المرور على المغرب والنّزول في الدّار البيضاء على حساب شركة الطّيران الملكيّة المغربيّة التي تعطي للركّاب إقامة كاملة في فندق سياحي خمسة نجوم لمدّة يوم واحد، وإذا أراد المسافر أن يبقى أكثر من ذلك يومين أو ثلاثة فهي تتحمّل النّصف من معلوم إقامته.

واخترت البقاء في الدّار البيضاء لمدّة ثلاثة أيّام وبما أنّ العلاقات بين تونس والمغرب وديّة للغاية وليس هناك تأشيرة للدّخول فإنّي ما وجدت أيّ تعب ولا مشكلة ودخلت المغرب بسلام وبقيت ثلاثة أيّام تجولّت خلالها في الدّار البيضاء وفي الرّباط، وتحادثت مع بعض المغاربة وأنا محتاط كلّ الاحتياط.

دخلت المسجد الجديد الذي بناه جلالة الملك في الدّار البيضاء على شاطئ المحيط، ودهشت لما امتاز به هذا المسجد من العظمة وكبر المساحة وكذلك الزّخرفات والنّقوش ذات الطّابع الإسلامي الأصيل التي تبهر العقول.

كان السّوّاح والزّائرون بأعداد هائلة، أفواج داخلة وأفواج خارجة، أناس يصلّون وآخرون يلتقطون بعض الصّور ومجموعات أخرى تجلس للرّاحة تستنشق رطوبة الهواء المنبعث من البحر.

وجلست بعد المشي الطّويل لأريح جسمي من عناء التّعب وقد خلعت حذائي ومددت رجليّ وأنا أنظر يمينا وشمالا وأتطلّع للكتابات القرآنيّة التي خُطّت بخطوط كوفيّة قديمة وأحاول قراءتها.

جاءني رجل مغضب وانتهرني بعنف لأسحب رجليّ لأنّها كانت ممدودة باتجاه القبلة وحاولت تهدئته بلطف بعدما وقفت، قلت له بأنّي ما فعلت محرّماً لكي يعاملني بهذه القسوة وكلّ ما في الأمر أنّه يكره عند البعض أن تمدّ رجليك باتجاه القبلة.

قال: وماذا تعرف عن الدّين حتّى تناقشني بهذه المسائل ؟

قلت: عبدكم الحقير أستاذ تربية إسلاميةّ ودكتور فلسفة إسلامية وأعرف بحمد الله كلّ هذه المسائل.

نظر إليّ نظرة سخرية واستهزاء وذهب إلى حال سبيله وجاءني بعده رجل آخر عليه علامات الوقار ولحيته بيضاء تتدلّى على صدره وقد رتّبـــها ترتيبـــا متناسقا فطلب منّي أن أصحبه خارج المسجد، فتبعته ومشينا بعيدين عن النّاس.

قدّم نفسه بأنّه شيخ طريقة صوفيّة تنتمي إلى الشّاذليّة وأنّه من مدينة فــاس، وقد جاء للزّيارة.

ثم قال: أمّا أنت فمن تونس دكتور فلسفة إسلاميّة.

قلت متعجّباً: من أعلمك بكلّ هذا ؟

قال: الرّجل الذي انتهرك عن مدّ رجليك إلى القبلـــة،هــو مــن أتبــاعي ومريدي.

قلت مطمئنّا: ولماذا أخرجتني من المسجد وكانت نيّتي الاستراحة ؟

قال: هناك أعين كثيرة وآذان أكثر، والصيّادون متواجدون في كلّ مكـــان داخل الجامع.

قلت: وما شغلني أنا بكّل هؤلاء ؟ أنا عابر سبيل قضيـــت يوميـــن وغــدا سأسافر إن شاء اللّه تعالى.

قال: ألست أنت الدكتور التّيجاني ؟

وانتفضت لهذا السّؤال، مستغربا كيف عرفني.

قلت مستنكرا: من هو الدكتور التّيجاني ؟

قال: صاحب الكتاب المشهور "ثم اهتديت".

اطمأن له قلبي وابتسمت في وجهه قائلا: كيف عرفتني؟

قال: رأيت صورتك في بعض المجلاّت التي أهديت لي، عند ذلــك قلــت: نعم أنا هو التّيجاني، وهل قرأت كتابي؟ قال: طبعاً قرأت لك ثلاثة كتب، وعندي ملاحظات واعتراضات كثيرة على ما كتبتَه.

قلت مسروراً: تفضّل هات ما عندك لعلّنا نتفاهم.

قال: لم تسألني كيف وصلتْ إليّ كتبك الثّلاثة.

قلت: إيه ذكّرتني، ولكنّ فرحة لقائك صدفة أنستني كلّ شيء فلم يعد هناك تعب ولا خوف، فقل لي كيف تحصّلت على الكتب ؟

قال: هي قصّة عجيبة ولكنّي سأحكيها لك كما وقعت. بما أنّي شيخ للزّاوية الشّاذلية يأتيني الزوّار من كلّ مكان وقد تعرّفت مرّة على أحدهم وهو مسلم من السّنغال من المتصوّفة يتردّد على الزّاوية مرّة أو مرّتين في العام وانعقدت بيني وبينه علاقة وديّة، وأصبحنا أخوين في اللّه لا يكتم عنّي شيئا ولا أكتم عنه وكان يحترمني كثيرا وأنا أبادله نفس الشّعور أو أكثر لما لامسته فيه من استقامة وحسن أخلاق وبراءة.

وجاءني ذات يوم مضطرباً ومشوّش الفكر يحمل معه كتابك "ثم اهتديت" وقال لي بأنّه قرأ الكتاب ثلاثة مرّات وأحدث فيه شكوكا كثيرة وهو عاجز عن الردّ عليه ثم أردف يقول: إذا كان ما يقوله هذا الرّجل صحيحا فكلّنا ذاهبون إلى الهاوية وما أدراك ماهية نار حامية. ثم طلب منّي قراءة الكتاب والردّ عليه بسرعة قبل أن يتأثّر به خلق كثير عندنا في السّنغال.

فأخذت منه الكتاب وسألته من أين اقتناه، فقال بأنّه يباع عندنا في السّنغال وقد أهداه لي بعض أصدقائي الذين تأثّروا به.

فهدّأت من روعه وقلت له: سأقرأ الكتاب مدّة إقامتك عندي وسأعطيك رأيي فيه بعد القراءة.

وأقام عندي ثلاثة أيّام بلياليها وكنت كلّما قرأت جزءاً من الكتاب ازددت حقدا عليك خصوصا عندما أحاول تأويل المعاني لأنفّر الأخ موسى السنغالي من كتابك، فيعارضني قائلا بأنّه تتبّع كلّ ما فيه من أحاديث فوجدها صحيحة كما ذُكرتْ في الكتاب، علاوة على أنّ الأحداث التّأريخية التي سطّرها الكتاب هزّت مشاعره خصوصا ما وقع لفاطمة الزّهراء بعد أبيها فكان كلّما ذكرها بكى بكاءً شديداً ولعن كلّ من آذاها أو تسبّب في أذيتها وكان كثيرا ما يردّد حديث الرّسول(ص) فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللّه ثم يقول: كيف يهدّدها عمر بن الخطّاب بحرق دارها بالنّار؟ وأحاول جاهدا تكذيب هذه الرّوايات، فيثور عليّ قائلا: إنّها روايات صحيحة، ولو لم تكن صحيحة ما

كانت سيّدة نساء العالمين لتدفن في اللّيل وفي السرّ بدون حضور الصّحابة، ثم ما كانت تأمر زوجها سيّدنا علي بإعفاء قبرها لكي يبقى مجهولا عبر القرون إلى يومنا هذا.

وبعد الأيّام الثّلاثة ولمّا رأى بأنّي ما زلت أدافع عن عدالة الصّحابة التي ذُكرت في القرآن في عديد من الآيات وكذلك في الأحاديث النّبويّة الشّريفة، أخذ الكتاب من عندي وودّعني وانصرف، وغاب عنّي لمدّة ثلاث سنوات.

ولمّا كان العام الماضي جاءني زائرا وقد تبدّلت هيئته ولبس عمامة ووضع على صدره مسبحة يسمّيها مسبحة الزّهراء ولمّا سألته عن حاله قال بأنّه تشيّع لأهل البيت عليهم السّلام وسألته عن سبب تركه مذهب آبائه وأجداده فقال:

لمّا رجعت من عندك بقيت متردّدا متشكّكا بين تيّارين تيّار يدفعني للشّيعة والتمسّك بأهل البيت، وتيّار آخر يجذبني إلى التمسّك بأهل السنّة والجماعة واتّباع ما عليه آبائي وأجدادي وترك كلّ ما هو بدعة فكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة صاحبها في النّار كما جاء في الحديث.

وازدادت حيرتي وكثر شكّي حتّى تركت الصّلاة واستهنت بالدّين وقلت في نفسي: إذا كان المسلمون الأوّلون صحابة رسول اللّه قد فعلوا ما فعلوا فعلى الإسلام السّلام.

وبقيت أكثر من ثلاثة أشهر وأنا مفارق الجماعة لا أصلّي ولا ألتزم بشيء من أمور الدّين والأحكام.

لكنّ ضميري لم يطاوعني وبقيت أوبّخ نفسي وألعن اليوم الذي قرأت فيه ذلك الكتاب.

قلت: أيّ كتاب تقصد؟

قال: كتابك "ثم اهتديت".

قلت: أكمل القصّة بارك اللّه فيك.

استطرد يقول: قال لي، ذات ليلة بينما أنا نائم جاءني الشيخ الطّاهر الذي هو معروف في قبيلتنا، فقال لي: ما بك يا موسى؟ لماذا أنت متحيّر لماذا تركت الصّلاة؟

فقلت له: يا سيّدي دلّني على الحقيقة لأنّي تهتُ بين أقوال العلماء ولم أعد أعرف كيف أصلّي.

فقال لي: قم الآن توضّأ وصلّ للّه ركعتين وأطلب منه أن يرشدك إلى الحقّ فاللّه وحده الذي يهدي من يشاء من عباده قال: فاستيقظت مذعورا وأسرعت إلى الغسل وصلّيت للّه وأنا أبكي وأقول: اللّهم دلّني على الحقّ واهدني إلى صراطك المستقيم ثم قرأت ما تيسّر من القرآن الكريم حتى أحسست بالنّوم يعاودني فنمت في مكاني والمصحف على صدري.

فرأيت في منامي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم واقفا وقد أدار وجهه عنّي، وبين يديه كتاب موجّه إليّ تطلّعت فيه فإذا مكتوب عليه "ثم اهتديت" واستيقظت في هذه المرّة على آذان الفجر، فنهضت من وقتي وتوضّأت وصلّيت وأنا كلّي إيمان واطمئنان بأنّ الحق في هذا الكتاب وأنّ رسول اللّه أراد أن يقول لي: اتبع هذا لأنظر إليك وترى وجهي.

ولمّا أصبح الصّباح حكيت لكلّ العائلة عن الرّؤيتين فتشيّعوا كما حكيتها لكلّ أصدقائي وتشيّع منهم الكثير وبقيت من وقتها وأنا أقرأ كلّ كتب الشّيعة التي تقع بين يديّ وبالخصوص الكتب التي يكتبها الشيخ التّيجاني.

قلت: الحمد للّه واغرورقت عيناي بالدّموع لهذه القصّة الطّريفة والتي سمعت ما يشبهها عند بعض الأخوة الذين استبصروا ولكنّي لا أذكر أين، لعلّها وقعت في أستراليا.

التفت إلى الشيخ بعدما قصّ عليّ قصّة الأخ السّنغالي موسى وقلت له: طيّب، ولنعد إليك أنت الذي قلت بأنّك قرأت ثلاثة من كتبي وعندك ملاحظات واعتراضات كثيرة فهل لك أن تذكرها أو تذكر شيئاً منها ؟

قال: مضى الآن على وفاة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم أربعة عشر قرنا فيها من العلماء والحكماء والمشايخ والأولياء والصّالحين بالآلاف إن لم نقل بالملايين، وكلّهم عبد اللّه على طريقة السّلف الصّالح من الصّحابة والتّابعين لهم بالإحسان، ولم نسمع بمذهب يسمّى مذهب أهل البيت إلاّ في هذه الأيّام.

أفتحكم على كلّ هؤلاء بالكفر والضّلالة وأنّهم من أهل النّار ؟

قلت: بسم اللّه الرحمان الرّحيم: ﴿ **لله ما في السّموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه، يحاسبكم به اللّه، فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء واللّه على كلّ شيء قدير**﴾ البقرة 283 .

أمّا أنا فليس لي أن أحكم على عباد اللّه بالجنّة أو النّار لأنّ ذلك ليس من حقّي وليس من حقّ أيّ إنسان، وإنّما هو حقّ اللّه وحده، كما ورد في القرآن الكريم قول عيسى عليه السّلام: ﴿**إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم**﴾ المائدة 118 .

قال: يا شيخ أمّا أنا فلا أقبل ولا عقلي يقبل بما أوردته في كتبك لأنّه لو صحّ لكانت أغلبيّة الأمّة المحمّدية في جهنّم، هذه الأمّة التي يشهد لها اللّه بأنّها خير أمّة أخرجت للنّاس، يشهد لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بأنّه يُباهي بها سائر الأمم يوم القيامة.

قلت: يا حضرة الشيخ كيف تحتجّ عليّ بهذا المنطق الذي لا يخفى على العقلاء أنّه منطق غير سليم.

قال: سبحان اللّه: أنا كلّمتك بالقرآن وأنت تقول: منطق غير سليم، إتّق اللّه فمن قال بهذا فقد كفر، أتريد منطقاً أحسن من القرآن؟

قلت: أستغفر اللّه ما هذا قصدت، وإنّما تفسيرك لآيات اللّه كما قدّمت هو غير سليم، وإلاّ لقلنا حسب تفسيرك هذا بانّ الأمّة الإسرائيلية هي أفضل من الأمّة المحمّدية، فقد جاء في القرآن قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإنّي فضّلتكم على العالمين**﴾ البقرة 47.

قال: أنا أعرف أنّ اللّه فضّلهم على العالمين في زمانهم.

قلت: ليس في الآية إشارة من قريب أو من بعيد على ادعائك.

قال: ولكنّنا عرفنا ذلك من الأحاديث النّبوية الشّريفة على صاحبها أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم.

قلت: وكذلك الآية التي أتيت بها كحجّة فهي تقول: ﴿ **كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾.

فهي خير أمّة إذا وفّت بهذه الشّروط التي ذكرها اللّه سبحانه أمّا إذا تخلّت عنها فإنّها تصبح معرّضة لعذاب اللّه كما جاء ذلك في الأحاديث النّبوية الشّريفة على صاحبها أفضل الصّلاة وأزكى السّلام وعلى آله الطيّبين الطّاهرين.

قال: يا أخي أنا لا أصدّقك حتى أرى ما رآه موسى السّنغالي في منامه، إذا جاءني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وقال لي: أترك ما أنت عليه واتّبع التّيجاني عند ذلك سأتّبعك.

قلت ضاحكاً: أنت تطلب المستحيل، وأنا لا أريدك أن تتّبعني فأنا لست نبيّا ولا رسولا ولا شيخ طريقة، وإنّما اتّبع الحقّ ولو كان الأمر كما تتوهّم لجاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لكلّ فرد من أفراد أمّته وخصوصا منهم الصّالحين كما تسمّيهم أنت، ولأرشدهم إلى الحقّ في منامهم.

ولكن على علمي إنّ هذا لا يمكن إلاّ لمن أخلص في عبوديتّه للّه وحده وصفا قلبه ووصل إلى درجة الإحسان بعدما تخطى درجة الإسلام والإيمان، فإذا كنت من هؤلاء فاسأل اللّه سبحانه وسيستجيب لك، قال في كتابه العزيز: ﴿ **وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون** ﴾ البقرة 186.

وتوقّفنا هنا كلّ واحد منّا ودّع الثّاني وسأل له الهداية والتّوفيق، وافترقنا ورجعت بمفردي إلى الفندق أتمشّى وأقول في نفسي:

﴿ **إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ اللّه يهدي من يشاء** ﴾ صدق الله العظيم. القصص 56.

لو اهتدى هذا لكان رحمة للمؤمنين الذين يتبعونه ويزورونه ويعتقدون فيه الصّلاح والفلاح، ولكن الشّيطان لعنة اللّه عليه عندما يوسوس للإنسان في صدره ويوهمه بأنّه وصل إلى درجة الكمال وأنّه عرف من الدّين أكثر من الآخرين وأنّه أصبح له أتباع ومريدون، وتوسوس له نفسه بأنّه أقرب إلى اللّه

من كلّ العباد الذين حوله، فيتكبّر عند ذلك ولا يسمع لأحد نصيحة، بل إذا قيل له إتّق اللّه أخذته العزّة بالإثم.

ولكنّي عزّيت نفسي وقلت: إيّاك أن تغترّ بما حكاه عن موسى السّنغالي ورؤيته في المنام، فهذا كلّه من فضل اللّه عليّ وعلى موسى السّنغالي الذي ما عرفته أبدا إلاّ في قصّة شيخ الشّاذليّة، وهو أيضا ما عرفني إلاّ من خلال الكتب، ولعلّ اللّه سبحانه وتعالى سيلاقينا صدفة فهو على جمعهم إذا يشاء قدير.

وسبحان اللّه عمّا يصفون وسلام على المرسلين و الحمد للّه ربّ العالمين.

نهاية الجزء الأول

الـــــرّحلـة الإيـــرانـيـــة

ايران

مساحتها: **1650.000** كلم مربع

عدد سكانها: **70** مليون نسمة

موقعها الجغرافي: القارة الآسيوية

عاصمتها: طهران

حدودها شرقا: روسيا

وجنوبا: الخليج الفارسي

وغربا: العراق واذربيجان

وشمالا: أفغانستان وتركمانستان وبحر قزوين

الرّحلة الإيرانية

لكثرة الدعوات التي وصلتني، ولكثرة المؤتمرات التي حضرتها في الجمهورية الإسلامية ولكثرة الكلمات والمحاضرات التي ألقيتها أصبحت بحمد الله معروفا عند عامة الشعب،الإيراني بمختلف طبقاته خصوصا بعدما أجريت لي عدة مقابلات تلفزيونية في القناة الثانية الناطقة بالعربية وكذلك في القناة الأولى الناطقة بالفارسية.

كما أن الصحف الإيرانية نشرت لي عدّة مقالات خصوصا في جريدة كيهان للعالم العربي التي كانت تصوّرني دائما باللّباس التقليدي التونسي وهو اللّباس المعروف عند علماء الزيتونة في تونس.

هذا قبل طبع كتابي الأول " ثم اهتديت"، أما بعد طبع الكتاب وترجمته إلى الفارسية فحدّث ولا حرج.

واذكر أني لما دعيت لحضور مؤتمر الإمام الكاظم الذي أقيم في مدينة مشهد، تقدمت إلى السفارة الإيرانية في باريس لطلب تأشيرة الدخول فقال لي السيد القنصل: أنت تدخل عندنا بدون تأشيرة أنت معروف في إيران أكثر مني ومن سعادة السفير.

إنها نعمة كبرى أحمد الله عليها أن جعل لي في قلوب الملايين من النّاس محبّة واحتراما قد تفوق الوصف والخيال في بعض الأحيان.

وحضرت ذلك المؤتمر الذي كنت أتشوق إليه لنسبته إلى الإمام موسى بن جعفر، ومن هو موسى الكاظم، إنه الإمام الأول الذي شرّفني اللّه بزيارته قبل استبصاري وهو المفتاح الذي فتح الله به صدري لمعرفة الحقائق وهو السبب في شهرتي ونجاحي إذ رأيته في المنام وهو يقول لي: اكتب هذه الرّحلة، فكتبت وكان "ثم اهتديت."

حضر في المؤتمر جمع غفير من العلماء والمفكّرين والفقهاء وأساتذة الجامعات وكان يجلس في المقدّمة كلّ أعضاء الحكومة. كان السيد علي خامنئي،

رئيس الجمهورية والشيخ رفسنجاني رئيس مجلس الشورى والسيد علـــي أكـــبر ولايتي وزير الخارجية والسيد أحمد الخميني وأغلب أعضاء الحكومـــة وألقيــت كلمتي وحكيت قصّتي مع الإمام موسى الكاظم عليه السلام وكيف دخلت عليــــه لأول مرة وأنا متكبّر وكيف انزويت في ركن أقول: اللهمّ إن كــــان هــذا مـــن الصّالحين فارحمه، وضحك الحاضرون من هذه القصّة الطريفة.

ثم تكلمت بعدها عن الإمام الرضا عليه السلام وكيف يلقّبه الشيعة بغريـــب الغرباء، وعلّقت على ذلك بأن الإمام الذي يعيش وسط شيعته ومحبّيه ومواليــــه الذين يطوفون حول مرقده كالفراشات ولا يخلو مسجده من الزوار ليلاً ولا نهارا ليس بغريب، إنما الغريب هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم الذي يعيــش وسط عصابات غلاظ شداد لا يسمحون للمسلمين من أمته أن يقتربوا من مقامــه ولا أن يتمسّحوا بأعتابه ويضربونهم على ذلك شاتمين إياهم بالشّرك.

وبكى الحاضرون لبكائي ونزلت من منصّة الخطابـــة اســتقبلتني الوفــود الحاشدة تقبّلني وتشكرني وكان من بينهم رجل يقول: أضحكـــت وأبكيــت ومـــا رميت إذ رميت ولكن الكاظم رمى، وعرفت فيما بعد أنه الدكتور اســـعد علـــي فيلسوف العلويّين ومتكلمهم وهو مقيم في دمشق.

تعرّفت عليه من قريب وأجريت معه حوارا حول العلويّين وما يعتقدونــــه ووعدته بزيارته في سوريا لكي يعرّفني على الطائفة العلويّة من قريب إن شـــاء الله تعالى.

وفي جلسة ودية جمعتني بالدكتور اسعد علي في دمشق مع مجموعة مـــن تلاميذه والمعجبين به أعاد على مسامعنا عبارته الأولى: "وما رميت إذ رميـــت ولكن الكاظم رمى".

قلت: كيف ذلك؟

قال: لمّا دخلت أول مرّة على الإمام الكاظم سلام الله عليه وقلت اللهم ارحمه، فردّ عليك بأحسن منها. فقال: اللهم اهد قلبه فكان "ثم اهتديت" فالكتاب ليس كتـــابك أنت، إنما هو كتاب الكاظم ولذلك أضحكت وأبكيت وما رميت إذ رميت.

وأعجبت بهذا التخريج الذي إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على عمق التفكير وسعة المعرفة وبعد النظر الذي يخترق الحجب ليصل إلى عين الحقيقة وهي كما يعبّر عنها الدكتور اسعد علي: ليربط الظل بالأصل.

ومن خلال زيارات المراجع والعلماء الكبار عرفت بأني دخلت في قلوب النّاس من أجل كتابي الذي لقي إعجابا كبيرا في كلّ الأوساط العلمية والثقافية وقد ترجم في إيران إلى عدّة لغات.

وكنت في الحقيقة أخشى من ردة الفعل في إيران بالذّات من أجل كتابي وذلك لأن بعضهم ممن يحسبون على الثورة ابدوا امتعاضهم وخوفهم من الكتاب عندما أطلعتهم عليه قبل الطبع بدعوى أن الإمام الخميني لا يحبّ أمثال هذه الكتب التي تثير مشاعر وعواطف أهل السنّة والجماعة وهو يدعو لوحدة المسلمين.

وبعد طبع الكتاب ونشره تلقّفه الإيرانيون بلهفة وترجموه إلى الفارسية مرتين ونال إعجاب كل من قرأه عند ذلك اتصل بي أحد المسؤولين وكان صديقا لي جاءني إلى باريس.

قال: لماذا لم تذكر الإمام الخميني في كتابك؟

قلت: لا علاقة للإمام الخميني بكتابي فهو يحكي قصّة حقيقيّة كما وقعت لي بدون تزويق، وأحداثه وقعت من سنة **67** إلى سنة **70** ولم يكن الإمام في ذلك العهد معروفا وقد عرفنا الإمام الخميني في سنة **80** .

قال: الإمام الخميني هز العالم بثورته واحدث زلزالا وقد كتب فيه الكتاب في المشرق والمغرب من المسلمين وغير المسلمين.

قلت: نعم ما تقوله صحيح وأنا لا أعارضك فيه، ولكن أن أتكلم أنا عنه في كتأبي فغير معقول لأنه سيكون كلامي عنه كذب وتملّق وسيكتشف ذلك القرّاء فلا يثقون في كلامي بعدها أبداً.

قال: ولكنّك ذكرت السيّد الخوئي سبع عشرة مرة في كتابك فهو بذلك كتاب دعاية للخوئي.!

استغربت منه ذلك وقلت: أنا صاحب الكتاب و لم يخطر ببالي كم ذكـــرت السيد الخوئي من مرّة، ولكن ما المانع وما هو الضرر في ذلك.

قال: سبق لي أن قلت لك بأنه كتاب دعاية للخوئي.

قلت: وإن يكن ذلك فما الذي يغيظك أنت.

قال: أنت لا تعرف هذا الرّجل إنه عميل "للسافاك".

قلت له غاضبا: أنا لا أريد أن أدخل معكم في هذا الصّراع واطلـــب مـــن فضلك أن تقطع الحديث إلى هذا الحد، وهذا فراق بينـــي وبينـــك، ثـــم ودّعتـــه وانصرفت.

وبقيت أفكر في نفسي وأتساءل لماذا يتحمّس هؤلاء حتـــى يتســـبّبوا فـــي الإساءة لأنفسهم قبل الإساءة لغيرهم وهل الإمام الخميني الذي زلزل الأرض بمن فيها واحدث اكبر ثورة في التاريخ، بحاجة لأن يزكيّه رجل بسيط مثلي ويذكـــره في كتابه بغير مناسبة، كلا إن الإمام الخميني أضاء في أرجاء الكون كما تضيء الشمس وعرفه العالم بأسره فهو ليس بحاجة أن يذكره كاتب أو صحافي، ثم لماذا اتّهام السيد الخوئي بهذه التّهم والّنيل من رجل عالم قضى حياتـــه كلـــها عطـــاء للبشرية وهل تزيد شهرة الإمام الخميني بانتقاص السيد الخوئي؟

مساكين هؤلاء الذين يفكّرون بهذا التفكير العقيم ويحسبون أن السيّد الخوئي كان زعيم الحوزة العلمية ولا ينازعه أحد في تلك الزعامة، فلما ظـــهر الإمـــام الخميني رأوا بمنظارهم أن تسقط كل الزعامات دونه ولا يبقى أحد يلقب بآية الله العظمى غيره، وهذا من حقّهم ولهم أن يعتقدوا ما شاءوا ولكن ليس على حســـلب السبّ والشتم والّنيل من الآخرين وإلصاق شتى التهم بساحتهم كي تسقط عدالتـــهم في نظر عامّة الناس والمعروف أن الإمام الخميني نفسه نهاهم عن ذلك وأمرهـــم باحترام السيد الخوئي وكل العلماء الأفاضل لمّا بلغه أنباء تلك الحملة المســـعورة التي كان يحرك خيوطها بعض الدوائر المشبوهة لضرب الشيعة بعضهم ببعض.

"كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكلّ ما سمع"

وتأثر عامّة النّاس بتلك الأقاويل ولعلّ بعض المعمّمين من العلماء لعبوا في ذلك دورا خطيرا حتى اصبح البوليس الفرنسي يحقق معي شخصيا هل أنا مـــن

اتباع الخميني أو من اتباع الخوئي، لأنه عرف من خلال التقارير التي تصلهم بأن الخمينييّن يحبّون الثورة وهم أنصار الإرهاب وأن الخوئييّن مسالمون ولا شغل لهم بالسياسة، وقرأت شخصيًا في بعض التقارير السرية بأن فلان الفلاني لا يخشى جانبه لأنه من مقلّدي الإمام الخوئي.

نعم اذكر هذا للتّاريخ بكلّ إيجاز وتجرّد، واحمد اللّه سبحانه وتعالى أن عافاني ممّا ابتلى به غيري، فلم ادخل في تلك الصراعات التي شرقت فيها طائفة وغربت فيها أخرى،وبقيت بحمد الله وسأبقى بعونه تعالى متجردا حياديّا لا أنتمي لحزب ولا لمنظمّة ولا لجمعية ولا لشخص مهما علت قيمته، ولكن ولائي وانتمائي كلّه لمحمّد وآل محمّد أحيا بها وأموت عليها واحشر فيها إن شاء الله تعالى.

وما دمت في الرّحلة الإيرانية لا أهمل بعض الذكريات التي سجّلها بعض الإخوة وبعض الطلبة لعل الأجيال المقبلة تستفيد من قراءتها. فأنا فخور بما اكتب لا لشيء إلا لأنه حقيقة كما وقعت وبدون تزويق ولا تلفيق.

في أول رحلة إلى الجمهورية الإسلامية بعد انتصار الثورة وبمناسبة مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة، تعرّفت على الشيخ علي الكوراني وأنست بحديثه وبحماسه للثورة الإسلامية ولأهل البيت عليهم السّلام وعرفت بأنه من ابرز تلامذة السيد الحكيم وقد بعثه وكيلا له في الكويت.

اطمأن قلبي إليه وسألته إن كان يقبل رعاية ابني شرف الذي ينوي شد الرّحال إلى قم المقدّسة والالتحاق بالحوزة العلميّة، فشجعني على ذلك، وجئت بعد اشهر إلى قم مصحوبا بولدي شرف وفوجئت بتعدد الأحزاب داخل الحوزة وأن الطلبة منقسمون إلى عدة تكتّلات واتفقت مع الشيخ علي كوراني وبعد استشارة الشيخ منتظري أن نبعث بشرف إلى نجف آباد حيث توجد هناك مدرسة مغلقة لتعليم اللغة الفارسية وقدّرنا أنه إذا تعلّم هناك اللغة الفارسية بعيدا عن مشاكل الحوزة في قم فسيعود بعدها مستقلا ولا يحتاج إلى أحد فيستغلّه.

وتعلّم شرف اللغة الفارسية الأدبية ونال فيها الجائزة الأولى خلال ستة اشهر ونال الإعجاب ورضا الجميع، ولزيادة الخير وليطمئن قلبي عليه طلبت من الشيخ الكوراني أن يزوجه إحدى بناته، فتمّ الزواج بحمد الله تعالى، وبعد فترة وجيزة عمّمه الشيخ منتظري بيده عمامته السوداء.

وزرت إيران في العام القابل في مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة أيضاً وكانت الحوزات العلمية فيها بعض الاضطرابات الفكريّة والسياسيّة وخصوصا الحجتية التي كان اغلب الطلاب فيها من الأجانب التونسيّين والجزائريّين والمصريّين والسودانيين والكويتيين والخليجيين وحتى بعض من الفرنسيّين الذين اعتنقوا الإسلام.

في ذلك الوقت كان غليان الثّورة لا يهدأ وكان لبنان ممزقاً بالحرب ولا حكومة رسمية تدير شؤون البلاد وكل شيء في لبنان كان فوضى فقد قُتل رئيس الجمهورية للمرة الثانية والصراعات الطائفية لا زالت أساس الخراب والدّمار الشامل.

كان السيد محمد حسين فضل الله يحضر كلّ المؤتمرات التي تقام في إيران وسأله بعض الطلبة الخليجيين إن كان ينوى إقامة جمهورية إسلامية في لبنان فأجاب السيد بأن ذلك غير ممكن الآن وبأنه يجاهد من أجل أن يحصل الشيعة في لبنان على حقوقهم.

وعمل أولئك الطلبة على توزيع الشريط المسجّل وبثّ الإشاعات بأن فضل الله يمانع من إقامة الجمهورية الإسلامية في لبنان وفي المقابل إن الشيخ سعيد شعبان زعيم حركة التوحيد يعمل جاهدا لإقامة الجمهورية الإسلامية في لبنان.

وبعضهم كان يتحمّس بشعارات وهتافات تدعو بأن يكون الشيخ منتظري هو خليفة الإمام الخميني بدلا من السيد علي خامنئي. وهكذا كانت الأجواء السّائدة في إيران.

خلال المؤتمر وقع الاختيار عليّ لإقامة صلاة الجمعة في إحدى المدن الإيرانية وإلقاء محاضرة في المصلّين وبعدها مباشرة أخذوني في سيّارة رسمية إلى قم لزيارة الطلبة الأجانب في حوزة الحجتية، ولما التقيت بهم كانت كلمتي وجيزة قلت لهم: أنتم هنا لطلب العلم فلا تتحزّبوا ولا تتكتّلوا ولا تشغلكم السيّاسة عن الدروس فتؤيّدوا فلاناً وتقفوا ضد علان لأن رجال السياسة يتقلّبون ومع كل ريح يميلون ومن تباركونه اليوم قد تلعنونه غدا. فأنصحكم أن تهتمّوا بطلب العلم الذي هو عليكم فريضة ولا تنتموا إلا لأهل البيت عليهم السّلام الذين اذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا فهم لا يحولون ولا يزولون ولا يتبدّلون، كما أني

لا اطلب منكم الانتماء إليهم عاطفيا بل اطلب منكم البحث والتّحقيق العلمي كي تقتنعوا فيكون انتماؤكم عن علم ومعرفة.

خلال إقامتي في قم في بيت الشيخ علي كوراني جاءتني دعوة خاصة لزيارة قائد الأمة السيد علي خامنئي وجاءني الشيخ إبراهيمي وتحولّت معه بصحبة الشيخ كوراني إلى طهران حيث دخلنا إلى بيت السيّد القائد واستقبلني بالأحضان، وأحسست وأنا أعانقه واقبّله وكأني عانقت الدنيا بأسرها.

كان في بيته وزير الداخلية ومعه الشيخ محمد علي التسخيري واخذ يتكلم بعد الترحيب وقال لي: قرأت كتاب "ثم اهتديت" ثلاث مرات مرتين بالعربية ومرة بالفارسية، وأعجبت به غاية الإعجاب ولكن الترجمة الفارسية لم تعجبني، وقد كلفت أحد الفضلاء المتمكّنين من اللغة الفارسية ليعيد ترجمته إلى طابعه الروحي الذي شعرت به، ثم أضاف يقول: أما أنت فاحمد الله واشكره كثيرا أن اصطفاك لتكون من المدافعين عن الحق، عن رسول الله وأهل البيت الأطهار، وهذا منصب لا ينتخب له إلا أفذاذ الرجال، فهنيئا لك يا سيد تيجاني.

وكانت كلماته تنزل على قلبي كالعسل المصفى وأحسست وقتها بالراحة والاطمئنان وكان الحاضرون وعددهم لا يزيد على السبعة ينظرون إلي بإعجاب وإكبار حتى قال الشيخ التسخيري لمّا خرجنا من بيت القائد وهو يخاطب الشيخ ناطق نوري: تمنّيتُ أن يقول فيّ القائد ربع ما قاله في التيجاني.

رجعت بعد أسبوع إلى بيت القائد ضمن وفد رسمي من المؤتمرين جمع عشرين شخصية من العلماء ورجال الفكر والسياسة، ولمّا دخل علينا السيد القائد ووقف الجميع يسلمون كنت صاحب النصيب الأوفر إذ تقدم السيد القائد وعانقني وقبّلني وشعرت بأن هناك بيني وبينه علاقة روحية ما وصل إليها غيري من بين الحاضرين.

وبعد الجلوس وأداء التحية التفت إلي السيد القائد قائلا "اغاي" تيجاني تفضل تكلم:

يا إلهي لماذا كل الاهتمام بشخصي الحقير من قبل قائد الأمة وخصوصا أن من بين الحاضرين السيد فضل الله وآية الله المشكيني ووزير التربية الأردني

وكثير من علماء لبنان المرموقين. والكل يتمنى أن يحظى باهتمام القائد. تلجلج لساني وارتجلت كلمة موجزة عبّرت فيها عن خالص الشكر والامتنان باسمي وباسم الحاضرين لما نحظى به من عناية ورعاية سيادته وكل المسؤولين على إدارة المؤتمر.

تكلم بعدي وزير التربية الأردني الذي لم يخف غيرته وحقده تجاهي وما عرفته إلا في تلك الجلسة التي جمعتني به في بيت القائد قال: نحن نشكر الجمهورية الإسلامية حكومة وشعبا على الجهود الكبيرة التي بذلتها ولا زالت تبذلها من أجل توحيد المسلمين سنّة وشيعة وفي الوقت نفسه نطالبهم بأن يوقفوا الحملات التي يشنها بعض المتزلفين ضد الخلفاء خاصة وضدّ الصحابة عامة، وهذا من شأنه إثارة الحساسيات وتمزيق الأمة.

كان كلامه موجعا لي يفتت كبدي وعلمت أنه يقصدني بالذّات دون الحاضرين، وكيف لي أن أرد عليه في مثل هذا الجمع و تحيرت إذ كدّر صفو تلك الفرحة التي غمرتني وانقبض صدري وأنا أنظر للحاضرين يستمعون إليه في صمت رهيب، وإذا بصوت القائد السيد علي خامنئي يقاطعه ويقول:

ما كتبه الشّيعة قديما وحديثا ليس إلا دفاعا عن أهل البيت عليهم السلام والتعريف بأحقيتهم وإمامتهم لكلّ المسلمين. ولكن بعض الكتاب منكم يكتبون لسبّ وشتم الجمهورية الإسلامية في إيران والنّيل من قائدها رضوان الله تعالى عليه والنّيل من رموزها حتى ذهب بعضهم إلى تكفيرنا وإخراجنا من حظيرة الإسلام وما رأينا ولا سمعنا أن واحدا منكم استنكر ذلك بكلام أو بكتابة.

انشرح صدري لهذا الردّ الشّافي الذي كفاني عن كل الرّدود فقد ألقمه حجرا أسكته إلى الأبد وحمدت الله سبحانه وشكرته على هذه النعمة فمن مثلي أن يتولى الدفاع عنّي قائد الأمة.

وزال عنّي الخوف والشكّ إذ كنت اسمع من حين لآخر بعض النّاقدين يزعمون أن ما كتبته في كتبي يتعارض مع أهداف الجمهورية الإسلامية، فلو كان ما يقولونه صحيحا لكان أولى بقائد الأمة أن ينبّهني لذلك، لا أن يشجّعني عليه ويتولّى الدفاع عنّي.

فأنا اذكر وأتذكر أنه لمّا أهديته كتابي الثاني "لأكون مع الصادقين" أرسل إلي بهديّة مع السيد محمود الهاشمي وهو من اعزّ أحبابي إذ أنه يذكّرني بالشهيد محمد باقر الصدر، فهو من ابرز تلامذته وهو كأستاذه تبحّر في الفقه على صغر سنّه فاصبح آية الله وهو الآن يدير مكتب السيد القائد الذي كلّفه بإدارة المجمع العالمي للبحوث الإسلامية وهو أهل لذلك لعلمه وورعه وثقته.

جاءني السيد محمود مستبشراً وأراني الكتاب الذي أهديته للسيد القائد وهو يقول: تفضل أقرا ما كتبه السيد القائد: فقرأت على أول صفحة هذه الكلمات:

"إنه من احسن الكتب التي قرأتها في حياتي وأطلب من المجمع العالمي للبحوث الإسلامية أن يعيد طباعته بعد تحقيقه وإصلاح الغلطات المطبعية التي وردت فيه ويقوم بنشره وتوزيعه".

خطّه بشماله الفقير لربه السيد علي خامنئي.

و طار قلبي فرحا وطلبت من السيد الهاشمي أن يرجع إلي تلك النسخة لاحتفظ بها في مكتبتي ووعدني بإرجاعها بعد تنفيذ وصيّة القائد، وهو الآن بحوزة الشيخ خالد في بيروت هذا وقد عمل السيد محمود الهاشمي على تنفيذ تلك الوصيّة فطبع الكتاب "لأكون مع الصادقين" في أبهى حلّة بعد التحقيق العلمي في كل الروايات التي وردت فيه.

وقد عمل السيّد على نشر الكتاب الأول والثاني في كل افريقيا حتى استبصر خلق كثير لا يحصي عددهم إلا خالقهم، وقد استلمتُ شخصيا مئات الرسائل من الأفارقة المستبصرين الذين قرأوا في كتاب " ثم اهتديت" بأني غيرت اسم الشارع الذي اسكنه باسم الإمام علي "عليه السلام" في مدينة قفصة ويتولّى أخي الذي يسكن مكاني جمع الرسائل وتحويلها إلي بعنواني الجديد.

الـــرّحلـــة الـــتركـــية

تركيا

مساحتها: **780.000** كلم مربع

عدد سكانها: **36.5** مليون نسمة

عاصمتها: أنقرة واسطنبول

موقعها الجغرافي: الشرق الأدنى من آسيا

حدودها من الشمال: البحر الأسود.

ومن الشرق: أرمينيا وأذربيجان وإيران

ومن الجنوب: سوريا والبحر الأبيض المتوسط

ومن الغرب: أوروبا

الرحلة التركية

تركيا من البلدان التي زرتها سبع مرّات واغلبها كان عن طريق البرّ من باريس في قطار الشرق الذي يخرج من باريس فيمرّ عبر سويسرا وإيطاليا ثم يوغسلافيا فالمجر ورومانيا ثم بلغاريا ومنها إلى اسطنبول، وتستغرق الرّحلة ثلاثة أيام بلياليها فيصل الإنسان بعد طول المدة منهوكا متعبا يودّ الاستحمام والاستسلام إلى نوم عميق.

في الرحلة الأولى وأنا أجهل اللغة التركية تعبت كثيرا حتى عرفت الأماكن السياحية والآثار الإسلامية وكان شغلي الشّاغل هو زيارة متحف "توبكابي" الشهير الذي قرأت عنه عديد المرّات، وخصوصا منه الجناح الإسلامي الذي يضمّ آثار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآثار الخلفاء وقد زرته عديد المرات ففي كل رحلة إلى تركيا لا بد لي من تخصيص يوم كامل لزيارة هذا المتحف العجيب والذي يقف السّواح على بابه الساعات الطويلة في طوابير عديدة للدخول إليه ومشاهدة ما يحويه من عجائب وغرائب.

والذي يهمني أكثر في الجناح الإسلامي هو الآثار والمخلّفات النّبوية على صاحبها افضل الصلاة وأزكى السلام وعلى آله.

ففي المتحف هناك رباعيّة الرسول التي انكسرت في غزوة أحد، وهناك بعض من شعرات لحيته الشريفة، وهناك نعله التي كان يمشي بها، وقميصه الذي كان يرتديه، وعصاه التي كان يصعد بها المنبر، والصندوق الذي كان يحوي أدباشه وخاتمه التي كان يوقّع بها، كما أن هناك بعض رسائله التي بعث بها إلى الملوك وأباطرة زمانه.

كما أن هناك باب بيت الله الحرام و مفتاح الكعبة الشريفة والميزاب الخشبي الذي يسمّى ميزاب الرحمة. أضف إلى كل ذلك سيوف الخلفاء "الراشدين" وسيف خالد بن الوليد وكذلك المصحف الذي كتبه عثمان يقال بخط يده وعليه آثار من دمائه، ويقال: إنه لما ذبح كان يقرأ في ذلك المصحف.

ويبدو أن الأتراك متمثلون في الدولة العثمانية والذين حكموا ثلاثة أرباع الكرة الأرضية احتكروا كل الآثار الإسلامية لأنفسهم فجمعوها أينما كانت أن صحّ وثبتت هوية تلك الآثار كما هو مذكور.

ولكن أين الأمويون وأين العباسيّون وأين العثمانيون كلّهم اصبحوا اليوم في خبر كان، ولم يعد لهم شيء يذكر إلا في المتاحف والآثار. قال سبحانه وتعالى:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ النمل 69.

عرفت في اسطنبول مسجد السلطان أحمد وكنيسة آيا صوفيا التي انقلبت إلى مسجد بعد الفتح الإسلامي وادخل عليها الفن المعماري الإسلامي ليضيف إليها القباب والمآذن ويبقي على بعض جوانب الآثار المسيحية تماما كما هو موجود في الجامع الأموي بدمشق.

ولكن الأتراك كتبوا تحت كلّ قبة من قباب المساجد وفي ثمانية زوايا ثمانية أسماء يجدها الزّائر في كل جامع وفي كل مسجد وهذه الأسماء هي:

الله، محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، حسن، حسين، ولست ادري إن كان العثمانيون يؤمنون بخلافة الحسن والحسين بعد أبيهم الإمام علي بلا فصل، فهم بذلك خالفوا الشيعة والسنة معا واتخذوا لهم مذهبا خاصا بهم.

فإيمانهم بشرعية الخلافة لأبي بكر وعمر وعثمان يخالف الشيعة الذين لا يعتبرون خلافتهم شرعية وإنما غصبا. كما أن إيمانهم بخلافة الحسن والحسين بعد علي يخالف أهل السنة والجماعة الذين يقولون بشرعية خلافة معاوية وابنه يزيد ومروان وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز الخ...

وإذا كان هذا صحيحا فلماذا اتبعوا كلهم مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت وهو من أئمة السنة.

وبقيت متحيرا لا أجد لهذا اللغز حلاً وسألت عديد العلماء من الأتراك داخل المساجد وخارجها فلم يشف غليلي منهم أحد، ولم يجبني أحد منهم بما يقنع الباحثين.

وعرفت في ما بعد من كتب التاريخ الصحيحة بأن الأتراك عندما استولوا على الخلافة الإسلامية وجدوا عقبة كأداء في طريقهم وذلك أن الأئمة الثلاثة

مالك والشافعي وأحمد بن حنبل كانوا لا يجيزون الخلافة إلا للعرب القريشيين وذلك للحديث الثابت عندهم وهو قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

"لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم إلا اثنان" الذي أخرجه البخاري ومسلم في باب الإمارة.

ولكن أبا حنيفة خالف الثلاثة وعارض حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحديث عمر بن الخطاب الذي قال قبل موته:

"لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًا لولّيتُه عليكم"

وسالم ليس عربيًا فإذا كان عمر يجيز توليته على العرب فلماذا لا يجيزها أبو حنيفة الذي يشكو هو الآخر من هذه العقدة لأنه فارسي وليس بعربي.

وعندما سُئل أبو حنيفة عن الحجّة في أخذه بقول عمر بن الخطاب وترك قول الرسول (ص).

قال: لقول الرسول (ص) "عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ".

ووجد الأتراك بغيتهم في هذه الفتوى فاعتنقوا كلّهم المذهب الحنفي وسمّوا أبا حنيفة "الإمام الأعظم".

وهكذا يجمع المسلمون بين المتناقضات ويؤلّفون بين السّالب والموجب المتنافرين فطريا.

تقول لهم: قال رسول الله (ص): "لا يكون هذا الأمر إلا في قريش ما بقي منهم اثنان".

فيقولون: قال سيدنا عمر، يكون الأمر لغير العرب ولو كان أحد الموالي.

فتقول لهم: هذا ردّ على رسول الله (ص) وردّ على الله لأن الراد على رسول الله هو الرّاد على الله بلا شك.

فيقولون: ماذا نصنع؟ هكذا أمرنا رسول الله بإطاعة الخلفاء الرّاشدين في كل ما يفعلون ويقولون ويقرّرون.

وهكذا يصبح المسلمون لا تربطهم قواعد ولا يقفون عند حجة.

تقول لهم: قال الله تعالى: ﴿ **فما استمتعتم به منهنّ فأتوهنّ أجورهنّ** ﴾ النساء 24.

يقولون نعم: المتعة حللّها الله في القرآن ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرّمها بالسنّة.

تقول لهم: قال الله: ﴿ **وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ المائدة 6
يقولون نعم ولكن رسول الله غسل رجليه في الوضوء.

وإذا كان عمر بن الخطاب يعارض سنّة النّبي وأقواله في الخلافة وفي من يصلح لها وذلك بعد وفاة النبي (ص) وطمس أحاديثه ووضع الأحاديث المناقضة لها على لسان النبي نفسه، فهذا لا يدعو إلى الغرابة أبداً لأن كل فرقة من فرق المسلمين تمسّكت بأحاديث عليها أسست مذهبها ورفضت الأحاديث التي تتعارض مع معتقداتها وما ارتأته هي من أحكام قد تعارض في بعض الأحيان أحكام القرآن والسنة ولكن الغرابة كل الغرابة أن تقول لهم قال اللّه تعالى:

﴿ **الطّلاق مّرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فإن طلّقها فلا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره** ﴾ البقرة 229.

فيقولون: قال سيدنا عمر: الطلاق مرة واحدة بلفظ الثّلاث فتحرم عليه بكلمة أنت طالق إذا كررها ثلاث مرات.
تقول لهم قال الله تعالى:

﴿ **إنما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم..** ﴾. التوبة 60 .

يقولون: قال سيدنا عمر المؤلّفة قلوبهم لا حاجة لنا فيهم.

تقول لهم: قال الله تعالى في محكم تنزيله:

﴿ **ولا تجسّسوا...** ﴾ الحجرات 12.

يقولون: ولكن سيدنا عمر تجسّس ووضع الجواسيس على النّاس لمصلحة الإسلام.

كنت اذكر كل هذه الأمور في جمع من المصلّين داخل مسجد السلطان احمد، وكانوا يستمعون إلي بغير اعتراض، ولمّا وصل الحديث إلى التجسّس قاطعني أحدهم قائلا:

سامحني أنا لا أعارضك في كل ما قلته لأني ما سمعته من قبل أبداً وليس لي به علم ولكن مسألة التجسّس ثابتة في الإسلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم له عيون يعني جواسيس يأتونه بأخبار العدوّ وتحرّكاته..

قلت: نعم التجسّس بهذا المعنى جائز بل ضروري،أن ترصد تحرّكات العدو وتعرف نقاط الضعف والقوّة عنده وتعرف تخطيطه ومكره لتحبط أعماله وكيده وتنتصر عليه فهذا من فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قدّمت.

ولكنّي أنا أتكلم عن التجسّس على المسلمين ووضع العيون عليهم لرصد أفعالهم السرّية التي أمر الله بسترها، أن يتجسّس عمر نفسه على الصّحابة ويضع عليهم الجواسيس ليعرف ما يجرى داخل البيوت فهذا هو المحرّم الذي نهى الله عنه بقوله: ولا تجسسوا.

ثم لماذا أنت لم يثرك من كل كلامي إلا ظاهرة التجسّس وهي صغيرة بالنّسبة للأحكام الأخرى التي غيّرها عمر بن الخطاب قال: إذا كان ما تقوله صحيحاً، وأنا أظنّ أنه صحيح فالرجل كافر بنص الكتاب والسنّة وكلّ من يتبعه فهو كافر أيضاً.

تكلم أحدهم و قال لصاحبه: اتق الله ولا تتسرّع بالحكم على أعظم رجل عرفه التاريخ، فلولا عمر بن الخطاب ما كنا لنعرف الإسلام.

فهل تصدق هذا (مُشيرا إلي) وتُكذّب مئات الملايين من المسلمين وتكلّم رجل آخر ليقول: الدجّالون في كل عصر ومصر، قال العلماء: إذا اختلطت عليك السبل فعليك بدينك، اللهم احفظنا من الشياطين، شياطين الإنس والجن.

وتكلم ثالث فقال: يجب علينا كمسلمين أن نتعلم كيف نتقبل النقد من غيرنا ولا نكفّر من يكشف لنا عن عيوبنا، بل الواجب علينا أن نشكره، فبارك الله في من أهدى إليّ عيوبي.

والتفت إليّ قائلا: أشكرك جزيل الشكر لأنك كنت صريحا معنا إلى أبعد الحدود ولو كان العلماء مثلك لعرف المسلمون كلّ أمراضهم وكلّ مشاكلهم، ولو عرفوا أمراضهم لوجدوا لها الدّواء الناجع، ولو عرفوا مشاكلهم لوجدوا لها الحلول النّافعة.

وأعاد عبارات الشكر مرة أخرى حتى ظننت أنه من شيعة تركيا، فبادلته التحية بأحسن منها.

وخرجت من المسجد فلم يتبعني غيره، انتظرته، سلّمت عليه فقال متلطفا: يا أخي لا تعطي الحكمة لغير أهلها هؤلاء بقر وليسوا بشرا،إنهم لا يفقهون حديثا.

وسألته من أين هو: قال: أنا أجدادي من سوريا وأنا من تركيا من سكان اسطنبول، تعلمت العلوم الدينية في تركيا والباكستان، وأتمنّى أن اكمل دراستي في سوريا أو في العراق.

قلت: ما هو المذهب الذي تنتمي إليه ؟

قال: نحن من المذهب الجعفري، ونحن أقلة في اسطنبول فرحت لهذا الخبر، وأحببت التعرُّف على الجعفريّين في تركيا واتفقنا على اللقاء غدا في المسجد بعد صلاة العصر، وأخذ مني عنوان الفندق الذي اسكن فيه.

ولكنّي لم أره من تلك اللحظة وبقيت أتحسّر لماذا لم آخذ عنوانه ولا حتى اسمه واسم عائلته.

ولم اذهب للموعد المضروب لأن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فبمجرد رجوعي إلى الفندق بعد الغذاء واستلقائي على السّرير نصف ساعة، حتى طرق الباب وفتحت وإذا برجلين يدخلان بدون إذن مني، وعرفت بسرعة أنهما من رجال الأمن التركي، فسلما علي وبدءا بتفتيش الغرفة الذي لم يستغرق أكثر من خمس دقائق، ثم دعواني للخروج معهم في سيارتهم إلى المخفر، وهناك استقبلني ضابط له شوارب كبيرة فسلّم علي، وأخذ يسألني ويحقّق معي ولمّا عرف بأني تونسي تهلّلت أساريره وبدأ يمازحني ويقول: الرئيس بورقيبة يحب تركيا ويحب كمال اتاتورك، ونحن أيضاً نحبّ تونس ونحبّ شعبها ورئيسها

بادلته نفس المشاعر فسألني عن مهنتي ووظيفتي وعــرف بــأنني أســتاذ تربية.

سألني عن شعوري وكيف وجدت تركيا؟

قلت : أنا معجب بالأتراك وأحبّ تركيا كثيرا وقد زرتها للمــرّة الخامســة لأني اشعر بأنني في تونس تماماً.

وفرح بهذا الجواب وأخذ يطمّنني ويقول: لا بدّ لك أن تحتــاط مــن أولاد الحرام واللّصوص، وإذا أردت أن نوفّر لك الحماية فنحن رهن إشارتك.

وتكلم أحد الذين صاحبوني في السيارة ليقول: ما هي علاقتــك بــالإخوان المسلمين في تركيا؟

قلت: لا أعرفهم ولا يعرفوني، لا في تركيا ولا حتىّ في تونس.

قال: فلماذا أنت تجتمع معهم في المساجد؟

قلت: إنها صدفة، صلّيت مع المصلّين، وتساءلت عن الأســماء المكتوبــة تحت كل قبة، فجرّنا الحديث للخلفاء الرّاشدين وما فعلوه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحديث ذو شجون كما تعلم.

قال: فما رأيك في تركيا؟

قلت: تركيا بلد عريق في حضارته وفي إسلامه، ونحن عندنا في تونــس عائلات كثيرة أصلها تركي واغلبها عائلات علميّة جلبت إليها احترام الناس.

قال: فما رأيك بالحكومة التركية؟

قلت: اعفني من الجواب.

قال: ولماذا ؟

قلت: لأني لا أتكلم إلا في ما أعلم ، ولو سألتني عن الأمور الدينيّة يمكــن أن أتكلّم، أما الأمور السياسيّة فليس لي فيها رأي ولا أتدّخل فيها.

قال الضابط: هل تريد منا أيّ خدمة نقدمها إليك ؟

قلت: أشكركم على حسن معاملتكم ولا أريد إلا السّلامة.

فقاموا يودعونني ويعتذرون إليّ، وأوصلوني إلى الفندق فاسترحت قليلا على السرير، وفكّرت مليّا في البقاء أو مواصلة السّفر إلى سوريا، واخترت السّفر العاجل فنهضت من وقتي وجمعت حقيبتي، وخرجت من الفندق مباشرة إلى محطة الباصات، وهناك انتظرت أربع ساعات حتى امتلأت الحافلة، وخرجنا قاصدين حلب مرورا بأنقره وأزمير، وفي الحافلة ركب بجانبي رجل سوريّ من سكان اللاذقية اسمه احمد الخير، لم يفارقني طيلة الرّحلة واستأنس كثيرا لحديثي كما استأنست لحديثه وألحّ علي في النّزول عنده باللاذقية فأخذت عنوانه ووعدته بزيّارة فجائية، ولكنّي عندما رجعت بعد عامين إلى اللاذقية وسألت عنه فقيل لي أنه التحق بالرفيق الأعلى تغمّده اللّه برحمته الواسعة وأسكنه فراديس جنانه.

الـــــرّحلـــة القـــمـــوريـــة

جزر القمور

مساحتها: **1900** كلم مربع

عدد سكانها: **2** مليون نسمة

جزر أربع عائمة في المحيط الهندي بين الموزنبيق ومدغشقر

موقعها الجغرافي: جنوب افريقيا



الرحلة القمورية

جزر القمور تتمثل في أربع جزر تقع في المحيط الهادي تحت القارة الأفريقية أغلب سكانها من العرب الحضارمة الذين نزحوا إليها من قديم الزمان وبعض الهنود وسكان الجزيرة الأصليين.

90 بالمائة من سكانها مسلمون وقد انضمت بعد الاستقلال إلى الجامعة العربية التي بعثت إليها ببعض الأساتذة لتعليم اللغة العربية .

هي من المستعمرات الفرنسية حازت على استقلال ثلاثة من الجزر وبقيت الرابعة حتى الأمر تحت الاستعمار الفرنسي.

عاصمتها موروني، وأهم منتجاتها، العطور واللبن والقهوة والقرنفل والغلال الاستوائية.

كنت في بداية الدراسة الجامعية في باريس وبعد نجاحي في ديبلوم الدراسات المعمقة التي كان موضوعها المقارنة بين الأديان الثلاثة الموحدة، سجلت لتحضير أطروحة الدكتوراه مع الأستاذ الشهير في جامعة السوربون وهو المستشرق بيارنتيّ، وكان من بين المواضيع المطروحة والتي نالت اهتمامي موضوع " المرأة المسلمة ودورها في الحياة".

ولمّا تحدّثت مع الأستاذ المذكور عن دور المرأة الذي حدده الإسلام فاجأني بأن الإسلام في جزر القمور يعطي للمرأة دور القوامة عكس ما هو مذكور في القرآن ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ قال ضاحكا، في القمور "النساء قوامات على الرجال".

قال الأستاذ لو اثبتّ ذلك في أطروحة بالأدلة العلمية الموثوقة فسيصبح لك شأن بين الباحثين لأن هذا الموضوع بكر ولم يتطرق إليه أحد.

قلت : وكيف لي أن أتكلم عن أشياء أجهلها؟

قال: تسافر إلى هناك وتبحث على عين المكان.

تعلقت همتي من ذلك اليوم بالسفر إلى جزر القمور التي اسمع عنها وكأنها موجودة على سطح القمر، اشتريت بعض الكتب الفرنسية التي تحكي عنها بالصور الملونة فزادني الشوق إليها.

علمت من وكالة الأسفار بأن الرحلة إليها تستغرق أكثر من خمس عشرة ساعة طيرانا، وأن الطائرة تتوقف مرتين في الطريق مرة في جدّة وأخرى في دار السّلام بتنزانيا لتعبئة الوقود.

وعرفت أيضاً بأن ثمن التذكرة للسّفر إلى القمور يخفّض إلى أكثر من النصف إذا حدّد يوم الذهاب ويوم الإياب على شرط أن لا يتجاوز مدة شهر واحد، فعزمت على السفر وتوكّلت على الله.

ركبنا طائرة جامبو العملاقة 747 وتعرفت على صاحبي بالجنب الذي يجلس معي فكان اليد اليمنى للقرصان الشهير "بوب دينار" وبما أن الرحلة طويلة ومملّة شرب صاحبي الويسكي حتى بان عليه السكر، وبدأت أسأله عن جزر القمور التي هي من أملاك سيّده وشريكه "بوب دينار" كما يقول.

وعرفت منه أسرارا عجيبة وغريبة وكان يحكي لي وهو فخور وقد حسب أني فرنسي لطلاقة لساني في اللغة الفرنسية ومن اغرب القصص التي رواها كيف دبّر هو وبوب دينار مؤامرة لقلب النظام الحاكم بعد الاستقلال، ولطرافتها سأحكيها ليعرف المسلمون مدى الزور والتآمر عليهم في كل بقاع الدنيا.

يقول فرنسوا: لما سافر الرئيس أحمد عبد الله إلى باريس لحضور المؤتمر الذي أقامه الرئيس الفرنسي "جيسكار داستان" للدول الفرنكفونية، قلبنا أنا ورجالي بأمر من بوب دينار النظام ونصّبنا رئيسا جديدا، وأرسلنا برقية إلى الرئيس المخلوع في باريس باسم الرئيس الجديد وهدّدناه بالموت إذا حاول الرجوع إلى القمور، وبالفعل طلب الرئيس أحمد عبد الله من الحكومة الفرنسية حق اللجوء ومنحته إياه وبقي هناك واستتبّ الأمر في القمور إلى الرئيس الجديد علي صويلح.

وفي يوم من الأيام خلال حفل زفاف ابنة الرئيس الفرنسي التقى الرئيس احمد عبدالله المخلوع بالقرصان "بوب دينار" فاخذ يلومه على ما صنع ويستفسره منه عن الدواعي لخلعه وتمكين غيره من الرئاسة فضحك بوب دينار وقال له:

لقد أعطاني الرئيس مليون دولار فسلمت له الحكم، فقال له احمد عبد الله مازحا إذا كان الأمر كذلك فأنا أعطيك ضعف ما أعطاك إن أرجعتني للحكم فقال " بوب دينار": "شيش" ومعناه اتفقنا، على شرط أن تعطيني النصف الآن والنصف الثاني بعد عودتك للرئاسة. وتم الاتفاق ودفع له الرئيس المخلوع نصف المبلغ، ورجع بوب دينار إلى شريكه فرانسوا وبدءا يخططان لخلع الرئيس الجديد الذي نصّباه منذ شهور وهو علي صويلح.

جاءوا إلى ساحل العاصمة بباخرة أرسوها هناك على أنها محمّلة بالرز والمواد الغذائية، ولما جنّ الليل أنزلوا رجالهم المدججين بالسلاح وأحاطوا بالقصر الرئاسي من كل جانب لأنه كان خالياً من كل الجنود وذلك لتدبيرهم، فقد أوعزوا إلى الرئيس أحمد عبد الله بإرسال برقيّة تهديد إلى الرئيس الحاكم وأنه قادم تحت حماية فرنسية لاحتلال جزيرة أنجوان القريبة من العاصمة موروني وفي نفس الوقت وجّهوا باخرة في اتجاه جزيرة أنجوان فوصلت الأخبار التي أثارها أنصار بوب دينار بأن قوات عسكرية تجوب المحيط في اتجاه أنجوان، وانطلت الحيلة على الرئيس المسكين الذي أخلى العاصمة من كل القوّات العسكرية وبعث بها إلى أنجوان لكي تمنع دخول الرئيس المخلوع وتقاومه.

ولما خلت العاصمة من القوّة والجنود وبقي الرئيس مع حرّاس القصر الرئاسي هجم رجال بوب دينار في الليل بقيادة فرانسوا وقتلوا أربعة منهم واستسلم الباقون دون مقاومة ودخلوا على الرئيس فكتّفوا يديه ورجليه وأخذوه إلى بيت مهجور وقبل طلوع الفجر وصل الرئيس أحمد عبد الله إلى العاصمة تحوطه قوات بوب دينار، وبدأ إطلاق النّار في كل أرجاء العاصمة مع الأضواء المهرجانية إيذانا برجوع الرئيس الحقيقي عند ذلك جاء الجنود المكلّفون بحراسة الرئيس المكتّف ففكّوا قيود رجليه ونصحوه بالهرب قبل أن يمسكه أنصار أحمد عبد الله ويعدموه، فهرب المسكين ويداه مكتّفتان ، وصاح الجنود من ورائه آمرين إياه بالوقوف ثم أطلقوا عليه النّار فقتلوه وأصبحت جزر القمور تهتف بحياة الرئيس أحمد عبد الله وكأنه عاد إليهم بعد غياب قضّاه جهاداً وعناءً في سبيل ازدهارهم وتقدّمهم. وقبض "بوب دينار" بقية المبلغ وزيادة.

وانتصر المال على المال وأصبحت الرئاسة فيها بيع وشراء والفائز بها من دفع أكثر، كما يسام كبش العيد في الأسواق فالذي يعطي أكثر لصاحب الكبش هو الذي يتمتع بأكله، والفرق هنا أن صاحب الكبش دفع ثمنه من خاصة ماله، أمّا صاحب الرئاسة فإنه دفع ثمنها من مال الكادحين والبؤساء من شعبه المغلوب على أمره فلا غرابة إذا أصبحت المسؤوليات وعلى كل المستويات تُباع وتُشترى على حساب الشعوب المقهورة لأن المستفيد الوحيد هو ذلك المسؤول. لذلك تغيّرت المفاهيم اليوم عند النّاس فقد قرأنا أن بعضهم عندما يدعى لتحمّل المسؤولية ينخلع قلبه خوفا ورهبة ويبكي أمام أمير المؤمنين لعلّه يعفيه منها.

أما اليوم فترى النّاس يتآمرون ويتناحرون ويصرفون على ذلك الأموال الطائلة ويبيعون الغالي والنّفيس من أهلهم وذويهم في سبيل الحصول على مسؤولية، لأنهم يعلمون بأنهم سيعوّضون ما أنفقوه بأضعاف مضاعفة إلى جانب استعلائهم وتحكّمهم في مصير النّاس أضف إلى كل ذلك أنهم سيصبحون كرّب العزّة والجلالة يقولون للشيء: كن فيكون، ولست مبالغاً فقد سمعتها من أحد المسؤولين كان يتكلّم في التليفون مع مسؤول آخر ويبدو أنهما كانا يتنافسان على السُلطة.

قال له: افعل كذا وكذا ولا تعبأ بأحد.

قال مخاطبه: هذا أمر مستحيل لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

فقال مغضبا: ربّك هو اللّي يكلّم فيك. أنت تنفذ كلامي فقط.

عرفت من فرنسوا أيضاً أن هناك رجلاً آخر في جزر القمور اسمه عبد الله المزوّر يطمح في الرئاسة وله أنصار من المثقفين وطلبة العلوم بالخارج.

وفهمت بأن القراصنة أمثال " بوب دينار" وأعوانه هم الذين يتحكّمون بمصير القمور، وهم يعيثون فيها فسادا فحتى البنات المسلمات يبعن أجسادهن لهؤلاء الفرنسيين مقابل بعض الدراهم المعدودة لشدّة فقرهنّ واحتياجهنّ.

وعرفت بأن أمير المؤمنين سلام الله عليه لا ينطق إلا حكمة وهو القائل: كاد الفقر أن يكون كفرا، لو كان الفقر رجلا لقاتلته.

عرفت بأن هذه الدنيا دنيئة جدّا فهي ترفع السّفلة إلى أعلى العلّيين و تنزل بالشّرفاء والفضلاء إلى أسفل السّافلين.

وهذا طبعاً لا يزيد المؤمن باللّه إلا إيمانا إذ يتعلّق ضميره وقلبه بذلك اليوم الموعود يوم الحساب وما أدراك ما يوم الحساب يوم يأخذ كل مظلوم حقّه كاملا.

وينال كل ظالم عقابه كاملا، لا ينفع مال ولا بنون ليس فيه رئيس ولا مرؤوس مسؤول ورعيّة، ليس فيه شريف ولا وضيع.

وصلت إلى مطار "موروني" العاصمة القموريّة فإذا به مطار صغير لا يسع لأكثر من طائرة واحدة تُقدم مرّة واحدة في الأسبوع وقد اعتاد بعض النّاس من المثّقفين أن يأتوا إلى المطار ليتفرّجوا على الطائرة والمسافرين النّازلين الذين يلتقون جميعا في قاعة وهم ينتظرون أن يأتي بعض الحمّالين بالشّنط والحقائب فيوزّعونها على أصحابها، هناك التقيت بشخص وجهه ليس غريباً عنّي يرقبني أينما تحرّكت، سمعته يتكلّم اللّهجة التونسيّة مع أحد زملائه.

اقترب منّي ونظر إليّ بعينيه الزرقاوين تحققّتُ أني أعرفه ولكن طال العهد فنسيته، ولم أتذكّر أين التقيت به في تونس.

سألني بعد أن سلّم عليّ الستَ من الجنوب التونسيّ؟ قلت: بلى.

قال: أظنّك من قفصة؟ قلت: بالضّبط ما شاء الله على ذاكرتك .

قال: ذكّرني بالاسم: قلت: التيجاني السّماوي.

قال: الآن تذكّرتك، ألم تكن معنا في الملتقى القومي لعمداء الشّباب عندما تجّولنا في كامل ولايات الجمهوريّة ؟

قلت: نعم، الآن ذكّرتني بنفسك، ولكنّ اسمك نسيته.

قال: أنا الهادي محجوب كنت رئيس بلديّة في مدينة مساكن.

تعانقنا وكلّ منّا يسأل الثاني، قلت: ماذا تفعل هنا؟ وقال: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وعرفت منه بأنه وبعض زملائه من تونس وعددهم عشرة انتدبوا من قبل جامعة الدول العربية للتدريس وتعليم اللّغة العربية في القمور.

قلت: أمّا أنا فجئت سائحاً وعلى حسابي لتحضير أطروحة الدكتوراه ضحك من قولي وكان صاحب نكتة ويجيب على الفور.

قال: ليش اتكب سعدها الدكتوراه ولات تتحضّر في القمور ؟

قلت: الموضوع يطول شرحه وأن شاء الله سنتحدّث فيه في وقت آخر.

قال: أين أنت نازل ؟

قلت: في الفندق، واطلب منك أنت صاحب البلد أن تدلّني على فندق نظيف ورخيص.

قال: أنت ستنزل عندي في بيتي "بلاش فنادق وريق بارد".

قلت: بارك الله فيك وأشكرك على دعوتك ولكن لا أريد الإحراج.

قال: أنا عازب الآن، زوجتي والأولاد رجعوا إلى تونس قبل شهر وبقيت وحدي في البيت، فأنت لا تحرج أحداً، أمّا إذا كنت بورجوازي وعندك فلوس وتحب الفنادق والسهريّات فأنت حرّ.

قلت: لا والله ليس لي ممّا ذكرت شيئاً، ولذلك قلت لك أريد فندقاً رخيصاً.

قال: إذا توكّل على الله وخلّصنا.

اخذ حقيبتي الصغيرة إلى سيارته وركبنا إلى البيت، واكتشفت بأنه يعيش كالملك في بيت كبير بناؤه جديد على الطراز الإفرنجي مؤثث بأفخر الأثاث والفرشات، وعنده تحت تصرفه عائلة قمّورية يخدمونه ويأتمرون بما يقول، وعندما يريد الاستحمام تقف الأسرة بكل أفرادها يضخّون له الماء من البئر لأن المضخّة يدويّة فيتعاونون بالتناوب لكي لا ينقطع الماء. يأتونه بأرقي الأسماك إلى البيت وبأحلى أنواع الفواكه مجانا فيحضّر وحده الأكل ونأكل سويّة أشهى المأكولات التونسية عرّفني على بقيّة زملائه التونسيين وأغلبهم يعيش مع أسرته، في الليل لم يدخل جفني نوم لكثرة البعوض والأصوات الغريبة التي كنت اسمعها والصيّاح المتواصل الذي تبيّن لي فيما بعد بأنه صياح فتاة سكرت بلذّة الجماع مع صديقي.

في الصّباح وقت الفطور كانت هي تحضّر الأكل فقدّمها إليّ على أنها زوجته من القمور.

قلت له: يا عزيزي أنا أستأذنك في الانصراف من البيت وسأبحث عن فندق، ألم أقل لك من الأول بأني لا أريد الإحراج.

قال: لا واللّه أنت لم تحرجني بالعكس أنا استأنستُ بوجودك.

قلت: أنت الذي أحرجتني فلم يدخل عيني نوم طيلة اللّيل، البعوض من جانب والصّياح من جانب، أنا لا أطيق ذلك.

ضحك منّي وهو يقول: البعوض نقضي عليه والصّياح نأتيك بمن تصيح تحتك، "شبيك لبيك اطلب كل شيء بجي بين يديك".

قلت: أتتكلم بهذا أمام زوجتك؟

قال: لا زوجتي ولا هم يحزنون، أنا في كل ليلة عندي زوجة.

قلت: هذا حرام يا آخي.

قال: "يزّيني بلا حرام" أمّا خير نتمتعوا فيهم إحنا مسلمين كيفهم وإلا نخلّوهم للقوره للفرنسييّن الكفّار.

قلت: هذه فلسفة لا أدخل تحت طائلها.

قال: عندي في القسم الذي أدرس فيه أكثر من عشرين فتاة ما بلغن سنَّ العشرين كلّهن ما بين **17** و**20** ما فيهم واحدة عذارء.

ضحكت قائلا: وكيف عرفت ذلك؟

قال: ليس فيهن واحدة إلا وباتت عندي.

قلت: أبهذه السّهولة ؟

قال: الفقر المدقع جعل الأب والأم يبعثان بالبنت لتمارس الجنس مع القراصنة الفرنسييّن لتأتى لهم ببعض النّقود، فماذا تتصور أنت هذه البنت التي تراها عمرها سبعة عشر عاما باتت عندي البارحة أتتصور أنها هربت من البيت، كلا إن أهلها هم الذين أرسلوها إليّ لتنام معي وهم الآن ينتظرونها لتعود إليهم ببعض النّقود.

لعن الله الفقر لأنه كفر ولكن لماذا ننكر الفقر ونلعنه وننسى الغناء لماذا نزدري بالفقير ولا نزدري بالغني؟ أنقول كما يقول الشّاعر :

حتى الكلاب إذا رأت فقيراً نبحت عليه وكشّرت أنيابها

وإذا رأت غنيا ذا اثرة حنّت إليه، وحرّكت أذنابها.

كلا فالغنى هو الآخر كافر. قال الله سبحانه و تعالى: ﴿**إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾ إذا استغنى الإنسان فإنه يطغى والطغيان كفر، ونحن نرى أيضاً أن في المجتمعات الغنّية ينتشر فيها الفساد أكثر من المجتمعات الفقيرة.

ألا تصدّقون أن المجتمعات الغنيّة الإسلامية في دول الخليج فيها فساد أكثر من بقيّة المجتمعات حتى أن اللّواط تفشّى بصفة غريبة والغلمان في كل مكان.

وفي المجتمعات الرّاقية الغنيّة يصبح الجنس يمارس بشذوذ فترى المرأة تستغني عن الرجّال بالكلاب والحيوانات وكذلك الرجل يستغني عن المرأة بالغلام، والاختراعات لا زالت متواصلة وحدّث ولا حرج.

ففي الحالتين كفر وفساد، لكن الفقيرة قد تمارس الجنس من أجل الاحتياج، أما الغنيّة فتمارس الجنس لبطرها وطغيانها. الفقيرة قد تشبع رغبتها الجنسيّة وهي مشغولة بشبع بطنها أما الغنيّة إذا شبعت بطنها فلا يشبع غريزتها بعد ذلك شيء فتخرج عن المألوف بحثا عن الشّذوذ.

دهشت عند سماعي هذا الكلام الذي كان يقوله وهي تسمع، وتبتسم وكأن الأمر أصبح عندهم طبيعيّاً جدّاً لا يشكّل أي حرج للبنت ولا لأهلها، ما دام المجتمع كلّه غارق في الرّذيلة، ولا معنى للرّذيلة عندهم فالمنكر عند بعض النّاس يصبح معروفاً عند البعض الآخر ألا ترى أن البكارة والعذارة في المجتمعات الإسلامية هي من أهم الأمور عند الزوج والزوجة معا، وبها فقط تعرف العفيفة من الخفيفة والطيّبة من الخبيثة.

لكنّها في المجتمعات الغربيّة لا يقيمون لها وزنا، بل يحكمون عليها بالتخلّف والتّوحش فقد يطلّق الرجل زوجته ويفارقها بسبب بكارتها وقد يتّهمها بشتّى أنواع التّهم. فمفهوم التّهمة عندنا غير مفهوم التّهمة عندهم، نحن نتّهم المرأة بالزّنى عند فقدانها بكارتها، وهم يتّهمونها بالتخلّف لأنها بكر لم تمارس الجنس في سنّها المبكّر.

عندنا في مجمعاتنا الضرطة من أكبر المنكرات إذا كانت على مسمع من النّاس حتى أنه يحكى في الطّرائف أن أعرابياً قتل نفسه لأنه فرطت منه ضرطة أمام محفل من النّاس سمعوه وضحكوا عليه.

أما عندهم فهي من الأمور الطبيعيّة المتعارف عليها حتى أنك تدخل في بعض المفازات فتسمع الضّراط من النّساء ولا يستنكر عليهنّ أحد، عندنا التجشؤ

بصوت عال من الأمور الطبيعيّة عندما يشبع الإنسان قد يسترجع عدّة مرّات فيحمد الله. أما عندهم فهي من المنكرات القبيحة التي لا يتحمّلونها ويحكمون على فاعلها بأنه فاقد التربية.

سبحان الله أيصبح المجتمع الإسلامي في جزر القمور يستنكر ما نعرف ويعرف ما نستنكره.

ثم لماذا الاستغراب والتعجب من أشياء بدأنا نألفها شيئاً فشيئاً حتى في مجتمعاتنا العربيّة والإسلامية فأنا اعرف والكلّ يعرف بأن الفتيات عندنا يمارسن الجنس ويحملن حبوب منع الحمل في حقائبهن وتكلّمت مرّة مع طالبة جامعيّة أدهشتني بصراحتها عندما قالت: نحن لسنا ملائكة خلقنا الله بشراً وخلق فينا شهوة الجنس والزواج بعيد قد يحدث في الثلاثين أو أكثر ونحن في سنّ مبكّرة بلغنا سنّ الحيض فهل تعتقد بأننا سنبقى طيلة هذه السنوات مكبوتات، لا لا أكذب عليك وأنا أعتقد بأن جلّ الفتيات أن لم اقل كلّهن مثلي يمارسن الجنس مع أصدقائهن وزملائهن الذين يعدونهنّ بالزواج وحتى الوعد بالزواج أصبح الآن من الأمور المستهجنة عند المثقفات.

قلت: عجيب هذا الأمر.

قالت: لماذا تتعجّب إذا كنت صريحاً فاحكي عن نفسك ماذا فعلت وأنت مراهق، فلماذا تستنكرون علينا وتستقبحون منّا ما تفعلونه أنتم الرجال ألسنا عند الله في هذا الأمر سواسية.

أفحمتني بجرأتها، فقلت: نحن ما عندنا بكارة نخاف إتلافها أما أنتن فالله خلقكن بهذه البكارة لحكمة.

قالت مستهزئة: أي بكارة أنت ما زلت تتشبّث بالبكارة، فهذه عندنا ليست مشكلة، وبإمكان أية فتاة مارست الجنس أن تعيد بكارتها لمن يتشبّث بها مثلك وذلك بأرخص ثمن.

وفهمت ماذا تعنى وتذكّرت بالفعل بأن هذه المسألة باتت مهملة ولا يتشبّث بها إلا المتخلّف مثلي أما الشباب المثقّف فأصبح هو الآخر لا يؤمن بها ولا يقيم لها وزناً.

وعاودتني الذّاكرة مرّة أخرى إلى قصّة وقعت في سنة ثمان وخمسين أي قبل أربعين سنة وكنت شابا في الخامسة عشرة. إذ دخل رجل من الحرس الوطني عريسا على زوجته ولمّا كانت العادة في ذلك العهد أن الناس لا يغادرون منزل العروسين حتى يخرج قميص الزّفاف ملّوناً بالدماء كدلالة على سلامة العروسين لكن الحرس الوطني خرج على النّاس ليقول لهم بأن العروس ليست بكراً وقامت القيامة ودارت معركة بين أهل العريس وأهل العروس لم يفكّها إلا تدخل الشرطة.

ووصل الخبر إلى رئيس الجمهورية الذي خطب في النّاس خطابا وصف فيه المتشبّثين بالبكارة بأنهم وحوش متخلّفون، وهدّد الرئيس بقطع رأس من يثير مسألة البكارة في المستقبل، وقال بأنها عادات جاهلية،ويقال: بأن الحرس الوطني أودع في السجن وأصبحت هذه المسالة بعد خطاب الرئيس حديث الجميع.

ذكّرتني هذه الطالبة الجامعيّة بأحداث مرّت منذ أربعين عاماً لم تكن هي موجودة قطعاً، ولكن فكرة الرئيس أطال الله عمره وصلت إلى الأجيال جيلا بعد جيل وأصبحت اليوم عندنا عاديّة متعارف عليها لا ينكرها الآن جاهل أو متخلّف. وهذا الأخير يمكن غشّه بعمليّة بسيطة لا تتطلّب إلاّ عقدة واحدة داخل الفرج ولا تستغرق أكثر من خمس دقائق ثم إن الفتاة عندنا أصبحت تتفلسف فتقول بكل حرّية:

ماذا أصنع بهذا الفرج الذي خلقه الله للجماع أتريدون أن أخزن فيه الزّيت؟.

كل هذه الخواطر مرّت بعجالة وأنا أنظر إلى تلك الفتاة الجميلة التي أزعجني صياحها البارحة وتصوّرت بأنها تدّربت على ذلك من صغرها على أيدي القراصنة الفرنسيين الذين امتلأت القمور بهم في كل مكان فهم حتى في جماعهم يمارسون الجنس كالحيوانات.

ولكن بصراحة ماذا أصنع أنا في بلاد الغربة وليست معي زوجتي وأنا بشر ضعيف أليس من حقي أن أعطي لنفسي حقّها، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم " لنفسك عليك حق " إذاً ما المانع وكل الظروف مؤاتية وسأشعر بالسّكينة والاطمئنان إذا كانت معي فتاة ألاعبها وتلاعبني، ولكن ليس من طريق

الحرام ما دام أن هناك حلالا طيّبا وهذه فرصة للمتعة التي حلّلها الإسلام، أحيا الله من أحياها وأمات الله من أماتها.

قلت لصديقي: إذا كان الأمر سهلاً ميسوراً كما تقول فأنا أقبل بالزواج المؤقت.

قال: ماذا تعني ؟

قلت: زواج المتعة أعني.

قال: يزّيني، أنت تولّي شيعي، لا يحلّ ذلك إلا الشّيعة.

قلت: نعم أنا بالفعل شيعي، تكلمت معه بصراحة لأنه مثقّف ويعرف كثيرا عن الإسلام.

قال: ماذا يهمّني أنا إن كنت شيعيّاً المهم بالنسبة إليّ أن آتيك بمن تريد من الطّالبات، وأنت تتزوج أو تزني فهذا شأنك!.

أخذني معه إلى المعهد بعد الظّهيرة وأدخلني معه إلى الفصل فرأيت في الفصل الطّلبة وأكثرهم فتيات وقاموا جميعاً لتحيّتي، أجلسني في آخر مقعد وهمس في أذني: اختر من تريد منهنّ سوف أخرج لك كل الفتيات حتى ترى أجسامهنّ، ووجوههن.

بدأ يستخرج الفتيات الواحدة تلو الأخرى إلى السبّورة كي تكتب جملة مفيدة

واخترت من بينهنّ فتاة طويلة شعرها يتدلّى ويغطّي ظهرها، وأشرت إليه فكلّمها قبل الخروج قائلا: أنت تعرفي بيتي.

قالت: نعم قال: سأنتظرك العشيّة، لا تتأخّري، تبسّمت وكأنها فازت بالسّباق.

جاءت قبل الغروب إلى البيت وقد تجملّت وسرّحت شعرها، دخلت مع الفتاة التي باتت البارحة في البيت فازدادت حسناً وجمالاً.

جلسنا على الطّاولة، قدّمني إليها صديقي وقال: ستنامين معه الليلة فلم تبد أي اعتراض بل ضحكت.

قلت لها: أنا لا أقبل بك إلا كزوجة حقيقيّة فإذا أردت أن تتزوجيني على سنّة الله ورسوله فسأكون سعيداً بذلك.

وطارت المسكينة فرحاً، فقلت: الزواج الذي أدعوك إليه هو زواج منقطع، زواج يدوم مدّة إقامتي في القمور.

قالت: أنا قبلت بكل ما تريد أنت: أتزوّجك حتى لليلة واحدة ولمّا فهمت بأنها لا تقصد بالزواج غير النكاح والجماع،أفهمتها بأن هذا الزواج يتطلّب عقداً ومهراً وتعيين المدّة وبعض الشروط الأخرى، ولمّا علّمتها صيغة العقد وأريتها بطاقة السّفر وتاريخ العودة، قالت: أزوّجك نفسي لمدّة إقامتك في القمور بمهر قدره مائة فرنك فرنسي، وفهمت بأن المسكينة هي ضحيّة الفقر المدقع لأن تكلفة الليلة لم تتجاوز ثمان فرنكات أي دولاراً واحداً في ذلك الوقت.

رقّني حالها و قلت لها ممازحاً هذا مبلغ كبير.

قالت على الفور: إذا خمسين فقط.

قلت في نفسي: لقد وفّر عليّ صديقي مصاريف الفندق والمطعم التي حسبت لها مبلغاً يفوق ألفي فرنك فرنسي، لماذا لا أعطيها هذا المبلغ وأكون بذلك قد ساهمت في إنقاذها وإنقاذ أسرتها لعدّة شهور والله سبحانه من وراء القصد.

قلت لها: عندي شروط إذا قبلت بها أنا أعطيك ألفي فرنك فرنسي.

فتحت عيناها الواسعتان ونظرت إلى صديقي وكأنها تقول له: أجئتني بمجنون.

قال لي صديقي: أتدري كم تحوّل الألف فرنك فرنسي إلى العملة المحليّة أنها تحوّل إلى خمسين ضعف يعني ألفين تصبح مائة ألف بعملتهم ومائة ألف تكفي عائلة لمدّة سنة كاملة. فإذا أعطيتها هذا المبلغ فإنك تكون أنقذت عائلتها كلّها وهذا بالنسبة إليهم حلم من الأحلام، وأنا أشكرك على هذه المساعدة، ازداد قلبي سرورا واطمئنانا لهذا الزواج قلت لها: إذا قبلت الزواج منّي، فلابدّ من احترامي مدّة إقامتي فلا تغادري البيت إلا إلى المدرسة.

قالت: لا بدّ من زيارة أهلي وأنا أتشرف أن تكون بصحبتي لزيارتهم والتعرّف عليهم.

قلت: قبلت هذا وعندي شرط آخر، وهو أن تمتنعي من الحمل، قالت: معي حبوب المنع في حقيبتي، قلت: وبعد مغادرتي إيّاك لا بدّ لك من العدّة وهي حيضتان قبل أن تتزوجي غيري.

قالت: قبلت بكل ذلك. وعقدنا العقد بحضور صديقي الأستاذ وبتّ ليلتي الثانية وأنا عريس، أحمد الله على نعمه التي أنعم بها علينا ولكنّنا غير شاكرين.

تعرّفت على أهلها فرأيت رجلا طاعنا في السنّ يزيد على الثمانين وله زوجتان صغيرتان لا زالتا في الأربعين وله أكثر من عشرة أولاد وما عرفت أمّ زوجتي من ضرّتها، فرحوا بيّ كثيرا واستضافوني عندهم مرّتين وعشت أسبوعين من أحلى أيام حياتي.

خلال إقامتي في القمور تعرّفت على السيد محمد عبد الرحمان مفتي الجمهورية وقاضي القضاة واسمه عبد القادر جيلاني، ولمّا جلست معهما وعرّفاني على أنفسهما وأنهما من السّادة الأشراف والسّلالة النبويّة الطاهرة فاتحتهم في موضوع السنّة والشّيعة وعرّفتهم حقائق الأمور.

قال مفتي الجمهورية: إن إمامنا الشّافعي يقول في مدح أهل البيت:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم الشأن أنكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

قلت: هذه هي التّناقضات التي فرضتها عليكم السيّاسة الأموية ومن بعدها السيّاسة العباسية، وإلا كيف يعقل أن تكونوا من السّلالة العلويّة الطّاهرة وتقولوا إمامنا الشّافعي؟

إن إمامكم وإمام كل المسلمين هو أمير المؤمنين وسيّد الوصيين إمام المتّقين وقائد الغرّ المحجّلين قاتل الكافرين والمشركين وناصر المحرومين والمظلومين أسد الله الغالب علي بن أبي طالب هو الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله إماما في حياته ولم يعط هذا الوسام لغيره من الصّحابة قال: واللّه هذا حقّ.

تكلّم قاضي القضاة ليقول: نعم وحتى الإمام الشّافعي هو أيضاً من السّلالة الطّاهرة.

قلت: هذا ادّعاء ليس له دليل وعلى فرض أنه من السّلالة الطّاهرة فهذا لا يعطيه شرعيّة الإمامة، وعلى فرض أنه إمام كما يسمّونه فهل يجوز لكم أن

تتركوا الأصل وتتشبّثوا بالفرع، فأنتم هذا ما فعلتم تركتم اتباع الإمام علي واتّبعتم الشّافعي.

والزمخشري يقول:

كثر الشّك والاختلاف وكل يدّعي أنه الصّراط السّوي

فتمسكت بلا إله إلا الله وحبي لمحمّد وعليّ

فاز كلب بحب أصحاب كهف فكيف أشقى بحب آل النّبي

فشهق مفتي الجمهورية باكياً وقال لي: أعدها، أعدها رحم الله والديك فأعدتها مرّة ثانية فطلب منّي إعادتها مرّة ثالثة وأخرج من جيبه قلما وكنّشا صغيراً وكتبها وهو يردّد ما شاء الله ما شاء الله.

اطمأن قلبه إليّ كثيرا واستأنس بحديثي وكذلك قاضي القضاة وقالوا: الحمد للّه الذي أرسلك إلينا فقد أرجعت إلينا اعتبارنا فلقد كان لنا عند النّاس عامّة احترام وتقدير فكانوا كلّما مررنا على جماعة يقومون إلينا ويقبّلون أيدينا، ولكن في السّنوات الأخيرة عندما جاء للجزيرة مدّرسون من السّعوديّة أثاروا علينا شبابنا الذين يدرّسونهم، فقالوا لهم بأن هذا الاحترام والتبجيل وتقبيل الأيدي هو شرك بالله ولا يجوز في الإسلام أبداً، فأثّروا فيهم فأصبحوا يزدرون بنا ولايقيمون لنا وزنا،ونشأ بيننا وبين أولادنا قطيعة لا يعلم آثارها ونتائجها إلا الله.

تعوّدت كل يوم المرور بساحتهم والجلوس معهم بعض الوقت والتحدّث إليهم في فضائل أمير المؤمنين سلام الله عليه وما خصّه الله به من مزايا تؤهّله لقيادة الأمة بعد النّبي صلى الله عليه وآله، فكانوا يتجاوبون معي ولا يبدون أيّ اعتراض.

وفي اليوم السّادس وجدتهم في انتظاري و قد لبسوا لباساً خاصّاً وأعلموني بأنهم سيذهبون لتدشين مسجد جديد في المدينة وألحّوا عليّ أن أكون معهم.

ولمّا وصلنا إلى المسجد كان جمع غفير من النّاس ينتظروننا فلمّا دخلنا وجلس النّاس كلّهم، قدمني السيّد مفتي الجمهوريّة إلى الحاضرين وكان أغلبهم من المثقّفين والأساتذة والطّلبة، ورجاني أن القي فيهم كلمة عوضا عنه.

ألقيت كلمة ما أهملت فيها تعظيم شعائر الله وما أعدّه سبحانه لمن بنى المساجد وعمل على عمارتها، وركّزت بعدها على أهل البيت واصطفاء الله إياهم وتطهيرهم وخصّهم بالعلم الظّاهري والباطنيّ ليكونوا أئمة الهدى ومصابيح الدّجى بعد جدّهم رسول الله (ص) ولكن النّاس عن ذلك غافلون قد ضيّعوا أمانة الله وعهده وركضوا وراء سراب لا طائل من ورائه.

وبعد الكلمة جاء الناس يقبّلونني ويتعرّفون عليّ ومن بينهم أستاذ عرفت بأنه وهابي قادم من السّعودية، فهو الوحيد الذي لم يعجبه كلامي فجاء يقول: لقد بالغت كثيرا يا شيخ. دعاني للضيافة فقلت: سبقك بها السيّد مفتي الجمهوريّة، قال: غدا، قلت: أنا في بيت سي الهادي محجوب.

قال: هو زميلي وصديقي سآتيك عنده ونتحدّث.

وجاء موعد اللّقاء في بيت الأخ الهادي الذي أعدّ الأكل للمدعوين وهم كل التونسييّن الذين يدرّسون في القمور وأعدّ للجلسة العلميّة ما تستحقّه من أجواء.

وكانت تلك المناظرة التي ذكرتها في كتابي "كل الحلول" والتي تناولت موضوع التوسّل والوساطة، والتي انتصرت فيها أمام الحاضرين بالأدلة من القرآن والسنّة حتى اعترف الوهابي بجواز الوسيلة وأنها تجوز، وللمسلم أن يتوسّل بالأحياء لا بالأموات فمن أراد التفصيل فليرجع لكتابي المذكور.

وفرح السيد مفتي الجمهورية ورفيقه قاضي القضاة لمّا علموا بما دار بيني وبين السّعودي وقالوا: يا ليتنا كنّا معكم وذهب بعض التونسييّن إلى السيّد مفتي الجمهوريّة يسألونه عن زواج المتعة، لأنهم اختلفوا فيما بينهم لمّا علموا بما فعلته مع الفتاة القمورية فبعضهم استحسنه وبعضهم حرّمه، وسألهم مفتي الجمهورية عن سبب اهتمامهم بهذا الزواج، فقالوا: لأن صاحبك التّيجاني فعله هنا في القمور.

فقال: التّيجاني لا يفعل إلا ما هو حلال لأنه لا يتّبع إلا أهل البيت، وأهل البيت لا يحرّمون إلا ما حرّم الله ولا يحلّلون إلا ما أحلّه الله، نعم قال لهم: وأنا اشكر التّيجاني كثيراً لأنه عقدَ عقْد نكاح شرعيّ ولو لفترة وجيزة سيقيمها عندنا في القمور، أمّا أنتم فتتعاطون الزّنى منذ سنوات.

نقل إليّ هذه الأخبار أحد الأساتذة التونسيّين و كان معجباً بي أشدّ الإعجاب: قال: إذا كان مفتي الجمهوريّة يعترف بعلمك ويقدّمك على نفسه، فأنا اعتبرني من تلامذتك ومن أتباعك.

وبالفعل استبصر الأستاذ خلال يومين فقط، وأصبح يأتيني بالتلاميذ والطّلبة الذين يدرّسهم ونجلس في بيته وتجلس معنا زوجته الأجنبية التي هي من مدغشقر، ويستمعون كلّهم إليّ ويسألوني مستفسرين ومعترضين في بعض الأحيان، وكان المجلس يجمع اغلب الأوقات أربعين أو خمسين طالبا، وقد بدأناه بستّة أو سبعة طلاب وبدأ الطّلاب يجلبون بعضهم حتى استبصر خلال إقامتي هناك أكثر من ستّين منهم، وقد سجّلت لهم تسجيلا مسموعاً استمع إليه من وقت لآخر ليذكّرني بالقمور وبأحبابي في القمور.

اتّصلت خلال إقامتي أيضاً بالسيّد عبد الله المزوّر الذي حدّثني عنه فرانسوا في الطائرة، وأجريت معه حواراً صريحاً اكتشفت من خلاله بأنه من المثقّفين الذين يكرهون الاستعمار الفرنسي ويعملون على تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية ولكن إسلامه فيه مسحة وهابية، وأعتقد بأن الوهابية لها دور في إعداده للمستقبل.

وجاء يوم العودة إلى باريس وقفت في المطار لأرى جموعاً غفيرة من النّاس يقفون لتوديعي يتقدّمهم مفتي الجمهورية وقاضي القضاة وعدّة شخصيّات أخرى من "الخوجة" وكل الطّلبة المستبصرين وكذلك بعض الأساتذة.

قضيت أكثر من نصف ساعة في معانقة وتقبيل المودّعين، صعدت للطائرة وعيناي محمرّة من البكاء، حمدت الله سبحانه على رعايته فقد دخلت القمور ولا أحد من النّاس استقبلني وها أنا أغادرها ومئات من النّاس يقفون لتوديعي وقد تحمّلوا أتعاب التنقّل من منازلهم إلى المطار الذي يبعد عن المدينة مسافة غير قريبة، اللّهم لك الحمد والشّكر على ما أوليتني به من النّعم.

جلست في مقعدي أفكر في القلوب التي أحبّتني وهفت بإرشادي لأهل البيت عليهم السّلام فأصبحت تتفانى في موالاة العترة الطّاهرة وقلت في نفسي: أين أنا من الأطروحة والدكتوراه، وكلّها بهارج دنيويّة لا تسمن ولا تغني من جوع، أردت الدنيا وأراد الله الآخرة.

أقلعت الطائرة وأنا أنظر من خلال النّافذة البلّورية إلى النّاس يلوّحون بأيديهم وتلاشت أشباحهم في لحظات.

الحمد لله كثيراً بالأمس ودّعت زوجتي القمورية بكت لفراقي وأبكتني معها وأفهمتها أنها سنّة الله في خلقه وأن الدنيا مصيرها الفراق والآخرة هي دار التّلاقي، والمهم أننا تعاشرنا وتحاببنا في طاعة الله ورسوله، قرأت عليها قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ **يا أيها النّاس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** ﴾ الحجرات 13 .

فانظري من أنت ومن أنا من أي قبيلة أنت ومن أي قبيلة أنا، من الشّعب التونسي أنا ومن الشّعب القموري أنت ولكنّ الله سبحانه جمعنا وتعارفنا معرفة طاهرة شريفة، وكان بإمكاننا أن نتعارف معرفة نجسة ودنيويّة، هناك فرق بين النّكاح والسّفاح وبين الزواج والزّنى. ولذلك قال سبحانه في ذيل الآية: ﴿**أن أكرمكم عند الله اتقاكم** ﴾ فنحن مكرّمون عند الله لأننا تعارفنا على ما حلّل الله فأرضينا الرحمان وقد جئت في الأول وأنت عاصية للرحمان يقود قدميك الشّيطان، فلا لوم عليك إذ كنت ضحيّة الجهل وضحيّة المجتمع الفاسد والآن علّمتك الفضيلة، علّمتك كيف تشبعي شهوتك بالحلال الطيّب علمّتك تعاليم الرّسول وأهل البيت، فما عليك إلا مواصلة الطّريق ولو عثرت وسقطت فانهضي دائما ولا تستسلمي وتوكّلي على الله فمن توكّل عليه كفاه، إنه حنّان منّان رحيم رحمان يحبّ عباده ويقبل توبتهم ويعفو عن ذنوبهم.

بكت المسكينة كثيرا حتى ظننت أني طهّرتها نفسيّا من الآثام التي كانت تُثقل ظهرها.

نهضت من فراشها واستأذنتني في الخروج إلى بيت أهلها لتنام معهم قائلة: لأني لا أتحمل كيف سأودّعك في الصّباح عندما تذهب إلى المطار، قبلت اقتراحها شاكرا لها عواطفها ودّعتني وهي تقول: تعلّمت منك الحبّ الطّاهر وقد كنت اسمع عنه ولا أفهم معناه، كما عرفت أن في الرجال ملائكة وليس كلّهم شياطين.

ودّعتها وخرجت ولاحقتها ببصري حتى اختفت في الظّلام الدّامس رجعت إلى فراشي أجهشت بالبكاء الذي كنت أكتمه بحضورها سبحانك اللّهم وبحمدك جلّت حكمتك فلولا الصّبر والنسيان الذي خلقته لتفجّرت القلوب كما تتفجّر القنابل، فكم من حبيب فقد حبيبه من أب وامّ وابن وأخ وصديق وعشيق وتفتّت كبده واحترق قلبه ولكنّه بعد فترة وجيزة يصبر وينسى فيعود للأكل والشرب والضّحك والسّلوى.

تقدّم إليّ شخص مرموق بلباس أنيق وصافحني وهو يقول: أنا مستشار الرئيس أحمد عبد الله ورئيس وزرائه، وقفت له احتراما وكان وراءه شخصان يتولّيان حراسته، أعطاني بطاقته الشخصيّة لكي يطمئن له قلبي، طلب منّي التحوّل إلى مكانه في الدّرجة الأولى، صاحبته، فأعلمني بأنه مكلّف من الرئيس بمهمّة سيزور خلالها العراق وإيران محاولا وضع حدّ للحرب القائمة بينهما منذ خمس سنوات .

وقال لي: بأن الرئيس سمع عنك وهو يتمنّى لقاءك ولكن فوجئت بسفرك اليوم.

سألني عن القمور وما هو رأيي: قلت إن الواقع الذي كنت أسمعه عن المرأة في القمور بدا حقيقة فالمرأة عندكم هي القوّامة، وقد رأيتها بعينيّ فهي التي تبيع في الأسواق وهي التي تبني البيت وتقوم بكل تجهيزه وضحك السيد رئيس الوزراء قائلا: صحيح ولكن تعالى عندنا في المرّة القادمة لنعرّفك على ما هو أهمّ من ذلك.

الرحلـــــــة العـــاجـية

ساحل العاج

مساحتها: 322.000 كلم مربّع

عدد سكانها: 13 مليون نسمة

موقعها الجغرافي: غرب أفريقيا

عاصمتها: أبيدجان

حدودها شرقا: غانا

وغربا: غينيا وليبيريا

وشمالا: بوركينافاسو ومالي

وجنوبا: المحيط الاطلنطي

الرحلة العاجية

اتصل بيّ أبو علي عباس جواد في مكتبة أهل البيت بباريس وسلّم إليَّ رسالة مطوّلة بعث بها إليه الشيخ جعفر الصائغ الذي يقيم في مدينة " أبيدجان " عاصمة ساحل العاج والذي يدير المركز الإسلامي العربيّ الافريقي هناك وقرأت الرّسالة وفهمت مقصود الشيخ الذي يطلبُ من الأخ عباس جواد أن يتّصل بي ويهنّئني على كتاب "ثم اهتديت" وهو يتمنّى أن يراني ويقول: لو ترجم هذا الكتاب إلى اللّغة الفرنسيّة لكان له أثراً عظيم في كل دول أفريقيا الفرنكفونية لأن ملايين المسلمين يتكلّمون الفرنسية في افريقيا ويحسنون قراءتها وهو يطمع أن يفتح هذا الكتاب عقول المفكّرين على حقيقة أهل البيت الأطهار عليهم السّلام.

وبإعانة الأخ عباس جواد والسيّد إبراهيم رزوقي أبوغدير تمّ طبع كتاب "ثم اهتديت" باللّغة الفرنسيّة بعدما قمت أنا شخصيّا بترجمته، وأرسلت كميّة من النسخ إلى افريقيا.

والتقيت في يوم من الأيام بالشيخ جعفر الصائغ عند الأخ عباس جواد في باريس وعرفته من قريب وأنست بحديثه وأعجبت بشجاعته ونشاطه رغم سنه المتقدّم.

ودارت الأيام ورجعت إلى وطني إلى تونس الحبيبة وجاءتني دعوة من المركز الإسلامي العربي الأفريقي الذي يديره الأخ إبراهيم عبد الرضا لحضور ذكرى مرور سنة على وفاة الشيخ جعغر الصّائغ عليه رحمة الله وقد مات شهيدا ونقل جثمانه إلى لبنان حيث دفن هناك تغمّده الله برحمته وأسكنه فراديس الجنان، فكم كنت أتشوّق لزيارته في ساحل العاج.

وأحسست بقوّة قاهرة تشدّني للمشاركة في ذكرى وفاته الأولى علّني أعوض في وفاته ما لم أتمكن من تقديمه في حياته، فلبيّت الدعوة مسرعا بدون تردد.

ونزلت في مطار العاصمة العاجية "أبيدجان" وهناك فوجئت بالاستقبال الشعبيّ الذي أعدّه الأخ ابراهيم عبد الرّضا الذي عرفته لأول مرّة فطبع في قلبي نقوشا خالدة ستبقى مابقيت حياتي ولا أظنّ أني ناسيها بعد وفاتي.

وكانت أيّاما خالدة عشتها مع الجالية اللبنانية في المركز الإسلامي العربي الافريقي ألقيت العديد من المحاضرات التي حضرها المسلمون والمسيحيون ودارت بيني وبينهم المناقشات العديدة وخصوصا مع المسلمين السّود الذين تأثّروا بالوهابية.

ورتّب الأخ ابراهيم عبد الرضا لقاءً علميّا مع مفتي الجمهورية لساحل العاج السيد الجليل التّيجاني أنياه الذي تلقّى علومه عندنا في جامعة الزيتونة بتونس.

وكان اللّقاء ودّيا للغاية لأن السيّد مفتي الجمهورية متفتّح واسع المعرفة يميل لأهل البيت عليهم السّلام.

وكان الاتّفاق بيننا أن جمعنا آلاف المصلّين في مسجده الكبير وألقي فيهم محاضرة تاريخيّة أنصف فيها الشّيعة وأعطى كل ذي حقّ حقّه بدون إجحاف ناهجا المنهج السّليم الذي يكره الغلوّ ويحبّ الاعتدال، وبعد انتهائه من المحاضرة قدّمني إلى الحاضرين وأحالهم عليّ لأجيبهم على كلّ تساؤلاتهم بمنتهى الصّراحة وبدون تقيّة وفي تلك المناسبة اقتنع الكثير من المستمعين بأحقيّة أهل البيت ومن تشيّع لهم ووالاهم واهتدى بهديهم وركب سفينتهم.

ورتّب الأخ ابراهيم عبد الرضا مدير المركز الإسلامي رحلات داخليّة ولكنّها بعيدة إلى حدود مالي ونيجيريا وصلنا إلى مدينة " كوروقو" وهناك كانت الاستقبالات الشّعبية الرّائعة التي عبأت النّساء والرّجال والأطفال الذين خرجوا كلّهم بلباس أبيض جديد ينشدون الأناشيد ويردّدون الهتافات.

كملت رحلاتنا الدّاخلية بسهرة دينيّة نظّمتها مؤسّسة السيدة خديجة الكبرى التي تجمع نخبة من النّساء المثقّفات داخل ساحل العاج، واجتمعت بالمناسبة أكبر عدد من النّساء وطلبن منّي أن أكون الأب الرّوحي للمؤسّسة فقبلت شاكراً لهنّ هذه الالتفاتة اللّطيفة.

كما أن الأخ ابراهيم أعلم وكالات الأنباء المحليّة بوجودي وحثّهم على الاستفادة من حضوري، فكان لا يمرّ يوم إلا واستقبلت في محلّ إقامتي رجلين أو ثلاثة من رجال الصّحافة الناطقة بالفرنسية. وكتب جلّهم بعض المقالات التي أدليت بها والتي تعرّف بالوجه الحقيقيّ للإسلام والطّروحات التي يضعها لحلّ مشاكل النّاس الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسيّاسية.

وأعلمني الأخ ابراهيم بأن الإذاعة والتلفزيون خصّصوا لي مقابلة ليوم الخميس في برنامج إسلامي يحمل عنوان "الله أكبر" الذي يذاع ويبثّ في التلفزيون يوم الجمعة.

وتعريفاً بالإسلام الذي يماشي كل العصور ويواكب كل الحضارات ويتبنّى كل العلوم وينفتح على كل الثّقافات فإنّني فاجأت المشاهدين وأريتهم لباسي المختلط من عدّة أقطار فكانت جبّتي تونسيّة وكان القميص أوروبيّ والسروال بربري وكانت ربطة العنق أمريكية والحذاء إيطالي وكان على رأسي قلنسوة أندونيسيّة

وقلت لباسي يعطيكم صورة صادقة وحقيقيّة عن ديننا المتفتّح ليشمل البشريّة وكل الألوان والأجناس وأجبت على كل الأسئلة التي وجّهت إليّ. فكان لتلك المقابلة صدى كبيرا في كل جمهورية ساحل العاج، وعرّفني أكثر بالنّاس هناك من خلال الإذاعة والتلفزة والصّحافة اليوميّة حتى أن شرطة المرور إذا استوقفونا يقول لهم الأخ ابراهيم إلا تعرفون ضيفنا السيد التيجاني؟

فيطلّون داخل السيارة ويسلّمون عليّ قائلين: نحن نعرفه و يتركوا سبيلنا بدون تفتيش.

ومن خلال الإذاعة والتلفزيون والصحافة اليومية وجّهت إليّ دعوات من سفارتنا التونسيّة في أبيدجان وكذلك من سفارة لبنان، وأقيمت على شرفي بعض الضيافات التي حضرها العديد من الشخصيّات.

كان الشّهر شهر رمضان نقيم في كل ليلة سهرة دينيّة داخل الحسينيّة يبدؤها الشيخ المولوي بقراءة العزاء الحسيني الذي يستغرق نصف ساعة ثم أختمها أنا بمحاضرة علمية يعقبها نقاش في شتّى المواضيع.

وكان من بين الحاضرين الذين يأتون للاستماع إليّ بعض المسؤولين من الحكومة العاجيّة والذين لا يتكلمّون إلا الفرنسية فكنت مجبوراً على ترجمة المحاضرة بنفسي حتى يفهموا ما أقول، لذلك كان الوقت يضيق على بعضهم فيخرجون معتذرين لشدّة الحرارة التي كانت تقلقنا جميعا فالقاعة غير مكيّفة والحضور كثير

ويتحرّج الأخ ابراهيم متأسفاً لمغادرة بعضهم مجلسنا قبل انتهائه ولكن ابن عمّه الدكتور علي تقدّم باقتراح قال فيه أمام كل الحاضرين:

نحن نأتي في كل ليلة للاستماع للدكتور التّيجاني في محاضراته العلميّة المفيدة، ونغتنم فرصة وجوده بيننا فهي فرصة ذهبيّة لا يجب علينا أن نضيّعها لأننا لا نراه في كل عام، بينما المجالس الحسينيّة التي تأخذ من وقتنا في كل ليلة ساعة تقريبا نعرفها وحفظناها من كثرة ترديدها، وهذا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، والقرآن يدعونا للعلم، فلماذا نقضي الوقت في البكاء واللّطم وبيننا ضيوف من الحكومة يأتون إلينا ليتعرّفوا على الإسلام من خلال أطروحات الدكتور التّيجاني.

فإذا كان لا بدّ منها يعني التعزية فاجعلوها بعد المحاضرة للذين يريدون البقاء لآخر الوقت.

وكان لكلمته صدى وتأثيراً خصوصا عند المثقّفين وما أكثرهم هناك، فأنا أعتقد بأن تسعين بالمائة من المواظبين على الحضور مثقّفون ومتعلّمون لأن نصف الحضور هم من الطّلبة الجامعييّن في ساحل العاج.

واتّخذ الأخ ابراهيم عبد الرضا مدير المركز الإسلامي قرارا بتقديم المحاضرة على التعزية وهكذا تواصلت المحاضرات.

في كل ليلة يعقبها نقاش وأسئلة فاستبصر خلق كثير من الطّلبة السّود الذين يمتازون بصفاء الذهن والذّكاء المفرط في أكثر الأحيان، وإذا كان الإنسان غير متعصّب وليست عنده خلفيّات ضدّ الشّيعة فإنه سرعان ما يدرك الحقيقة من اقرب طرقها والذي أعانني على ذلك هو اتقاني اللّغة الفرنسيّة وعرفت حينئذ أني

لو تكلّمت اللّغة الإنكليزية بطلاقة كالفرنسيّة لأحدثت تحوّلا كبيرا في الولايات المتّحدة الأمريكية.

واحتفلنا بليلة القدر المباركة في الجامع الكبير بصحبة الشيخ التّيجاني أنياه مفتي الجمهورية ولست مبالغا إذا قلت بأن عدد المصلّين والذاكرين يفوق المليون إذ أن الشّوارع اكتظّت والسّاحات الكبرى تعبأت وكل المساجد امتلأت بالنّساء والرّجال والأطفال الذين تعوّدوا السّهر في تلك الليلة المباركة حتى مطلع الفجر، ورأيت في ساحل العاج ما لم أره في البلاد الإسلامية.

وفاجأني في تلك الليلة الأخ ابراهيم عبد الرضا مدير المركز بطلب جديد حيّرني وتركني مشغولا طوال اللّيلة بالتفكير.

قال لي بأنه عازم على دعوة رئيس الجمهوريّة وأعضاء الحكومة لحضور حفل اختتام شهر رمضان إذا وافقت أنا لإلقاء محاضرة يكون لها صدى في الأوساط السيّاسية والحكوميّة وذلك لرفع التّهم والأراجيف التي تحاك ضدّ الشيعة في ساحل العاج وخصوصا بعد استشهاد الشيخ جعفر الصّائغ.

اعتذرت بادئ الأمر وقلت أنا على موعد مع أسرتي في تونس لأقضي العيد معهم وأن تذكرة السّفر محجوزة ليوم غد، وعندي أعمال ومسؤوليّات تنتظر عودتي فألحّ علي الأخ ابراهيم وضرب على الوتر الحسّاس عندي قائلا: إن كان يهمّك مذهب أهل البيت وسمعته في ساحل العاج وفي كل افريقيا وإن كنت حريصا على غرس البذور النّافعة في هذا البلد وفي كل القارّة الأفريقية فلا ترفض ". لأنك لا تدري ولا تقدّر القيمة الفعليّة والمعنويّة لحضور رئيس الجمهوريّة وأعضاء حكومته وكل المسؤولين للحفل الذي سنقيمه على شرفك وأنا واثق من أنك ستؤثّر فيهم بمحاضرتك.

فإذا قبلت فسأغيّر تذكرة السّفر إلى بعد العيد وسأشرع من الآن في التحضير لأنه لم يبق أمامنا إلا يومين

قلت: هل أنت واثق من حضور رئيس الجمهوريّة ؟

قال: اترك هذا الأمر إليّ والمهمّ أنك توافق على إحياء السّهرة بمحاضرة علميّة سنختار لها عنوان "الفلسفة الإسلامية في مواجهة تحديّات العصر" فما هو

رأيك ؟ أنا واثق من قدرتك وخجلت وأنا أسمع إلحاحه ورجاءه وتمثّلت أمام عينيّ كل اطروحات الإسلام وهي تحثّني على البقاء والقبول.

قلت: إذا كان فيها مصلحة وتعريف بأهل البيت فروحي لأهل البيت فداء، وكيف أرفض مثل هذه الفرصة التي لم تتح لي إلا في الجمهورية الإسلامية بإيران عندما ألقيت كلمتي بحضور رئيس الجمهورية وأعضاء البرلمان الإيراني.

ولكن الفرق بين الموقفين واضح ذاك أن أغلب المشاركين في المؤتمر تكلّموا بمحضره وكنت واحداً منهم أما هذا فسأكون أمامه المتكلّم الوحيد بدون منافس وبدون منازع، ثم إن رئيس جمهورية إيران مسلم يعرف ما نقول ويفهم ما نطرح، وهو من نفس عقيدتنا.

أمّا رئيس جمهوريّة ساحل العاج فإنه نصراني قد لا يعرف من الإسلام إلا ما يروّجه أعداء الإسلام من شبهات وأراجيف زائفة، وقد يكون يحمل في جنباته عداء للإسلام والمسلمين، أنا لا أدري ؟

قال الأخ ابراهيم: أنا أعرف أنه غير معادٍ للمسلمين فالمسلمون هنا في ساحل العاج أكثر من خمسين بالمائة وعندهم في الحكومة بعض الوزراء المسلمين وعندهم من يمثّلهم في البرلمان ثم إن هذه هي الفرصة لكي نعرّفهم الإسلام الصّحيح ونفرض عليهم احترامنا واحترام الجالية اللبنانية التي تعيش هنا.

قلت: أنا حاضر لكل ما يخدم الإسلام والمسلمين ولو كان على حسابي وحساب عائلتي التي تنتظر رجوعي للعيد وأنت تعرف معنى جمع الشّمل للعائلة التي تترقّب عودة ربّ العائلة في مثل هذه المناسبات، ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد فلنتوكل على الله.

بدأ الأخ ابراهيم بالعمل السّريع والاتّصالات المكثّفة وانقطع عن شغله وعن عائلته وتفرّغ للإعداد لذلك اللّقاء وبعد يوم واحد طالعتنا الصّحف اليوميّة بإعلان كبير يقول: تحت سامي إشراف سعادة السيّد رئيس الجمهوريّة ينظّم المركز الإسلامي العربي الافريقي سهرة دينيّة يتخلّلها عشاء ومحاورة تحت عنوان

"الفلسفة الإسلامية في مواجهة مشاكل العصر" يديرها الدكتور محمد التّيجاني السّماوي ضيف المركز الإسلامي في أبيدجان كما أن الإذاعة والتلفزيون أذاعوا النبأ في عدّة نشرات وبدأت الدّعوات التي طبعت توزّع في كل أنحاء البلاد وأذكر هنا أن زوجة الشيخ جعفر الصّائغ كانت تغدو وتروح بسيّارتها فتشرف على طبع الدّعوات وتوزع بنفسها وتتّصل بالإذاعة والتلفزيون والدّوائر الرسميّة ولا يهدأ لها بال حتى تنجز عملها، وإني أعجبت بنشاطها لخدمة الإسلام وقلت في نفسي لو يعمل الرجال مثل عملها لازدهر المركز الإسلامي، فقد شجّعتني تلك المرأة الصّالحة على الصبر والعمل من أجل الغير ورغم أن لها طفل صغير فإنها أوقفت نفسها تجاهد وتكابد المشاكل الصّعاب لئلا يسقط المركز الإسلامي الذي أسّسه زوجها الرّاحل رضوان الله عليه، وكانت توصلني إلى الإذاعة والتلفزة وتنتظرني السّاعات.

وكان الأخ ابراهيم عبد الرضا يهمس لي لو كان عندنا ثلاثة من أمثالها لما احتجنا للرّجال.

وعلمت من خلال إقامتي أنها السّاعد الأيمن بالنسبة للأخ إبراهيم الذي يوكّل إليها مهمّات الأعمال فتنجزها خير إنجاز فجازاها الله خيرا عن الإسلام والمسلمين ولمثل هذا فليعمل العاملون وأنا أذكرها للتّاريخ الذي يعطي كل ذي حقّ حقّه وإن كنت أعلم بأنها لا تعمل من أجل الشّهرة أو من أجل الجزاء ولكنّها تعمل لوجه الله قبل كل شيء ولعلّها تخشى أن يتهاوى ذلك الصّرح الكبير الذي بناه زوجها العظيم فهي بعملها كأنها تقول له: يا زوجي أنا وفيّة لك في حياتك وبعد وفاتك.

أعلمني الأخ إبراهيم بأن السّهرة ستكون في قاعة المؤتمرات بفندق العاج وهو أضخم فندق في العاصمة وسيحضرها عدد كبير قد يتعدّى ألف شخص، وأركبني معه في سيّارته وذهبنا معا لنشرف على ترتيب وتنظيم القاعة، وما أن رأيتها ورأيت العمّال الذين يشتغلون بترتيبها حتى كبّرت وقلت: ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

وجاءت الليلة الموعودة واتّخذت حراسة مشدّدة حول الفندق العاجي لاستقبال رئيس الجمهوريّة وأعضاء الحكومة وتحوّلت بصحبة الأخ إبراهيم عبد

الرضا إلى القاعة وكان الاستقبال رهيبا وكان وصولنا في الوقت الذي وصل فيه الرّكب الرّئاسي وتقدّمنا للتسليم عليه فكان رئيس الجمهوريّة بالنّيابة ورئيس الوزراء ينزل من الرّكب وقد أحاطوه بحراسته الخاصّة من الحرس الجمهوري للرئاسة، ولمّا قدّموني إليه رحّب بي وسلّم عليّ ثم قال: " إن سيادة الرّئيس يعتذر عن غيابه لأنه فوجئ بوفاة عمّه في هذا اليوم بالذّات وقد سافر لحضور الجنازة.

رحّبنا به وعزّيناه ورجوناه إبلاغ تعازينا لسيادة الرّئيس ثم دخلنا القاعة فإذا بها مليئة بالضّيوف والمدعوّين.

ألقى الأخ إبراهيم عبد الرضا مدير المركز الإسلامي كلمة رحّب فيها بالضيوف واكتشفت من خلال الكلمة أن كل أعضاء الحكومة العاجيّة حاضرون وكذلك ممثّلي السلك الدبلوماسيّ والسّفراء للدّول العربيّة والإسلامية وكل ممثّلي الصّحافة والإذاعة والتلفزيون وكذلك ممثّلي الهيئات الثّقافية والجامعيّة وممثّلي الجاليات اللبنانية في أفريقيا وفي العالم ومفتي الجمهورية ورجال القضاء.

وبعد كلمة الترحيب دعا الجميع لتناول طعام العشاء الذي أعدّ لهم فقام النّاس أفواجا نساء ورجالا يختارون ما تشتهيه أنفسهم وتلتذ به أعينهم من الأطعمة المختلفة والأكلات المتنوّعة التي صفّفت في أواني فضيّة ونحاسيّة جديدة في جانب من القاعة التي ازدانت بالأضواء وزيّنت بمختلف أنواع الزينة.

جلست أنا إلى جانب رئيس الوزراء الذي كان لطيفا في كلامه ومزاحه إذ قال لي: أنظر إلى النّاس كيف يتزاحمون على الأكل عدا أنت وأنا فسيأتون إلينا بالأكل بدون عناء، وكان الأمر كما قال.

بعد العشاء صعد الأخ إبراهيم على المنبر وأحال الكلمة إلى السيّد رئيس الجمهوريّة بالنّيابة ليفتتح الجلسة ويعلن عن بدء المحاضرة وألقى السيّد نائب الرّئيس كلمة وجيزة شكر فيها المركز الإسلامي العربي الأفريقي والمسؤولين القائمين على إدارته والمنظّمين لهذه السّهرة التّاريخيّة، ثم رحّب بي وشكرني على تلبية الدعوة والحضور لإلقاء المحاضرة ثم أضاف قائلا: "الفلسفة الإسلامية في مواجهة مشاكل العصر" هو موضوع غنيّ جدّا وجدير بالبحث والتحليل

ولذلك أشكر مرّة ثانية الدكتور السّماوي لحسن اختياره وأعلن عن افتتاح الجلسة باسم فخامة رئيس الجمهوريّة السيد هنري كونان بيدي.

صفّق الجميع ودعاني السيّد إبراهيم عبد الرضا إلى المنصّة مصحوبا بالصّلاة على محمد وآل محمد التي دوّت لها أركان القاعة ولمّا حاذيت الأخ إبراهيم في المنصّة وهو يعرف أني لا أحضّر شيئا مكتوبا كي أقرأه على الحاضرين وما تعوّدت ذلك أبداً فاجأني بطلب جديد وهو يقول: إذا أمكن التكلّم باللّغة الفرنسيّة فهي لغة يفهمها كل الحاضرين هنا، كي توفّر علينا التّرجمة وربح الوقت.

قلت: بدون أيّ إشكال إن شاء الله سأقر عينك بما تريد.

ألقيت محاضرة باللّغة الفرنسيّة، عرّفت من خلالها الخطوط العريضة للدّين الإسلامي الحنيف، ثم ركزّت بعد ذلك على موضوعين رئيسين في حياة الإنسان وهما الموضوع الاقتصادي والموضوع الاجتماعي وأعطيت الحلول التي يقدّمها الإسلام للبشريّة جمعاء لكي تعيش حياة الأمن والأمان حياة الكرامة والسعادة وضربت لذلك أمثلة عديدة للمقارنة بين أطروحة الإسلام والأطروحات البشريّة من رأسمالية واشتراكيّة وشيوعيّة وأوضحت للحاضرين كمال الأطروحة الإسلامية وإيجابيتها و نقائص الاطروحات البشريّة وسلبيّاتها وما سبّبته من ظلم واضطهاد وفقر وحروب للبشريّة كلّها.

وبعد المحاضرة تدخّل جمع من المفكّرين وأجبت على تساؤلاتهم بدقّة وصراحة أكثر خصوصا مع رجال الصّحافة. وتدخّل الرّاهب الكبير وفاجأ الحاضرين بقوله: أشكرك على المحاضرة القيّمة، لقد فتحت لنا نافذة جديدة على الإسلام وعرّفتنا أشياء جديدة لم نكن نعرفها وذلك بأمثلة حيّة واقعيّة وبأسلوب واضح جذّاب ويجب علينا أن نستغلّ هذه النّافذة لنكتشف من خلالها ما جهلناه، فأنا أب مسيحيّ وعندي أصدقاء مسلمون وأنت الآن تركتني أحبّ الإسلام، أعدك أني ساقتني القرآن وأبحث في علومه من جديد. أشكرك مرّة أخرى.

وصفّق الجميع لكلمته المعبّرة، وحمدت الله سبحانه أن وفّقني، وانهال عليّ الضيّوف معانقين ومصافحين ومهنّئين، وهنّأني السيّد سفير تونس وبقيّة السّفراء وكان السيّد المستشار الأول للسّفارة التونسيّة يمدّ إليّ بصورة التقطت لي معه

ويطلب منّي أن أوقّع عليها للذّكرى فمازحته قائلا: أتريد أن تجعلني مثل "مايكل جاكسون" ؟

فقال: "مايكل جاكسون" لا يساوي شيئا أمامك وإني أهنّئك من كلّ قلبي فتبارك اللّه عليك أنت مشهور في العالم، ولكنّنا لا نعرفك في تونس.

قلت: من الأحسن أن أبقى مجهولا عندكم فما تنبأ رجل في قومه، كما يقول المثل الشّائع.

استضافني في بيته وأكلنا معه بصحبة نخبة من الموظّفين السّامين الكسكسي التونسيّ، وجاءني بجبّته والبدلة التونسيّة وطلب منّي لبسها لأن الجبّة التي جئت بها كانت شتويّة ولا تليق بلباس الصّيف وحرارة ساحل العاج. كما استضافني سعادة سفير لبنان وأهداني كتابه. كما استضافني سعادة سفير الجمهورية الإسلامية وأطراني إطراء كبيرا وقال بأنني أحدثت ثورة فكريّة في العالم من خلال الكتب وأحدثت هنا في ساحل العاج ثورة فكريّة أخرى بالمحاضرة التي ألقيتها.

واستضافني كثير من الشخصيّات اللبنانية جزاهم الله خيرا وأذكر من بينهم "عائلة الرزّ" الذين فاجئوني بعيد ميلادي في سهرة عائليّة أنستني ذكرى عائلتي وعشت معهم ساعات لا تمحى من ذاكرتي وكان الشّاب الطيّب علي الرزّ يترك شغله من أجلي ليعرّفني على العاصمة ومعالمها ويرفّه عنّي بعض العناء والتّعب.

واجتمعت عند الأخ الكريم يوسف حيدر بمجموعات من الشّباب الطلابي المتأثر بالوهابية وأقنعت الأغلبية منهم وكان الأخ يوسف حيدر كلّما جمع مجموعة من الشّباب المثقّف في معمله أو في حسينيّة جاء يبحث عنّي لاجتمع بهم، فيقول لهم: ها قد جئتكم بالدكتور التّيجاني لحما ودما وهو صاحب الكتب المشهورة التي أهديتكم إياها فناقشوه واسألوه عن كل صغيرة وكبيرة كما لا يفوتني شكر الأخ يوسف حيدر على جهوده وحبّه وتفانيه لخدمة أهل البيت "عليهم السّلام" فهو يعمل على طبع الكتب وترجمتها للّغة الفرنسيّة ويهديها مجاناً إلى الطّلبة، جازاه الله عن أهل بيت رسول الله خير الجزاء ولمثل ذلك فليتنافس المتنافسون.

ورجعت إلى وطني بعد توديع الجميع وأنا أحمل في جنباتي ذكريات جميلة ومشرّفة سوف تبقى ما بقيت.

وفي المطار كان الأخ الحبيب إبراهيم عبد الرّضا وابن عمّه الحاج سمير عبد الرضا الذي ضحّى هو الآخر بوقته وواكب كل رحلتي بالتصوير والإخراج التلفزيوني في أشرطة الفيديو الملوّنة في كلّ السّهرات وكل السّفرات الدّاخليّة فجزاه اللّه خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين.

وكان الأخ العزيز علي الرزّ ونخبة من الشّباب اللبناني يودّعونني ويأملون لقائي وعودتي إليهم.

الحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.



الرحلـــة الكيـــنيـــّة

كينيا

مساحتها: **583.000** كلم مربّع

عدد سكانها: **30** مليون نسمة

موقعها الجغرافي: شرق أفريقيا

عاصمتها: نيروبي

حدودها: شمالا أثيوبيا

وشرقا: صوماليا والمحيط الهندي

وجنوبا: تنزانيا

وغربا: أوغندا

الرحلة الكينية

قام بعض المتبرّعين من الكويتيين الشّيعة ببناء مركّب ثقافيّ يتكوّن من مدرسة كبيرة تحتوي على مبيت للطّلاب ومساكن لرجال التعليم والمسؤولين الإداريين، ومسجد كبير للصّلاة وكذلك لإحياء الاحتفالات بالأعياد والمواسم ويحتوي المسجد على مكتبة كبيرة للمطالعة.

وعمل هؤلاء الكويتيّون على انتداب كل رجال التعليم والمسؤولين من داخل كينيا ورصدوا لذلك مبالغ ضخمة تفي بحاجة المركّب الجامعي وما يلزم المسجد، كما أوصلوا إلى كينيا بواخر محمّلة بالأغذية واللّباس والأدوية إلى سكان كينيا وبذلك سمحت لهم الحكومة الكينيّة بالنّشاط والعمل ومزاحمة السّعوديين الذين غزوا المنطقة من عدّة سنوات ونشروا المذهب الوهابي على أوسع نطاق.

التقيت ببعضهم في باريس وعرفت منهم سير ذلك المشروع الكبير الذي يديره مسؤولون من السنّة المتعصّبين الذين يميلون بآرائهم وأفكارهم إلى الوهابية، ولم ينجح الكويتيّون في التأثير على أحد منهم ليعتنق مذهب أهل البيت عليهم السّلام واقترح عليّ بعضهم السّفر إلى هناك على حسابه لدراسة الوضع والتعرّف على المسؤولين الذين يديرون شؤون المشروع.

ورتّبت موعد السّفر إلى كينيا موافقا لسفر بعض الكويتيين أصحاب المشروع، واستقبلني بعضهم في مطار مونباسا العاصمة الكينيّة وكان من بينهم صديقي وزميلي في جامعة السوّربون الدكتور أحمد الخطيب الذي عرفته من أول يوم دخلت فيه الجامعة في باريس وهو كينيّ الأصل متزوج من إيرانية ومتحمّس للثورة الإسلامية ولمذهب أهل البيت "عليهم السلام"

وقد عمل الفرنسيّون على إبعاده وإرجاعه إلى وطنه قهرا للنّشاط الثّقافي والإعلامي الذي كان يقوم به لفائدة الجمهوريّة الإسلامية وكان الدكتور أحمد الخطيب يتكلّم العربية والفرنسيّة والإنكليزية والفارسية إلى جانب اللّغة السّواحليّة

وهي لغة كينيّة. وليس للخطيب ذنب سوى أن زوجته إيرانيـة وهذا يعـدّ عنـد الأمن الفرنسيّ خطرا واضطرّ المسكين لمفارقة زوجته وأولاده الذين سـفّروهم لإيران وسفّر هو الآخر إلى كينيا، وهكذا فعل البوليس الفرنسـيّ بكثـير مـن الأشخاص الذين يحسبونهم موالين للجمهوريّة الإسلامية في إيران.

التقيت بالدكتور الخطيب وكانت فرحتي كبيرة بعد ثـلاث سـنوات مـن الفراق، كان يتلهّف لإخباري وما وصلت إليه في التأليف، وأهديته نسخة من "ثـم اهتديت" وأخذ يقرأ الكتاب ونحن في طريقنا إلى مقرّ إقامتي فـي دار الضّيافـة الذي خصّص للضيوف والزّائرين، وكانت المسافة بعيدة شيئا ما، فما شـغرت إلا بالخطيب وهو يكثر البكاء ويقول: جزاك اللّه خيراً عن الإسلام والمسلمين.

أخذت منه الكتاب لأعرف الموضوع الذي اثّر فيه حتى البكاء فقد وصـل الدكتور إلى قصّتي وأنا استمع لأول مرّة مقتل أبي عبد اللّة الحسين وكيف أنـي مثّلت دور الحرّ وقلت: هل من توبة يا بن رسول اللّة ؟

قلت له مسلّيا: يا أحمد أنا مستغرب كيف يستنجد بـيّ الكويتيّـون وأنـت موجود هنا في كينيا ؟

قال: فهمت قصدك، ولكنّي عاجز عن إقناع المسـؤولين الذيـن يديـرون المشروع لأنهم كانوا أساتذتي وأنا حتى الآن أستحي أن أجادل أحـدا منـهم أو أناقشه.

قلت: طيب هذا مع الأساتذة والمسؤولين، فكيف بك مع الطّلبة والتلاميذ ؟

قال: مادام الكبار باقين على عقائدهم فمن المحال تغيير الصّغار لأنهم هنـا يعملون بقاعدة "إننا اطعنا ساداتنا وكبراءنا".

قلت: إذاً فالعمليّة شبه مستحيلة ؟

قال: لا ليست مستحيلة بالنسبة لك أنت بالذات لأني أعرف أسـلوبك فـي النّقاش وأعرف عدد المستبصرين على يديك الذين يتردّدون على مكتبـة أهـل البيت "عليهم السلام" في باريس، ثم أنت بإمكانك التحـدّث مـع كـلّ الأسـاتذة والمسؤولين لأنك لم تكن تلميذا عندهم مثل ما كنت أنا.

ثم أشار الدكتور الخطيب إلى أكبرهم قائلا: الشيخ علي هـــو رأســـهم إذا أقنعت الشيخ علي فسيقتنع الباقون.

قلت: من هو الشيخ علي ؟

قال: هو المسؤول والمدير لكلّ المشروع وهو كبير في السنّ وله شـــعبية واسعة لأنه طبيب أيضاً يعالج النّاس بالأعشاب والنّاس كلّـــهم نســاء ورجـــالا يحترمونه ويقبّلون يديه.

ولهذا الاعتبار اختاره الكويتيّون لإدارة المشروع، وقد جعل أخـــاه الشـــيخ محمد نائبا له في حالة غيابه أو مرضه والذين يديرون شؤون الجامعة والمبيـــت هم أولادهم الثلاثة واحد ابنه واثنان ولدا أخيه الشيخ محمد.

قلت: هل هم وهابيون ؟

قال: كلّهم شوافع على مذهب الإمام الشّافعي وهنا كل ســكان كينيـــا مـــن المسلمين إمّا شوافع وإمّا وهابيون ولا يوجد للشّيعة بينهم مكان ســـوى بعـــض الأفراد الذين لا يتجاوزون عدد الأصابع وسأعرّفك عليهم بإذن الله.

انتقلنا بعدها إلى مدينة "لامو" عبر حافلة نقل عموميّة وكان الطّريق طويـــلا فتركت الفرصة للدكتور الخطيب يقرأ كتاب "ثم اهتديت" واسترسلت أتفـــرّج علـــى الأدغال والغابات الشّاسعة التي ملأت الآفاق وكانت الحافلة تتوقّف من حين لآخـــر لتترك الطّريق لأسراب الفيلة حينا ولأسراب القردة أحيانا إنه منظر عجيـــب يشـــدّ الزائرين الذين يزورون كينيا لأول مرّة.

وفي مدينة "لامو" تعرفّت على كلّ المسؤولين القائمين بإدارة المشروع والذين جاءوا يسلمّون عليّ وعلى رأسهم الشيخ علي وأخوه الشـــيخ محمـــد، مصحوبيـــن بأخوين كويتيّين من المؤسّسين وقد علموا مسبّقا بقدومي فهيّأوا لـــي كـــلّ أســـباب الرّاحة في دار الضّيافة جزاهم الله خيراً.

وتعرفّت على الأستاذ عثمان الخطيب أخ الدكتور أحمد الخطيب وهو مـــن المدرّسين في المدرسة الكويتيّة، وكان بحكم اختلاطه بأخيه نصف متشيّع، ولـــم يمض يومان من وصولي. وبعد قراءته لكتابي، اهتدى إلى طريق الحقّ وأصبـــح يلازمني في أكثر الأوقات.

ومن خلاله التقيت بطلابه الذين يتتلمذون عليه وألقيت فيهم محاضرتين أو ثلاث مع فتح الحوار والنّقاش، فإذا بأغلبهم يستبصر ويطالب بالكتب التي تكشف مثل هذه الحقائق التي بقيت مطموسة عبر القرون الخالية.

واتّصلت بالكويتيين وطلبت منهم جلب الكتب الشّيعية إلى كينيا وتكوين مكتبة كبرى للمطالعة المجانية.

وأعلمني الأخوة الكويتيّون بأنهم جلبوا معهم أكثر من ألف كتاب وسلّموها إلى الشيخ علي الذي احتفظ بها لنفسه ووضعها في بيته بدلا من تأسيس مكتبة للمطالعة يستفيد منها الطّلبة وكل روّاد الحقيقة.

وسألت الشيخ علي في إحدى المناسبات عن الكتب ولماذا تبقى مدسوسة ولا يستفيد منها طلبة العلوم، فقال بأن الطّلبة في غنى عن إثارة الخلافات ولا نريد أن نشغلهم بخلافات المذاهب، والفرق ونلهيهم عن دروسهم الأساسية.

ولم يقنعني بهذا الكلام ولكن ما الحيلة وكيف لي أن أفرض عليه شيئاً لم يفرضه أصحاب المشروع والذين جاءوا بكل تلك الكتب، أفأكون ملكيّا أكثر من الملك ؟

وحرّضتُ الطّلبة في إحدى المحاضرات على المطالبة بالكتب وحاول بعضهم إقناع الشيخ علي ولكنّه امتنع وبدأ يشعر بالمضايقة التي لم تكن موجودة قبل قدومي، ولكنّ احترام المسؤولين الكويتيّين لشخصي جعله يقبل تطفّلي على مضض.

واجتمعت بابن الشيخ علي وهو مدير المدرسة الخارجي وكان بصحبتي الأخوين الكويتيين، وبدأت معه حواراً مفتوحا عن رأيه في الشّيعة، وإذا به يفصح عن مكنون عقائده وقال بدون حرج بأن الشّيعة كفرة، وسألته عن الدليل على كفرهم، فتكلّم وكأنه حفظ كتاب الشّيعة والسنّة "الإحسان الهي ظهير الباكستاني قمرة يقول الشّيعة كفرة، لأنهم يسبّون الصّحابة ومرّة يقول لأنهم لا يعتقدون في القرآن وبأنهم من أصل يهودي وجدّهم عبد الله بن سبأ. وكنت استمع إليه وأنظر إلى وجوه الكويتيين التي كانت تتبدّل ألوانا واستغرابا، ولسان حالي يقول لهم العيب ليس فيه ولكن العيب فيكم.

وما إن خلوت بالكويتيين حتى ضربوا على أيديهم متأسّفين قائلين: كل أموالنا أكلها اليزيد وجماعته ونحن لا ندري.

قلت: كيف لا تدرون، وبماذا تعتذرون وقد سمعتم بآذانكم ما قاله المدير الذي نصّبتموه، ولا شكّ بأن عقائد والده وعمّه هي نفس عقائده، ثم كيف تسكتون عن الكتب التي بقيت مدفونة في بيت الشيخ علي وهل يحق لي أنا الأجنبي أن أطالب بها؟.

قالوا: نخاف ردّ الفعل وخصوصا في هذه المدينة التي سيطر عليها الوهابيون بأفكارهم المسمومة والنّاس مالوا إليهم للمساعدات والأموال التي يقدّمونها، أمّا نحن فلا نريد استمالة النّاس بالمال بقدر ما نريد إقناعهم بالحجّة والدّليل والبرهان حتى لا يتغيّروا بعدها ومن أجل ذلك استقدمناك أنت لهذه المهمّة فلئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها ولكم شعرت بالخجل والاعتزاز في نفس الوقت، وقلت إنها مهمّة من اشرف المهمّات ولا بدّ لي من العمل الجدّي للوصول إلى الهدف المنشود.

دخلت مسجد الصّلاة في هذه المرّة بنيّة التغيير لأن كل المصليّن يصيحون خلف الإمام "آمين" وكأنك عندما تسمع لذلك اللّحن أنك في كنيسة مسيحيّة ولست في مسجد بناه الشّيعة وزينوا كل حيطانه بأسماء الأئمة الاثنى عشر عليهم السّلام.

وطلبت من الإمام أن يفسح لي المجال لإلقاء كلمة بعد انتهاء الصّلاة وأن يعلم الحاضرين حتى يبقوا للاستماع.

وأنّى للإمام وهو ابن الشيخ محمد وهو مدير المبيت الدّاخلي أن يرفض لي هذا الطّلب وهو يعلم مكانتي عند الكويتيين، فقبل طلبي وهو لا يعلم موضوع الكلمة وقدّمني للحاضرين بأحسن تقديم.

وجلست بعد انتهاء فريضة الصّلاة وألقيت محاضرة بخصوص البدع التي أدخلت على الصّلاة بعد وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم وكان استدلالي من البخاري ومسلم وأن أنس بن مالك بوّاب الرسول كان يبكي بعد وفاة النّبي ويقول: والله لا أجد شيئاً مما كان على عهد رسول الله قالوا حتى هذه الصّلاة؟ قال: لقد غيّرتم فيها.

كما أن ابن عباس الصحابي الجليل كان يقول: ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله وهي بسم الله الرحمان الرحيم فزعموا أنها بدعة وأبدلوها

بقول آمين وهي ليست من الصّلاة ثم قارنت بين ما عليه أهل السنّة والجماعة من اتّباع سنّة الخلفاء الرّاشدين ولو كانت مخالفة لسنّة النّبي صلّى الله عليه وآله وما عليه الشّيعة من اتباع النّبي وأهل بيته الذين لم يختلفوا في شيء، وأن قول "آمين" بدعة تبطل الصّلاة ودار نقاش شارك فيه مجموعة من الطّلبة الذين بدأوا يفهمون الحقائق ويميلون لكلّ أفكاري، ولم يردّ الإمام على أقوالي بل أظهر اقتناعه بما قلته، وبدأ قول "آمين" يتقلّصُ من الصّلاة شيئاً فشيئاً حتى انقطع تماماً قبل رحيلي من كينيا والحمد للّه.

كنت أقضي أوقات الفراغ بصحبة الدكتور أحمد الخطيب وأخوه الأستاذ عثمان وقد أعلمني الدكتور الخطيب بأن هناك في المدينة مجلسين مجلس في مقهى أطلق عليه اسم الغدير، ومجلس ثان في مقهى آخر أطلق عليه اسم السّقيفة.

وكان يقول وهو يمازحني: أتريد أن نذهب إلى السّقيفة أم إلى الغدير؟ وبديهيّ أنه يقصد بالغدير المقهى الذي يرتاده بعض المستبصرين، وبالسّقيفة المقهى الذي يرتاده الوهابيون.

وكنت في أغلب الأوقات اختار السّقيفة، وأقول للدكتور الخطيب: تعال بنا إلى السّقيفة نحاول تغييرها، أمّا الغدير فنحن مطمئنّون عليه والحمد للّه.

وفي السّقيفة يقدّمني الدكتور الخطيب إلى معارفه بأحسن تقديم ويدور بيننا وبينهم النّقاش في مسائل متعدّدة ونحرجهم دائما بالأدلة السّاطعة التي نقدّمها فلا يجدون للإنكار سبيلا وتعوّدوا على جرأتي وصراحتي فأصبحوا ينتظرون قدومي وإذا غبت عنهم يفتقدونني.

أمّا غيابي فكان سببه الأسفار الدّاخليّة التي قمت بها من "منباصا" إلى "نيروبي" ولامو وعدّة مدن وقرى كلّها إسلاميّة مائة بالمائة وفيها حلقات الذكر للصّوفية، وقد قام الإخوة الكويتيّون بواجبهم فكنت أتنقل مرّة بالحافلة ومرّة بالطّائرة حسب الظّروف والإمكانيات لأن بعض المدن والقرى ليس بها طيران داخليّ، وتكلّمت مع مشايخهم وأساتذتهم بما سمحت به الفرصة وأدركت بأن جميعهم يحترمون ويجلّون الشيخ علي فهو سيّد الجميع بلا منازع، وقلت في

نفسي لا بدّ من التركيز عليه لأنه عمدة الكلّ فإذا قدّر الله هدايته فسيكون انقلاب عقائديّ في كل كينيا.

كنّا ذات يوم على فطور الصباح كما عوّدنا الكويتيون فهم يأتون عندي في دار الضّيافة ويأتي معهم الشيخ علي وأخوه الشيخ محمد ويدور الحديث في شتّى المواضيع التي هي موضع خلاف بين المسلمين وكان الكويتيّون يعطون كلامي وأجوبتي أهميّة خاصّة واحتراما بالغا حتى أثّر ذلك في المشايخ الكينيين فكانوا لا يجرؤون على خلافي ولو مجاملة وتملّقا لأصحاب المشروع، لأن الشيخ علي وعائلته كلّهم يشتغلّون فيه وكذلك اخوة الشيخ محمّد والدكتور الخطيب.

تطرّقنا إلى الزواج المؤقت فسألوني ما رأيي في المتعة.

قلت: هي في كتاب اللّه وسنّة رسوله، أحيا اللّه من أحياها وأمات اللّه من أماتها، ففي صحيح البخاري أن المتعة نزلت في كتاب اللّه ولم ينزل قرآن يحرّمها حتى مات رسول اللّه فقال رجل برأيه ما شاء وهي كما قال أمير المؤمنين علي عليه السّلام: "إن المتعة رحمة رحم اللّه بها عباده" ولولا نهي عمر ما زنى إلا شقي. وكنت أجيب بجماس وقصدي استفزاز الشيخ علي وأخاه حتى يدخلان في النّقاش، ولكنّي فوجئت بأنهما يوافقان تماما على حليتها ولا يتحرّجان من ذلك بل ويعملان على إشاعتها حتى رغّباني في التمتّع مدّة إقامتي عندهم، فقلت: اللّهم اغننا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمّن سواك.

وخرجت يومها بصحبة الدكتور أحمد الخطيب الذي يعرف المدينة حقّ المعرفة ولم يطل البحث فقد دخلنا بيتا استضافنا أهله على الشّاي وتعرّفت على امرأة أرملة مات زوجها منذ سنتين واتّفقنا مع والدتها على الزواج ولكن الدكتور الخطيب كان يتكلّم معهم بلغتهم السّواحلية فلم افهم إلا بعدما خرجنا من عندهم وأنا أظن أن شيئا لم يحصل ولكن الدكتور الخطيب فاجأني بما هزّ مشاعري عندما أعلمني أن والدها غائب وسيأتي العشيّة لتتّم الموافقة، ودهشت لهذا الخبر وقلت: معقول أن والدها يوافق على زواجها المنقطع لمدّة ثلاثة أسابيع ؟

قال: نعم بدون إشكال فهنا كلّهم يعرفون هذا الزواج ويوافقون عليه.

قلت: فهم شيعة إذن ؟

قال: لا هم سنّة من أتباع الإمام الشّافعي.

قلت: كيف يتّبعون الإمام الشّافعي وهم يحلّلون ما حرّم ؟

قال: هذا الذي حيّرني أنا أيضاً، فأنا نفسي وقبل استبصاري لمذهب أهل البيت كنت أعرف المتعة جائزة عندنا في كينيا.

وكانت مفاجأتي أكبر في الليل لمّا قدم إلى بيتي مجموعة من الرّجال ومعهم امرأتان تبيّنت إحداهما وعرفتها فهي الفتاة الأرملة وأمّها، أما الرجال فهم الشيخ علي نفسه والدكتور الخطيب والكويتيّان وقدّموا إليّ والدها، وأدخلت الجميع وقدّمت لهم بعض الفواكه وتمّ العقد عقد المتعة بيني وبين والدها الذي قبض المهر على المدّة المتّفق عليها وهي خلال إقامتي في مدينتهم وينتهي العقد يوم سفري ورجوعي إلى باريس، وخرج الجميع مودّعين ومباركين وتركوني بصحبة زوجتي وبقيت مبهوتاً في ما وقع أسائل نفسي أفي يقظة أنا أم في منام وهل يقع هذا في بلاد الشّيعة الذين يحلّلون المتعة ؟

ما رأيت ولا سمعت رغم زيارتي لكل مناطق الشّيعة وبلدانهم فهي عندهم أي المتعة حلال ولكنّها في الكتب حبر على ورق كما يقال وقد توجد في بعض المناطق كما سمعت ولكنّها محتشمة تحوطها السرّية ربما يعود ذلك لتحريم الحكومات لهذا الزواج لأن كل الحكومات سنيّة من عهد عمر بن الخطّاب حتى اليوم، وحتى في إيران التي تحكمها حكومة شيعيّة ما زالت المتعة غير معروفة إلا في بطون الكتب وفي أحاديث التفكّه والتندّر، حتى أن الرئيس هاشمي رفسنجاني تكلّم عنها مرّة في خطبة الجمعة ودعا إلى تحريرها كي لا يخرّب المجتمع الإيراني بالزّنى المحرّم.

وذكّرني هذا أيضاً بمجتمع سنّي آخر بعيد عن كينيا بعد المشرقين وهو بلد عربيّ تحكمه حكومة سنيّة، ولكنّه يحلّل المتعة.

سافرت مرّة وقبل استبصاري إلى موريطانيا وكنت لا زلت أحمل الفكر الوهابي وبينما أنا أتجوّل في بعض القرى والكاميرا معلّقة في صدري ألتقط من خلالها بعض الصوّر التذكاريّة وكنت أجوب الشّوارع والممرّات بين البيوت

والخيم اعترضت سبيلي امرأة شابّة بين مجموعة من البنات فسألتني من أيّ بلاد أنا وكانت تظنّ أنّني فرنسيّ ولمّا علمت أنّني تونسيّ أتكلّم العربيّة.

قالت: أتتزوجني يا تونسيّ ؟

واحمرّ وجهي وأنا اسمع لأول مرّة امرأة تخطب لنفسها بين جمع من النّساء اللائي لم يبدين تعجّبا، خجلت منها ورغم أني اشتهيها لجمالها وصراحتها قلت لها:

كيف سأتزوّجك وأنا سأرحل بعد يومين فقط إلى تونس ؟

قالت: تتزوّجني خلال اليومين.

وزاد تعجّبي واستغرابي أكثر عند سماع كلامها وظننت أنها تقصد الزّنى لأنني ما كنت أعرف عن زواج المتعة قليلا أو كثيرا.

فقلت باقتضاب: حرام حرام.

فقالت: أنا طلبت منك زواجاً حلالاً على سنّة الله ورسوله وما دعوتك إلى الزّنى المحرّم.

ولم أفهم قصدها فودّعتها بعد أن رفضت أن ألتقط صورتها وأنا أقول في نفسي: لو تأتى هذه إلى بيتي في الفندق لا أتركها أبداً.

إنها مجتمعات عربيّة سنيّة تعيش على البساطة والفقر ولكنّها مجتمعات غير معقّدة، فمثل كينيا وموريطانيا يعطينا صورة حقيقيّة على براءة المرأة المسلمة التي التزمت بما حلّل الله ورسوله وابتعدت عن الزّنى المحرّم وهي فطرة الله التي فطر النّاس عليها ولكنّ الإنسان الذي غيّر وبدّل فأفسد بذلك المجتمعات وخربّها وهو يحسب أنه يحسن صنعا.

وفي الصّباح جاء الأصدقاء مهنّئين ومباركين ليتناولوا فطور الصّباح عندي وكان من بينهم الشيخ علي وقد حمل كلّ منهم إليّ هديّة بسيطة واغتنمتها فرصة فأهديت لكلّ واحد منهم نسخة من كتاب "ثم اهتديت" وطلبت من الشيخ علي أن يقرأه ويعطيني رأيه وأشعرته بأن مكانته العلميّة وكثرة اطّلاعاته تبوّئه رئاسة الجميع وأني شخصيّا مهتمّ بأفكاره وكل ما يصدر عنه.

وبعد أسبوع دعاني وزوجتي للعشاء عنده في بيته وجلست معه وبعض الأصدقاء على الطّعام بينما دخلت الزوجة مع النّساء حسب الأصول والعادات العربيّة.

سألت خلال السّهرة الشيخ علي وبعدما أراني مكتبته القيّمة سألته عن رأيه في كتابي "ثم اهتديت".

قال: من حيث الأسلوب فهو رائع يشدّ القارئ شدّاً عجيباً ولكن من حيث الموضوع فهو جدّ خطير.

قلت: أين يكمن الخطر؟ فرأيك يهمّني.

قال: في نقد الصّحابة وقدحهم، فنحن ما عرفنا الإسلام الذي جاء به محمّد صلى الله عليه وسلّم إلا من خلالهم.

قلت: هذا صحيح لو كان الأمر يتعلّق بجميعهم ولكن والحمد للّه لم يمسّ القدح والنّقد إلا البعض منهم، الذين شهد التّاريخ بانحرافهم والبعد عن سنّة نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلّم، وأنت بحمد اللّه ممّن عرف التّاريخ وأحداثه وعرف اختلافهم وما سبّبوه لنا من مشاكل وانقسامات داخل الأمة الواحدة.

قال باعتزاز: أنا أعلم كل ذلك، ولكن الذين قسّموا الأمة هم بنو أميّة وعلى رأسهم معاوية وقد نصّ على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم في حياته عندما قال: الخلافة من بعدي ثلاثون سنة ثم ملك عضوض واسترسل يسبّ بني أميّة ويشتمهم ويمدح الخلفاء الرّاشدين وهو يحاول بذلك إقناع الحاضرين بأفكاره فتركته يتكلّم حتى سكت.

قلت: اتّق الله يا شيخ علي فالله سبحانه وتعالى لا يحبّ العلماء الذين يعرفون الحقّ ويكتمونه، فقد قال جلّ من قائل: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بينّاه للنّاس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾.

فهل اغتصب بنو أميّة خلافة علي بن أبي طالب التي نصّ عليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في غدير خم ؟

هل اغتصب بنو أميّة حقّ الزهراء سلام الله عليها في النحلة والخمس والميراث حتى ماتت غاضبة تدعو الله عليهم في كل صلاة ؟

هل أحرق بنو أميّة ما جمع من سنّة النّبي(ص) ومنعوا النّاس من التحدّث بها؟

هل غيّر بنو أميّة أحكام القرآن وأحكام السنّة النّبويّة وأبدلوها باجتهادات غيّرت مسار الإسلام والمسلمين ؟

لا والله أنت تعلم أنه لم يفعل كلّ ذلك غير الخلفاء الذين تسمّيهم الراشدين عندما لم يكن لبني أميّة دولة ولا نفوذ ولم يكن لمعاوية ولا لأبيه وزن عند المسلمين والذي كبّر معاوية وجعله إمبراطور الإسلام هم أبو بكر وعمر وعثمان الذين تحاول أنت بكلّ جهودك أن تسدل عليهم ستار الهالة والتقديس وتجعلهم من طراز الأنبياء والمرسلين، قال مبتسماً أمام الحاضرين وهو يحاول المراوغة: "نحن ما قلنا أن الخلفاء من طراز الأنبياء وما قلنا بأنهم معصومون عن الخطأ فهم كسائر البشر يخطئون ويصيبون، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "كلّ ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابين" فنحن مسلّمون بأن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي كلّهم أخطأ وكلّهم مأجور لقول الرّسول صلى الله عليه وسلّم: "من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد"

قلت: يا شيخ علي أقول لك مرّة ثانية اتّق الله ولا تلوذ بالأوهام الواهية كبيت العنكبوت وتترك الحقائق الدّامغة التي أصلها ثابت وفرعها في السّماء، وأنا أتحدّاك أمام الحاضرين أن تأتيني بخطأ واحد للإمام علي فسوف لن تجد إلا ما يردده أسلاف النّواصب الذين أعيتهم الحيلة ليجدوا خطأ واحداً لعلي فقالوا بأنه بعد تولّيه الخلافة أخطأ في عزل معاوية ولو أنه صبر حتى استتبّ له الأمر ثم عزله بعد ذلك لكان أحسن، أو أنه أخطأ في واقعة التحكيم في حرب صفّين وهو قول الخوارج فهل تجدون لعلي أكثر من هذين الخطأين المزعومين وكلّها لا تعدو الآراء السيّاسية التي يختلف فيها النّاس فتظهر للبعض بأنها خطأ وتظهر للبعض الآخر بأنها عين الصّواب وهي من باب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم واللّه يعلم، وأنتم لا تعلمون**﴾ البقرة 216.

هذا على افتراض أن علي شخص عاديّ ليست له ميزة، ولا علم وهنا لا يصحّ أن نقارن هذا الخطأ النّاتج عن اجتهاد الشّخص الذي لا علم له، بالخطأ

النّاتج عن معارضة النّصوص الإلهية والأعمال النّبويّة التي فعلها الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم وعلّم النّاس على اتّباعها والالتزام بها فهذا من باب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبيناً**﴾ الأحزاب 36.

و. ـرق بين الموضوعين كالسّماء والأرض. هذا حبّ وكره ناتج عن عدم العلم لأن الله سكت عنه رحمة بنا فيوجب الاجتهاد الذي يكسب أجران عند الصّواب وأجر واحد عند الخطأ.

أمّا هذا فهو عصيان وعناد عن علم ومعرفة بالنّصوص القرآنية والنّبويّة ناتج عن اختيار الإنسان لرأيه في مقابل أحكام الله فيوجب الكفر والفسوق والظلم وكلّه ضلال مبين ومصيره النّار وبئس القرار.

وعلى هذا الأساس يجب علينا أن نفرّق بين ما هو خطأ وما هو عصيان ونضع عليّا سلام الله عليه بهذا الخطأ المزعوم في سلّة الجماعة الذين تمرّدوا على النّصوص ورفضوها ثم أبدلوها بأحكام اختاروها وحملوا النّاس عليها قهرا، وإذا كان الله سبحانه يتوعّد من عصاه وخالفه بالجحيم. هذا إذا كانت المعصية تتعلّق به شخصيّا ولا تتعدّى غيره فما بالكم بمن عصى ربّه في أحكامه ثم حمل النّاس على تلك المعصية قهرا لأنه يحكمهم، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: "من سنّ سنّة سيّئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة". فما بالكم بمن خالف سنّة اللّه ورسوله مقابل بدعته التي اتّبعها مئات الملايين من المسلمين ؟

وإذا كان الأمر كما تقول يا شيخ علي فلماذا لا نلتمس عذرا لإبليس لعنة اللّه عليه الذي اجتهد في قوله أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فاجتهاده أوصله إلى نتيجة أن النّار هي خير من الطّين، أو كما قال بعض المتصوّفة: إن إبليس هو أكبر الموّحدين لأن اجتهاده منعه أن يسجد لغير الله تعالى.

إلا ترى معي أن الموازين كذلك المقاييس العقليّة يجب أن تتوقّف عن الاجتهاد عند صدور الحكم الإلهي، أنظر إلى قوله تعالى: ﴿ **فإذا سويّته ونفخت**

فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس » ص 72- 74 .

فكل الملائكة قالوا: سمعاً وطاعة ولم يجتهدوا بآرائهم في هذا الحكم الصّادر من الخالق إلى المخلوق. إلا إبليس أبى أن يكون من السّاجدين، لماذا؟ لأنه اجتهد برأيه مقابل هذا الحكم الإلهي فرأى أنه أفضل من آدم فعصى وتمرّد.

وإذا كان الأمر كذلك فكلّ المجرمين والفاسقين مأجورين على اجتهادهم فهذا فرعون اجتهد في تكذيب موسى عليه السّلام لأنه كان يظنّ أن كل الآيات التي جاءه بها موسى هي من قبيل السحر ولذلك جمع له السّحرة واعتقد بأنه كبيرهم الذي علّمهم السّحر. وهذا السّامري الذي اجتهد فاخذ قبضة من أثر الرّسول فتسبّب في ضلالة بني إسرائيل وهذا قيصر اجتهد في قتل وصلب عيسى بن مريم لأنه كان يظنّ أنه من الدجّالين الذين يريدون تخريب المجتمع اليهوديّ وهذا أبو لهب عمّ النبيّ اجتهد أيضاً لأنه ظنّ أن ابن أخيه يريد الدعوة لنفسه مقابل الآلهة التي يعبدونها.

وهذه عائشة اجتهدت في قتل الآلاف من المسلمين الأبرياء لأنها كانت لا ترى مصلحة في خلافة علي وهذا اليزيد اللّعين اجتهد هو الآخر في قتل سيّد شباب أهل الجنّة الحسين لأنه خرج عن طاعة أمير المؤمنين ودعا لنفسه وهذا الحجّاج اجتهد أيضاً لأنه كان يرى جميع النّاس على طاعة الخليفة وعدم الخروج عليه.

وهذا هتلر الذي اجتهد ورأى بأن الألمان وهم الجنس السّامي هم أسياد العالم وكلّ النّاس هم عبيد لهم أو يجب محقهم. وهذا صدّام اجتهد هو الآخر في قتل الملايين من حزب الدعوة لأنه يرى أنهم ضدّ القومية العربيّة وضدّ الوطنيّة وقتل الملايين في الحروب الدّامية لأنه يرى أن الإيرانيين أعداء الإسلام والعروبة وهو بطل القادسيّة. وقد اجتهد في احتلال الكويت لأنه يرى بأنه جزء من العراق وقد اجتهد بعض الرّؤساء وأجبروا شعوبهم على إفطار رمضان بدعوى أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: افطروا لتقووا على عدوّكم: ولمّا سئل عن العدوّ قال: عدّونا الفقر والتخلّف وهذا هو الجهاد الأكبر. وما أظنّك يا شيخ توافق على أن كل هذا هو الاجتهاد الذي يستوجب الأجر من عند الله.

قال وهو يتنهّد: لا طبعا أنا أعرف الفرق بين الاجتهاد والعصيان وهو كما قدّمت، إلا أنه عندي تعليق على ذكرك أم المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها، فهي التي قال فيها رسول اللّه صلى الله عليه وسلّم: "خذوا نصف دينكم عن هذه الحُميرة" ويقصد بذلك عائشة.

وحاولت إقناعه بأن هذه الأحاديث وأمثالها موضوعة في عهد بني أميّة الذي كثرت فيه الأحاديث المكذوبة وخصوصا أحاديث فضائل الصّحابة فقد أكثروا من إطراء الخلفاء الثّلاثة أبي بكر وعمر وعثمان من الرجال وعائشة من النّساء للدور الذي قامت به بعد وفاة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فكان يوافقني تارة ويتردّد ويتشكّك أحيانا في بعض الأحداث التّاريخيّة وهو يريد رغم كلّ محاولاتي أن يضفي على عائشة هالة من التقديس والعفّة حتى جعلها أعلم الصّحابة لأن نصف الدين عندها وحدها وكل الباقين عندهم النّصف الثاني.

وضحكت لهذا الاعتقاد وقلت له:

ما رأيك لو أوقفتك على دليل ملموس بأن ما تقوله لا يصحّ ؟

قال: هات نسمع منك.

قلت: هل تعرف رضاعة الكبير ؟

قال: وما هي رضاعة الكبير ؟

قلت: باختصار أنه يمكن لزوجتك أن ترضعني أنا فأصبح بعد تلك الرضاعة ربيبك ويمكن لي أن أستحلّ منها ما يستحلّ الولد من والدته.

فضحك عند سماعه هذه الأطروحة وقال مستغربا: كيف ؟ أنت ترضع من زوجتي أنا ؟ لا يحقّ لك ذلك.

قلت: هذا من نصف دينك الذي تقول به أم المؤمنين عائشة.

قال: لا لا ما سمعت بهذا أبداً، لعلّك تمزح.

قلت: أنا لا أمزح في مثل هذه الأبحاث العلميّة وكيف أمزح باتّهام أم المؤمنين عائشة، ولكن أنا قدمت من باريس وليس معي إلا كتاب "ثم اهتديت"

وأنت ما شاء الله عندك هنا مكتبة ضخمة وبالتأكيد أن فيها صحيح مسلم وموطّأ الإمام مالك.

قال: نعم عندي هذه الكتب، وهل فيها هذا الحديث ؟.

قلت: نعم سأترك لك المجال لتقرأ بنفسك على راحة البال وتعطيني بعد ذلك رأيك.

قال: دلّني على الحديث في أي موضع من الكتاب ؟

قلت: اقرأ باب رضاعة الكبير في الكتابين. وغدا أعطني النّتيجة. وقمت أعتذر للخروج فقد مضى نصف الليل أو أكثر واصطحبني الكويتيوّن بسيّارتهم أنا وزوجتي وكانا متعجّبين من رضاعة الكبير وكيف يمكن أن تكون فكنّا نمزح طوال الطّريق ولأن الزوجة الكينيّة لا تفهم اللّغة العربيّة قال لي أحدهم ممازحا: أتسمح يا دكتور أن أرضع من زوجتك لتصبح أمّي ؟

قلت ضاحكا: أنا لست من أتباع الحُميرة، ولكن أبحث لك عن أمثال الشيخ علي.

قال صاحبه: أنت أدخلته (يعني الشيخ علي) في حيرة وصدمته بأشياء ما كان يعرفها.

قال الأول: إحنا شيعة ولا نعرفها واللّه ما سمعت بها إلا الليلة.

قال الثاني: أنا مثلك وأزيدك أني استفدت كثيرا من هذه السّهرة فما كنت أعلم كيف أناقش أهل السنّة والدكتور في هذه اللّيلة أعطانا طريقة علميّة مقنعة. شكرتهم على حسن ظنّهم وافترقنا.

وفي صباح اليوم التالي جاء الجماعة كالعادة لفطور الصّباح وتأخّر الشيخ علي أكثر من ساعة وكدنا نكمل الإفطار وإذا به يدخل علينا ويبدّد حيرتنا وعندما وصل إليّ مسلّما ضحك وقال: أرضعيه ولو كان ذو لحية.

وفهمت أنه اطّلع على الموضوع من شتّى جوانبه وفرحت لذلك ودعوناه للجلوس وتناول الإفطار متسائلين ما الذي أبطأه عن الموعد المعتاد.

قال: لم أنم إلا قليلا فقد سهرت بعدكم واطّلعت على قصّة رضاعة الكبير في كلّ من مسلم وموطّأ مالك فحيّرتني وطار النّوم عنّي فلم أنم إلا بعد صلاة الفجر.

قلت: فهل ما زلت علي رأيك في أخذك نصف الدين عن الحُميرة ؟

قال: أعوذ بالله هذا لا يجوز أبداً. أنا من اليوم شيعيّ لا أتّبع إلا عليّاً.

قال أخوه الشيخ محمّد: أتدرى يا دكتور أننا من سلالة سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه ؟

قلت: إذاً فأنتم أحقّ بجدّكم من غيركم قال الله تعالى: ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾.

وفرح الأخوة الكويتيّون بهذا الاستبصار المفاجئ وكذلك الدكتور الخطيب وأخرج الشيخ علي الكتب إلى الطّلبة وبدأ الدكتور الخطيب وأخوه عثمان ينشّطان بحريّة ويعملان بكل جهودهم ولم يمض أسبوع واحد حتى استبصر أكثر من مائتين من الطّلبة.

نصحت الأخوة الكويتيين بأن يساعدوا الطّلبة المستبصرين ماديّا كي يتزوّجوا من الفتيات المستبصرات فعددهّن أكثر من خمسين طالبة وكلّهن يحفظن خطبة الزهراء وقد استمعت لإحداهن وهي تلقي خطبة الزهراء سلام الله عليها ولأول مرّة أسمعها بصوت فتاة فشعرت بأني اسمع فاطمة سيّدة نساء العالمين فبكيت لذلك كثيرا وأنا حتى الآن أتمنّى سماعها مرّة أخرى.

وسمع جماعة في نيروبي وفي مونباصا بحديث الرضاعة، فكانوا يتّصلون بي تلفونيّا ويستعجلون قدومي لاستطلاع الأمر.

وسافرت إليهم بصحبة الدكتور الخطيب واستبصر الكثير منهم من أجل هذا الحديث وقد ذكرتّه مفصّلا في كتابي "الشّيعة هم أهل السنّة".

وجاء يوم الفراق للرجوع إلى باريس وخرج أكثرهم يودّعونني وفي مقدّمتهم الشيخ علي وأخوه الشيخ محمّد وقبل دخولي إلى الطّائرة عانقت الشيخ

وقلت له أمام الجميع: سامحني إن كنت أسأت لك أو صدر منيّ شيئا تكرهه فأنا أرجوك العفو والمغفرة.

قال: العفو العفو أنت سيّدنا وقد هديتنا إلى صراط الله المستقيم فجزاك الله عنّا خيراً ونتمنّى أن لا تنسانا من زياراتك.

قلت: أتشهد أمام الحاضرين أنك استبصرت للحقّ وغيّرت عقيدتك ؟

قال بصوت عال: أشهد أنني تشيّعت وإمامي هو علي بن أبي طالب عليه السّلام والله على ما أقول شهيد.

عانقته مرّة أخرى بحرارة أكثر وقبّلت رأسه وفاضت أعيننا وأعين الحاضرين من الدّمع وهم يكبرون صائحين: اللهم صلى على محمد وآل محمد.



الــرّحلـــة الــهنـــديـــّة

الهند

مساحتها: **3.368.000** كلم مربّع

عدد سكانها: **953** مليون نسمة

عاصمتها: نيودلهي

موقعها الجغرافي: جنوب آسيا

حدودها من الشّمال: الصّين

ومن الشّمال الغربي: الباكستان

ومن الجنوب: المحيط الهندي

ومن الشرق: خليج البنغال

ومن الغرب: بحر عُمان

الرحلة الهنديّة

بعد النّجاح والانتشار الذي حقّقه كتاب "ثم اهتديت" في عـدّة بلـدان مـن الأقطار العالميّة وصلتني دعوة من السيّد محمد الموسوي وكيل السيّد الخوئي في القارّة الهنديّة يعلمني من خلالها بأن مؤسسّة في بومباي، ترجمـت كتـاب "ثـم اهتديت" إلى ستّ لغات ناطقة في الهند وهي الإنكليزيـة والهنديـة والأورديّـة والكجراتيّة والبنغاليّة والعربيّة. وقد لقي الكتاب نجاحـاً كبـيراً فـي الأوسـاط الإسلامية وهو يرجو منّي زيارتهم في الهند على حساب المؤسّسة.

وبعد الإجراءات القانونيّة والحصول على تأشيرة السّفارة الهنديّـة ركبـت الطائرة الفرنسيّة من باريس إلى بومباي وأنا على علم بأنها ستنزل في مطـار جدّة لمدّة ساعة لتأخذ ما يلزمها من الوقود وتنزل ركّاباً وتحمل آخرين.

وشاءت الأقدار أن يكون مقعدي إلى جانب مسافر سعوديّ يرتدي اللّبـاس العربيّ وله ذقن صغيرة، وما إن عرف بأني تونسيّ حتى اطمـأنّ إلـيّ وبـدأ يلاطفني، ولمّا قدّم لنا الأكل كانت وجبتي تختلف تماما عن بقيّة المسافرين وذلك حسب طلبي عند حجز البطاقة لأني كلّما سافرت على متن طائرة أجنبيّة أعنـي ليست من بلاد إسلاميّة فإني أطالب بأكل خاص خال من اللّحوم إمّا سمك وإمّـا نباتّي، ولمّا علم السّعودي بذلك قبل أن يأكل سألني عن السّبب، قلت: لأن اللّحوم التي يوزّعونها غير مذكاة على الشّريعة الإسلامية. فضحك وهو يقول: أنت مـن الأخوان المتشدّدين، ثم أردف يقول: قل بسم الله وكل فهو حلال قال الله تعـالى: **﴿ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وأنه لفسق﴾** الأنعام 121.

فنحن نذكر اسم الله عليه والحرام بعد ذلك يصبح حلالا

قلت متعجّباً: وأنا أعلم بأن السّعوديّين وبعض المصريّين يفتون بهذه الفتوى وخصوصا للجاليات التي تقيم بالبلاد الأوربية والأمريكية، كيف يصبح الحـرام حلالا بمجرّد ذكر اسم اللّه عليه؟

قال: هذا ما يقوله القرآن وليس هو من أقوالي أنا.

قلت: حاشى للقرآن أن يقول ذلك، إنما قال: **﴿ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم اللّه عليه﴾**، بصيغة الماضي يعني لم يذكر اسم اللّه عليه عند الذّبح ولم يقل: ولا تأكلوا حتى تذكروا اسم اللّه عليه، فتأويلكم لهذه الآية على هذا المعنى ليس له دليل، ثم قلت، أنت تعلم أن الفرنسيّين لا يذبحون فاللّحم الذي أمامك هو ميتة.

قال: نعم أعلم ذلك، قلت: فكيف تحلّ ما حرّم الله ؟ ألم يقل سبحانه: **﴿حرمت عليكم الميتة﴾** أفليس هذا نصّ صريح على تحريم أكل الحيوان غير المذبوح ؟

قال: واللّة صريح ما فيه شكّ ولكن ما تعني هذه الآية: **﴿ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم اللّه عليه﴾** ؟

قلت: تعني أن الذّبيحة إذا ذبحت بغير ذكر اسم الله فهي أيضاً محرّمة ولا تؤكل ولو كانت مذبوحة، إلا ترى أن اليهود يذبحون ولا يأكلون إلا ما كان مذبوحا على طريقتهم، ولكنّه حرام على المسلمين لأنه لم يذكر اسم الله عليه ولم يوجّه إلى القبلة وهي بيت اللّه الحرام.

استغرب أكثر عند سماعه تحريم ذبائح اليهود وقال: سبحان الله كنت أظنّ أنهم يحسنون الذّبح أفضل منّا.

قلت: مع الأسف إننا أخذنا أغلب الأشياء مقلوبة وتركنا الحقّ واتّبعنا الباطل.

استأنس لحديثي واستحى أن يأكل ما قدّم إليه واستدعى إحدى المضيّفات وطلب منها أن ترفع ما أمامه وتأتيه بخبز وجبن ففعلت، قدّمت إليه قطعة من السّمك فقبلها منّي شاكرا، وأخذ يسألني عن مهنتي وتخصّصي وفي أي الجامعات درست، فكنت أجيبه بشيء من الحيطة والحذر وما أردت الدّخول في التّاريخ والمذاهب، لأن الوقت لا يسمح فبعد قليل سننزل في جدّة، ثم إني أخشى من السّعوديّين إذا علموا بوجودي في جدّة، فمن يدري؟

ودّعني وهو يأمل أن ألقاه وأزوره في حجّ أو عمرة وأعطاني عنوانه في جدّة ونزل.

واصلت طريقي إلى بومباي عاصمة الهند وهناك وجدت السيّد الموسوي في استقبالي بصحبة مجموعة من الهنود المسلمين الذين أكبّوا على يديّ يقبّلونها.

كان الطقس حارًا وقد قرّرت بعزيمة صادقة أن لا آكل شيئا من الطّعام إلا الفواكه والخضر وذلك طيلة إقامتي في الهند علّني أتخلص من الوزن الزّائد.

وبالفعل بقيت في الهند ثلاثة أسابيع فنزل وزني أكثر من عشرة كيلوغرام وليس ذلك فحسب ولكنّي شعرت بصفاء الذّهن ووضوح الذاكرة وسرعة المنطق، وقد حاول السيد الموسوي وكلّ الذين استضافوني التأثير عليّ ولكنّي ما أكلت عندهم إلا ما ذكرت من الخضر والغلال.

وبدأت الزّيارات إلى مختلف المساجد الإسلامية في العاصمة بومباي، وكنت دائما مصحوبا بالدكتور أبو كوثر وهو شابّ عراقيّ يعيش في الهند، فكان يعرّفني على كل الآثار والمآثر الإسلامية التي أعجبت بها غاية الإعجاب والذي زاد في عزيمتي لعدم أكل الطّعام، ما شاهدته في الهند من فقر وخصاصة، فقد شاهدت مناظر تهزّ المشاعر، والنّاس يعيشون على قارعة الطّريق تحت بعض الألواح والصّناديق، يبكي الإنسان عندما يتذكّر عيش الكلاب والقطط وسائر الحيوانات الأخرى في بلاد الغرب، ويقارن بينها وبين هؤلاء البشر الذين يعبّئون في الصّباح داخل العربات المزبليّة بالعشرات جثثاً قتلها الجوع والمرض.

يا إلهي كلّ هذه المظالم بين بني البشر أيعقل أن تعيش طبقة من النّاس متخمة مرفّهة بل وتعيش كلابهم مدلّلة بينما تعيش طبقة أخرى من النّاس محرومة لا تجد لقمة تسدّ بها جوعها ويموت الأطفال الذين لا يجدون قطرة حليب في ضرع أمّهاتهم تغذّيهم وتُقوّم أجسامهم.

سبحانك وبحمدك لا اعتراض على مشيئتك فنحن نجهل حكمتك وقد اعترض الملائكة في بدء الخلق بقولهم: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ فقلت لهم: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ البقرة 30.

سبحانك أنت تعلم كل شيء وأنت تسمع وترى فمن يدري لعلّ الذي نكرهه اليوم ولا نتحمّله هو في صالحنا، وقد قلت وقولك الحق: ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ البقرة 216.

أرسلني السيّد محمد الموسوي بصحبة الأخ أبو كوثر إلى دار النشر للمنشورات الإسلامية لزيارة السيّد شرف الدّين صاحب المكتبة والمطبعة التي طبعت كتاب "ثم اهتديت" إلى عدّة لغات في الهند وأعلمني بأن السيّد شرف الدّين رجل متفتّح كثيرا ويتعاطف معهم وخصوصا بعدما قرأ الكتاب.

وفي المكتبة استقبلني السيّد شرف الدين بالترحيب وجاءني بالمشروبات وبعدها طاف بي داخل المطبعة والمكتبة وأراني كتاب "ثم اهتديت" في عدّة أشكال وألوان وكان يحدّثني بأن الكتاب لقي نجاحا كبيرا في الهند وسألني هل من كتاب جديد بعده فقلت "لأكون مع الصّادقين".

قال: ونحن إن شاء الله من الصّادقين مثلكم، فما عنوان كتابكم الجديد؟.

قلت: هو عنوان الكتاب " لأكون مع الصّادقين.

فضحك وهو يقول: سامحني لم أفهم من الأول.

تحدثّنا كثيرا عن أهل البيت والصّحابة ومكانة كلّ منهما وأبدى قناعته بكلّ طروحاتي ولكنّه طلب منّي إن كان بإمكاني زيارة مفتي الجماعة الإسلامية في بومباي فهو سنّي وله أتباع كثيرون يأتمرون بكل أوامره، ولو أقنعته هو فسيكون فتح عظيم لكل المسلمين في الهند. قلت: ما اسمه ؟ أليس هو أبو الحسن النّدوي؟

قال: لا أبو الحسن الندوي يقيم الآن في دلهي، أمّا هذا فاسمه عزيز الرحمان وهو الكلّ هنا.

قلت: أنا لا أرى مانعا في لقائه إن كان يرغب في ذلك طبعاً.

قال: لا عليك أنا عندي معه علاقة وديّة وسأرتّب الأمور، فأين أتّصل بك ؟

قلت: عند السيّد محمد الموسوي.

قال: عندي رقم تليفونه فأتّصل بك حالما أتفاهم وأتّفق مع الجماعة. وقبل خروجي من عنده أهداني مصحفاً غريباً في نوعه، فلم يسبق لي أن رأيت مثله وهو المسمّى بالمصحف الألفي، وهذا المصحف إضافة أنه مذهّب فإنه يبتدئ من أول صفحة ومن السّطر الأول إلى آخر صفحة وإلى السّطر الأخير يبتدئ بالألف، فليس هناك سطر إلا وبدايته ألف ثم إن فيه عدد مائة وثلاثة عشر بسملة على عدد سور القرآن ما خلا سورة براءة وكل بسملة كتبت بخط وشكل خاصّ.

شكرته كثيرا على هديّته الثّمينة واعتبرتها أغلى وأحسن هديّة أهديت لي في حياتي. فقلت له: يؤسفني يا سيّدي أن لا أهديك شيئا لأني عابر سبيل.

فقال: بالعكس زيارتك لي هي أكبر هديّة ثم إن هناك هديّة أخرى أكبر من الزّيارة أطلبها من حضرتك.

قلت: وما هي؟

قال: وهو يقدّم إليّ نسخة من كتاب "ثم اهتديت" اكتب لي إهداء على كتابك بخطّك ليبقى عندي ذكرى لهذه الزّيارة. فكتبت ثم ودّعته شاكرا له حسن ضيافته.

وبعد يومين فقط، جاءني السيد محمد الموسوي إلى مقرّ إقامتي وأعلمني بأن الجماعة في انتظاري وأن السيد شرف الدين قادم ليأخذني عندهم، فهيأت نفسي للخروج ووقف السيّد الموسوي يقرأ على رأسي بعض الأدعية المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، وفهمت بأنه متخوّف عليّ، وخصوصا بعدما قدم السيّد شرف الدين فحذّره السيّد الموسوي وأوصاه بي قائلا: لولاك أنت وثقتي فيك لما تركت السيّد التّيجاني يذهب إليهم، فطمّنه السيد شرف الدّين قائلا: يحصل خير إن شاء الله.

وذهبت بصحبة السيّد شرف الدّين إلى الجامع الكبير في مدينة بومباي ودخلنا من باب صغير خلف الجامع وصعدنا طابقين ومشينا كثيرا حتى وصلنا إلى مقرّ الجماعة.

سلّمنا عليهم وكانوا خمسة يحيطون بالشيخ المفتي عزيز الرحمان وكلّهم يلبسون اللّباس السّعودي ولحاهم تكشف هويّتهم السّلفية وكان في أفواههم ورق أو حشيش يلوكونه بأسنانهم ويمتصّون عصارته ثم يبصقون من حين لآخر في أواني وضعت إلى جانب كلّ واحد منهم.

واشمأزت نفسي لأول وهلة رأيتهم فيها وما شعرت إلا بالنّفور وفهمت بأن الجماعة يبادلوني نفس الشّعور وزيادة خصوصا وأنا أشاهدهم يبصقون لونا أحمر ظننت أنه دم وعرفت فيما بعد بأنه عصير الورق الذي يمضغونه.

وقلت في نفسي: هذا يذكّرني بالحشّاشين وبالغلابة الذين شاهدتهم في اليمن وفي موريطانيا والمغرب وفي كينيا الذين يخدّرون عقولهم بهذا النّوع من "القات"

ليسبحوا في بحر النّسيان والخيال فهل هؤلاء العلماء الذين دعوني للنّقاش العلميّ يخدّرون عقولهم أيضاً فكيف سأناقشهم وموازينهم العقليّة مختلّة ؟

جلست معهم وأنا أبتسم لكل واحد منهم فلا أرى إلا وجوها كالحة تنظر إليّ شزرا وكأنها حيوانات مفترسة تريد أن تنقضّ عليّ وتفتك بي.

دعوت السيّد شرف الدّين للجلوس بجانبي فأسرع وأخذ بيدي وقدّمني للجماعة وهو يقول: السيد الدكتور التّيجاني صاحب كتاب "ثم اهتديت".

ضحك أحدهم قائلا: ثم اهتدى إلى ماذا ؟ إلى الضّلالة بلا شك.

وقلت في نفسي: هذه أول لكمة، فما عليك يا تيجاني إلا بالصّبر وتحمّل الأذى ما دمت ورطّت نفسك وجئت إليهم تمشي على قدميك.

قلت: سامحك اللّه، أنا اهتديت لأهل البيت، العترة الطّاهرة فإذا كان أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً هم ضلالة، فقولك هذا لا يغضبني بل يزيدني شرفا وافتخارا.

تكلّم الثاني قائلا: هكذا الشيّعة دائما يكذبون على الله ويؤوّلون القرآن على حسب مزاجهم، فالقرآن يقول صراحة بأن أهل البيت هم نساء النّبي، وهم يقولون أهل البيت هم أئمّة الشّيعة.

قلت: نساء النّبي أصدق منّا جميعا فهنّ اللائي قلن صراحة بأن أهل البيت هم أئمّة الشّيعة.

ضحك شيخهم الكبير عزيز الرحمان حتى بدت نواجذه وهو يقول: في زمن النّبي ونزول القرآن ما كان هناك شيعة فضلا عن أئمّتهم، فكيف يقول نساء النّبي بأن أهل البيت هم أئمّة الشّيعة ؟

فرحت في داخلي وقلت: الحمد للّه إن الجماعة لم تغب عقولهم بعد بهذا الحشيش الذي يملأ أفواههم فقلت: لا يا سيّدي الشيخ أنا لم أقصد اللّفظ ولكنّي قصدت المعنى.

فزاد ضحكه واستعجابه وقال: وهل عند الشّيعة أن اللّفظ يخالف المعنى ؟

قال الذي بجانبه: إنه النّفاق الذي يسمّونه التّقية.

بدأت أملّ هذا النّقاش الذي لا زال في بدايته، ولكنّي تجلّدت ولم أبالي بالمتكلّم الجديد وتوجّهت لشيخهم الكبير ظنّاً منّي بأنه أذكاهم وأعلمهم وإذا قدّر له أن يقتنع بكلامي فسيكون فتحاً كبيراً.

قلت: يا سيّدي الشيخ دعني اشرح الموضوع بطريقة أخرى، إن عائشة وأم سلمة أمهات المؤمنين وهنّ نساء النّبي قالتا بأن الآية لم تنزل فينا بل نزلت في محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وهؤلاء الأشخاص اتّخذهم الشّيعة أئمّة لهم، فلا يتّقون إلا فيهم ولا يقتدون إلا بهم، وهذا هو قصدي من اللّفظ الذي لا يخالف المعنى.

فضحك بقهقهة حتى شرق بالسّعال وقال: فاطمة إمام الشّيعة ؟ قال رسول الله: "لا أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة" فكيف تكون فاطمة أمير المؤمنين؟

وضحك هو وكلّ الحاضرين، وغمزني السيّد شرف الدّين أن اصبر على استهزائهم.

التفت إليّ أحدهم وقال: الشّيعة كلّهم منافقون ويتستّرون بمحبّة أهل البيت لهدم الإسلام وتخريبه ولذلك كان أهل البيت يلعنون الشّيعة ويحذّرون المسلمين منهم ومن دسائسهم.

قلت: متى وأين وجدت أهل البيت يلعنون الشيّعة؟

قال: في نهج البلاغة سيّدنا علي كرّم الله وجهه يلعنهم ويشتمهم.

قلت: أولا سيّدنا علي لم يلعن شيعته ولكن ذمّ البعض منهم الذين تخاذلوا عن الجهاد في سبيل الله: فهذا هو الموجود في نهج البلاغة أمّا ثانياً فأنا أطلب منكم أن تتفاهموا فيما بينكم على أهل البيت وتشخّصوهم هل هم نساء النّبي كما ادّعيتم منذ قليل أم هو سيّدنا علي كما تقولون الآن؟

فتكلّم أحدهم وكأنه أراد أن ينقذهم من الورطة التي وقعوا فيها فقال: العجيب في الأمر أن الشّيعة من حماقتهم يحتجّون بنهج البلاغة وهو عندهم كالقرآن الكريم وهذا الكتاب يلعنهم ويشتمهم ويكشف كلّ فضائحهم.

وتكلّم الذي بجانبه يؤيّده فقال: الشّيعة هم المجوس الذين دخلوا في الإسلام ليتآمروا على المسلمين وهم الذين قتلوا سيّدنا عمر وسيّدنا عثمان وسيّدنا علي.

قلت: دعونا من الشّيعة فأنا لست لسان الدّفاع عنهم، وناقشوني أنا فأنا لا أمثّل إلا نفسي، وقد كنت مالكيّا ولكن بعد البحث والتنقيب اكتشفت بأني كنت مضلّلا وبأن أهل البيت هم أحقّ بالاتباع من غيرهم وقد سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وآله سفينة النّجاة من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق فإن كانت لكم حجّة غير هذه فأقنعوني بها وأعطوني الأدلّة كي اتّبعكم وأكن لكم من الشّاكرين، وإن لم تكن عندكم حجّة ولا دليل، فاسمعوني واسألوني عسى أن تهتدوا.

قالوا: كيف نستمع إليك وأنت جاهل لا تعرف آيات القرآن ولا أحكامه ؟

قلت: فلنحتكم إلى البخاري ومسلم وهما أصحّ الكتب عندكم بعد كتاب الله، وسأعطيكم الأدلّة من البخاري ومسلم على أن أهل البيت ليسوا نساء النّبي وإنما هم أئمّة الشيعة.

قالوا: كلّ حديث تحتجّون به في البخاري ومسلم هو مدسوس من الشّيعة.

ضحكت لهذا القول الرّخيص وقلت: إذاً، ما بقي لكم شيء تعتمدون عليه ما دام الشّيعة قد دسّوا في كتبكم وفي صحاحكم، فلا عبرة لها ولا لمذهبكم القائم عليها.

واستحسن السيّد شرف الدين هذا المنطق فلم يملك نفسه أن ضحك وضحكت معه.

وتكلّم أحدهم وتعمّد التهريج والاستفزاز فقال: من لا يؤمن بخلافة الرّاشدين سيّدنا أبو بكر وسيّدنا عمر وسيّدنا عثمان وسيّدنا علي وسيّدنا معاوية وسيّدنا يزيد رضي الله عنهم فليس بمسلم وإنما هو شيعيّ رافضي عليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين.

استغربت لهذا المنطق المتناقض وقلت: معقول أن يترضّى أهل السنّة على أبي بكر وعمر وعثمان ولكن على يزيد وأبيه معاوية، فهذا أمر غريب لم أسمع به إلا في الهند، ففي كل بقعة من الدنيا أهل السنّة يقولون قولتهم الشّهيرة "العن يزيد ولا تزيد" فكيف يترضّى المسلمون في الهند عن يزيد.

التفتّ إلى الشيخ الكبير عزيز الرحمان وسألته أتوافقون هذا على ما قاله ؟

فقالوا جميعاً: بأنهم متّفقون على ذلك لأنهم صحابة رسول الله ومن يسبّ الصّحابة فهو من الزّنادقة الذين يجب قتلهم. وعرفت وقتها بأن لا فائدة من مواصلة الحديث معهم وفهمت بأنهم يريدون استفزازي وإثارتي لكي ينتقموا منّي ويقتلوني بدعوى سبّ الصّحابة إذا أقاموا عليّ شاهدين منهم.

ورأيت في أعينهم شرّاً وخفت على نفسي وطلبت من مرافقي السيّد شرف الدّين أن يرجعني إلى السيّد الموسوي الذي ينتظرنا مدّعيا أنه سيأتي بنفسه إلينا إذا ما تأخرنا عنه. وأخرجني السيّد شرف الدين بسرعة وهو يقول إليّ على الدّرج: أسرع يا دكتور قبل أن تحلّ بنا مصيبة، وأسرعت مهرولا وراءه وأنا لا أصدّق النّجاة.

ولمّا خرجنا خارج المسجد تنفّس وتنفّست معه، فاعتذر إليّ على ما وقع وتحسّر كثيراً على هؤلاء الذين كان يعتقد بصلاحهم وغزارة علومهم، وحمد اللّه مرّة أخرى على سلامتي منهم، خرجت من عندهم فرحا بنجاتي وأحسست في داخلي بأني ولدت من جديد، ولكنّي ساخط متأسف على ما وصلت إليه حالة المسلمين في الهند، وخصوصا الذين يتزعّمون مراكز الصّدارة ويتسمّون بالعلماء، وقلت في نفسي: إذا كان العلماء بهذه الدّرجة من التعصّب الأعمى والجهل المركّب، فكيف تكون حالة عامّة النّاس وجهّالهم الذين لا يعرفون غير لغة الخناجر والسّكاكين.

وعرفت عندئذ كيف تقوم الحروب والمعارك بين المسلمين الشّيعة والسنّة وكلّهم بزعمه يدافع عن الإسلام وكيان الإسلام وبكيت على مصير هذه الأمة التّعيسة المنكوبة التي حمّلها الله مسؤوليّة الهداية بعد أن جعلها خير أمّة أخرجت للنّاس.

وقضى رسول اللّه حياته كلّها في تعليمها وإخراجها من الظّلمات إلى النّور وحملها مسؤوليّة إيصال ذلك النّور إلى القلوب المظلمة في كلّ بقاع الدنيا، ولكنّها أصبحت اليوم لا تعرف غير الظّلام وهي بحاجة إلى بصيص من النّور يهديها سواء السّبيل ولو كان المسلمون في الهند على هدى من ربّهم لاستطاعوا أن يؤثّروا في سبعمائة مليون بشر يعبدون الأصنام والبقر والأوثان ولو توحّدت

جهود المسلمين شيعة وسنّة لهدايتهم وإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، لأسلمت القارّة الهنديّة كلّها لربّ العالمين، ولكن مع الأسف الشّديد وبكل حسرة نقولها بأن المسلمين اليوم في الهند وفي غير الهند هم بحاجة إلى الهداية والتّصحيح، وقد كتبت رسالة في هذا الموضوع إلى السيّد أبو الحسن النّدوي عالم الهند، ومن أراد الاطّلاع عليها فليراجع كتابي المعروف تحت عنوان "فاسألوا أهل الذكر" ولمّا رجعت إلى السيّد الموسوي وحكيت له ما وقع لي مع الجماعة فما زاد على قوله: نجوت من القوم الظّالمين.

قلت: نعم أحمد اللّه سبحانه وتعالى على نجاتي ولكنّي انقهرت خلال هذه المحاورة التي خرجت منها مغلوبا ولم أقنع ولا واحدا منهم بل كانوا كلّهم متّفقين على تكفيري وإخراجي من الملّة.

فطمأنني السيّد الموسوي وذكّرني بقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام: " ما جادلت عالما إلا غلبته وما جادلت جاهلا إلا غلبني" ثم أضاف يقول: أنت أديّت ما عليك من نصح وإرشاد وجادلتهم بالتي هي أحسن وإن كانوا غلبوك فذلك دليل على جهلهم، وأجرك على اللّه وعلى أهل البيت.

فرحت لهذه الكلمات وهدأ روعي، فقد أديّت واجبي ورغم الخوف الذي كان ينتابني ورغم التحذيرات التي سمعتها من بعض الأصدقاء فقد خاطرت بنفسي وذهبت إليهم سعيا لهدايتهم ولكنّهم قابلوا الإحسان بالإساءة والمعروف بالمنكر فاللّه وحده يجازي كل نفس بما عملت ولا يظلم ربّك أحدا.

حضرت خلال تلك الأيام موكب عاشوراء والمعارك الدّامية التي قامت بالمناسبة بين الشّيعة والسنّة وكرهت الإسلام الذي يتعامل به الطّرفان والذي يظهر للنّاس بأن اتّباعه وحوش ضارية ودوابّ مفترسة يهزّها التعصّب الأعمى ويقودها الجهل والتّخلّف وتتحكّم فيها العواطف والنّزوات.

يخرج الشّيعة في يوم عاشوراء في موكب رهيب يحملون على أكتافهم تابوتاً كبيراً صنع من أعمدة خشبيّة ومغلّفاً كلّه بقماش أسود على شكل بيت اللّه الحرام ويمثّل هذا التّابوت ضريح أبي عبد الله الحسين يتقدّمه جمع غفير من النّاس وقد أحاطوا به من كل جانب ومن ورائه لا يلبسون على أجسامهم غير

السراويل ويحملون "جنازيراً" وفريق يحمل السّيوف وفريق يحمل سلاسل مدببة ويتقدّم الجميع فريق الطبالة الذين يدقّون الطبّول في نغمات حزينة منسّقة مع "المطبّرين "الذين يضربون أجسامهم العارية بتلك الأسلحة الحادّة فترى الدّماء تسيل على الوجوه والصّدور والأكتاف والظّهور.

وبينما هم على تلك الحالة يهجم عليهم المسلمون السنّة بأسلحة حادّة يريدون منعهم وتفريقهم بدعوى أن هؤلاء الشّيعة يسيئون إلى الإسلام وينفّرون النّاس منه فتكون معركة دامية يسقط فيها من الطّرفين عشرات القتلى ومئات الجرحى ويتدخّل بعدها البوليس الهندي لتفريق النّاس وحبس البعض منهم حتى يعود الهدوء والأمن للبلاد والعباد.

وقد شاهدت هذه الأشياء بعينيّ وكرهت نفسي وتمنيّت أن لا أكون شيعيّا ولا سنيّا كهؤلاء الذين شاهدتهم. لا أكون شيعيّا تهزّني العاطفة أو التقليد الأعمى لأطبّل وأضرب نفسي بالحديد حتى تسيل الدّماء من جسمي، وأنا في الحقيقة ما قدّمت للإسلام شيئا غير الإساءة إليه، ولا أكون سنيّا يهزّني الحقد والتعصّب الأعمى لأضرب غيري بالسّلاح حتى أقتله، وأنا في الحقيقة ما أصلحت شيئا لأن الإصلاح لا يكون بالقوّة وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهكذا يتفرّج الهنود الوثنيّون على الحروب الدّامية بين المسلمين الذين يقتل بعضهم بعضا ويكفّر بعضهم بعضاً وتتولّد من ذلك الأحقاد والضغائن والعداوة والبغضاء التي تتوارثها الأجيال فلا هؤلاء يرتدعون ولا أولئك يتوبون، كل ذلك من أجل مسرحيّة فولكلوريّة أدخلت على الإسلام فقلّدها بعض الشّيعة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأنهم بذلك قد أحيوا ذكرى أبي عبد الله الحسين وأنهم بذلك العمل المشين قد أرضوا سيّدنا الحسين أو نالوا رضاءه، فالحسين هو الإسلام المتحرّك الثّائر الذي لا يرضى إلا بما يرضي الله ولا يغضب إلا لما يغضب الله سبحانه وتعالى فندائي للشّيعة المطبّرين سيبقى مدويّا صارخا حتى يقلعوا عن هذا الفعل الذي ليس فيه منفعة ولا يرجى من ورائه إقناع الغير بل بالعكس فإنه ينفّر النّفوس ويسيء إلى أهل البيت عليهم السلام

ولو أقلع الشّيعة المطبرون عن التطبير لما هجم عليهم السنّة المتعصّبون ولما وقعت مجزرة دامية بين الفريقين ولقبر ذلك الشرّ المستطير إلى يوم يبعثون.

ولو اكتفى الشّيعة المطبّرون بإحياء ذكرى أبي عبد الله الحسين عليه السّلام كما أمر أئمّة أهل البيت عليهم السّلام وذلك بالمراثي الشعريّة وسرد المقتل في حزن وبكاء، لأثّروا في غيرهم من المسلمين الضّالين الذين يحتفلون بذكرى عاشوراء كيوم عيد تقليدا لأسلافهم الأمويّين بدون تحليل منطقي وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأنهم بذلك قد أحيوا سنّة نبويّة ونالوا رضاء الله ورضاء رسوله فيوم عاشوراء سيبقى على مرّ التاريخ ذلك اليوم المشؤوم على الإسلام والمسلمين سيبقى يوم الرّزية العظمى الذي مات فيه ضمير الأمة، فالله ورسوله لا يرضيان إلا بإحياء ذلك الضّمير وحثّه على الجهاد لتبقى كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. وندائي للسنّة المحتفلين بيوم عاشوراء سيبقى مدويّا صارخا حتى يقلعوا عن هذه الظّاهرة المزرية الاستفزازيّة وليس فيها إلا الشّماتة والاستخفاف بمصاب النّبي وأهل بيته، ولا يرجى منه إقناع الغير على أنه يوم عيد مبارك فكلّ الروايات التي وضعت في بركته وفضله كانت لإرضاء يزيد وبني أميّة الذين احتفلوا بذلك اليوم وجعلوه يوم عيد. ونحن اليوم لا نريد أن نكون أنصار يزيد فنشمّت بالحسين ونتّخذ يوم مصرعه يوم عيد لنحتفل به ونوسّع فيه على العيال كما يفعل أهل السنة ولا نريد أن نكون شيعة الحسين الذين دعوه لينصروه فلمّا جاءهم كذّبوه وخذلوه وبعد مقتله ندموا على ما فرّطوا فيه فقاموا يقتلون أنفسهم حسرة وأسى [1].

نريد أن نكون مسلمين حقيقيّين من أنصار الحسين الذين ماتوا واستشهدوا بين يديه وقدّموا أنفسهم فداء له وهناك ساحات الجهاد مفتوحة للدّفاع عن الإنسانية في كل مكان من العالم. وإن لم نقدر على ذلك أو لم تتوفّر لنا الشروط فنقول كما قال أنصار الحسين ومحبّيه: يا ليتنا كنّا معكم سادتي فنفوز فوزا عظيما فالإسلام لا يطلب منّا أكثر من هذين الموقفين الشّريفين إمّا نصرة باليد أو نصرة باللسان والقلب، وفي هذين الموقفين عزّة الإسلام وأهله وتأكيد على مواصلة الدرب الذي سلكه أئمّة الهدى ومصابيح الدّجى أهل بيت العصمة

---

(1) هذا ردا على بعض العلماء الذين يعارضون بأن التطهير أدخله الأتراك في زمن متأخر بل يقولون بأن الشيعة الذين خذلوا الحسين هم الذين تأولوا الآية: ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم إن كنتم صادقين**﴾ فمروا على قبر الحسين بعد أيام من مصرعه وأخذوا يضربون أنفسهم بالسيوف.

والطّهارة الإلهية وتأكيد أيضاً على قوله تعالى: ﴿**فذكّر إن الذّكرى تنفع المؤمنين**﴾ فإن في إحياء ذكرى عاشوراء بالخطب والمواعظ والمراثي الشّعرية والحزن والبكاء تأثيرا كبيرا على السّامعين والمتفرّجين من المسلمين وغير المسلمين قال الله تعالى: ﴿**ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب**﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون".

كنت ذات يوم أتحدّث مع السيّد محمد الموسوي عن تأثير كتاب "ثم اهتديت" على كثير من المسلمين الذين عُرفوا الحق من خلاله وكم أنا معجب به شديد الإعجاب وقال: نحن ساعون بأقصى جهودنا على أمهات هذا الكتاب إلى جبل بور حيث هناك جالية سودانية من الطّلبة الذين منحتهم حكومة الهند منحة لتحضير أطروحة الدكتوراه وعددهم كبير، وقد جلست مع بعضهم ورأيت فيهم استعدادا لتقبّل الحقيقة فهم غير متعصّبين.

فقلت ما رأيك لو سافرتُ إليهم وتحدّثتُ معهم؟

قال: هذا أملي ولكن المسافة بعيدة وشاقّة وأنا لا أريد أن أتعبك بل أريد لك الرّاحة.

وسألت عن المسافة فقال لي ثلاثة أيام في القطار، وانخلعت لهذا الخبر وقلت في نفسي: كيف لي أن أتحمّل ثلاثة أيام داخل القطار الهنديّ. وأحسست بقوّة خارقة تحثّني على السّفر لتغيير الجوّ، فقد فشلت في محاورتي مع عزيز الرحمان وجماعته أصبحت مدينة بومباي مملّة بعدما زرت أكثر معالمها، ثم للإمام أخشى طيلة الرّكوب، وقد قضيت في ما مضى ثلاثة أيام في قطار الشرق الذي يسافر من باريس العاصمة الفرنسيّة إلى اسطنبول العاصمة التركيّة.

قلت للسيّد الموسوي: لا عليك من تعبي فأنا متعوّد على طيلة الأسفار.

وفرح السيّد الموسوي فرحا شديدا وكلّف أحد الشّباب العاملين معه بمرافقتي وخدمتي والعمل على راحتي.

وسافرنا في القطار الذي يتوقّف في كل مدينة وفي كل قرية وما ينزل اثنين من الرّكاب إلا ويصعد ثمانية أو أكثر ويتوقف في بعض القرى ساعتين وثلاث

والنّاس يتزاحمون ويتراصّون ويتعاركون ويغنّون ويرقصــــون، أفــواج نازلــة وأفواج صاعدة، إلا أنا ومرافقي لم نغيّر مكاننا من البداية إلى النّهاية، فقد سبقني مرافقي الذي هو من أصل هنــدي واحتلّ لنا مقعدين خشبيّين افـــترش عليـــهما غطاء سميكا وتركني أنام ممّددا وكان يوفّر لي كلّ ما أحتاجه من مشروبات ومن فواكه وغلال.

ووصلنا إلى جبل بور وهناك كان التّعرف على الأخوة السودانيين الذيـــن نزلت عندهم في المبيت الجامعي وسهرت معهم سهرتين فقط وكان اســتبصارهم بسرعة مذهلة لم اكن أتوّقعها وقد ذكرت قصتي معهم في كتابي الأخـــير "كــل الحلول عند آل الرّسول" فعلى الرّاغبين التّعرف على تفاصيلها مراجعــــة ذلــك الكتاب في فصل "علي وليّ الله."

ورجعت من جبـــل بور وأنا منشرح الصدّر فرحا بالنّجاح الـــذي حقّقته بفضل الله تعالى الذي عوّضني عن بومباي وفشلها وقلت: لعلّ الله سبحانه ســهّل لي السّفر إلى الهند من أجل هذا اللّقاء فلئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها.

والحمد للّه أن تعبي لم يذهب سدى وأن رحلتي للهند كانت مفيدة ومثمرة.

وفي بعض الأوقات أستمع لأخبار السّودان فأقول: من يــدري لعــلّ تلــك البذور التي بذرتها قد نمت وترعرعت وستأتي أكلها بإذن ربّها بعد حين.

الرّحلـة السّويديـة

السّويد

مساحتها: **450.000** كلم مربّع.

عدد سكانها: **9** ملايين نسمة

عاصمتها: ستوكهولم

موقعها الجغرافي: القطب الشّمالي.

حدودها من الشّمال الشرقي: فنلندا

ومن الغرب: النروج

ومن الجنوب: الدانمارك وبحر البلطيك

ومن الشرق: خليج البوسنى



الرّحلة السّويديّة

في إحدى المؤتمرات الإسلامية التي حضرتها في طهران تعرّفت على الأخ محمود الطّاهري الذي يقيم في السوّيد وهو تونسيّ.

كنّا في ليلة الجمعة نقرأ دعاء كميل ولاحظت كثرة البكاء وشدة التّأثر على الأخ محمود ورقّ له قلبي واختليت به بعد الدّعاء فعرّفني على نفسه وأنه من جهة صفاقس كما عبّر عن إعجابه بهذا الدّعاء الذي سمعه لأول مرّة، وأخذ يبصقون عن عدّة مسائل، ولم يفارقني تلك اللّيلة حتى استبصر قبل الفجر فعلّمته وضوء أهل البيت وصلّيت أمامه وهو يصلّي خلفي ونمنا بعدها في الغرفة نفسها.

أعلمني بأنه قدم من السوّيد بصحبة مجموعة تضمّ تونسيّين ومعهم جزائري واحد، وألحّ عليّ أن أسهر في الليلة التالية مع المجموعة وافتح لهم موضوع التّشيع لعلّهم يهتدون .اتّفقنا على أن يعمل هو على جمعهم في غرفته ثم يدعوني لأتعرّف عليهم خلال سهرة علميّة.

واجتمعنا وتعارفنا، عرفوا بأني تونسيّ متشيّع فالبعض يسمع عنّي وكان يتمنّى رؤيتي وتعرّفت عليهم فمنهم الأخ عبد الرحمان الشطّي الذي يدير رابطة المسلمين في ستوكهولم العاصمة السوّيدية ومعه بعض أعضائها ومنهم الأخ الجزائري رشيد بدرة وبدران غزال وكمال مبذر والأخ الأمين بن سعيد وكذلك السيد أبو حيدر والذين لم يحضر منهم إلا رشيد بدرة والأمين بن سعيد.

بدأنا نتحدّث عن الشيّعة والفرق بينها وبين أهل السنّة والجماعة، واستعرضت معهم تاريخ المسلمين باختصار، كما استعرضت معهم الأحاديث النّبوية الصّحيحة الدّاعية للتمسّك بأهل البيت عليهم السلام.

كان الحاضرون كلّهم منسجمون يصغون إليّ بإعجاب عدا واحد منهم يكنّى أبو يس ويقول بأنه أمير الجماعة يفهم من حديثه واعتراضاته بأنه متأثر بكتب إحسان إلهي ظهير الباكستاني الذي يتحامل على الشّيعة، فكان ينتقد الشّيعة ولكن

بدهاء واضح يحاول تغطيته من حين لآخر بقوله: نحن دعاة الوحدة الإسلامية التي ينادي بها الإمام الخميني ولا نحبّ إثارة الفتن بين المسلمين خصوصا في هذا الوقت الذي تكالب فيه الشرق والغرب على محق الإسلام.

فأرجوك وأطلب من فضلك أن توقف الحديث ولا تواصل فنحن في غنى عن هذا ونعمل بقولة تعالى: **﴿تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عمّا كانوا يعملون﴾** البقرة 141.

واعتذرت للحاضرين إن كنت أسأت إليهم في شيء لأني ما كنت لأتكلّم في مثل هذا لولا دعوتهم لي وسؤالهم إيّاي.

وتدخّل بعض الحاضرين بالخصوص محمود الطّاهري الذي ألحّ على مواصلة البحث حتى يتجلّى الحق ونفهم الواقع الذي نعيشه. فقال له أبو يس: أيّ حق وأي واقع، هو يريد (مشيرا إليّ) هدم عقيدتنا من الأساس، أنا أعرف سياسته إنه بدأ كلامه بالطّعن في المنافقين وسينتهي بكم بعد ذلك في طعن الخلفاء الرّاشدين أبي بكر وعمر وفي أكبر راوية للإسلام أبي هريرة وعائشة أمين المؤمنين، وكان يتكلّم بحدّة ووجهه مصفرّ اللّون.

قلت: سامحك الله يا أخي نحن نريد بحثا علميا ولا نريد ملاكمة ولماذا أنت تحكم على الإسلام من خلال هؤلاء الرّجال، والمفروض أنك تحكم على هؤلاء الرّجال من خلال الإسلام، وهذا عين ما قاله الإمام علي عليه السلام عندما سمع رجلا يمدح أبا بكر فقال له: "لو عكست لأصبت لا يعرف الحقّ بالرّجال، اعرف الحقّ تعرف أهله"، فماذا علينا لو حكمنا على هؤلاء النّاس بأحكام القرآن والسنّة.

قال: أيّ سنّة، أنت ترفض السنّة ولا تأخذ منها إلا ما يعجبك وأنا قرأت ما يقوله الشّيعة في أبي هريرة يقولون عنه: كذّاب والعياذ بالله.

قلت: لا تتسرّع، وإذا أردت أن تعرف قول السنّة في أبي هريرة فهو كقول الشّيعة تماما لا يختلف بعضهم عن بعض، ولو صبرت قليلا وسمحت لنا بإخراج الأدلة فسوف تغيّر رأيك في الرّجل.

قال ضاحكا: هذا أمر غريب كيف يطعن أهل السنة في أبي هريرة ويعدّونه راوية الإسلام ويأخذون عنه أكثر الأحاديث ؟ هذا عجيب.

استغرب الحاضرون أيضاً وقالوا: لأول مرّة نسمع بمثل هذا.

قلت: إذا موعدنا في الليلة القادمة إن شاء الله بعد صلاة العشاء وسآتيكم بأسماء المقنعة.

والتقينا في الليلة الثانية وقد جلبت معي من مكتبة المؤتمر التي تعرض الكتب الإسلامية للبيع بأثمان رمزية، جلبت كتاب الموطّأ للإمام مالك وكتاب صحيح البخاري، وكان محمود الطّاهري فرحا مسرورا منتظرا المفاجأة وقد نقل إليّ قول أمير الجماعة أبو يس الذي حاول أن يثبّط همّتهم ويحلّ عزيمتهم لإلغاء اللّقاء ولكن الجماعة أصرّوا على الحضور لكي يعرفوا الأدلّة التي وعدتهم بها واضطرّ أبو يس للحضور معهم خوفا عليهم أن يتشيّعوا.

بدأت السّهرة بافتتاح قصير من الأخ محمود الطّاهري الذي عبّر عن تمسّك الجماعة بمواصلة البحث للوصول إلى الحقيقة فهذه الفرصة التي أتاحها الله لهم لزيارة إيران الإسلام لعلّها تكون ابتلاء لهم، وبدأت كلامي بحمد اللّه والثّناء الذي بشّر عباده الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، وقلت لهم: لا شكّ أنكم متشوّقون لمطالعة الأدلّة التي وعدتكم بها، ولكنّي وكما تعلمون أني عابر سبيل مثلكم وليست مكتبتي تحت يدي، ومع ذلك فقد جئتكم بكتابين وجدتهما هنا وهما لإمامين جليلين من أئمّة أهل السنّة والجماعة، أمّا الأول فهو موطّأ الإمام مالك الذي يقولون عنه رواية عن الشّافعي: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصحّ من كتاب مالك [1].

أمّا الثاني فهو صحيح البخاري وهو غنيّ عن التعريف فهو عمدة أهل السنّة والجماعة، وسوف أطلب أحد المتطوّعين منكم للقراءة، فتطوّع أحدهم وأعطيته موطّأ مالك مفتوحا على الصفحة المعنيّة فأخذ يقرأ والكلّ يستمعون قال:

وحدّثني عن مالك عن سمي مولى أبي بكر بن عبد الرحمان بن الحارث بن هشام، أنه سمع أبا بكر بن عبد الرحمان بن الحارث بن هشام يقول: كنت أنا وأبي عند مروان بن الحكم وهو أمير المدينة فذكر له أن أبا هريرة يقول: من

---

(1) موطّأ مالك ج1 ص7.

أصبح جنبا أفطر ذلك اليوم فقال مروان: أقسمت عليك يا عبد الرحمان لتذهبنّ إلى أم المؤمنين عائشة وأم سلمة فلتسألنّهما عن ذلك. فذهب عبد الرحمان وذهبت معه حتى دخلنا على عائشة فسلّم عليها ثم قال: يا أم المؤمنين إنا كنّا عند مروان بن الحكم فذكر له أن أبا هريرة يقول: من أصبح جنباً أفطر ذلك اليوم، قالت عائشة: ليس كما قال أبو هريرة يا عبد الرحمان أترغب عمّا كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يصنع، فقال عبد الرحمان: لا واللّه، قالت عائشة: فاشهد على رسول اللّه (ص) أنه كان يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يصوم ذلك اليوم.

قال: ثم خرجنا حتى دخلنا على آم سلمة فسألها عن ذلك فقالت مثل ما قالت عائشة، قال: فخرجنا حتى جئنا مروان بن الحكم فذكر له عبد الرحمن ما قالتا، فقال مروان: أقسمت عليك يا أبا محمّد لتركبنّ دابّتي فإنها بالباب فلتذهبنّ إلى أبي هريرة فإنه بأرضه بالعقيق فلتخبرنّه ذلك فركب عبد الرحمان وركبت معه حتى أتينا أبا هريرة، فتحدّث معه عبد الرحمان ساعة ثم ذكر له ذلك.

فقال أبو هريرة: لا علم لي بذاك إنما أخبرنيه مخبر[1].

ضحك الأخ الجزائري عند سماع هذه العبارة وهو يقول بلهجته: اشنيّة ؟ صار هي وكالة أنباء "متاع قيل وقالوا" ؟

قلت: اصبر قليلا وأعطيت الكتاب الثاني وهو صحيح البخاري للمتطوع فأخذ يقرأ: حدّثنا عمر بن حفص حدّثنا أبي حدّثنا الأعمش حدّثنا أبو صالح قال: حدّثني أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبي صلّى الله عليه وسلّم: أفضل الصّدقة ما ترك غنى واليد العليا خير من اليد السّفلى وابدأ بمن تعوّل تقول المرأة: إمّا أن تطعمني وإمّا أن تطلّقني ويقول العبد: أطعمني واستعملني ويقول الابن: أطعمني إلى من تدعني، فقالوا: يا أبا هريرة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قال: لا هذا من كيس أبي هريرة [2].

---

(1) موطأ مالك ج1 ص 272 .

(2) صحيح البخاري ج6 ص 190 باب وجوب النفقة على الأهل والعيال.

قال محمود الطّاهري وهو يضحك: كلّنا مشينا في كيس أبي هريرة وحاول أمير الجماعة أبو يس أن يتفلسف في الحديثين ويجد لهما مخرجا فقال: سبحان الله الذي لا ينسى، أبو هريرة كسائر البشر نسي أو اشتبه عليه الأمر في حديث الجنب الذي يفطر ذلك اليوم فذكّرته أم المؤمنين عائشة فرجع عن رأيه.

أمّا في حديث البخاري الذي يقول: المرأة تقول أطعمني أو طلّقني الخ...

واعترض عليه بعض الحاضرين الذين لم يقتنعوا بكلامه وقالوا: ليس من حقّ أبي هريرة أن يزيد في الحديث من كيسه، فمرّة يقول: لا علم لي وإنما أخبرنيه مخبر ومرّة يقول هذا من كيس أبي هريرة ومع ذلك فهو يبدأ الحديث بقوله قال النّبي: فهذا كذب صريح على النبي.

ولمّا كثر الجدال حول هذا واختلف الحاضرون كلّهم يدينون أبا هريرة إلا أبو يس بقي المدافع الوحيد الذي حاول تأويل الكلام على غير واقعه.

فتدخّلت بلطف لأحسم هذا النّزاع فقلت: يا أخي العزيز سأعطيك دليلا أوضح كي لا يبقى بعده عندك عذر مقبول وإن شئت بعده أن تبقى على رأيك فأنت حرّ ورأيك محترم.

أعطيته صحيح البخاري وقلت: اقرأ وحدك بصوت عال حتى يسمع الجميع، وأخذ الكتاب وقرأ: حدّثني عبد الله بن محمّد حدّثنا هشام بن يوسف اخبرنا معز بن الزّهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبي صلى الله عليه وسلّم، لا عدوى ولا صغر ولا هامّة، فقال أعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرّمل كأنها الظّباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لا يوردنّ ممرّض على مصح.

وأنكر أبو هريرة الحديث الأوقات: قلنا ألم تحدّث أنه لا عدوى، فرطن بالحبشيّة، قال أبو سلمة: فما رأيته نسي حديثاً غيره [1].

وصاح فرحا ألم أقل لكم أنه نسي، ودار الجدال من جديد بينه وبين رفاقه يحاول هو إقناعهم بنزاهة أبي هريرة ملتمسا له عذر السّهو والنسيان والغلط،

---

(1) صحيح البخاري ج7 ص 31 باب لا هامة ولا عدوى.

وهم لا يقبلون منه هذا الاعتذار ولكنّهم يردّدون: ما كنّا نعرف هذا عن أبي هريرة.

قلت: لو كانت المسألة تتعلّق بالسّهو والنسيان لهانت ولكن المسألة غير ذلك تماما لأن أبا هريرة اتّهمه كثير من الصّحابة من أجل كثرة الحديث وعمر بن الخطّاب نفسه كذّبه في حديث خلق اللّه السّموات والانتشار في سبعة أيّام وكذّبته عائشة كما كذّبه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وحسبكم قراءة كتاب "شيخ المضيرة " لمؤلفّه الشيخ محمود أبو ريّة العالم المصري الذي كشف عن أكاذيب أبي هريرة وهو سنيّ.

تكلّم الأخ الجزائريّ فقال: الشّيعة يقولون: إن أبا هريرة كذّاب ولا يعطون الدّليل على كذبه والسنّة يقولون بأنه ثقة ولكنّهم يعطون مائة دليل على كذبه.

انفعل أبو يس أمير الجماعة واصفرّ لون وجهه والتفت إليّ ليقول: أنت تستغلّ بسطاء العقول للتأثير عليهم أمّا أنا فإني حائز على دكتوراه دولة ولا يمكن أن تؤثّر عليّ.

غضب الأخوة من كلامه وكيف ينتقص من شأنهم ويقول عنهم بسطاء العقول.

فتكلّم الأخ الشطّي رئيس الرّابطة وقال: يا أخ التّيجاني نحن معك إلى الصّباح وسنستمع لكلّ ما تقوله، ومن كان عقله بسيطاً فالباب مفتوح وما عليه إلا الخروج ومغادرة المكان.

وفهم أبو يس أنه المقصود لكنّه فهم أيضاً بأنه احترق عندما احتقرهم وسمّاهم بسطاء العقول.

وتدّخلت أنا لتهدئة الجوّ فقلت: يا أخ أبو يس أنا أحترم رأيك ولو لم تكن حائزاً على دكتوراه دولة فأنا لا أريد أن أقول لك بأني أنا أيضاً دكتور ولكن هذه الشّهادات وهذه الألقاب لا تعني بالنسبة إليّ شيئا لأني تعلّمت من أمير المؤمنين عليه السلام قوله الحكيم: "قيمة المرء فيما يحسن المرء مخبوء تحت طيّ لسانه لا تحت طيلسانه".

فقام أبو يس غاضبا وغادر الغرفة وكنت أحاول إبقاءه معنا ولكن الجماعة غمزوني لأدعه يخرج كي يستفيدوا من الجلسة ولمّا خلا المكان منه طلبوا منّي تعليمهم كيفيّة الوضوء والصّلاة على طريقة أهل البيت عليهم السّلام، ففعلت، ونزلوا من الغد إلى غرفتي وطلبوا منّي مصاحبتهم إلى معرض الكتاب كي أشير عليهم بالكتب التي تفيدهم، واشتروا من المعرض كل كتب الشّيعة المعروضة، ولمّا كان يوم المغادرة بعد انتهاء المؤتمر وجّهوا إليّ الدّعوة لزيارتهم في السويد عسى أن أقنع المزيد من رفاقهم وأعلموني بأن رابطتهم الإسلامية تنتمي إلى السّعوديّة وأن الفكر الوهابي انتشر بين المصلّين لأن أغلب المسؤولين عن الرّابطة يتقاضون مرتّبات شهريّة بالإضافة إلى المبالغ المخصّصة لإحياء شؤون الرّابطة.

وجاء اليوم الموعود واستقبلني الأخوة بالمطار في العاصمة السويدية ستوكهولم ونزلت ضيفا عند الأخ الشّطي رئيس الرّابطة وفي يومين وخلال محاضرتين انقسمت الرّابطة إلى قسمين وتشيّع أغلبهم بإعانة الإخوة الذين عرفتهم خلال المؤتمر وكان أشدّ النّاس حماسا للتشيّع الأخ محمود الطّاهري والأخ الجزائريّ رشيد بدرة ولكن إمام الرّابطة شرف الدّين المصري ومعاونه حسين التّونسي بقيا معادين ومعاندين وبدأ الإمام يحسّ بالعزلة شيئا فشيئا فلجأ إلى المواجهة والهجوم العنيف على الشّيعة وقال فيما قال: أنا أعرف أن علماء الشّيعة كذّابين ومنافقين وأن أعظم كتاب عندهم هو كتاب المراجعات الذي يفتخر به الدكتور التّيجاني نفسه، هذا الكتاب كلّه كذب ونفاق.

استفزّني كلامه الذي قاله بمحضر أكثر من عشرين رجلا فقلت: اتّق الله فأنت إمام الجماعة والمفروض أن الإمام يكون مثال الصّدق والأمانة ولا يقول بما لا يعلم، فكيف لو طالبتك بالدّليل على ادّعائك.

قال: عندي دليل على ما أقول وأنا لا أتكلم إلا بما أعلم، استغربت منه هذه الجرأة وتحدّيته أمام الحاضرين قائلا: إن هذا الكتاب هو بالفعل من أعظم الكتب التي أثّرت فيّ شخصيّا وقد تتبّعته بالبحث فوجدته ينقل بدقّة أعني مؤلّفه وهو السيّد شرف الدين الموسوي ينقل بدقّة وأمانة فلا يزيد ولا ينقص فأنا أتحدّاك أمام

الحاضرين إن جئتني بكذبة واحدة في كتابه فسوف العنه أمام الجميع والعن الشّيعة معه.

قال: أتشهدون عليه يا جماعة ؟

قالوا: لقد حكم على نفسه بنفسه، قلت: وهو كذلك.

قال: موعدنا الليلة وسآتيكم بالدّليل القاطع، إن شاء الله.

قال الأخ الجزائريّ: السهرة الليلة في بيتي فأنتم كلّكم مدعوّون للعشاء عندي وبعد العشاء نبحث في الموضوع، وكان الاتّفاق على ذلك.

بقي الأخ محمود الطّاهري متخوّفاً ويحذّرني من الإمام على أنه متّقف ومطّلع على أمور كثيرة وأغلب النّاس يثقون بعلمه فلو انتصر عليك، لا قدّر الله فستكون ردّة لكلّ من تشيّعوا.

فهدّأت من روعه وطمأنته بأن شرف الدين الشّيعي أعلم من شرف الدّين السنّي. وكان اللّقاء، الإمام المصريّ يتبعه معاونه حسين التّونسي ويحمل حقيبته، وبعد تناول العشاء وقضاء فريضة الصّلاة.

افتتح صاحب البيت الأخ رشيد بدرة الجلسة بكلمة وجيزة دعا فيها الحاضرين وكانوا يزيدون على الثّلاثين رجلا ونساءهم في الغرفة المجاورة، دعاهم كلّهم لاحترام المجالس العلميّة ولزوم الصمت وقال: كلّنا نستمع للدكتور التّيجاني والإمام شرف الدّين فلسنا هنا للخصام ولا للملاكمة وإنما نحن نريد الوصول إلى الحقيقة، وهذه الحقيقة قد تكون مع التّيجاني وقد تكون مع شرف الدّين فنحن يجب أن نكون مع الحقّ لا مع الأشخاص.

أخرج الإمام شرف الدّين المصري من حقيبته كتاب النصّ والاجتهاد ثم أخرج معه صحيح البخاري وفتح كتاب النص والاجتهاد وأعطاني إيّاه وطلب منّي قراءة الصّفحة المسطّرة وقرأتها وأنا أعرفها فهي تتعلّق باجتهاد عمر بن الخطّاب عندما جذب رسول الله صلى الله عليه وآله من قميصه وهو يصلّي على عبد الله ابن أبي المنافق وقال له: إن الله نهاك أن تصلّي على المنافقين.

قلت: وماذا فيها فالقضيّة معروفة ولا ينكرها أيّ باحث.

قال: نعم أنا لا أجادل في القضيّة وإنما في العالم الشّيعي الذي يكذب ويقلّب الحقائق.

قلت: وكيف ذلك، ما وجدت في القصّة كذبا ولا تقليبـــــاً للحقيقـــة أعـــدت القراءة، خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي على عبد الله بن أبي فجـــاء عمر فجذبه من قميصه.

قال: قف هنا واقرأ التعليق الذي كتبته أنا، فقرأت على الحاشية وقد ســـطّر كلمة فجذبه بسطرين، قوله: انظروا إلى هذا الكذّاب الدجّال الذي يحرّف الكـــلام عن مواضيعه ثم أولغ سبا وشتما في المؤلّف وفي الشّيعة عامّة.

فقلت مستغربا: ما فهمت حتى الآن قصدك، وأين الكذب والتحريف أنا مـــا رأيته.

قال: إنه هنا يستشهد بالبخاري وها هو البخاري أمامنا، خذ اقرأ بنفسك مـــا ذكره البخاري، وناولني كتاب البخاري فقرأت: فجاء رسول الله (ص) ليصلّـــي عليه، فمسكه عمر.

قلت: ما هو الفرق بين هذا وذاك المهمّ أن عمر منع رسول الله من الصّلاة وأنا لا أرى فرقا بين جذبه أو مسكه. فصاح قائلا: وهذه مصيبتك، أنت جـــاهل باللّغة العربيّة

ولا تفرّق بين جذبه ومسكه، فلفظ مسكه تعني اللّين واللّطف وجذبه تعنـــي الشدّة والعنف، وسيّدنا عمر كما يقول البخاري: مسك رسول الله برفق ولطـــف وليس كما يقول عالم الشّيعة جذبه وهو يوحي بتحريفه هذا على أن سيّدنا عمـــر رضي الله عنه وأرضاه كان يستعمل الشدّة والعنف مع حضرة الرّسول.

ونظرت حولي إلى الحاضرين وقد انتكست رؤوسهم وأوجست في نفســـي خيفة أمام شرف الدّين الذي أخذ يصول ويجول بنخوة الانتصـــار علـــيّ أمـــام الجموع الحاضرة، لأني تحدّيته أمامهم إن جاءني بكذبة واحدة فســـألعن الشّـــيعة وعلى رأسهم صاحب المراجعات وها هي الكذبة واضحة في نظر الحـــاضرين لأن شرف الدّين الموسوي أبدل كلمة مسكه بكلمة جذبه وهذه خيانة علميّة.

وفجأة جاءني الجواب وقرأت من جديد ما كتبه شرف الدّين قائلا: وإليـــك منه ما أخرجه البخاري في كتاب اللّباس من صحيحه، وراجعت كتاب البخـــاري الذي جاء به الإمام معه فوجدته يستدلّ بغير الكتاب الذي ذكـــره شـــرف الديـــن الموسوي، عند ذلك، فهمت وقلت لإلقاء المصري: لا تتسرّع بفرحة الانتصـــار،

وأنا اتّهمك أنت الآن بالدّس، فلماذا لم تأت بالجزء المذكور والذي فيه كتاب اللّباس فإن كنت تعلم فتلك مصيبة وإن كنت لا تعلم فالمصيبة أعظم.

قال صائحا يسأل الحاضرين: أهناك كتاب آخر للبخاري غير هذا ؟

قلت: لا أنا اقصد لماذا لم تأت بالأجزاء كلّها وجئت بهذا الجزء فقط ؟ لأني أعرف أن البخاري ينقل الحادثة في عدّة أبواب من صحيحه ويتصرّف في الحديث فيغيّر هو معانيه حفاظاً على كرامة الصّحابة ولو كان ذلك على حساب رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلّم فتهلّل وجه صاحب البيت رشيد بدرة وقال: أنا عندي صحيح البخاري هنا بكل أجزائه. فقلت: هلمّ به إلينا وفي لحظة جاء الكتاب وأخرجت كتاب اللّباس الذي استدلّ به شرف الدين الموسوي وإذا فيه: فجاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليصلّي عليه فجذبه عمر، فصاح رشيد بدرة: اللّه أكبر وتهلّل الحاضرون كلّهم وانتكس الإمام المصري لأنه أصيب بذهول وتبيّن لي أنه ما كان يعرف بوجود هذا الحديث ولكنّه لمجرّد ما فتح البخاري ووجد كلمة مسكه عوضاً عن جذبه ظنّ المسكين أنه اكتشف زيف الشّيعة وأكاذيبهم فطأطأ برأسه إلى الأرض ولم يزد شيئا رغم الكلمات النابية التي وجّهها إليه الأخ رشيد بدرة الذي قال له فيها: يا شرف الدّين كنّا نظنّك عالما متبحّرا فإذا بك فارغ وتتّهم العلماء الاجلاء بالكذب والدّجل وتسبّ وتشتم أناساً أبرياء أفضوا أمرهم إلى اللّه.

فقام معاونه حسين التّونسي لينقذ الموقف ويخرج زميله من الورطة التي وقع فيها فقال موجّها كلامه إليّ: إن إمامك الذي تدعو إليه عنده شذوذ فهو يجيز نكاح المرأة من دبرها، استغربت منه هذا القول وهو الذي لم يتكلّم أبداً وكان يمتاز بالسّكوت والاستماع.

قلت: أي إمام دعوتك إليه ؟

قال: الإمام الخميني.

التفتّ للحاضرين وسألتهم: هل كلّمتكم منذ قدمت إليكم عن الإمام الخميني ؟

قالوا: ما سمعنا منك إلا الكلام عن أئمّة أهل البيت ولم نسمعك أبداً تتكلّم عن الإمام الخميني.

قلت له: لماذا تتّهمني بشيء لم يقع أبداً هذا أولاً، أمّا ثانياً فلماذا تنكر على الإمام الخميني وتتّهمه بالشّذوذ في مسألة فقهيّة اختلف فيها الصّحابة أنفسهم بين مانع ومكره ومجيز وإذا استنكرت ذلك على الإمام الخميني، الذي قال بالكراهة لماذا لم تستنكره على البخاري الذي قال بجوازه قبل ألف عام.

فقال: حاشى البخاري من هذه السّفاسف.

قلت: البخاري بين أيدينا، وفي لحظة وجيزة أخرجت له وللحاضرين قول البخاري عن عبد الله بن عمر في تفسير قوله تعالى: ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾ قال يأتيها في.... واستقطع الكلمة فلم يكتبها.

فلمّا قرأ الأخ رشيد بدرة هذا الحديث غضب وقال للتّونسي: أنت أيضاً تريد طمس الحقيقة ونصرة الباطل، غدا خذ أدباشك وارجع من حيث أتيت فأنا لا أكفلك أبداً وانتهى كل شيء بيننا.

وتبيّن لي أن التّونسي جيء به من باريس ليؤمّ المصلّين في غياب الإمام المصري الذي يتغيّب شهورا عندما يسافر إلى مصر ووعد الأخ رشيد بدرة أن يزوّجه من سويّدية ويحضّر له أوراق الإقامة والمعاملات القانونيّة.

وحاولت إقناع الأخ الجزائري بإتمام ما وعده به فرفض قائلا: أنا لا أعين الباطل ولا أكون للظّالمين ناصرا، وقد تبيّن لي أن هؤلاء فارغين ونحن كنّا غافلين.

كانت فرحة الإخوان المستبصرين كبيرة خصوصا الأخ محمود الطّاهري الذي ألحّ عليّ في السّفر معه إلى مدينة قوتو بورق حيث يقيم هناك مع جالية إسلامية كبيرة اغلبها من الأتراك، واستشرت الإخوة فاستحسنوا ذلك، وسافرت معه ليلة كاملة في القطار السّريع وقضيت في بيته يومين نسهر في اللّيل في المسجد مع المصلّين وإمامهم من الأتراك النّاطقين بالعربيّة وقد استهواه البحث ومال إلى التشيع ولكنّه فضّل الكتمان على حاله حتى يتكاثر المستبصرون ولمّا كان اليوم الثّالث اتّصل بنا جماعة استكهولم طالبين منّي القدوم على جناح السرعة لأن الجماعة المناوئين استنجدوا بأحد العلماء الكبار الذي قدم من النروج خصّيصا لإبطال دعوتي وهو في انتظاري.

وركبت قطار اللّيل ووصلت يوم الجمعة صباحا وكان في انتظاري بالمحطّة ثلاثة من الإخوة، فأعطوني بعض الإرشادات عن العالم الذي يسمّى أبو لبن وهو متخرّج من جامعة عبد العزيز بالسّعوديّة وهو الذي يتعهّد الرّابطة من حين لآخر ويبدو أن السّعودية أسّست رابطة إسلامية لنشر الوهابية في كل بلد من البلاد الاسكندنافيّة التي تقطنها جاليات إسلامية لا بأس بها.

تركوني لأخذ نصيباً من الرّاحة والنّوم لأني قضيت ليلة بيضاء بالقطار ولمّا استيقظت كان أحد المستبصرين يروي لنا بأن أبو لبن هو الذي صلّى بالنّاس صلاة الجمعة وقد اكتظّ المسجد بالنّاس فخطبهم خطبة كلّها تكفير للشّيعة وتحقير لهم ولعقائدهم الزّائفة المزيّفة حسب تعبيره. وكان الغداء والدّعوة للمناظرة في بيت أحد الإخوة المستبصرين وهو من أمثلة العرائس من ولاية قفصة اسمه احمد العيساوي وكان يحبّني كثيرا وهو صاحب نكتة وطرافة فكان يقول للجماعة: أنا لا أخاف على ولد بلادي.

وجاء أبو لبن ووراءه رجل سوداني يحمل حقيبته اليدويّة وهو رجل طويل القامة بلباس عربيّ ولحيته تتدلّى على صدره وعلى عينيه نظّارات، قام الجميع يسلّمون عليه وقمت معهم، قدّموني إليه فكأنه احتقرني ولم يعبأ بوجودي وتقدّم صاحب البيت باقتراح طلب فيه تسجيل ما يدور بيننا من جدال ووافقت أنا ولكن أبو لبن رفض التسجيل وبدأنا الحوار.

قلت: قبل كلّ شيء ما رأيك بالشّيعة ؟

وأردت بهذا السّؤال أن أحرجه أمام الحاضرين الذين صلّوا معه وسمعوا قوله.

وأراد التخلّص من هذا السّؤال ولكنّي أصررت على الإجابة فقال: نحن نكفّر الشّيعة لأنهم لا يؤمنون بقرآننا وعندهم قرآن خاصّ بهم يسمّونه مصحف فاطمة، ضحكت لهذه المعلومات وعرفت قيمة مجادلي وما مبلغه من العلم، فقلت: **﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحقّ إذ قرّبا قربانا﴾**.

أنت تكفّرنا، أمّا نحن فلا نكفّرك، إنما نقول بأن الدّعايات الأموية ضلّلتك ونطلب من الله أن يهديك إلى الحق. وأنا سوف لن أجادلك في قضايا وهميّة

ترددّونها كالببّغاء خلفاً عن السّلف بدون تحقيق ولا تمحيص، ولكنّي سوف أجادلك في قضيّة اعتقد أنها من أهم القضايا التي تجمع المسلمين وتنقذهم من النّار ليفوزوا بالجنّة.

قال: هات ما عندك فما هي القضيّة ؟

قلت: قضيّة أهل البيت عليهم السّلام ووجوب الاقتداء بهم لعصمتهم.

قال: لنبدأ بأهل البيت، من هم أهل البيت ؟ أليست عائشة منهم؟

قلت: لا، لأن عائشة نفسها ما ادّعت يوما أنها منهم.

قال مستغربا وهو يكلّم الحاضرين: أعندكم مصحف قرآن في البيت؟

قلت: أتريد أن تقرا قوله تعالى: ﴿ **يا نساء النّبي لستنّ كأحد من النّساء إن اتقيتنّ فلا تخضعن بالقول** ﴾.

قال: نعم هي هذه.

قلت: هذه لا تقصد نساء النّبي لأن الله سبحانه عندما خاطب نساء النبي خاطبهم بنون النسوة، فقال لستن، إن اتّقيتنّ، فلا تخضعن، وقلن قولا معروفا، وقرن في بيوتكنّ ولا تبرّجن، وأقمن الصّلاة، وآتين الزّكاة، وأطعن الله ورسوله، فكلّ هذا خطاب لنساء النّبي لكنّ قوله سبحانه: ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا**﴾ خارج عليهنّ، ولو كان المقصود بها نساء النّبي لتواصل السّياق نفسه ويقال: إنما يريد الله ليذهب عنكنّ ويطهّركن، فقال أبو لبن مستهزئا: يبدو أنك لا تعرف اللّغة العربيّة وتجهل قواعدها، وإلا ما وقعت في هذا الخطأ الفاحش.

قلت: لماذا علّمني.

قال: لأن اللّغة العربيّة تأتي بنون النّسوة عندما يكون نسوة فقط ولو كان عددهنّ ألف امرأة، أمّا إذا كان بينهنّ رجل واحد فتاتي اللّغة بجمع المذكّر.

قلت: أنا اعرف ذلك وهذه من القواعد الابتدائيّة التي نعرفها.

قال: فلماذا تحتجّ عليّ بأنها لا تخصّ نساء النّبي ؟

قلت: لعدّة أسباب وعدّة وجوه سوف أوقفك عليها فيما بعد ولكن سلّمت لك جدلا بصحّة ما تذهب إليه، فسؤالي إليك من هو الرّجل الذي قصده الله ودخل مع نساء النّبي في هذه الآية ؟

قال بدون تردد: هو سيّدنا علي كرّم الله وجهه.

قلت: الحمد للّه ربّ العالمين فهذا يكفيني حجّة ودليلا، فأنت تقول بأن الله اذهب الرّجس وطهّر نساء النّبي جميعا ومعهنّ الإمام عليّ.

قال: أقول بذلك وهذا هو الردّ المناسب لمزاعم الشّيعة الذين يريدون إسقاط نساء النّبي من العصمة لأنهم لا يحبّون أم المؤمنين عائشة ويتّهمونها بكلّ فاحشة.

قلت: دعنا من الهروب إلى الهامشيّات وخلّنا في صلب الموضوع، فأنا أعيد عليك أمام الحاضرين لتتأكد ممّا تقول، فقد قلت بأن الآية نزلت في نساء النّبي ومعهم رجل واحد هو علي.

قال: نعم، قلت: تثبّت لعلّه أبو بكر، قال: لا، قلت: لعلّه عمر ؟، قال: لا، قلت: لعلّه عثمان ؟، قال: إنها لم تخصّ من الرّجال إلا علي فقط، فلماذا أنت تكرّر ما تقول؟

قلت: لأن العصمة لم تثبت إلا لرجل واحد هو علي بن أبي طالب حسب شهادتك، وهو دليل قاطع على صحّة عقيدة الشّيعة لأن المسلمين مطالبون بالاقتداء بالرّجال دون النّساء والمسلمون اتّفقوا كلّهم على أمير للمؤمنين ولم نسمع بأميرة المؤمنين.

فكبّر لذلك الحاضرون وقالوا: إنها حجّة قاطعة يا أبا لبن.

قال: نحن علماؤنا كلّهم متّفقون على نزول الآية في نساء النّبي.

قلت: اتّق الله يا رجل أنا أقول قال الله، وقال رسول الله وأنت تقول: قال العلماء، أفتقدّم قول العلماء على قول الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم.

قال: ماذا قال الرّسول.

قلت: جمع تحت كساء نفسه وعليّا وفاطمة والحسن والحسين ثم قال: "اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس" فنزلت الآية.

قال: هذا ما يقوله الشّيعة.

قلت: اتّق الله في الشّيعة فإنهم لا يقولون إلا قول الله ورسوله، وهذا الذي تنكره أنت ذكره صحاح السنّة.

قال: ما رأيت عند علماء السنّة وفي صحاحهم هذا أبداً.

قلت لصاحب البيت: هل لك أن تأتينا بصحيح مسلم؟ فاحضره فناولته لأبي لبن ليقرأ في فضائل أهل البيت، أن عائشة هي التي روت رواية الكساء ونزول الآية في هؤلاء الخمسة المذكورين. فلمّا قرأ ذلك في صحيح مسلم تغيّر لونه وتلعثم في الكلام.

وظهر عجزه قلت: أعرفت لماذا نحن نخصّ هؤلاء بنزول الآية، لأن عائشة التي تريدون إلصاقها بالآية لا توافقكم هي نفسها على ذلك وكذلك أم سلمة من نساء النبي قالت: أردت الدّخول معهم تحت الكساء فمنعني رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقال أنت إلى خير. وقام الأخ رشيد الجزائري وقال متوجّها إلى أبي لبن وهو يضحك: أنا من اليوم سأسميك أبا لهب لأنك تترك قول رسول الله وتتبع قول العلماء الذين علّموك في السّعودية.

قال: أنا اكره السعوديين وهم يكرهونني وقد طردوني من بلادهم، واستشهد بالسوداني الذي يرافقه. وتحوّل الحديث بعد ذلك عن الوهابية ومؤامرتهم وانتهت الجلسة على أحسن ما يرام وازداد المستبصرون بذلك فرحا وابتهاجا.

وما خرجت من السّويد حتى انقلبت الرّابطة إلى شبه حسينيّة.

واستقدموا بعد ذلك شيخا معمّما من قم المقدّسة وأسسوا مسجدا للشّيعة هناك يديره جماعة المستبصرين بمعيّة مجموعة من العراقيّين على رأسهم السيد أبو حيدر الذي ساهم بكل جهوده وأمواله في إنجاح المشروع.

الــرّحــــلــة البــريطــانيــة

بريطانيا العظمى

مساحتها: **243.560** كلم مربّع

عدد سكانها: **58.5** مليون نسمة

عاصمتها: لندن

موقعها الجغرافي: غرب أوروبا

حدودها: جزيرة عائمة في المحيط الأطلنطي وبحر الشّمال

قريب منها من الشرق فرنسا ومن الغرب ايرلندا

الرحلة البريطانية

لست مبالغا إذا قلت بأن زياراتي لبريطانيا تعدّت العشر مرّات أولها كان سنة خمس وسبعين وآخرها كان سنة اثنين وتسعين أو ثلاث وتسعين

في سنة إحدى وثمانين كنت من مؤسّسي رابطة أهل البيت العالميّة في لندن وكنت احضر في كلّ دورة تعقد لتجديد الهيئة الإدارية وانتخبت عضوا من الهيئة الإدارية في ثلاث دورات متتالية.

وكنت أيضاً احضر في المؤتمرات الإسلامية العديدة التي تعقد في لندن العاصمة البريطانية.

في إحدى المرّات دعتني الإذاعة العربية والتي تسمّي إحدى برامجها ندوة المستمعين ويديرها دكتور مصري أجرى معي حوارا على الهواء اثر حرب الخليج واحتلال الكويت وأجبت فيه على مسائل متعدّدة في الشّؤون السّياسية والدّينية، وقد اتّصل بي عدّة أشخاص من الرّجال والنّساء من المسلمين ومن المسيحيين وأتذكر أن إحداهن أعلنت إسلامها وشهدت أن محمّدا رسول الله.

مرّة أخرى دعيت لإذاعة عربيّة أخرى تسمّى إذاعة كل العرب يديرها الدكتور نجم عبد الكريم، وكانت الدّعوة على حصّتين في كل ليلة ساعة ونصف.

وقد خصّصت الحصّتين للمواضيع الدينية والتّاريخيّة ورغم أن الدكتور نجم عبد الكريم تولّى الدّفاع عن أهل السنّة والجماعة وعن الخلفاء الرّاشدين كأفضل العلماء السنّيين مع ذلك فقد هوجم مهاجمة عنيفة من قبل بعض المتعصّبين الذين لم يتحمّلوا أن يسمعوا صراحتي وجرأتي، ولم يقدروا على دحض أدلتي، فأسرعوا إلي السّفير السّعودي وأيقظوه من نومه قائلين له: تعال اسمع التّيجاني يهاجمكم في عقر داركم وفي إذاعتكم التي تموّلونها.

وهجموا على مقر الإذاعة وأرادوا أن يفتكوا بالدكتور نجم عبد الكريم ومن حسن حظي لم اكن هناك لأني خرجت قبل وصولهم، وانهارت أعصاب الدكتور

نجم عبد الكريم وحمل إلى المستشفى وبقي يومين أو ثلاثة هناك في غيبوبة ومن الغد أصبحت المعلّقات في "هايد بارك" مكتوب عليها " نحن الشّباب المسلم الأفغاني قررّنا أن نتقرّب إلى الله سبحانه بقتل المرتدّ التيجاني السماوي ونجم عبد الكريم الذي جاء به وذهبت لزيارة الأخ الدكتور نجم عبد الكريم في بيته اثر الإصابة التي أصابته فأطلعني على إحدى المعلّقات المذكورة.

قلت: طيّب أنا على زعمهم مرتدّ فما هو ذنبك أنت وقد توليّت لسان الدّفاع عنهم افضل ممّا يقوله علماؤهم.

قال: لأنهم لمّا جاؤوني وهدّدوني وتوعّدوني قلت لهم: لماذا كلّ هذه الضجّة؟ لقد دعيت للإذاعة كلّ الأشكال والألوان من النّصارى واليهود ومن الملحدين والشّيوعيين وكل الملل فلم تحرّكوا ساكنا وكنتم راضين، وعندما جاء التيجاني وتكلّم في الإسلام ثارت ثائرتكم، فأنا الآن تيقّنت أنه على حقّ لأنه لا يثيركم الحقّ وأنتم تحاربون الحقّ.

جاءني الأخ محمد الحكيمي واعلمني بأن العراقي المتعصّب واسمه السّامرّائي والذي كان ينتقدك وينتقد كتبك في الليلة الاولى هو نفسه يروّج كتبك ويبيعها. استغربت من هذا القول وبدا لي مستحيلا.

فقال الأخ الحكيمي أنا سأطلعك على ذلك هذا اليوم وستراه بنفسك، إن شاء الله.

قلت: هلا نخاف بطشه؟

قال: هو لا يعرفك، وأنت بهذا الشّكل لا أحد يعرفك.

ذهبنا إليه في مكتبته التي يبيع فيها الكتب والمجلات والجرائد، دخلنا فرأيت مجموعة كتبي الثّلاثة "ثم اهتديت" " لأكون مع الصّادقين" "فاسألوا أهل الذكر" أخذت الكتاب الأول فإذا بسعره سبعة جنيهات استرليني، وبالقرب منه مجلّد كبير يباع بخمسة جنيهات فقط.

دعوته فأقبل مسرعا سلّمت عليه فسلّم بحرارة سألته لماذا يباع هذا بسبعة بينما المجلّد بحجمه مرّتين يباع بخمسة فقط ؟

فقال: يا أخي هذا إنسان مجنون اغترّ النّاس بعنوانه "ثم اهتديت" فحسبوه يهودياً أو نصرانياً اعتنق الإسلام، وكل الخليجيّين الذين يزورون لندن يسألون عن هذا الكتاب فأنا اكسب من ورائه.

اتّصل بي أحد المؤمنين العراقيين واسمه حيدر وهو طبيب جرّاح اختصاصه جراحة القلب، كلّمني في التّلفون ألح عليّ أن ازور مجموعة الشّباب عندهم في "قلاسكو" شمال بريطانيا، وحاولت الاعتذار لضيق الوقت ولكنّه اقسم عليّ بأهل البيت إلا ما لبّيت دعوته قائلا: أنا عندي موضوع مهمّ أريد التّحدّث فيه معك أنت شخصيّا وأرسل إليّ تذكرة الرّكوب على الفور.

وصلت المطار فوجدته في انتظاري بمفرده وركبنا سيّارته وقال: يا سيّدي أنا موضوعيّ سهل جدّا أتمنى أن تلبّي رغبتي وقبل طرحه مع حضرتك سأقص عليك قصّة حياتي باختصار شديد، قلت: تفضّل إن شاء الله خير.

قال: أنا من أب سنّي وأم شيعيّة موالية لأهل البيت وتحبّ الإمام علياً كثيرا، ولمّا كانت حبلى بي رأت في منامها أمير المؤمنين يبشّرها بمولود ذكر اسمه حيدر، فكنت أنا هو حيدر وكانت كثيرا ما تحكي لي عن منامها.

نشأت بين مدرستين مختلفتين ولكن لم اعرف سوى مدرسة السنّة باعتبار أن والدي سنّي والمدارس التي تعلمّت فيها في بغداد كلّها سنيّة، ولم اعرف من مدرسة أهل البيت عليهم السّلام سوى انتماء والدتي إليها بالحبّ والولاء فكنت أشاهدها تصلّي وتتوضأ على غير ما نفعله فكان والدي لا يعارضها في شيء ممّا تفعله.

وكبرت ودخلت الجامعة وهناك بدأت اشعر بالخلاف والمشاكل فكلّ ما اذكر أحد الخلفاء الرّاشدين أو أم المؤمنين عائشة إلا ورأيت في وجه والدتي نفورا واشمئزازا وكانت كثيرا ما تثار هذه المسائل بين أمي وأبي وتسبّب بعض المشاكل.

وبقيت متحيّرا متذبذبا بين طاعة والدي الذي علّمني وأدبني وأنفق عليّ دمه وعرق جبينه حتى أوصلني إلى ما وصلت إليه، وبين طاعة والدتي التي ولدتني

وأرضعتني وربّتني فأحسنت تربيتي بعطفها وحنانها حتى أوصلتني إلى ما وصلت إليه.

وبدأت ابحث في موضوع الشّيعة والسنّة واقرأ بعض الكتب الشّيعيّة وأجالس بعض العلماء من الطّرفين فوجدت في النّهاية أن أمي على حقّ وكل الأدلة معها واكتشفت أن والدي من أولئك الضّحايا الذين احسنوا الظنّ بكل الصّحابة فتاهوا في متاهات التّاريخ.

ضحكت من كلامه وقلت: كيف ذلك؟

قال: اي باللّه والدي إذا ذكر معاوية يترضّى عنه بكل إجلال واحترام.

قلت: طيّب اكمل حديثك.

قال: المهمّ أني تشيّعت بغير علم والدي لأني كلّما حاولت الدّخول معه في نقاش يغضب ويقول: جذبك عرق أخوالك، ولكن ومع تشيّعي بقيت أتعاطف مع أهل السنّة الذين تربّيت معهم وزاولت دراستي بصحبتهم.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وظهور الخميني ودعوته لتوحيد المسلمين سنّة وشيعة، كنت من أنصار هذا الاتّجاه واعمل بكل جهودي على تزكية هذا الخطّ وابذل في سبيل ذلك الوقت والمال، إلى أن كان مؤتمر الجماعة الإسلامية في لندن العام الماضي وحضرت أنت لتحاضر فيه وكنت اسمع عنك ولا اعرفك فلمّا دخلت المعرض الذي أعده الجماعة وقرأت عنوان كتابك "ثم اهتديت" نفّرني العنوان ورأيت أن فيه استفزازا لأهل السنّة والجماعة فمنعت زوجتي من شرائه رغم إلحاحها، وخرجت غاضبا وقلت للجماعة المسؤولين إن الإمام الخميني يدعو للوحدة وأنتم تدعون للفرقة.

واسمح لي يا سيّد التيجاني أن أكلمك بهذه الصّراحة، فأنا قاطعت المؤتمر من أجلك ولم احضر إلا بعض جلساته لاستمع لبعض العلماء الذين اعرف أنهم وحدويّون.

ولمّا انتهت أيام المؤتمر وسافرنا بالقطار إلى "قلاسكو" وكانت المسافة طويلة ومملّة لأن القطار يقضي ليلة كاملة للوصول وكنّا مجموعة من العراقيّين

الذين شاركوا في حضور المؤتمر فإذا بأحدهم يحمل معه مجموعة من كتاب "ثم اهتديت" وضجرت قلقا ولم أر للنوم طعما فاضطررت للقراءة كما هي عادتي فأنا لا أنام قبل قراءة أي شيء ولم أجد بجانبي إلا كتابك، فاستأذنت من صاحبي استعارة نسخة فأعطاني وما بدأت في قراءة الصفحة الأولى حتى استهواني الكتاب ووجدت نفسي مشدودا إليه شدّا غريبا ما لاحظته في قراءة أي كتاب قبله، وشعرت بنشاط وهرب النّوم من أجفاني فالتهمت الصّفحات التهاما لكي اصل إلى النّهاية وكانت زوجتي إلى جانبي غلبها النّوم فكانت كلّما فتحت عينيها وجدتني مكبا على الكتاب فتتمتم بصوت خافت قائلة منعتني من شرائه وحرمتني من قراءته، وأنت الآن لا تتركه.

وبالفعل لم اترك الكتاب حتى طلع النّهار ووصل القطار إلى المحطّة ولابدّ من إعادته إلى صاحبه، ولكن بقي فيه عشرون أو ثلاثون صفحة فما العمل يا ترى ؟

وانتبه صاحبي مسرعا فجمع ادباشه وجمع بقيّة النّسخ ولمّا رآني مازلت اقرأ، قال لي: هذه هديّة منّي إليك.

شكرته وكأنه أعطاني أغلى هديّة ونزلت بصحبة زوجتي وطفلي الصّغير فبحثت عن مقعد للاستراحة داخل المحطّة فجلست عليه أنا وزوجتي التي اشتغلت بتنظيف ولدها بينما واصلت أنا القراءة إلى آخر صفحة في الكتاب.

وخرجت من المحطّة بعد ساعة ونصف من وصول القطار.

ضحكت مرّة أخرى وقلت: الحمد للّه أن عداوتك انقلبت إلى مودّة ومحبّة بعد قراءتك "ثم اهتديت"

قال: يا سيّدي أنا وجدت في هذا الكتاب ما لم أجده في كل الكتب الشّيعية التي قرأتها بأدلة واضحة من كتب السنّة والجماعة وأنا الآن تشيّعت مرّة أخرى ولكنّها أقوى من الأولى وأنا واثق لو يقرأ كتابك أي سنّي فإنه يتشيّع قطعا.

قلت: الحمد للّه هذا من فضل ربّي علّي أن يهتدي النّاس على يديّ.

قال: الآن وصلنا إلى لبّ الموضوع.

قلت: كلّ هذا ولم نصل بعد إلى الموضوع ؟

قال: طلبي يا دكتور هو أن نغيّر عنوان الكتاب فقط لأنك بهذا العنوان قـد تصدّ النّاس عنه فلا يقرأونه وبالتّالي لا يهتدون، وهذا جرّبته من نفسـي وأنـا شيعيّ فما بالك بالسنّي المتعصّب الذي يرى في هذا العنوان تكفيرا له وأنا متحقّق أنه لو تغيّر العنوان لكان مصيدة لكل أهل السنّة والجماعة.

ولذلك لمّا سمعت بقدومك في هذا العام إلى لندن أسرعت لدعوتك من أجـل هذا الموضوع المهمّ وأنا أتوقعُ أن هذا الكتاب سيحدث ثورة فكريّـة لـدى كـل المفكّرين والمثقّفين من المسلمين.

شكرته على عواطفه النّبيلة وقلت له:

يا دكتور، الكتاب عمره الآن أكثر من ثلاث سنوات، وقد عرف بهذا الاسم في كلّ العالم وقد أحدث ثورة كما تفضّلت، وأنا تعمّدت هذا العنوان الذي اخترته من كتاب الله تعالى تيمّنا بالآية الكريمة القائلة: ﴿ **وإني لغفّار لمن تـاب وآمـن وعمل صالحا ثم اهتدى** ﴾ طه 82.

ولنفرض أنه عنوان مثير أو أنه استفزازي وأن الله لا يستحي مـن الحـقّ فالذي يستفزّه عنوان الكتاب فلا يقرأه لمجرّد العنوان هذا لا طائل من ورائه فإذا كانت كلمة ثم اهتديت تزعجه ولا يتحمّلها فكيف يتحمّل الكلام في أبي بكر وعمر وهو يترضى على معاوية بكل احترام وتقدير كما ذكرت أنت عن والدك.

لا يا دكتورنا العزيز أنا لست من رأيك، ولا بدّ لهذه الأمة من هزّة ورجّـة توقظها من سباتها، أمّا أن نبقى نداري ونجامل ونمدح ونشكر بالكذب فهذا ليـس من أخلاق الإسلام الذي علّمنا الجرأة والشدّة والغلظة في جنب اللّه.

قال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعـد مـا بيّناه للنّاس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾ البقرة 139.

ثم إني أوضحت في مقدّمة الكتاب الثاني "لأكون مع الصّـادقين" المعـاني المقصودة من عبارة "ثم اهتديت"

فلو جئتني يا دكتور بهذا الاقتراح قبل طبع الكتاب لكان للحديث مخارج أمّا الآن وبعد أكثر من ثلاث سنوات فالأمر بات مستحيلا وغير معقول أبداً.

وصلنا بسيّارته إلى بيته حيث استقبلتنا زوجته بالترحاب والضّيافة وكان مجموعة من الشّباب والأطباء ينتظرون وصولنا لتناول طعام الغداء.

أكلنا ونحن نتناقش وكلّ واحد منّا له وجهة نظر في أسلوب الدّعوة فالتفت إليّ أحدهم قائلا: يا دكتور إن أسلوبك شديد وينفّر أهل السنّة فلو خفّفت من هذه الشدّة لكان أفضل.

التفتُ إليه وسألتُه: هل أنت شيعيّ ؟

قال: كلّنا شيعة وليس معنا سني إلا أنت الذي اهتديت.

قال ذلك وهو يضحك وضحكنا لقوله.

قلت: إن أسلوبي الشّديد العنيف حوّلكم أنتم الشّيعة من موقف الدّفاع إلى موقف الهجوم، فكلّ ما كتبه الشّيعة في القديم والحديث هو فقط دفاع عن النّفس يقولون: نحن منكم أيّها المسلمون فلا تكفّروننا وها هو محمود شلتوت يفتي بجواز التعبّد بمذهب أهل البيت عليهم السّلام.

أمّا ما كتبتُه أنا فهو يقول: نحن المسلمون حقا وغيرنا على ضلالة حتى يثبت العكس وذلك بالأدلّة الدّامغة من كتب السنّة أنفسهم.

فقالوا جميعاً: واللّه ما تقوله كلّه حق وبكتبك أصبحنا نحاججهم وننتصر عليهم.

سهرنا في اللّيل في قاعة كبيرة جمعت كلّ الإخوة الذين يقطنون في تلك البلاد وألقيت كلمة أعقبها نقاش ممتع استفدنا منه جميعا.

وفي الصّباح أوصلني الأخ الدكتور حيدر إلى المطار وودّعني وهو يقول: الحمد للّه اقتنعت برأيك وسأقوم بتوزيع الكتاب إن شاء الله تعالى أحبّ من أحبّ وكره من كره.

وهكذا كانت رحلتي إلى سكوتلاندا أربعا وعشرين ساعة قضيتها في البحث والنّقاش.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.



الــــرّحلة التـــايــلانــديّة

تايلاند

مساحتها: 514000 كلم مربّع

عدد سكانها: 60 مليون نسمة

عاصمتها: بانكوك

موقعها الجغرافي: جنوب شرق آسيا

حدودها من الشّمال: الصّين وبيرمانيا

ومن الجنوب: ماليزيا وأندونيسيا

ومن الشرق: كمبوديا وفيتنام

ومن الغرب: المحيط الهندي



الرحلة التايلاندية

في إحدى المؤتمرات التي حضرتها في الجمهوريّة الإسلامية وأظنّه مؤتمر الشيخ المفيد بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته، وفي يوم الاختتام قدم إلى القاعة الشيخ آية الله الإبراهيمي وقام النّاس عند دخوله وجاءني يسلّم عليّ وصعد إلى المنصّة وقال معتذرا عن عدم مشاركته في المؤتمر من يومه الأول وذلك لأنه سافر إلى تايلاند مكلّفا بمهمّة خاصّة من قبل الجمهوريّة الإسلامية، قال: ولمّا وصلت هناك كان في استقبالي ألفا شخص كلّهم شيعة مخلصون لأهل البيت فضيّفوني وذبحوا لي الذّبائح ولمّا سألتهم عن تاريخ الشّيعة في تايلاند.

أجابوا كلّهم: كلّنا "ثم اهتديت" فكبّر الحاضرون وقالوا: اللّهم صلّ على محمد وآل محمّد.

فواصل حديثه بقول: إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول:: "يا علي لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها " فإن سيّدنا التّيجاني عنده في تايلاند وحدها ألفا شخص فهنيئا له وقد ترجموا كتابه إلى اللّغة التايلاندية وقد جئت بنسختين إحداهما لي والأخرى أهديها إليه.

أهداني كتاب "ثم اهتديت" باللّغة التايلاندية وعرفت يومها بأن الكتاب ترجم إلى سبع عشرة لغة فحمدت الله سبحانه وتعالى ورجوته أن يوصلني في يوم من الأيام إلى تايلاند لزيارة الإخوة المستبصرين هناك والذين هم يشتاقون إليّ حسب ما نقله الشيخ الإبراهيمي اشتياقاً كبيراً.

بعد مرور عام كامل على هذه البشارة جاءتني دعوة من الجمعيّات الإسلامية في استراليا، وبعد الحصول على التأشيرة علمت بأن الرحلة من تونس إلى استراليا تستغرق 28 ساعة بالطّائرة، وهي مسافة طويلة ما تعوّدت عليها فأكثر الرّحلات كانت تستغرق 9 ساعات اقضيها في كرسيّ ضيّق فكانت مملّة، فكيف أتحمل 28 ساعة وعلمت من وكالة الأسفار أنه بإمكاني وبإضافة مبلغ

بسيط من المال أن أتوقف مدّة معيّنة للاستراحة إمّا في ماليزيا أو في تـــايلاند أو في اليابان.

فاخترت تايلاند والنّزول في عاصمتها بانكوك لمدّة أربعة أيام وتجـــهّزت للسّفر البعيد وأنا احمد ربّي جلّ وعلا أن هيأ لي كل الأسباب ليبلّغني رجائي في زيارة أحبائي في تايلاند.

وتخابرت مع السيّد مجيد الخوئي والسيّد محمد الموسوي في لنـــدن كـــي احصل منهم على عنوان مركز الإمام الخوئي في بانكوك حتى لا أتعطـــل فـــي المطار لأن السّلطات الحكوميّة دائما تسأل المسافر أين سيكون مقرّ الإقامة فـــي بلدهم.

ولكنّ السيّد الموسوي والسيّد مجيد الخوئي نصحاني بعـــدم السّـــفر إلـــى التّايلاند وتخوّفا عليّ من الاغتيال، لأن الوهابية وأنصارهم يتواجدون هناك بكثرة وبما أنني ليست عندي حماية شخصيّة ألحّا عليّ بإلغاء السّفر، ولكنّي وكالعـــادة قلت: الله يحميني وبعين عنايته يرعاني ببركة أهل البيت عليـــهم السّـــلام، وإن كانت الشّهادة فما أعظمها من نهاية اختارها اللّه لأحبائه وأصفيائـــه: ﴿ **قـل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم**﴾ الجمعة 8 ﴿ **أينما تكونوا يدرككم المـــوت ولو كنتم في بروج مشيّدة** ﴾ النساء 78. وقد قال الحكيم تعدّدت الأسباب والموت واحد، ولمّا عرفا منّي الإصرار والعزيمة على السّفر اتّصلا ببعض معارفهما في تايلاند، وأعلماهم بقدومي كي يأخذوا بعض الاحتياطات اللازمة.

واتّصل بي من تايلاند عدّة أشخاص مـــن العراقيّيـــن والتونسـيّين الذيـــن يعرفونني ولا اعرفهم وكلّموني بالتلفون معبّرين عن فرحتهم وشـــوقهم الكبـــير للقائي. وحمدت ربّي الذي من توكّل عليه كفاه ولا حول ولا قوّة إلا باللّه.

وصلت إلى بانكوك العاصمة التايلاندية التي كنت احلم بزيارتها منذ صغـــر سنّي لكثرة ورود هذا الاسم في الأفلام السينمائية التي تتحدّث عـــن البطـــولات والمغامرات.

استقبلني في المطار ثلاثة أشخاص عراقيّين وتونسيّ وأنزلوني في فنـــدق كبير فيه حراسة مشدّدة ولا يدخله غير النّزلاء، فرحوا بقدومـــي اشـــدّ الفـــرح

وأعلموني بأن التوصيات التي وصلتهم من لندن من قبل الإخوة خوّفتهم كثيرا على حياتي ولذلك فضلّوا أن لا يعلموا بقدومي إلا بعض الأشخاص ولولا ذلك لجاء مئات المستبصرين للمطار لاستقبالي، شكرتهم على عنايتهم فجزاهم الله خيرا فقد ملأوا الثّلاجة بكل الفواكه وأنواع الغلال والمأكولات وتركوني لاستريح من عناء السّفر وأعلموني بأنه لا يعرف مقرّ إقامتي غيرهم فلا أفتح الباب إلا لهم من خلال إشارة اتّفقنا عليها.

التقينا في الصّباح وخرجنا نتجوّل في شوارع بانكوك وقد رتّبوا اللّقاء عند إمام الجماعة التّايلانديّة السيّد غلام علي الذي سبقت لي معرفته خلال المؤتمرات العالميّة وهو تايلاندي درس بقم العلوم الدينيّة في حوزاتها العلميّة، وهو يتكلّم إلى جانب التايلاندية، يتكلّم الفارسيّة والاورديّة والإنكليزية والعربيّة.

وما علم هذا الأخير بقدومي حتى جمع كل المستبصرين التّايلانديّين رجالا ونساءً وأولادهم، وهيّأوا وليمة العشاء في الجامع الكبير الذي أسسوه وإلى جانبه "حسينيّة" ضخمة جمعت كل ألوان الزّخرفة الإسلامية المشوبة بزينة آسيا الشرقيّة.

وكان اللّقاء وياله من لقاء هفت فيه القلوب محبّة وولاء وذرفت فيه العيون دموع الفرح والرّضا وهتفت فيه الحناجر مصلّية ومسلّمة على محمّد وآل محمّد كلّ بلهجته ولكنّ لغة القرآن جمعتنا ومودّة أهل البيت هذّبتنا وسفينة النّجاة حملتنا

وبعد العشاء والصّلاة ألقيت محاضرة بالعربيّة وقام الإمام السيّد غلام علي بترجمتها مرّتين إلى التايلاندية والإنكليزية وسهرنا سهرة مطوّلة في منبر حرّ للمناقشات.

وعندما هممنا بالخروج والمغادرة استوقفوني للتّسليم واخذ بعض الصّور التذكاريّه استغرقت المسافة من المنبر إلى باب الخروج أكثر من ساعة فكان الأخ عبد اللّه النّجفي والأخ فلاح إلى جانبي يبتسمون قائلين هذه محبّة أهل البيت فماذا عسانا أن نفعل ننتظر وأمرنا إلى الله.

ياله من يوم قضّيته بين مئات المحبّين الذين لا يتكلّمون لغتي ولا يفهمون لهجتي ولكنّهم يحبّون محبّتي ويودّون مودّتي ويوالون موالاتي وهم في كلّ ذلك

يعتقدون بأني أنقذتهم من الضّلالة التي كانوا فيها وأدخلتهم للهداية التي هم عليها ولذلك تراهم يلحّون على تقبيل رأسي ويديّ.

إنه يوم من أسعد أيام حياتي الذي سجّلته ذاكرتي ليكون حافزا لي لمواصلة الطّريق ولو كان صعبا، وليمحو بعض الذكريات الأليمة التي عشتها بمرارة وأنا ادفع ثمن استبصاري للحقّ.

في اليوم التالي زرنا الجمعيّة الجعفريّة في تايلاند والتي أسسها السيّد الخوئي رحمة الله عليه.

وكان في استقبالنا جموع غفيرة من النّساء والرّجال، وهناك تناولنا طعام الغداء وأقمنا الصّلاة جماعة، ثم ألقيت كلمة ترجمت إلى عدّة لغات.

وقضيت أكثر من ساعة لإمضاء وإهداء بعض كتبي المترجمة في عدّة لغات تتخلّلها الصورّ التذكاريّة والقبلات.

وفي الليل سهرنا في مطعم الأخ عبد الله بعد تناول العشاء وفوجئت بمجموعة كبرى من التونسيّين منهم المقيمين في تايلاند ومنهم المسافرين للتّجارة.

وألقيت فيهم كلمة بالمناسبة وعرّفتهم بعض القضايا التّاريخيّة وكان من بينهم اثنان من المستبصرين، فتواصلت السّهرة حتى مطلع الفجر واستأنس الجميع بحديثي وجمع لي الأخ فلاح في محلّه جماعة من الأفارقة النّاطقين بالفرنسيّة وهم مسلمون متأثرون بالوهابية وتكلّمت معهم بكلّ صراحة وأجبت على كلّ أسئلتهم بدون تقيّة حتى مال أكثرهم للتّشيع وطلبوا من الأخ فلاح أن يعطيهم كتبي، واتّصل الأخ فلاح بباريس يطلب إرسال أعداد كبيرة من كتاب "ثم اهتديت" باللّغة الفرنسيّة.

وقد بشّرني الأخ فلاح بعد عودتي عندما اتّصل بي هاتفيّا هو والأخ عبدالله النّجفي وأعلماني بأن البعض منهم استبصر واصبح يتردّد عليهم ويحنّ إليهم.

وفي اليوم الثّالث جاءني السيّد غلام علي وطلب منّي صحبته لزيارة مفتي الجمهورية التايلاندية الذي يقيم في مدينة تبعد عن بانكوك مسافة ساعتين وذلك لتواجد اغلب المسلمين هناك ولأن اغلب سكان تايلاند بوذيّون والنّسبة المئوية

التي لا تزيد على الخُمس هم مسلمون والأقلية القليلة هم مسيحيّون من النّصارى واستشرت الإخوة المكلّفين السيّد عبد الله والسيّد فلاح فلم يريا بأساً في ذلك على شرط أن يصحباني في تلك الزّيارة.

وذهبنا جميعا واستقبلنا رئيس مكتب مفتي الجمهورية ورحّب بنا وأدخلنا قاعة الاستقبالات وبعد نصف ساعة دخل علينا السيّد مفتي الجمهوريّة وهو رجل طاعن في السنّ ورحّب بنا ولمّا عرف أني تونسيّ تهلّل وجهه وكلّمني بالعربيّة الفصحى وأعلمني بأنه دعي إلى تونس منذ عشرين عاما وقد أعجبته تونس الخضراء، فقلت له بأنها تطوّرت كثيرا عمّا كانت عليه وهي تسير من حسن إلى احسن وتمنيّت أن يزور تونس مرّة أخرى لنكون في خدمته. تبادلنا المشاعر العاطفيّة وتحدّثنا عن أوضاع المسلمين في العالم واغتنمنا فرصة للكلام عمّا آلت إليه أمور المسلمين بعد وفاة النّبي صلى الله عليه وآله وسلّم والحروب التي قامت بينهم من أجل الخلافة وقلت فيما قلت: لقد صدق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما قال لأصحابه قبل وفاته: "إني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي ولكنّي أخاف عليكم أن تنافسوا فيها" (1).

وبالفعل فقد تنافسوا على الدنيا حتى سبّبوا لنا الضّلالة.

وسبّبوا لنا التّخلّف والجهل، وأصبحنا أذلاء نخاف أن يستعمرونا من جديد بعدما كنّا خير أمة أخرجت للنّاس.

كان مفتي الجمهوريّة يستمع إليّ ويحرّك رأسه بالموافقة ولا يزيد على الابتسام وكأنه يعرف كلّ هذه الحقائق ولكنّه كغيره من علماء السنّة والجماعة يحمّلون المسؤوليّة كلّها للقضاء والقدر فاللّه هو الذي أراد ذلك ونحن بما أراد الله راضون هو فعّال لما يريد ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون.

وخرجت من عنده وركبت السيّارة مع الأخ عبد اللّه النّجفي وأنا أنظر إلى البنايات العالية وناطحات السّحاب واستحضر في خاطري عدد السّكان في

---

(1) صحيح البخاري ج7 ص 209 باب الحوض من كتاب الرّقاق.

تايلاند الذي يتعدّى الستين مليون نسمة منهم أكثر من أربعين مليـــون يعبـــدون الأصنام ويقيمون في كلّ مكان تمثالا لبوذا ومعابد فيها الأصنام، ثم اســـتحضر عدد البوذيّين في العالم وعدد الملحدين وعدد النّصارى واليهود ثم استعرض عدد المضلّلين من أمة محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم فأقول بصوت باك: ماذا ستلقى عند ربّك يا بن الخطّاب.

قال أحد المرافقين: وما دخل عمر بن الخطّاب في هذا ؟

قلت: إنه هو المسؤولُ عن كلّ ضلالة حدثت بعد وفاة الرّسول صلّـــى الله عليه وآله وسلّم.

قال: عجيب! بشر واحد يتسبّب في ضلالة أمة كاملة ؟

قلت: وما العجيب في ذلك، لقد حكى لنا القرآن الكريم أن رجلا واحدا اسمه السّامري تسبّب في ضلالة بني إسرائيل إلا القليل القليل وهي أمة بأسرها، كـــلّ ذلك مع وجود رسول اللّه فيهم وهو هارون عليه السّلام وغياب موســـى عليـــه السّلام، فما بالك بأمّة توفّي نبيّها وأبعد وليّها وصيّ رسول الله عليها حتى كـــادوا يقتلونه لولا سكوته. فأنا أؤمن متيّقنا أنه لولا وقوف عمر تلك الوقفـــة الجريئـــة على اللّه ورسوله ومنعه من كتابة الكتاب المتضمّن للهداية، ثم لولا وقوفه بعـــد وفاة النّبي تلك الوقفة ومنعه النّاس أن يدخلوا بيت رسول اللّه وادّعائه أن محمّـــداً لم يمت وتهديده بالقتل من يقول بذلك.

أقول: لولا تلك الوقفتين لما اختلف النّاس ووقعوا في الضّلالة.

قال مرافقي: فهمنا موقفه من رزيّة يوم الخميس وأنه لو كتب ذلك الكتـــاب لما اختلف من الأمة اثنان كما قال ابن عباس ولكن لم نفهم موقفه من منع النّـــاس أن يدخلوا بيت النّبي(ص) بعد وفاته وقوله بأنه لم يمت فهل عندك تفسير لذلك؟

قلت: طبعا الأمر واضح وضوح الشّـــمس، لأن عمـــر أدرك بدهائـــه أن الصّحابة إذا ما دخلوا إلى البيت النّبوي ورأوه ميّتاً وإلى جانبـــه الإمـــام عليـــاً فسيبايعونه على الفور، وإذا ما بايع جمع من الصّحابـــة عليّـــاً فســـيكون مـــن المستحيل بعدها مبايعة خليفة ثان.

قال مرافقي عند سماعه هذا التّحليل: اللّه أكبر إبليس لا يفكّر بهذا التفكير.

قلت: وهل كان إبليس بعيدا عن مسرح الأحداث ؟ بالعكس كان يجري ويستنفر كل جنوده وأعوانه من الإنس والجنّ ولم يستقرّ له قرار ويهدأ له بال حتى بايع النّاس أبا بكر عند ذلك فرح إبليس بانتصاره وقال لجنوده: استريحوا الآن فإن أصحاب محمّد الذي قهرني وقهركم، سيتولون الدّفاع عنّي وعنكم إلى يوم القيامة وستجدون أكثر النّاس لنا طائعين.

فردّد الحاضرون داخل السيّارة قول: لا حول ولا قوّة إلا باللّه العليّ العظيم.

وصلنا إلى بانكوك وسهرنا آخر ليلة مع التونسيين والأفارقة السّود الذين بدأت عليهم علامات الرّضا والاطمئنان ولم يعودوا معاندين كاللّيلة الأولى بل اصبحوا يطلبون المزيد من التوضيح ليدركوا الحقيقة من اقرب السّبل.

وكان الوداع بعدها، وأحسست بأنهم في اشدّ الحاجة لمن يسهر معهم ويشرح لهم كلّ ما التبس عليهم، فهم أبرياء دخلوا في الضّلالة غافلين، ووعدتهم بالرّجوع إليهم إذا شاء ربّ العالمين.

في الصّباح الباكر توجّهت إلى المطار بصحبة المرافقين الثّلاثة. التّونسي والعراقيّين الذين كانوا في استقبالي قبل أربعة أيام وكنّا مجهولين، ولكنّنا بحمد اللّه خلال الإقامة معهم أصبحنا أكثر من الإخوة الذين ولدوا من بطن واحدة فاشكرهم جزيل الشّكر خصوصا الأخ الكريم عبد الله النّجفي الذي أولاني من الرّعاية والعناية ما يعجز عن وصفه اللسان.

وركبت الطّائرة إلى استراليا وأنا أعيد تلك الذكريات وكيف دخلتُ بانكوك وأنا خائف أتستر من الوهابيين فإذا بهم اصبحوا لي أصدقاء ويتمنّون أن أقيم معهم.

سبحان الله مقلّب القلوب، البارحة كانوا يسهرون معي، ولمّا اعتذرت لهم كي ارجع إلى الفندق لتحضير ادباشي والاستعداد للسّفر، ما رضوا أن يتركوني وكانوا يطلبون منّي في كلّ مرّة زيادة ربع ساعة وتواصلت الزّيادة أربع مرّات، حتى اعتذر الإخوة المرافقون لهم نيابة عنّي ووعدوهم بإهدائهم كتبي في القريب العاجل كي يواصلوا معي الحوار ولو بالمراسلة.

سبحانك اللّهم وبحمدك، أحمدك حمدا، وأشكرك شكرا يوافي نعمك ويكافئ مزيدك وإحسانك ويليق بجلال وجهك الكريم.

خرجت من تونس خائفا من تايلاند وها أنا اخرج من تايلاند فرحاً مسروراً يملأا قلبي الأمل والإيمان.

فكيف لو حدّثت الإخوة في لندن السيّد مجيد الخوئي والسيّد محمد الموسوي بما لقيته في تايلاند، فلا اشكّ في أنهما سيسارعان لزيارة ذلك البلد الذي فيه محبّة فائقة وولاء كبير وتقديس بالغ للعترة الطّاهرة.

الـرّحـلـة الأستـرالـيّـة
أستراليا قارة مستقلة

مساحتها: 7700.000 كلم مربّع

عدد سكانها: 18.5 مليون نسمة

عاصمتها: سيدني

حدودها: قارة عائمة في المحيط

من الشّمال الشّرقي: المحيط الهادي

ومن الغرب: المحيط الهندي وكذلك من الجنوب

الرحلة الأسترالية

بقيت القارة الأسترالية بعيدة عنّي وكلّما علمت بأن الطّائرة تستغرق ثمان وعشرين ساعة للوصول إليها استغربت أن أتحمل ذلك السّفر المضني لما أشكوه من وجع الظّهر، ولكن إلحاح الجمعيّات الإسلامية في استراليا عبر الفاكس والتّلفون شدّ من عزيمتي واعطاني قوّة لركوب المخاطر وهوّن عنّي بعض ما ألقاه من تعب وأوجاع.

ولكنّ استراليا ليس عندها سفارة في تونس، وكلّما حاولت الحصول على تأشيرة أعلموني بضرورة السّفر إلى مصر، لأن الحكومة الأسترالية وضعت على ذمّة العرب سفارة في القاهرة يرجعون إليها لطلب تأشيرة الدّخول.

واحترت في أمري فمصر بعيدة عنّي ولي مع مصر مشكلة قديمة حكيت عنها في الرحلة المصريّة فلا أريد المخاطرة بنفسي مرّة أخرى، واعتذرت للاخوة في استراليا.

ولكنّ الأخ أبو حيدر المالكي ظلّ يتابعني في عدّة محاولات من جهوده فتحصّل على موافقة من الحكومة الأسترالية لدخولي واتّصل ببيتي في تونس فأعلموه بأني موجود في أمريكا وأعطوه رقم التّلفون في نيويورك وظلّ يتابعني من ولاية لأخرى حتّى التقطني في لوس أنجلس بولاية كالفورنيا.

ولمّا أعلمني بحصوله على التأشيرة لزيارة استراليا وهم يتشوّقون للقائي ورؤيتي، اتّفقنا أن يرسلها بالفاكس إلى السّفارة الأسترالية بلوس أنجلس لكي ألحقها بجواز السّفر واتّصلت بالسّفارة هناك، وامتنعت المكلّفة من إعطائي إياها قائلة لا بدّ من الرّجوع إلى مصر لأنك عربيّ وطلبت مقابلة القنصل فجاءني على الفور وتكلّمت معه وأطلعته على بعض الصّحف الأمريكية التي كتبت عنّي وبعض مؤلّفاتي باللّغة الإنكليزية، عند ذلك اخذ منّي جواز السّفر وختم عليه تأشيرة الدّخول صالحة لمدّة ثلاثة اشهر ولعدّة سفرات.

فرحت كثيرا وحمدت اللّه سبحانه أن قصّر تعبي وأراحني من الذّهاب إلى مصر كما شكرت الأخ الكريم أبو حيدر المالكي على ما بذله من جهود ووعدته وعدا صادقا بالمجيء إليهم أن شاء اللّه في القريب العاجل.

كانت بطاقة السّفر من تونس إلى روما ومنها إلى بانكوك العاصمة التايلاندية حيث أبقى أربعة أيام للاستراحة هناك ثم السّفر منها إلى مالبورن العاصمة الثانية لاستراليا.

وفي مطار مالبورن كان الاستقبال الذي أعده الأخ أبو حيدر المالكي من أروع الاستقبالات وأنزلني في بيته.

وبدأت كما هي العادة التي ألفتها، المكالمات الهاتفيّة المتواصلة وبدأت الدّعوات، ولكنّي جلست مع الأخ أبو حيدر وشرعنا في تنظيم برنامج كامل لنصف الشهر الذي سأقضيه في استراليا واقتصر البرنامج على المدن الثّلاث الكبرى، مالبورن ثم بارت وأخيرا سيدني وقسّمنا لكلّ مدينة خمسة أيام بمعدّل أربع سهرات لكلّ مدينة.

وإذا عرفنا بأن السّهرات تطول في اغلب الأحيان إلى مطلع الفجر لأنه وبعد المحاضرة يبدأ النّقاش والسّؤال والجواب أضف إلى ذلك الدّعوات الجانبية التي يحضرها عدد هائل من الشّباب، ثم الجلسات النّسائية الخاصّة، ثم الأسفار الدّاخليّة والتي تستغرق بالطّائرة ستّ ساعات على اقلّ تقدير ومعنى ذلك أنه ليس لي من الرّاحة نصيب.

في استراليا وجدت الجاليات العراقيّة والجاليات اللبنانية والجاليات السّورية كذلك من المسلمين الأتراك والأفغان والمصريّين الشيء الكثير.

أحاطني الأخ أبو حيدر المالكي بعناية فائقة وعمل بكلّ جهوده على توفير الرّاحة لي كما ضحّى بوقته من أجل أن يعرّفني بمعالم مدينة "مالبورن" الكبيرة جدّا وحاضرت في مسجد الرّسول الأعظم مرّتين وفي الحسينيّة مرّتين وفي المركز الإسلامي للعلويّين ألقيت محاضرة أخرى ومن المفيد أن أسجل هنا بعض الملاحظات الهامّة التي لفتت انتباهي وعملت بكلّ جهودي على التّقريب بين وجهات النّظر المتباينة.

الجالية العراقيّة التي هاجرت بعد حرب الخليج واغلبها من مخيّمات رفحا نقلت معها إلى استراليا كلّ العادات والتّقاليد العراقيّة ومن العادات والتّقاليد ما يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى، فالعراقيّ مثلا لا يزال يحافظ على قوّامته المطلقة والمفرطة في بعض الأحيان فالمرأة العراقيّة لا تخرج من البيت، وحجابها هو أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل والأولاد محاصرون وبما أن الأسرة العراقيّة المهاجرة تركت أهلها وأقاربها وذويها في العراق فهي تعيش في عزلة تامّة كأنها في سجن خانق.

وحتّى الرّجال يعيشون هذا الجوّ المظلم، ولذلك يعيش اغلبهم على المرارة والحسرة والأسى واللّوعة والبكاء فلا يجدون متنفّسا إلا في الاستماع إلى قارئ العزاء الحسيني فكان أحد الشّباب العراقيّين يصاحبني في تنقّلاتي فيمازحني قائلا:

نحن لا نعرف غير البكاء، نبكي في عاشوراء، نبكي في رمضان، نبكي في الأعياد، نبكي في الأعراس والأفراح، نبكي في سائر السنّة، نأكل بالبكاء وننام بالبكاء، وحتى إذا ضحكنا فنحن نبكي. إنها حقيقة مؤلمة تلك التي يعيشها المهاجر العراقيّ سواء كان في أمريكا أو في لندن أو في استراليا أو في كندا، أضف إلى كلّ ذلك فهم يحملون معهم كلّ المأساة والجرائم والحروب المدمّرة التي ارتكبها حزب البعث في العراق خصوصا بعد تولّي صدّام الحكم فهم الآن يترحّمون على الحجّاج بن يوسف لأنهم لم يسمعوا في ما حكاه التّاريخ عن فظائع هذا الأخير مثل ما شاهدوه في عهد صدّام.

ولعلّ اللائم لهم يلتمس لهم عذراً وألف عذر.

أمّا الجالية اللبنانية فهي تعيش حياة الكفاف والعفاف وتتأقلم مع كلّ الأجواء وتميل مع كل ريح والإسلام عندهم هو التطوّر هو التقدّم هو الحياة بكلّ معانيها. ولكنّهم ينقلون معهم هموم المقاومة ضدّ الاحتلال الصهّيوني كما ينقلون معهم هموم الصّراعات السيّاسية والحزبية التي يتنافس فيها الشيخ شمس الدّين مع السيّد فضل الله، أو العقائديّة التي يطرحها السيّد جعفر مرتضى في مواجهة من ينكرون ويكذّبون بكسر ضلع الزهراء سلام اللّه عليها.

فإذا سهرت مع اللّبنانيين أول سؤال يرد عليّ هو: ما رأيك في كسر الضّلع، وبطبيعة الحال ينقسم الجالسون إلى فرقتين إحداهما مؤيّدة والأخرى مفنّدة.

وأنت إذا جلست في مجلس كل أحاديثه عن صدّام فاعلم إنهم عراقيّون، وإذا جلست في مجلس كلّ أحاديثه عن فضل اللّه وشمس الدّين فاعلم إنهم لبنانيون.

فما سافرت إلى مدينة في استراليا إلا ووجدت الاختلافات نفسها والمواضيع والاتّهامات نفسها من كلا الجانبين حتى خفت على مذهب التشيّع وسألت اللّه سبحانه أن يُنهي هذا البلاء بسلام ويجمع ويؤلّف القلوب التي تهفو لحبّ أهل البيت عليهم السّلام ويبعد عنهم شرور المخطّطات التي تهدف إلى تمزيقهم وتفريقهم.

أمّا الجالية السّورية والعلويّون منهم فهم آمنون مطمئنّون يواكبون الإسلام الحضاري ويحاولون إصلاح ما أفسده الدّهر كما يعملون على دحض التّهم والشّبهات التي ألصقت بهم ويردّون على بعض الفتاوى الظّالمة التي تستبيح قتلهم وسبي نساءهم في هذا القرن في عهد الحريّات والديمقراطيّات.

أمّا أنا فعشت معهم جميعا وشاركتهم كلّ همومهم لأني أصبحت فردا منهم يسعدني ما يسعدهم ويحزنني ما يحزنهم وحاولت بكلّ جهودي التّخفيف من همومهم والإصلاح في ما أقدر عليه من جمع كلمتهم وتوحيدهم.

كما أني ذهبت بصحبة الأخ العزيز أبو حيدر المالكي وصلّينا في مسجد كبير لإخواننا من أهل السنّة، وكان إمامهم مصريّ على درجة كبيرة من العلم والمعرفة وهو يتعاطف كثيرا مع أهل البيت، فسمح لي بإلقاء كلمة تولى هو بنفسه ترجمتها للإنكليزية، ودار حوار بعد الكلمة جمع بعض المثقّفين من المصريّين والأفغانيين.

أمّا المصريّون فلم ألق منهم إلا الآذان الصّاغية والقلوب المتفتّحة ولعلّهم اطمأنوا لإمامهم الذي كان يترجم حرفيّا كلامي ويبدي إعجابه في نفس الوقت.

وأمّا الأفغانيون فإنهم كانوا يعارضون في المسلّمات من الأمور المتّفق عليها والتي أخرجها البخاري ومسلم. وخرجوا من المسجد ولا أحد منهم اقتنع بما أقول من ذلك فهمت كما فهم من حضر معي بأنهم متحرّشون، ولولا وجود الإمام إلى جانبنا لحصلت منهم الأذية.

دعينا ذات ليلة بعد إلقاء المحاضرة إلى بيت أحد الإخوة السنيّين الذين بدأت الحقيقة تتجلّى لهم على أمل عقد حوار بنّاء لمعرفة الحقّ.

ولمّا وصلنا البيت فوجئنا بجمع هائل من الرّجال والنّساء كان الرّجال في قاعة كبرى والنّساء في قاعة محاذية وتطلّعت في الحاضرين الذين لم يقوموا للتّحية فإذا بهم أربعة من الأفغانيين السّلفييّن يحملون معهم مجموعة من الكتب ومن بينها كتابي "الشّيعة هم أهل السنّة" المترجم للإنكليزية وكتاب "فاسألوا أهل الذّكر" ورأيت في أعينهم شرّا مستترا وعلى وجوههم علامات الغضب تعلوهم من حين لآخر ابتسامة صفراء يحيّون بها بعض أصدقائهم ثم يعودون متوتّري الأعصاب.

فقلت في نفسي: اللّهم اكفني شرّهم وادفع عنّي مكرهم ويبدو أن اثنين منهم كانا حاضرين في المسجد يوم ألقيت المحاضرة وهاهما استنجدا باثنين آخرين وجاؤوا متحرّشين. أمّا أنا فلا أخشى النّقاش العلميّ ولكنّي أخشى ما أخشاه هو مناقشة الجاهلين الذين يجادلون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

المهمّ أني سلّمت عليهم وافتتحت الكلمة بآية قرآنية: **﴿فبشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللّه وأولئك هم أولو الألباب﴾** الزمر 18 ثم قلت: نحن اخوة لقوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون اخوة﴾** قد نختلف في الرأي ولكن لا يفسد الاختلاف مودّتنا واحترام بعضنا لبعض ما دمنا نبحث عن الحقيقة وما دمنا نبتغي في كلّ ذلك وجه اللّه ورضاه.

ثم ألقيت كلمة مختصرة عرّفت من خلالها بفضائل وخصائص أهل البيت عليهم السّلام ووجوب الاقتداء بهم وأعطيت لذلك العديد من الأدلّة والبراهين النّاطقة من القرآن والسنّة، ثم دعوت الجميع للتّمسّك بالثقلين كتاب الله وعترة النّبي صلى الله عليه وآله وسلّم. وختمت الكلمة بالدّعاء للجميع أن يهدينا الله جميعا لما فيه الخير والصّلاح وأن يرينا الحقّ حقا ويرزقنا اتباعه وأن يرينا

الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه. وجاء دور الأسئلة فلم يترك الأفغانيون الفرصة لغيرهم بل استعجلوا النّقاش وهم على أحرّ من الجمر وتكلّم سيّدهم وهو الذي تدلّت لحيته على صدره وبدأ ينتقدني على أني أهاجم صحابة النّبي وأسبّهم ولا احترمهم.

استنكرت ادّعاءه وقلت: أنا بحمد اللّه تعلّمت من الإمام أمير المؤمنين سيّدنا علي عليه السّلام قوله المشهور: "لا تكونوا سبّابين ولا لعانين ولكن قولوا كان من فعلهم كذا وكذا لتكونوا أبلغ في الحجّة" فإن كنت تقصد بالسبّ والشّتم هو ذكر ما فعلوه، فأنا لم أذكر إلا ما ذكره البخاري ومسلم وإن يكن هذا سبا وشتما فلم البخاري ومسلم ولا تلمني.

قال: لا أنت تقول في كتابك: بأن سيّدنا عمر هو حمار يمشي على أربع، وهذا شيء ما قاله البخاري ومسلم وأنت وحدك الذي قلته وكان يتكلّم بعصبيّة وغضب شديد ويشير إلى كتابي بين يديه ويقول: ها هو الدّليل من كتابك.

اثّر كلامه في بعض السنّة الحاضرين وبدأ الضّجيج من هنا وهناك وهو يلوّح بالكتاب يمينا وشمالا ويقول: تفضّلوا اقرأوا بأنفسكم لتعلموا كذبه.

وخشيت أن يكون بعض المترجمين حرّف النّص من عنده، طلبت من الدكتور المصريّ المتمكّن من اللّغة الإنكليزية أن يقرأ النّص بنفسه للتحقيق في هذه الدّعوى.

أخذ الدكتور المصري الكتاب ثم قرأ التّرجمة وقال: لا لم يقل سيّدنا عمر حمار، إنما يقول النّص: حيوان. وفرح الأفغاني بقول الدّكتور المصري وكأنه انتصر نصراً عزيزاً واستغربت أنا من القول لأني ما كتبت في حياتي عن عمر ابن الخطّاب أنه حيوان أو حمار وظننت بأن النسخة مزيّفة وخشيت الفتنة، وخفت على نفسي لأن الأفغانيين يتقرّبون إلى الله بقتلي على زعمهم إني أخطر على الإسلام من سلمان رشدي.

قلت للحاضرين: هل يوجد عند واحد منكم كتابي باللّغة العربيّة فلم يجبني أحد وازدادت الأصوات ارتفاعا وكثر الضّجيج حتى في بيت النّساء وأوجست في نفسي خيفة وسألت ربّي بحقّ محمّد وآل محمّد أن يفرّج عنّي وينصرني.

بينما الحاضرون في حيص بيص والمرافقون من الشّيعة يدافعون عنّي ويردّون التّهم، اشتدّ الخصام بينهم وبين الأفغانيين الأربعة وبقي البعض من أهل السنّة والجماعة ساكتين لا يدافعون ولا يشتمون.

تكلّم أحد الحاضرين وقال: النصّ يقول بالإنكليزية دابّة ولكن لا يذكر سيّدنا عمر بن الخطّاب ولكن يقول عمّار كأنه دابّة.

ونزل الفكر كلمح البصر وتذكّرت القضيّة فقلت للدكتور المصريّ، أرجوك أن تأخذ الكتاب من عنده وتتحقّق من المسألة إن كانت تتعلّق بالتيمّم؟

فقرأ وقال: نعم تتحدّث هنا عن التّيمّم.

قلت: الحمد للّه لقد حصحص الحقّ، فأنا لم أذكر إلا ما ذكره البخاري الذي روى بأن رجلا جاء إلى عمر بن الخطّاب أيام خلافته فقال: يا أمير المؤمنين أني أجنبت ولم أجد الماء فماذا أصنع؟

فقال له عمر: لا تصلّ وكان سيّدنا عمّار بن ياسر جالساً فقال: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سريّة أجنبنا فلم نجد ماء فأمّا أنت لم تصلّ وأمّا أنا فتمرّغت في الصّعيد كما تتمرغ الدّابة.

وقرأ الدكتور المصري القصّة من أولها والتفت إلى الأفغاني ضاحكا وقال له: أنت وقفت عند ويل للمصلّين، وجدت كلمة الدّابة فوقفت عندها وظننت بأنها تمثّل سيّدنا عمر.

ولكنّ الأفغاني لم يقتنع بهذا القول وظلّ هو ورفاقه يجادلون ويصيحون ويكثرون الغضب حتى غضب منهم بعض الشّيعة وأرادوا إخراجهم من البيت بالقوّة، وكثر النّزاع وجاء صاحب البيت معتذراً إليّ، فقلت له: أنت الذي دعوتني وأنت الذي تخلّصنا من هؤلاء المشعوذين الذين ما جاؤوا إلا ليفسدوا سهرتنا لأنهم لم يرضوا ولم يعجبهم استبصار بعض السنيّين فخافوا أن يتشيّع البقيّة في هذه السّهرة فجاؤوا متحرّشين بسوء النيّة. وطلب منهم صاحب البيت الخروج ورفضوا وعلت أصواتهم، استعاذ أبو حيدر من الشيطان وهمس لي إنهم ينتظرون أن يضربهم أحدنا لكي يأتوننا بالشرطة فنذهب كلّنا للسّجن.

قلت: لا حول ولا قوّة إلا باللّه كيف تورّطنا في مثل هذه الورطة.

قال: ما كنت أظنّ أن هؤلاء هنا لو كنت أعلم بوجودهم ما تركتك تدخل هذا البيت.

والذي زاد في الطّين بلّة أن من بين الجالسين رجل استرالي وابنه شابّ في العشرين من عمره تشيّعا من كتبي، كانا متحمّسين لضرب الأفغانيين وإخراجهم بالقوة ليصفو الجوّ لبقيّة النّاس. وهمستُ إلى أبي حيدر المالكي أن تعال معي لنخرج قبل أن تسقط الأرواح لأني أعرف الأفغانيين.

وخرجنا مستغلّين فوضى الجماعة الذين لم يكفّوا عن الخصام وبخروجنا ركبنا السيّارة وصاح الأخ أبو حيدر على رفاقه تعالوا نكمّل سهرتنا عندي في البيت.

وما صدّقت الوصول إلى بيت الأخ أبو حيدر فدخلت وأنا أقول: الحمد للّه ويمكرون ويمكر اللّه واللّه خير الماكرين.

سافرت بعدها إلى مدينة "بارت" التي تبعد خمس ساعات بالطّائرة وبينها وبين مالبورن فارق زمني ثلاث ساعات وهناك كان الاستقبال كبيراً وجاء العراقيون للمطار بأعداد هائلة وبعضهم يحمل لافتات كتب عليها عبارات التّرحيب والولاء ودام التّسليم والمعانقة في المطار ساعة كاملة والعراقيون يحملون من الشوق أكثر من غيرهم وهذا ما لاحظته في كلّ رحلاتي، فلم أر مثل العراقيّين في حبّهم وتفانيهم وموالاتهم لأهل البيت ومن تشيّع لهم وخاصّة أنا لي عندهم محبّة خاصّة أفسّرها أحيانا بأني منهم، عراقيّ الأصل، أجدادي من السّماوة.

كان الحاج عقيل واخوانه أبو سامي وأبو عماد من أطيب النّاس وكانوا يلازمونني في كلّ تحرّكاتي وهم لا يصدّقون أن الدكتور التّيجاني يأتي إليهم، فهي نعمة كبرى حسب ما يقولون منّ اللّه بها عليهم لأنهم كانوا يعرفونني من خلال الكتب التي دخلت مخيّماتهم في رفحا ووجدوا فيها عزاء وتسلية وخفّفت عنهم بعض العناء الرّوحي، حتى أنهم كانوا يكتبونها بأيديهم ويتداولونها من أسرة لأخرى ويتمنّون لقائي ويدعون لي في كلّ صلاة، وهذا خبر متواتر حدّثني

به جلّ العراقيّين الذين عاشوا تلك المحنة في رفحا بعد حرب الخليج والثورة الشّعبية.

ألقيت عدّة محاضرات والتقيت مع الشّباب في عدّة سهرات وكانت أيّاما سعيدة جمعت بين القلوب المتحابّة في الله والموالية لأهل البيت عليهم السّلام.

وغادرتهم مأسوفا على فراقهم وقد امتلأ بهو المطار بالمشيّعين الذين ثمانية يودّعونني على أمل اللّقاء القريب في النّجف الأشرف وكربلاء وعند الكاظميّين إن شاء الله تعالى.

وصلت إلى "سيدني" بعد رحلة طويلة استغرقت سبع ساعات لأن الطائرة تنزل في مطار مالبورن قبل الإقلاع إلى العاصمة "سيدني" .

هناك التقيت مجموعة من العراقييّن واللبنانيين والمحبّين المغالين، وأنزلوني في بيت بعيد تحت حراسة مشدّدة وأشخاص آخرين مكلّفين بحماية البيت.

ولمّا اجتمعت بالسيّد هاشم نصر الله الذي فرح بقدومي وأفهمني بأن الأوضاع عندهم غير آمنة، وأن الوهابيين متواجدون بكثرة في العاصمة، كما أعلمني بأن الشّيعة عندهم منقسمون إلى ما ذكرته سابقا، وحذّرني أن لا أنساق لأية جهة ولا أنخدع بأي اتّجاه.

شكرته على نصائحه الثّمينة وقلت: بحمد الله تعالى سأبقى حياديا دائما ولا أنتمي إلا لأهل البيت عليهم السّلام، ولا أريد أن أدخل في صراعاتكم ومشاكلكم، وبما أني متعب من السّفر والنّشاط المكثّف الذي قمت به في مالبورن وبارت، فأرجوكم أن لا تتعبوني في سيدني.

قال السيّد: نحن تحت تصرّفك ورهن إشارتك ونأتمر بأوامرك شكرته على شعوره وعلى ما وفّره لي من أسباب الرّاحة والأمريكية. واقتصرت على محاضرة واحدة في حسينيّة الزهراء سلام الله عليها التي يديرها السيّد هاشم نصر الله وطلبت من كلّ المؤسّسات والمسؤولين الذين ثمانية يسلّمون عليّ ويطلبون منّي تعيين موعد لزيارتهم وإلقاء محاضرة عندهم، طلبت منهم جميعا أن يأتوا لحسينيّة السيّدة الزهراء عليها السلام واعتذرت لهم فقبلوا اعتذاري.

كما اتّصل بي بعض رجال الصّحافة العربيّة فامتنعت عن أيّ مقابلة واعتذرت لهم. وألقيت المحاضرة بعد كلمة السيّد هاشم نصر الله وتواصلت السّهرة إلى مطلع الفجر كما كنّا نقضي في البيت سهرات مفيدة وتأتى الوفود أفواجا. للتعرّف علي ورجعت من استراليا ومعي تسع أشرطة فيديو لكلّ المحاضرات التي ألقيت هناك.

والحمد للّه ربّ العالمين

الـــرّحلـــة الأمــريكــيّة

الولايات المتحدة الأمريكيّة

مساحتها: **9.364.000** كلم مربّع

عدد سكانها: **280** مليون نسمة

عاصمتها: واشنطن

حدودها: من الشرق المحيط الأطلسي.

ومن الغرب: المحيط الهادي

ومن الشمال: كندا

ومن الجنوب: أمريكا الجنوبيّة والمكسيك



الرّحلة الأمريكيّة

كما سبق لي أن ذكرت بأني شاركت في عدّة مؤتمـــــرات إســــلاميّة فــــي الولايات المتّحدة الأمريكية، فقد سافرت إليها أكثر من عشر مرّات، فبعضها كان بدعوة المجمع الإسلامي للشّيخ عبد اللّطيف برّي وبعضها بدعوة أبو حيدر بحـــر العلوم عن جمعيّة العراقيّين بالمهجر، وكذلك عن جمعيّة الإمام الصّـــــادق التــــي يديرها الأخ العزيز زين الشّريف، والبعض الآخر كان بدعوة الجماعة الإسلامية بأمريكا وكندا الذين يعقدون في كل عام مؤتمرا سنويّا يعالجون فيه مشكلة مــــن المشاكل المطروحة التي تواجه المسلمين.

تعرّفت خلال تردّدي لأمريكا على امرأة فاضلة مصريّة وهي سيّدة علــــى غاية من الثّقافة والمعرفة تعمل على تثقيف المرأة المسلمة في مدينة ديــــترويت بولاية ميشيغان اسمها السيّدة مرفت اضطرّتها الظّروف للــــهجرة مــــن القــدس بفلسطين المحتلّة إلى أمريكا حيث تدرس ابنتها وتسافر من حين لآخر إلى القدس حيث يقيم زوجها.

هذه السيّدة الجليلة استبصرت بعد قراءة "ثم اهتديت" وأصبحت داعية شيعيّة أينما وجدت وارتحلت، ولها جولات ومناقشات مع بعض العلماء الأزهريّين فــــي مصر وفي فلسطين وأنا كلّما زرت مدينة ديترويت التقيت بها فــــي بيــت الأخ الكريم موسى قدوح أمين عــام المجمع الإسلامي، وهي التــي دعتنــي إحــدى المرّات إلى مدينة سان فرانسيسكو حيث عرّفتني بالإمام المصري الــــذي يــؤمّ جماعة المسلمين في تلك المدينة وهي التي رتّبت ونظّمت ذلــــك اللّقـــاء وتلــك المحاضرة التي ذكرتها في كتابي الأخير "كل الحلول" والتي استبصر من ورائها بعض الشبان المسلمين.

وفي إحدى المرّات زرتها وشاهدت نشاطها واستمعت لبعض الدّروس التي تسجّلها في أشرطة الفيديو، ودار الحديث بيننا عن تفسير القرآن وأعجبــت بمـــا

حوته هذه المرأة من العلوم وقلت لها: أمنيّتي أن تكون في كلّ بلد امرأة مثلك، لأن دور المرأة في المجتمع لا يقل أهميّة عن دور الرّجل إن لم نقل بأنه أهمّ.

فقالت: جئتك هذه المرّة برسالة كلّها نقد واعتراض على كتابك "ثم اهتديت" وذلك أني قابلت هناك أحد الأطباء وهو من المسلمين العاملين والنّاشطين في القدس، وأهديته كتابك "ثم اهتديت" ورجوته أن يقرأه بكامله ويردّ عليه وكان أملي أن يهتدي للحقّ لأنه كثير الطّيبة وكريم الأخلاق فقرأ الكتاب وجاءني بالرّسالة فأرجوك أن تتقبّلها وأنا على علم بأن صدرك يسع أكثر منها وأنك تتقبّل النّقد والاعتراض وقد سمعتك في عدّة محاضرات تتحمّل أكثر منها، وإذا كان لديك متّسع من الوقت فإني أتمنّى أن تجيبه عليها، لأني وعدته بإيصالها إليك.

ناولتني الرّسالة الموجّهة إليّ عن طريقها من طرف الدكتور محمّد موسى بامية والتي تتكوّن من خمس صفحات، قرأتها بكاملها ثم وعدتها أن أرسل إليها الردّ عليها بعد عودتي إلى باريس، لتحمله بدورها إلى الطّبيب المذكور عند رجوعها للقدس وبالفعل جلست يوما كاملا بليلته وحرّرت هذه الرّسالة التي رأيت من المفيد نشرها في هذه الرّحلة الأمريكية والتي اخترتها من بين المواضيع المتعدّدة لما فيها من فوائد تهمّ الشّيعة والسنّة على حدّ سواء.

لأن أغلب الاعتراضات وأكثر التّساؤلات التي تصل إليّ سواء في المراسلة أو في الاتّصالات المباشرة خلال المناقشة كلّها لا تتعدّى هذه الإشكاليات، فلعلّ المسلمين يستفيدون منها، لأنه بلغني من طريق السيّدة الجليلة مرفت أن الطّبيب المذكور لمّا قرأ الردّ على رسالته استبصر واهتدى والحمد للّه.

فإلى القرّاء الأعزّاء والمفكّرين المتحرّرين أنشر الرّسالة والردّ عليها.

ويمكن لأي إنسان آخر أن يردّ على الردّ إذا رأى فيه نقصاً أو خللاً وبعد ذلك سنحاول الردّ عليه حتى يتجلّى الحقّ لذي عينين فما ضاع حقّ وراءه طالب.

بسم الله الرحمن الرّحيم والصّلاة والسّلام على اشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله الطيّبين الطّاهرين.

إلى الأخ الحبيب والمؤمن الطّبيب الدكتور محمّد موسى بامية

كان الله في عونه لفتح بصيرته إلى الحق.

السّلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته وبعد، لقد قرأت رسالتكم أو قل تعليقكم الذي تفضّلتم به عليّ بعد قراءة كتابي "ثم اهتديت" وإني أشكركم إذ ضحيّتم بوقتكم الثّمين وأوليتم كتابي بعض اهتمامكم وهذا من حسن أخلاقكم فاللّه أسأل أن يوفّقنا جميعا لما فيه خير الدّنيا والآخرة ما دمنا نبحث عن الحقّ.

واسمحوا لي يا سيادة الطّبيب أن أجيب على اعتراضاتكم بما أراه واجبا عليّ عسى أن يكون في ذلك توضيح لبعض ما أشكل عليكم فهمه من باب: **﴿وذكّر إن نفعت الذّكرى وإن الذّكرى تنفع المؤمنين﴾** ولكم بعد ذلك رأيكم فأنا احترم رأيكم ولو كان ضدّي.

جاء في رسالتكم **أولا عنوان الكتاب خاطئ (ثم اهتديت) فالهداية هي العودة إلى الطّريق المستقيم، إلى الإيمان باللّه وحده ولا دخل للإسلام بها، إنما هي الإيمان باللّه ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾ هذه هي الهداية.**

فإذا كان قصد الكاتب بكلمة "ثم اهتديت" أي أنه آمن بأن عليا أحقّ بالخلافة فهذا ليس هداية إنما اتّباع وجهة نظر وليس تكفيرا لمن لم يؤمن بها"

الجواب: أطلب منكم يا حضرة الدكتور أن تقرأوا بتدبّر قول اللّه سبحانه في سورة طه الآية 82 : **﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾** لتدركوا بأن الإيمان باللّه وحده ليس هو المقصود بهذه الآية فقد جاء قبل ذكر الهداية قوله: **﴿وآمن﴾** والتي هي الإيمان باللّه وحده، ثم أضاف بعدها **﴿وعمل صالحا﴾** فدلّت بأن الإيمان وحده لا يكفي بدون العمل الصّالح، ثم أضاف بعدها **﴿ثم اهتدى﴾** فدلّت بأن العمل الصّالح لا يقبله اللّه إلا إذا كان صاحبه مهتديا إلى الصّراط المستقيم. وهذا نظير قوله تعالى: **﴿إن الذين قالوا ربّنا اللّه ثم استقاموا﴾** فصلت30 فقولهم:**﴿ربّنا اللّه﴾** والتي هي الإيمان بالله وحده لا تكفي إلا إذا استقاموا والاستقامة لا يقبلها الله إلا إذا كانت على صراطه المستقيم الذي رسمه هو.

ولكلّ ذلك كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وكلّ الصّحابة رضي اللّه عنهم وكلّ المسلمين من بعدهم يقولون في كل يوم مرّات عديدة في كل

صلاة: ﴿**اهدنا الصّراط المستقيم**﴾ وهم بلا شكّ يؤمنون باللّه وحده ولا يعبدون سواه ومع ذلك فهم دائبون يطلبون الهداية إلى الصّراط المستقيم.

فأنا لم اقصد بعنوان كتابي "ثم اهتديت" أي أني آمنت بأن عليا أحقّ بالخلافة، إنما قصدت بأني اهتديت إلى صراط اللّه المستقيم الذي رسمه لعباده المؤمنين عبر القرآن والسنّة المطهّرة ولكنّه ضاع بين السّبل وبين مختلف المذاهب التي ابتدعها الظّالمون فاصبح كل حزب بما لديهم فرحون.

فالمسألة لا تتعلّق بالإيمان بأن عليّا أحقّ بالخلافة بقدر ما هي تحريف للنّصوص الصّريحة من القرآن والسنّة وإبدال شريعة اللّه باجتهادات البشر في كلّ أحكامها من العبادات والمعاملات، فأنا على يقين بأن الخلافة قبرت واستغرابي في خبر كان والقول بأن عليّا أحقّ بها أو أبو بكر لا يجدي نفعا، وإنما أن نعبد اللّه سبحانه ونتقرّب إليه بكلّ العبادات والمعاملات التي افترضها علينا ونرفض كل تحريف وتأويل أدخل على الشّريعة فهذا واجب على كلّ مسلم ولا يعذر الجاهل بجهله.

ثم جاء في رسالتكم: "**للأسف كانت وجهة نظر الكاتب مثل محامي الدّفاع الذي يشتم في كلّ قضيّة فليس لديه متّهم بريء، إنما كلّ متّهم فهو مجرم أمامه ولقد قام الكاتب بإهانة وشتيمة والشّك في كلّ من عاش مع الرّسول وسمع القرآن مباشرة إلا عليّ صلىّ الله عليه وسلّم فهو الاستثناء الوحيد....**"

<u>الجواب</u>: أطلب منكم يا حضرة الدكتور أن تكونوا منصفين إذا حكمتم وما عليكم إلا بالرّجوع إلى صفحة 158 من كتاب ثم اهتديت حتّى تعرفوا بأنني لم أهن وأشتم ولم اشكّ في كلّ من عاش مع الرّسول إلا علي فهو الاستثناء الوحيد كما زعمتم حسب خيالكم سامحكم اللّه فأنا أذكّركم بما قلته حرفيّا هناك. قلت: "وأبدلت الصّحابة المنقلبين على أعقابهم أمثال معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وأبو هريرة وعكرمة وكعب الأحبار وغيرهم، بالصّحابة الشّاكرين الذين لم ينقضوا عهد النّبي أمثال عمار بن ياسر وسلمان الفارسيّ وأبو ذر الغفّاري والمقداد بن الأسود وخزيمة بن ثابت ذي الشّهادتين وأبي بن كعب وغيرهم".

وأنت كما ترى يا سيادة الطّبيب أني ذكرت ستّة من الصّحابة المنقلبين وذكرت ستّة من الصّحابة الشّاكرين وقلت بأنهم لم ينقضوا عهد النّبي وذلك حسب ما سجّله المؤرّخون في كتبهم فادّعاؤكم هذا باطل غفر اللّه لكم.

ثم قلتم: "**فإن كان ذلك صحيحا وهم الذين حضروا نزول القرآن مباشرة ومن لسان رسول الله سمعوا ما لقّنه الوحي مباشرة وهذا ما يترك اشدّ الأثر ويلين القلوب المتحجّرة ومع ذلك لم يتأثّروا وظلّوا على قلّة إيمانهم كأنهم منافقون**".

__الجواب__: إن حسن ظنّكم وصدق إيمانكم يا سيادة الدكتور هو الذي تركّكم تتصوّرون هذا التّصور وإلا فأنتم أخصائيّ في أمراض النّساء والولادة والعقم. وليس علم النّفس وتحجّر القلوب من اختصاصكم يا حضرة الطّبيب، ومهما علمتم وتعلّمتم فلن تصلوا إلى الحقيقة التي سجّلها ربّ العزّة والجلالة في كتابه المجيد بقوله: ﴿**ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحقّ**﴾ الحديد 16.

وقد جاء عن النّبي (ص) إن الله سبحانه استبطأ قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن فأنزل﴿**ألم يأن للّذين آمنوا...**﴾ الآية.

كما سجّل عليهم سبحانه قول الرّسول(ص): ﴿ **يا ربّ إن قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ الفرقان 30 فالذين هجروا القرآن هم المؤمنون به وليسوا الكافرين به. ألم تروا أن الله سبحانه لم يقل ألم يأن للّذين كفروا ــ أو ألم يأن للمنافقين ــ بل قال: ﴿ **ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه** ﴾، فدلّت الآية على عدم خشوع قلوب المؤمنين لذكر الله.

ثم سألتم بقولكم: "**ثم ما معنى الآية التي تقول ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية اللّه ﴾ فلا معنى إن لم تؤثّر على من لازم الرّسول (ص) كظلّه مثل أبو بكر...**"

__الجواب__: معناها أن قلوب البشر لم تخشع للقرآن الكريم الذي لو أنزله اللّه على جبل لتخشّع وتصدّع خوفا من اللّه ولكن الإنسان لم يخشع ولم يخف من اللّه سبحانه وذلك كقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي**

كالحجارة أو أشدّ قسوة وإن من الحجارة لمّا يتفجّر منه الأنهار وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية اللّه وما اللّه بغافل عمّا تعملون ﴾ البقرة 74.

وهو نظير قوله تعالى: ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوما جهولا**﴾ الاحزاب 72.

أمّا قولكم: **فلا معنى إن لم تؤثّر على من لازم الرسّول (ص) كأبي بكر**، فأنا أسألكم بربّكم لماذا لا تقولون القول نفسه في أبي طالب عمّ الرّسول الذي لازمه طيلة ثلاث عشرة سنة وكان كفيله يأويهم بيت واحد وقد سجن معه في شعاب مكّة طيلة ثلاث سنوات وكان يسمع منه الوحي مباشرة فلماذا لم يؤثّر القرآن فيه وتزعمون أنه مات على الشّرك؟

ثم قلتم رعاكم اللّه: "**فهل كانت صحبة رسول اللّه لأبي بكر وعمر مصلحة ورياء من طرف الرّسول والصّحابة حاشى للّه من هذا الوصف" إن كان يعلم صفاتهم ورضي بهم أصحابه المقرّبين فهذا يتنافى مع صفات الرّسل والسّاكت عن الحقّ شيطان أخرس وإن كان لا يعلم صفاتهم القبيحة فهو عذر أقبح من ذنب فأين صلته باللّه وعصمته من أعدائه**..."

<u>الجواب</u>: لا شكّ بأن صحبة الرّسول لأبي بكر وعمر بل ولكلّ الصّحابة كانت صحبة مصلحة وهذه المصلحة لهم ولفائدتهم ليخرجهم من الظّلمات إلى النّور وينقذهم من النّار وليست المصلحة عائدة له: ﴿ **يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني**﴾ هود 51. ولم تكن رياء حاشاه فكلّ جهوده لهداية النّاس كانت خالصة لوجه اللّه تعالى: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ التوبة 128.

أمّا قولكم: **إن كان يعلم صفاتهم ورضي بهم أصحابه المقرّبين فهذا يتنافى مع صفات الرّسل والسّاكت عن الحقّ شيطان أخرس... الخ.**

فهناك احتمالان أولهما: إنه كان لا يعلم صفاتهم على التحديد وهذا ما قرّره القرآن الكريم في قوله: ﴿ **وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النّفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين..** ﴾ التوبة 101.

وعلى هذا كان الرسول (ص) يقبل كلّ من تلفّظ بالشّهادتين دون البحث عمّا يكنّه في قلبه وكان يقول: "أمرت أن أحكم بالظّاهر واللّه يتولّى السّرائر" ولم يسجّل التّاريخ أو السّيرة النّبويّة أنه صلى اللّه عليه وآله وسلّم قال لأحد من النّاس: أنت منافق فلا أقبل منك إسلامك، ولو مرّة واحدة في حياته، بل كان يتعامل مع الصّحابة كلّهم بنفس المعاملة، قال اللّه تعالى لرسوله: ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنّدة يحسبون كلّ صيحة عليهم هم العدوّ فاحذرهم قاتلهم اللّه أنى يؤفكون** ﴾ المنافقون 4.

أمّا الاحتمال الثاني: أنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان يعلم صفاتهم على التحديد ومع ذلك رضي بهم أصحابا له، وهذا لا يتنافى مع صفات الرّسل كما توّهمتم لأنهم صلوات اللّه عليهم لا يفعلون شيئاً إلا بوحي ربّهم، فهذا موسى رسول اللّه إلى بني إسرائيل الذين رأوا من المعجزات الشيء الكثير على يد موسى وهارون ممّا اضطرّ فرعون أن يطلق سراح بني إسرائيل ويسمح لهم بالخروج مع موسى وهارون ولمّا أدركهم فرعون قبل أن يجتازوا البحر فلق لهم موسى البحر بإذن ربّه ومشوا فيه حتّى خرجوا سالمين واغرق اللّه فرعون وجنوده، وهذه من اكبر المعجزات التي سجّلها تاريخ البشريّة، ولكنّ أصحاب موسى لم تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما رأوه من الحقّ فطلبوا من نبيّهم أن يجعل لهم صنما يعبدونه؛ قال تعالى في حقّهم :

﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون** ﴾ الأعراف138.

ولا شكّ أن موسى وهارون عملا كلّ ما في وسعهما لهدايتهم إلى صراط اللّه المستقيم ولكنّهم قابلوا الإحسان بأقصى والهداية بالضّلالة وبمجرّد غياب موسى عنهم أربعين ليلة لميقات ربّه كفروا باللّه واتّخذوا العجل لهم ربا يعبدونه وتآمروا على هارون رسول اللّه إليهم وكادوا يقتلونه فهل كان موسى يعرف السّامري ؟ فلماذا صاحبه ؟

وهذا عيسى رسول اللّه إلى بني إسرائيل رغم المعجزات المتعدّدة من شفاء الأعمى والأبرص والأبكم وإحياء الموتى ورغم أنه كلّمهم في المهد بكلام الأنبياء

لم يؤمن له من قومه إلا اثني عشر من أصحابه كان أحدهم خائنا له وعمل على قتله، فلم يطرده عيسى من مجلسه ولم يأمر أصحابه بقتله بل سكت عليه ولم يفضحه وكان يقول لهم: إن منكم واحد سيخونني ويعمل على قتلي دون ذكر اسمه. وهذا محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يكتشف خيانة أحد المنافقين من أصحابه. ويقوم عمر ليضرب عنقه ولكنّ رسول اللّه (ص) يمنعه من ذلك قائلا: "دعه لئلا يتحدّث النّاس بأن محمّدا يقتل أصحابه". أخرج هذه الرّواية البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن سورة المنافقين.

ومرّة أخرى قال أحد المنافقين من الصّحابة للرّسول (ص): اعدل وأراد عمر قتله ولكنّ الرّسول منعه من ذلك وقال له: "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّمية " اخرج هذه الرّواية البخاري في صحيحه الجزء الرّابع صفحة 179 .

والمشهور أن رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعرف المنافقين كلّهم ولكنّه كان يستر عليهم ولا يكشفهم ولا يفضحهم وقد علّم حذيفة أسماء البعض منهم وأمره بعدم كشفهم ولذلك ترى عمر بن الخطّاب نفسه يسأل حذيفة إن كان رسول اللّه (ص) سمّاه في جملة المنافقين الذين أعلمه بأسمائهم جاء ذلك في كتاب الإحياء للغزالي ج1 ص 129 وفي كتاب كنز العمّال ج7 ص 24.

وها هو البخاري يروي في صحيحه ج1 ص17 بأن ابن مليكة أدرك ثلاثين من أصحاب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كلّهم يخاف النّفاق على نفسه وما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل.

ونستخلص من كلّ هذا بأن الأنبياء والمرسلين صلوات اللّه عليهم أجمعين كانوا يعملون بوحي ربّهم فيسترون على المنافقين ولا يكشفوا أمرهم ليكونوا فتنة للنّاس؛ ألم تسمع قول الرّسول: "إن أحدكم ليحقر صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم" وهم بلا شكّ يحفظون القرآن أكثر من غيرهم كما ورد في بعض الرّوايات.

ألم يقل ربّ العزّة والجلالة في حقّهم: ﴿ **ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد اللّه على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام...**﴾ البقرة 204.

ألم يقل اللّه سبحانه لنبيّه: ﴿ **فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر...**﴾ آل عمران 159.

إذاً، فعلم الرّسل بنفاق البعض من أصحابهم وسترهم والسّكوت عليهم، لا يتنافى مع صفاتهم كما توهّمتم، يا سيادة الدكتور وقولكم بأن السّاكت عن الحقّ شيطان اخرس لا علاقة له بالموضوع، فمن قال لكم بأن رسول اللّه سكت عن الحقّ ؟ إنه لم يسكت وأوضح كلّ شيء بما يتناسب ومصلحة الإسلام والمسلمين ألم يحذّر المسلمين من فتنة زوجته عائشة عندما أشار إلى بيتها وقال: ههنا الفتنة "ثلاث مرّات" من ههنا يطلع قرن الشيطان "أخرجه مسلم والبخاري" ألم يحذّر أبا بكر نفسه عندما قال له أبو بكر: ونحن يا رسول اللّه لماذا لا تشهد لنا وقد آمنّا بك وهاجرنا معك، فقال له: "إني لا أدري ماذا تحدّثون من بعدي". أخرجه مالك في الموطّأ ج 1 ص307.

فإن امتناع الرّسول من الشّهادة لأبي بكر عند اللّه كما شهد لشهداء أحد فيه دلالة على انقلاب أبي بكر بعد الرّسول كما يفيد حديث النّبي صلّى الله عليه وآله وسلم في قوله: "**إني لا أدري ماذا تحدّثون من بعدي**".

وإن فاطمة سيّدة نساء العالمين التي يغضب اللّه لغضبها ويرضى لرضاها ماتت وهي غاضبة على أبي بكر وعمر وتدعو عليهما في كلّ صلاة تصلّيها.

وجاء في رسالتكم: "**فإن كنا نريد الخير للنّاس فقد كانت بداية كتابك بداية جيّدة ألا وهي البحث عمّا نتّفق عليه وليس البحث عمّا نختلف فيه حتى تتوحّد الأمة الإسلامية وترفع الذّل والهوان عن ثاقلها، وكلّنا يتّفق على كتاب اللّه وهو الأصل للإسلام لنتّفق على ما به ونختلف عليه في تفسيره لمجرّد الحياة العامّة لندعه لأولي الأمر من العلماء ليتّفقوا عليه أو يختلفوا بينهم في غرفة واحدة على أن لا يخرجوا للنّاس إلا برأي واحد وإلا فلا يحقّ لهم أن ينشروا اختلاف آرائهم بين العامّة حتّى لا ينشروا البلبلة والتّفرقة بين النّاس فحصر الخلافات بين فئة صغيرة وعالمة متعلّمة افضل بكثير من نشرها بين العامّة التي بها كل الأجناس عالم وجاهل محبّ وحقود، مخلص ومنافق...الخ**".

الجواب: يا عزيزي محمّد موسى أنا أريد الخير للنّاس كافّة ولكم خاصّة لأنكم من علماء الأمة، ولذلك فإن بداية كتابي بداية جيّدة وكذلك نهايته جيّدة لا لأنني بحثت عمّا اتّفقت عليه الأمة فهذا لم يكن أبداً والأمّة لم تتّفق على شيء منذ وفاة نبيّها، ولكنّي بحثت عن الحقيقة واهتديت إليها بفضل اللّه واكتشفت أنه لا يمكن لهذه الأمة أن تتوحّد وترفع الذلّ والهوان عن ثاقلها إلا إذا رجعت إلى كتاب اللّه الكريم وسنّة رسوله العظيم عن طريق أهل البيت الذين أذهب اللّه عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً وليس هناك طرق ولا سبل ولا مذاهب إلا هذا الطّريق وهو صراط اللّه المستقيم الذي قصده رسول اللّه بقوله: "تركت فيكم الثّقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي" أخرجه صحاح أهل السنّة وكذلك الشّيعة.

أمّا قولكم: كلّنا يتّفق على كتاب اللّه وهو الأصل للأسف الخ.... فهو قول غريب فكيف نتّفق على ما به وما اختلف عليه ندعه لأولي الأمر ليخرجوا لنا برأي واحد ؟ فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا الوهابي أنكم تتّبعون الظنّ وما تتمنّاه أنفسكم ؟

فإذا كان الصّحابة الأولون أصحاب النّبي الذين سمعوه من رسول اللّه بتفسيره وبيانه قد اختلفوا فيه فكيف تطلبون من المعاصرين أن يتّفقوا عليه ؟

ثم تقولون: ولا يحقّ لهم أن ينشروا اختلاف آرائهم بين العامّة حتى لا ينشروا البلبلة والتفرقة بين النّاس... فمع الأسف الشّديد يا حضرة الدكتور لقد جاء كلامكم هذا متأخراً جدّاً بعد أربعة عشر قرناً، لأن العلماء نشروا اختلاف آرائهم بين العامّة من القرن الأوقات للهجرة النّبوية ونتج عن ذلك اختلاف المذاهب والفرق والملل والنّحل.

أمّا قولكم بحصر الخلافات بين فئة صغيرة عالمة ومتعلّمة فأنا أوافقكم على ذلك وهو ما فعلته بالذّات إذ نشرت تلك الحقائق التي هداني اللّه إليها في كتاب والكتاب كما تعلمون لا يقرأه إلا العالم أو المتعلّم أمّا بقيّة الأجناس من العامّة سواء أكانت مبغضة أو محبّة مخلصة أو منافقة فلا يهمّنا من أمرها شيء فأمرها كلّه إلى اللّه ولكن علينا أن نقول الحق ولا نغشّهم ليهلك من هلك عن بيّنة وينجو

من نجا عن بيّنة ولئلا يكون للنّاس على اللّه حجّة بعد الرّسل.

ثم قلتم: "**هذا ما يجب أن تدعوا له نشر المحبّة والدعوة لتوحيد الأمة وليس نشر الشّتيمة وتفريق الأمة فماذا ستجني من هذا ؟**

هل تستطيع أن تعيد الخلفاء الرّاشدين وتعيد ترتيب الخلافة كما تشاء فإن كنت تستطيع ذلك فأنا سأكون من المسرورين وليس من المعارضين لعليّ بأن يكون الخليفة الأوقات وليس الرّابع، وهذا سبب غضبك الشّديد ترتيب درجة الخلافة لعلي....".

<u>الجواب</u>: سامحك اللّه يا دكتور فهل كانت دعوتي إلا لنشر المحبّة والأخوّة الإسلامية بأن يتمسّك المسلمون بالعترة الطّاهرة التي هي ضمان لهداية الأمة وقد مثّلهم رسول اللّه بسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق، وهل جئت بنظريّة جديدة من تأليفي وابتكاري؟ كلا يا سيادة الطّبيب لم اقل إلا قول الرّسول (ص) الثّابت الصّحيح. ولم اشتم أحدا سوى ما أخرجته من أقوال المحدّثين المعتمدين عند أهل السنّة والجماعة.

أمّا قولكم: **هل تستطيع أن تعيد الخلافة**...الخ فقد سبق أن أوضحت لكم في بداية الردّ بأن المسألة لا تتعلّق بالأكل بأن عليا أحقّ بالخلافة فراجعوه أجركم اللّه لتعرفوا مرّة أخرى بأن سبب غضبي ليس ترتيب درجة الخلافة لعلي كما تتوهّمون.

ثم قلتم: "**فعلي رضي اللّه عنه تخرّج من مدرسة الرّسول (ص) منذ طفولته وكان عالماً بالإسلام أكثر من غيره من الصّحابة، وهناك فرق بين عطائك إن كنت عالما للمسلمين أو كنت خليفة للمسلمين واحدة تحتاج العلم والثانية تحتاج قوّة الشّخصيّة والإرادة ومحبّة النّاس...**"

<u>الجواب</u>: بما أني يا سيادة الدكتور لا أعطي أهميّة كبرى للخلافة بقدر ما أريد الرّجوع لدين اللّه الحنيف كما رسمه رسول اللّه وأهل بيته من بعده فلا أضيّع الوقت في مناقشتكم في هذا الفصل وتكفيني شهادتكم بأن علياً تخرّج من مدرسة الرّسول منذ طفولته وكان عالما بالإسلام أكثر من غيره من الصّحابة.

أمّا ما تفضّلتم به من الفرق بين عطاء العالم للمسلمين وعطاء الخليفة لهم وأن الأوقات يحتاج العلم أمّا الثاني يحتاج لقوّة الشّخصيّة والإرادة ومحبّة النّاس فإن كلّ هذه الخصال اجتمعت في علي وتفرّقت على بقيّة النّاس كما يشهد بذلك علماء الأمة.

ولكن سؤالي إليكم يا حضرة الدكتور لماذا تركتم من تخرّج من مدرسة الرّسول (ص) منذ طفولته وكان عالما بالإسلام أكثر من غيره بشهادتكم واتّبعتم في أحكام اللّه الإمام الشّافعي أو الحنبلي أو الحنفي أو المالكي الذين ما عرفوا رسول اللّه يوما واحدا ثم اتّهمتم اتباع الإمام علي وشيعته بأنهم منحرفون عن الإسلام ؟.

بعد ذلك قلتم: "**وكما يقول المثل العاميّ الطّيور على أشكالها تقع، فإن كانت هذه هي صفات أبي بكر وعمر فبماذا ستصف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الذي عاشرهم طوال حياته وخاصّة في مرحلة الرّسالة واختارهم من بين جميع من عاصره من أهل قريش والعرب، فهو فشل الرّسول في هداية اقرب المقرّبين له وفشل القرآن في التأثير على من يقرأه خاصّة من عاشره في بداية حرارة تأثيره على القلوب والعقول وفشل في نجاح الإسلام، وإنك لتعطي لمن استطاع نشر الإسلام بالسيف الفضل في نجاح الإسلام وانتشاره أمثال معاوية بن أبي سفيان وغيره والإسلام لم ينجح لصدقه وقوّة إقناعه بالقرآن، إنما نجح بالقوّة والجبروت مثل انتشار التتّار بسيطرتهم على العالم...**"

<u>الجواب</u>:حاشى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم الذي كان كما وصفه ربّه: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ وكان ﴿ **بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ أن يكون مثل عمر بن الخطّاب الذي وصفه الصّحابة بأنه فظ غليظ يوم استخلفه أبو بكر فدخل عليه طلحة وقال له: ماذا تقول لربّك إذ ولّيت علينا فظّاً غليظاً. تاريخ الطبري وابن الأثير.

فأنا أربأ بكم يا سيادة الدكتور أن تضربوا المثل العاميّ الطّيور على أشكالها تقع فتمثّلوا رسول اللّه بغيره من الصّحابة الذين قضوا أغلب أعمارهم في عبادة الأصنام وارتكاب المحارم والخبائث، أمّا أنه اختارهم من بين جميع من عاصره

فهو قول بغير دليل والمعروف المشهور أنه اختار في المرّتين علياً وقال له أنت أخي في الدّنيا والآخرة. أمّا قولكم بأنه فشل الرّسول في هداية أقرب المقرّبين له: فلم يكن أبو بكر وعمر بأقرب من عمّه وكافله أبو طالب الذي تزعمون بأن النّبي فشل في إقناعه ومات على "الشّرك والعياذ باللّه".

وإن كفر القوم وعدم اتّباع نبيّهم لا يعني فشل الرّسول في رسالته، وقد بقي نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين ولم يتّبعه إلا القليل وحتى امرأته وابنه لم يتّبعوه وكذلك لوط وإبراهيم ويونس وصالح وموسى وعيسى فقد بلّغوا رسالات ربّهم وبذلوا كلّ ما في وسعهم لهداية النّاس ولكن أبى أكثر النّاس إلا كفورا، فلا يقال بأنهم فشلوا في رسالتهم فما على الرّسول إلا البلاغ، ولا يستبعد أن يكون قوم محمّد وأمّته كسائر الأقوام والأمم السّابقة وقد قال له ربّه: ﴿ **فإن كذّبوك فقد كُذّب رسل من قبلك**﴾ آل عمران184.

فلا يحقّ لكم يا سيادة الدكتور ولا لأحد من النّاس أن يقول بفشل الرّسول أو فشل القرآن في التّأثير أو فشل الإسلام إنما يتعلّق الفشل بالنّاس الذين لم يعملوا بأحكامه ولم يقيموا حدوده، وأعداء الإسلام اليوم يدّعون بأن الدّين الإسلامي ليس بحقّ وإلا لكان أتباعه ومعتنقوه من أرقى النّاس وأعلمهم.

ثم إنكم نقضتم قولكم يا حضرة الدكتور عندما زعمتم بأن الإسلام لم ينجح لصدقه وقوّة إقناعه بالقرآن وإنما نجح بالقوّة والجبروت وبالسّيف على يد أمثال معاوية بن أبي سفيان وغيره وضربتم مثلا بانتشار التّتار وسيطرتهم على العالم، وهذه بالضّبط ادّعاءات المستشرقين وأعداء الإسلام الذين يردّدون دائما بأن الإسلام انتشر بالقهر وبالسّيف والمسلمون هم الذين استعمروا الشّعوب ولولا "شارل مارتال" الذي هزمهم وأوقف زحفهم في مدينة بواتي في فرنسا لاستعمروا القارّة الاوروبيّة بأسرها.

وهذه النّظريّة التي تباركونها يا حضرة الدكتور هي نظريّة الصّهيونيّة العالمية التي تحلم بالتّوسّع وإقامة إسرائيل الكبرى بالحروب وقهر الشّعوب وطردهم من أوطانهم والعالم الإسلامي يعاني اليوم نتائج تلك النّظريّة.

أمّا أنا يا سيّدي العزيز فإني أؤمن بأن الإسلام هو دين الفطرة، شعاره «**لا إكراه في الدّين**»، وشعاره «**فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر**» والحديث في هذا طويل وأنا شعاري الاختصار فأرجوكم المعذرة.

وقد جاء في رسالتكم قولكم:

"اتّق اللّه يا أخي في الإسلام ولا تعطي الفرصة لكل حاقد على الإسلام ليزيد الفرقة والتفسّخ بالإسلام ويذلّ المسلمين ولا يبقي لهم حتى حلاوة ذكرى رسول الله والصّحابة وكأنك تقول لهم: هذا الإسلام والقرآن كلّه كذب في كذب ودخيل على النّاس لأنه لا يستطع أن يتخرّج من مدرسته سوى شخص واحد نظيف هو علي بن أبي طالب فهل هذه الطّريقة مديح للأسف الوهابي ذمّ وشتيمة؟".

الجواب: يا حضرة الطّبيب اتّقوا اللّه في أخيكم ولا تعطوا الفرصة للشيطان لكي يلعب بعواطفكم فتتّهمون أخاكم بأشياء هو منها بريء وتتحمّلون أوزارها يوم القيامة، فمن أين اكتشفتم " كأني أقول": هذا الإسلام والقرآن كلّه كذب في كذب أفي كتابي "ثم اهتديت" قرأتم شيئا من ذلك أم هناك ما يشعر من قريب أو بعيد بشكّي في الإسلام أو في القرآن؟ سامحكم اللّه وغفر لكم، ولا أطلب من اللّه سبحانه إلا هدايتكم فأنا أبكي على المسلمين الذين هجروا القرآن والسنّة النّبويّة الصّحيحة بتركهم أهل البيت واتّباعهم بدع بني أميّة الشّجرة الملعونة في القرآن.

وفي أهن موضع من كتابي وجدتم يا سيادة الدكتور أني قلت بأنه لم يتخرّج من مدرسة الإسلام سوى شخص واحد نظيف هو علي بن أبي طالب ؟

سامحكم اللّه مرّة أخرى فأنتم تتقوّلون عليّ أشياء ما خطرت يوما في مخيّلتي واطلب منكم الرّجوع إلى صفحة 162 من كتابي حتى تعلموا بأني ذكرت جمعا من الصّحابة الذين شايعوا عليّا ومنهم العباس عمّ النّبي وعبد اللّه بن عباس وسائر بني هاشم وأسامة بن زيد والزّبير وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفّاري والمقداد بن الأسود وعمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وخزيمة بن ثابت وأبو بريدة الأسلمي والبرّاء بن عازب وأبي بن كعب وسهيل بن حنيف وسعد بن عبادة وقيس بن سعد وأبو أيّوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وخالد بن سعيد وغير هؤلاء كثيرون.

فهؤلاء عشرون صحابيا ذكرتهم بأسمائهم إذا أضفت لهم سائر بني هاشم فالعدد يصبح أكثر من ثلاثين ومع ذلك قلت وغير هؤلاء كثيرون.

فلا يحقّ لكم يا سيادة الدكتور أن تتقوّلوا عليّ ما لم أقله إن كنتم منصفين.

ثم قلتم بعد ذلك: "**كلّنا بشر لكلّ عيوبه وحسناته فاذكروا محاسن موتـاكم، واللّه هو الذي سيقوم بمحاسبة العباد وليس البشر، ولم يضع اللّه لـه وكلاء لحساب البشر على إيمانهم في الأرض حتى ولا الرّسل، فكيف تعطـي لنفسـك هذه الصّفة ؟ وتذكّرني بوظيفتين لبعض النّاس النّدّابة التي لا تذكر سوى عيوب النّاس والمدّاحة التي لا تذكر سوى حسنات النّاس وكلاهما نقيض وخير الأمور الوسط**".

__الجواب :__ كلامكم هذا يا حضرة الدكتور كلّه صحيح إلا ما نسبتموه إليّ من إعطاء نفسي صفة المحاسب للعباد، فأنا لم أحاسب وليس من حقّي ولا يمكن لـي أبداً أن أحاسب أحدا من النّاس، وإذا حاسبت فسأحاسب نفسي الأمّارة بالسّوء من باب قول الرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا".

أمّا وظيفة النّدّابة التي لا تذكر إلا عيوب النّاس والمدّاحة التـي لا تذكـر سوى حسنات النّاس، فأنا أحترم رأيكم فيهما بأنهما طرفي نقيض ولكنّي أضيـف أنه علينا إذا أردنا مدح شخص ما أو ذمّه أن لا نقول عليه إلا الحقّ ومن أجـل إظهار الحقّ، لا نمدح شخصا بما ليس فيه أو نذمّه بما ليس فيه قال تعالى فـي كتابه العزيز:

« يأيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين للّه شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شـنآن قوم ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتّقوى واتّقوا اللّه إن اللّه خبير بما تعملـون» المائدة 8.

أمّا أن نمدح فاجراً ونذمّ برّاً تقيّاً فذلك هو طمس للحقّ ونصرة للباطل.

وجاء في رسالتكم بعد ذلك:

"من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لـم يسـتطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"

"السّاكت عن الحقّ شيطان أخرس" فإذا كان عمر بن الخطّاب بهذا السّوء للأسف وللرّسول فما الذي أسكت عليا وأصحابه عليه فإذا كان ذلك صحيح فالمسؤولية واللّوم يقع على علي وأصحابه أكثر من عمر بن الخطّاب لوصف علي بالإيمان وعمر بالسّوء. وهذا يعني فشل مدرسة الرّسول بتخريج صحابة لا يستحقّون أن يكونوا تلاميذ له.

أنت تطيع الشّخص حباً له أو خوفاً منه فإذا لم يستطع عمر إطاعة الرّسول حبا له واحتراما فهو لم يؤمن به كرسول وهذا تشكيك في صدق رسالة سيّدنا محمّد بأنه نبيّ اللّه وتشكيك في هيبته وقوّة شخصيّته.

<u>**الجواب**</u>: الشيء الذي أسكت علياً هو نفس الشيء الذي أسكت رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في رزيّة يوم الخميس إن فاتتكم هذه القضيّة وأردتم معرفتها يا سيادة الطّبيب فاقرأوها في صحيح البخاري وصحيح مسلم وسكوت النّبي أولا وسكوت علي ثانيا كان بأمر إلهي لمصلحة الإسلام والمسلمين حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين للّه. هذا إذا قصدتم بالسّكوت عدم المقاتلة والمقاومة بالسّيف. أمّا إذا قصدتم بالسّكوت عدم الكلام وإقامة الحجّة والبيان فإن رسول اللّه (ص) لم يسكت بل أوصاهم شفويّا بما أراد أن يكتبه وأقام عليهم الحجّة ليهلك من هلك عن بيّنة.

وكذلك فعل علي بن أبي طالب بوصيّة من النّبي فلم يقاتل ولم يخرج بالسّيف ولكنّه أقام عليهم الحجّة والدّليل بأنه الخليفة الشّرعي للرّسول ويكفيه دليل تأخّره عن بيعة أبي بكر كما أثبت ذلك البخاري في صحيحه (باب بيعة أبي بكر).

أمّا قولكم وتكراركم بفشل مدرسة الرّسول فقد أجبتكم عليه وأكرّر لكم بأن تكذيب المكذّبين وقلّة المؤمنين وكثرة المنافقين لا علاقة له بصدق رسالة سيّدنا محمّد ولا يشكّك في هيبته ولا في قوّة شخصيّته، قال اللّه تعالى: ﴿ **وما محمّد إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً وسيجزي اللّهُ الشّاكرين**﴾ آل عمران 144.

وإني يا حضرة الدّكتور العزيز أعطيكم مثلا آخر من القرآن حتى تقلعوا عن فكرة فشل الرّسول أو مدرسة الرّسول في تخريج صحابة يستحقّون أن

يكونوا تلاميذ له، فهذا موسى بن عمران رسول اللّه إلى بني إسرائيل رأى منه أصحابه من المعجزات ما لم يره أصحاب محمّد من محمّد ومع ذلك فلنستمع إلى قول اللّه تعالى في حقّهم: ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب اللّه لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين"، قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم اللّه عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى اللّه فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، قال ربّ إني لا أملك إلانفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ المائدة 20 – 26.

تمعّن يا حضرة الدكتور وتدبّر القرآن رعاك اللّه لتعلم كم عدد أصحاب موسى عليه السّلام الذين يستحقّون أن يكونوا تلاميذ له فسوف لن تجد إلا رجلين من الذين يخافون أنعم اللّه عليهما (اثنان فقط) بشهادة القرآن.

ولعلّ أصحاب موسى قتلوا هذين الرّجلين المؤمنين لأنهما خالفاهما ولذلك قال موسى عليه السّلام: ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي، ولم يتكلّم على الرّجليْن الصّادقيْن اللذين أرادا أن يدخلا مع موسى إلى الأرض المقدّسة.

فهل تقولون يا حضرة الدكتور بأن موسى فشل في رسالته ؟

وهذا إبراهيم الخليل عليه السّلام يسأل الملائكة عن مهمّتهم التي ثبوت لتنفيذها.

﴿**قال فما خطبكم أيّها المرسلون، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، لنرسل عليهم حجارة من طين مسوّمة عند ربّك للمسرفين، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين...**﴾ الذّاريات 31 - 36.

فهذه قرية بأسرها لقوم لوط ليس فيها غير بيت واحد من المسلمين فهل تقولون بأن لوطا فشل في تأدية رسالته يا سيادة الدكتور ؟

وهذا محمّد رسول اللّه وخاتم النّبيّين الذي بعثه اللّه رحمة للعالمين يشتكي إلى ربّه قائلا بأن قومه ابتعدوا عن كتاب اللّه.

﴿وقال الرّسول يا ربّ إن قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ الفرقان30.

فهل تقولون بأن محمّدا فشل في رسالته، أو أن القرآن فشل في التّأثير على سامعيه وإقناعهم كما جاء ذلك في رسالتكم يا سيّدي الطّبيب ؟

وجاء في آخر رسالتكم : "**صدقُ إيمان عمر بن الخطّاب يحاسبه عليه اللّه وليس البشر فلا داعي للاختلافُ على شيء ليس من اختصاصنا ويدعو إلى تفرقة المسلمين.**

إذا كانت الخلافة حقّ علي لماذا لم يحارب من أجلها وقد قال الرّسول: "من دافع عن ماله ومات فهو شهيد". الصّحابة هم كلّ من صاحب الرّسول في حياته بعد الإسلام وليس عمر وأبا بكر وعثمان وعلياً فقط. إذا كان عمر بهذا السّوء وقلّة الإيمان بالإسلام وبالرّسول فكيف كان من العشرة المبشّرين بالجنّة؟

" انتهت الرّسالة الموجّهة من قبلكم"

الجواب: قلنا في ما سبق أنه ليس من حقّنا محاسبة عمر بن الخطّاب أو أي واحد من النّاس على صدق إيمانه أو على أفعاله لأن الحساب يترتّب عليه الثّواب والعقاب فإن كان محسنا فلا نقدر على ثوابه وجزائه وإن كان مسيئا فلا نقدر على أذيته أو عقابه، والذي يقدر على كلّ ذلك هو اللّه وحده لا شريك له هو القائل:

﴿إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم﴾ الغاشية 26 – 25 **﴿ واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى اللّه ثم توفى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾** البقرة281.

ولكن يا سيادة الدّكتور يجب عليكم أن تفرّقوا بين الحساب والمعرفة فنحن إذا ما بحثنا في سيرة الرّجال وماذا فعلوا وماذا قالوا وكيف كانت معيشتهم وعلاقاتهم وحربهم وسلمهم؟ فلا يسمّى ذلك محاسبتهم كما لا يخفى على العقلاء وأنتم لا شكّ منهم.

فقد بحث العلماء من قبل في سيرة الرّجال وخصوصاً منهم المحدّثين من الصّحابة والتّابعين حتى سمّوهم أئمة الجرح والتعديل لأنهم وحسب ما وصلت إليهم من أخبار عدّلوا البعض وجرّحوا البعض الآخر فيقولون مثلا: فلان كذّاب أو مدلّس أو فاسق أو ليس بثقة أو غير صادق أو ضعيف الإيمان أو زنديق الخ.

ونحن إذا أردنا الوصول إلى الحقيقة يا حضرة الدّكتور فلا مناص لنا من البحث في سيرة الصّحابة الذين نأخذ عنهم أحكام ديننا، لأننا لم نعاصر رسول اللّه (ص) ولم نشاهد في حياتنا نبيا بعد محمّد لكي نأخذ منه وتطمئن له نفوسنا، وقد فتحنا أعيننا ووجدنا المسلمين يختلفون إلى مذاهب متعدّدة، فمن واجبنا أن نبحث عن مصدر الخلاف ولا نقبل باختلاف الآراء في دين اللّه الذي يقول:

﴿ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ النّساء 82.

ولمّا علمنا بالاختلاف عرفنا أنه ليس من عند اللّه وإنما من عند النّاس فبحثنا في التّاريخ فإذا بالاختلاف بدأ من الصّحابة بعد وفاة الرّسول (ص) فكان الواجب علينا إذاً البحث في حياة هؤلاء الذين نقلوا إلينا أحكام الدّين حتى نعرف المحقّ من المبطل والمؤمن من الفاسق والمخلص من المنافق فنأخذ ما هو حق ونترك ما هو باطل ليس إلا! وأعتقد يا سيادة الطّبيب أنكم توافقون على ذلك بحكم مهنتكم والعلوم التي تلقّيتموها فأنتم من السّباقين إلى استعمال العقل والمنطق والدّليل ولا تقبلوا الدّين بمجرّد التقليد والوراثة وتحسنوا الظّنّ بكلّ الصّحابة لا لشيء إلا أنهم صاحبوا الرّسول وسمعوا منه.

فحسن ظنّكم هذا مبالغة وتهاون في طلب الحقيقة التي ليس بعدها إلا الضّلال ولقد ضربت لكم في هذه العجالة عدّة أمثلة حيّة من كتاب اللّه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وعرّفتكم بأصحاب موسى وعيسى ونوح ولوط وغيرهم من الأنبياء، ولا بأس بإعادة مثل آخر ذكرته في كتاب "ثم اهتديت" ويتعلّق بأصحاب محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، ولعلّكم لم تقرأوه هناك لأن الغشاوة لم تترك لكم فرصة لفتح البصيرة، فهاكم المثل على لسان محمّد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: "أني فرطكم على الحوض من مرّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني

ثم يحال بيني وبينهم فأقول، أصحابي، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك، فأقول سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي" وفي رواية أخرى: "فلا أرى يخلص منهم إلا مثل همل النّعم" (صحيح البخاري ج4 ص94 وكذلك صحيح مسلم ج7 ص66 حديث الحوض).

أمّا قولكم: "**إذا كانت الخلافة من حقّ علي لماذا لم يحارب من أجلها**" فقد سبق أن أجبتكم عليه وأزيدكم هنا ما أخرجه الطّبري في الرّياض النّضرة وهو من علماء أهل السنّة والجماعة قال: استدعى رسول اللّه (ص) عليّاً في مرض موته وعانقه وبكى ثم قال: "إن لك ضغائن في صدور القوم سيظهرونها لك من بعدي فإن جاؤوك وبايعوك فاقبل وإلا فاصبر حتى تلقاني مظلوما" ثم بعد هذا أحيلك على جواب الإمام علي نفسه قال في نهج البلاغة في الخطبة الشّقشقيّة:

"أمّا واللّه لقد تقمّصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلّي منها محلّ القطب من الرحى ينحدر عنّي السّيل ولا يرقى إليّ الطير، فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصّغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربّه فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا أرى تراثي نهبا..." إلى آخر الخطبة، أطلب منكم قراءتها يا حضرة الدكتور في شرح محمّد عبده شيخ الأزهر (ولعلّكم ما قرأتم من نهج البلاغة شيئا).

أمّا قولكم بأن الصّحابة هم كلّ من صاحب الرّسول في حياته بعد الإسلام فنحن موافقون على ذلك ولم نسمع أحدا قال بأنهم الخلفاء الأربعة فقط، وإذا أردتم الرّجوع إلى كتاب "ثم اهتديت" فستجدون بأني نقلت في حادثة الغدير أنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم جمع ما يزيد عن مائة ألف صحابي فقال لهم: ألستم تشهدون أني أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، فقال: » من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه".

وهذا الحديث يا حضرة الدّكتور يجرّنا للبحث عن الموالين لعلي فنواليهم والمعادين له فنعاديهم لأن اللّه سبحانه يأمرنا بقوله: **﴿يأيها الذين آمنوا لا تتّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبّوا الكفر على الإيمان ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظّالمون﴾** التوبة 23.

أمّا سؤالكم الأخير الذي جاء فيه: إذا كان عمر بهذا السّوء وقلّة الإيمان بالإسلام، فكيف كان من العشرة المبشّرين بالجنّة ؟

فأطلب منكم يا حضرة الدكتور أن تشغّلوا المادّة الشحمة في عقلكم فستكتشفون بأنه حديث مكذوب لا أساس له من الصحّة وأعطيكم دليلا واحدا روما للاختصار ولو طلبتم منّي المزيد فسأكون إن شاء اللّه تحت الطّلب.

إن عليّا وطلحة والزّبير (من العشرة المبشّرين بالجنّة) وقد تحاربوا في حرب الجمل التي قُتل فيها طلحة والزّبير، وأهل السنّة والجماعة يروون في صحاحهم بأن رسول اللّه (ص) قال: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار، قالوا: يا رسول اللّه هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنه كان حريصا على قتل صاحبه".

ثم إن حديث الرّسول الذي أخرجه مسلم في صحيحه "حبّ علي إيمان وبغضة نفاق" لا يدلّ على إيمان من حارب عليّا فضلا عن دخوله الجنّة.

أقول قولي هذا واستغفر اللّه لي ولكم وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على اشرف المرسلين وعلى آله الطيّبين الطّاهرين، وفقّكم اللّه وسدّد خطاكم.

الحقير: محمّد التّيجاني السّماوي



الـــرحلـــة الـفرنســـية

فرنسا

مساحتها: **649.000** كلم مربّع

عدد سكانها: **58** مليون نسمة

عاصمتها: باريس

موقعها الجغرافي: أوروبا الغربية

حدودها من الجنوب الشرقي: إيطاليا والبحر الأبيض المتوسط

من الشرق: سويسرا والمانيا

من الشمال: اللوكسمبورغ وبلجيكيا وبحر المانش

من الغرب: المحيط الاطلسي

ومن الجنوب الغربي: إسبانيا



الــرحلة الـــفـرنسية

عرفت فرنسا أول مرّة في عام 1965 كنت شابا في الثانية والعشرين مـــن عمري عندما سافرت إليها بصحبة زميل لي في المعهد فرنسي الأصـــل، وقـــد صاحبته في رحلته الطويلة في سيّارته انطلاقا من جزيرة صقليّـــة الإيطاليـــة، ودامت الرّحلة أربعة أيام مرورا بإيطاليا وكلّ فرنسا لأنه يسكن في مدينة " ليل " المتاخّمة لحدود بلجيكيا، وقد اعجب ميشال بشخصيّتي التي عرفها طوال سنتين في المعهد ولكنّه ازداد إعجابه عندما صاحبته في تلك السفرة الطويلة المضنيّـــة، فكان لا يضرب موعدا للقائنا إلا ووجدني في انتظاره وسألني مرّة قائلا: ألســت عربيا أنت ؟

قلت: بلى، ولماذا هذا السؤال ؟

قال: لأنني كثيراً ما أسمع المقولات المتعددّة، موعد عربي: عمل عربـــي، تلفون عربي، فكنت دائما استخفّ بالعرب، ولكنّك أنت أعطيتني صورة غير التي أتوقعها في مواعيدك وفي صدقك ووفائك فما كان جوابي إلا أن قلت له:

أتدري لماذا ؟

قال: لا.

قلت: لأني عربيّ بحقّ وحقيقة.

قال: لم افهم قصدك.

قلت: لأن العرب هم الذين اخترعوا الساعة لضبط الوقت، وهم الذين قـالوا في الوفاء بالوعد: "تخرج الرّوح من حيث تخرج الكلمة". وهم الذين علّموا الناس الوفاء والمروءة وحسن المعاشرة وإكرام الضيف الخ.

كنّا طوال الطريق نتحدّث عن كلّ شيء، ولمّا أشرفنا علي الوصول لمدينـة "ليل" صفّق بيديه طربا وقال لي: اليوم سألتقي بكلبي واستغربت منه هذا القـــول وهذه الفرحة لملاقاة كلبه الذي عرفته عنده منذ قدومه إلى مدينة قفصـــة وليـــس

معه في سيارته غير زوجته الجميلة التي تُدرّسُ هي الأخرى مادّة الفرنسية وكلبه من فصيلة "الرّاعي الألماني" الذي كان يشمّ رائحة سيّده على بعد مسافة طويلة فكان ينتصب وراء الباب محرّكا ذنبه لاستقبال سيّده ميشال قبل وصوله للبيت وكانت زوجة ميشال تعرف قدومه من خلال كلبها.

وبما أن زوجته أسقطت جنينها في الشّهور الأولى من الحمل لسبب الحرارة المتزايدة في مدينة قفصة حسبما يدّعون، فقد فكّرا في الحمل الثاني أن تسبقه إلى فرنسا هي والكلب قبل العطلة الصيفيّة بشهر كامل وحصلت من طبيبها على رخصة وسافرت.

فكان يضحك ويقول: أنت لا تعرف مدى حبّي له، صدّقني إني أحبّه أكثر ممّا أحبّ زوجتي، أتدرى أن زوجتي أخبرتني بأنه عندما سافر معها بقي أسبوعا كاملاً لا يأكل شيئاً، أتدرى أنه ما أكل حتى وصلت رسالتي إلى زوجتي التي مرّرتها على أنفه فشمّها، عند ذلك أكل.

استغربتُ من أقواله ولم أتصوّر أن حبّ الكلب يفوق حبّ الزوجة ولكنّني قلت في نفسي."ولله في خلقه شؤون."

وأوصلني ميشال إلى بيت أحد الأقارب وهو صلاح خليل المتزوّج من فرنسية ويسكن في المدينة نفسها، ووعدني بأنه سيأتيني غداً ليأخذني أتغدى عنده في البيت فقال له قريبي: أعطني عنوانك وسآتيك به غداً لحدّ البيت لنوفّر لك بعض الرّاحة، وكان الأمر كذلك.

ذهبنا من الغد إلى العنوان المذكور وعلى الموعد المذكور واستقبلنا والد ميشال وأمّه، واعتذرا لنا عن تأخّر ميشال وزوجته لأنهما ذهبا لحضور مراسم دفن كلبهما الذي مات بالأمس. وقالت العجوز بصوت متقطّع ملؤه الأسى والحسرة:

قبل وصول ابني ميشال بعشر دقائق انتصب الكلب وراء الباب وهو يريد فتحه محرّكا ذنبه بقوّة وأخذ ينبح بصوت غريب فقالت كنّتي زوجة ميشال: لقد وصل ميشال افتحي الباب يا ماما وفتحت الباب فلم أر أحدا فما سمحت للكلب

بالخروج، وجاءت كنّتي فمسكت بالكلب وهي تسـألـه: أوصـل ميشـال ؟ هـل أحسست به ؟ وبعد عشر دقائق سمعنا سيارة ميشال تقف أمام الباب فتحنا البـاب ونزل ميشال من السيّارة فقفز الكلب بين أحضانه ومات وهو يعانقـه، وبكـت العجوز وهي تقول: لم يترك لنا الفرصة لنفرح بميشال لأن ميشال أصابته صدمة بسبب موت كلبه وكذلك زوجته المسكينة التي ما علمت بمـوت الكلـب حتـى سقطت هي الأخرى وأسقطت المسكينة جنينها.

تعجّبتُ من هذه القصّة الغريبة وسألتها: زوجة ميشال في المستشفى ؟

قالت: باتت البارحة في المستشفى وأخرجها ميشال في الساعة العاشرة من هذا اليوم لأنها أبت إلا حضور مراسم الدّفن.

تأسّفت كثيرا لهذه الحادثة وأنا أعرف ميشال وزوجته وأعرف الكلب غايـة المعرفة، وقلت لصديقي صلاح، سبحان اللّه هربت من قفصة بدعوى أن جنينـها سقط من حرارة قفصة ومائها الملوثّ فها هي حكمة اللّه سبحانه تعلّمها بـأن لا مفرّ من قضاء اللّه وقدره، هربت من قفصة قبل شهر ونصف من العطلة لتحافظ على جنينها فسقط في مدينتها بسبب موت الكلب.

وجاء ميشال وزوجته وعيونهم محمرّة من شدّة البكاء وقمنا نقـدّم إليـهم التّعازي ونعتذر لهم للخروج فلقد قضينا أكثر من ساعة في انتظارهم، وخرجـت مع قريبي لنتغدى في مطعم خارج المدينة. كان لا بدّ أن أسجّل الحادثة بما فيـها من أحاسيس ومشاعر قد لا يتحرك لها شعور العربي ولا تمسّ عواطفـه مـن قريب أو من بعيد ولكنّي شاهدت الأشخاص الذين تفاعلوا معـها فـأثّروا فـيّ وتساءلت في نفسي داخل أعماقي أيمكن للمسلم الذي علّمه الإسلام معاني الرفّـق بالحيوان والرّحمة به أن لا يتأثّر بمثل هذه الحوادث ؟

ألم يقل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: "دخلت امرأة النّـار لأنـها حبست قطّتها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض" ألم يقل بـأن امرأة أقبلت في الصحراء وهي تموت عطشا حتّى عثرت على بئر ولمّا مـلأت لتشرب اقبل كلب يلهث من شدّة العطش فسقته الماء قبل أن تسقي نفسها فغفـر اللّه لها كلّ ذنوبها.

ألم يعلّم الرّسول المسلمين بأن يرفقوا بذبائحهم من الأضاحي فلا يذبحوهم حتّى يسقوهم الماء ولا يكشفوا لهم عن السّكين.

ألم يضرب الرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أروع الأمثلة في الرّفق بالحيوان عندما اشتكى له البعير الذي أراد صاحبه أن يذبحه بعدما أنهكت قواه أعوام التّعب والمشقّة، فقام الرّسول بنفسه وذهب إلى صاحب البعير واشتراه منه ثم أطلق سراحه لينعم بالحياة.

كلّ هذه الخواطر مرّت في ذهني وأنا أقدّم التّعازي لميشال وزوجته وهما يبكيان ولا يقدران على الكلام.

أيجعل اللّه سبحانه لبعض النّاس أحاسيس مرهفة تتأثّر لموت كلب بينما يقتل النّاس بعضهم بعضا لأتفه الأمور أذكرها الآن لأتذكّر الوحشية والخسّة التي قابل بها جيش يزيد اللّعين سبط النّبي وعترته والمجزرة الدّامية التي أفنوا بها عترة الرّسول فلم ينج منهم حتّى ابن الحسين الرّضيع، فأقول: أين ميشال الذي بكى وحزن على كلبه الذي مات بأجله، من قتلة الحسين الذين ذبحوه وداسوا على جسده بخيولهم وحملوا رأسه ليقدّموه هديّة ليزيد الفسق والفجور.

أسجّل هذه القصّة لأنها سجّلت بدورها أول رحلة لي قمت بها إلى فرنسا التي كنت معجبا بها كغيري من الشباب المثقّف المغترّين بفرنسا وعظمتها كما أسجّلها للمقارنة بين ظواهر الأمور وخفاياها بين المتناقضات التي يعيشها الغرب الذي ابتعد عن الدّين وأبدل اللّه بالعلم وأبدل تلك الشّعور المرهفة والعواطف النّبيلة بالحقد والبغضاء والعنصريّة المقيتة.

كان رجال الأعمال والمسؤولون في الحكومة الفرنسية يأتون إلى تونس في الستّينيّات فينتدبون العمّال بأعداد كبيرة، وهم الآن وبعد ثلاثين عاما من الأشغال الشّاقة عبّدوا خلالها الطرقات وفلقوا الجبال وحفروا الآبار وبنوا الجسور والمحطّات وأقاموا شبكة المترو تحت الأرض، هاهم الآن أبدلوا اليد العاملة البشريّة بآلات الكترونية فطردوا العمّال من وظائفهم وحرموهم من بعض حقوقهم واصبحوا يطالبون برجوعهم وعودتهم إلى بلدانهم بدعوى أنهم أجانب لا يمكن لهم أن يندمجوا في الثقافة الفرنسية.

أسجّل هذه القصّة للتاريخ حتّى يعرف المسلمون أن حياتهم خارج أوطانهم هي على حساب قيمهم العليا وعلى حساب أولادهم الذين سيضيّعون الدّين ليشتروا به ثمنا قليلا وصدق رسول اللّه (ص) عندما قال: "كلّ عدوّ ترجى مودّته إلا من عاداك في الدّين".

ولكن ما الحيلة عندما تغلق في وجهك الأبواب وتصبح عرضة للتتبّعات والتّحريّات من أجل عقيدة آمنت بها وسلوك خاصّ آمنت بفوائده.

ما الحيلة عندما يرى غيرك أن استقامتك المثالية أصبحت تطرّفا وسلوكك اصبح مشبوها فلقد يتأثّر به غيرك من النّاس فيصبح بعد ذلك مذهبا متبعا أو حزبا سياسيّا غير معترف به.

ما الحيلة عند أولئك العاطلين عن العمل الذين يقضون كامل اليوم يجوبون الشوارع داخل المدينة وخارجها باحثين عن عمل يكسبون من ورائه قوتهم وقوت من يعولون.

ما الحلية عند أولئك الذين أخفقوا في دراستهم لسبب من الأسباب وهم عازمون على مواصلة التعليم فيجدون الأبواب موصدة في وجوههم والمعاهد والجامعات مليئة بأكثر من طاقاتها فلا ترغب فيهم ولا تسمح لهم بإعادة الامتحان مرّة أخرى.

ما الحيلة عند أولئك الذين أوقفوا في السّجن أو في الإصلاحيات المدنيّة لحادث طارئ تابوا من ورائه ولكنّ نفوسهم الأبية نفرت من المجتمع الذي عاقبهم بقسوة فلم يعذرهم ولم يغفر لهم وبقي ينظر إليهم بحقارة وازدراء.

كلّ أولئك سيبحثون عن الخروج خارج الوطن ليغيّروا ما بأنفسهم فيغيّر اللّه ما بهم من تعاسة ومظلمة وبؤس.

وكنت من بين هؤلاء ورغم أني أستاذ بالمعهد الثانوي وفي مركز قد يحسدني البعض عليه غير أنني فضّلت الخروج وتبديل الجوّ تاركا ورائي زوجة وأطفالا صغارا كي لا أعيش في كابوس من التابعات والأبحاث المتواصلة والشّكوك المتزايدة.

وطلبت من وزارة التعليم والتربية إحالتي على عدم المباشرة من أجل مواصلة التعليم بالخارج حسب القانون المسطّر في الرّائد الرسمي للحكومة التونسية، والذي يعطي الأستاذ الذي يريد مواصلة التعليم بالخارج مدّة ثلاثة أعوام قابلة للتجديد مرّة واحدة.

وجاءت الموافقة وخرجت إلى فرنسا بعدما حصلت على التسجيل في جامعة باريس الأولى بالسّوربون.

كان ذلك عام 1979 في شهر اكتوبر وقضيت في باريس عاما كاملا بعيدا عن زوجتي وأولادي اعمل مع صديق لي من قفصة يشتغل في بيع الأشياء القديمة، فكنت أنزل إلى السّراديب المظلمة أو اصعد إلى الطوابق العليا لأحمل على ظهري ما تبقّى من الآلات المنزلية "الغسّالات" و"الأفران" و"الثّلاجات" و"المبليات" القديمة ثم أنقلها بعد ذلك إلى الأسواق الأسبوعية ليتولّى صديقي بيعها هناك، والمهمّ أنه يتكفّل بإسكاني معه في بيته ويتكفّل بأكلي ويعطيني بعض النّقود التي تسدّ بعض حوائجي.

وهكذا وجدت نفسي بعدما كنت أستاذاً محترماً أصبحت حمّالا أحمل الأثقال على ظهري وأنزل بها من الطابق السّابع إلى الأرض وقضيت شتاءً قاسياً في باريس أبكي بعض الأحيان من شدّة البرد والمشقّة التي أعانيها.

ونصحني بعض الأصدقاء من العرب بأن أجلب زوجتي وأولادي إلى فرنسا لأتمكّن من الحصول على المنحة العائلية، ففعلت وبجهود مضنية حصلنا على الأوراق وأسعفونا بالمنحة العائلية التي أراحتني من العمل الشّاق والأتعاب الكثيرة فانكببت على الدراسة وتعرّفت وقتها على الأخ العزيز محمّد الحكيمي الذي أعانني على محنتي ووجدت فيه الشخص المثالي لاتباع أهل البيت عليهم السّلام، فكنت كلّما ألّمت بي ملمّة قصدته، فيبتسم في وجهي قائلا، بسيطة سنحلّها بإذن اللّه تعالى. وبالفعل يحلّ كلّ مشاكلي ويقف معي وقفة الأخ لأخيه وتعلّمت منه الكثير من أخلاق أهل البيت جزاه اللّه عنّي خير الجزاء.

تعلّقت في تلك الأيام بالسّفر إلى "نوفل لوشاتو" القرية التي يقيم فيها الإمام الخميني خصوصا عندما كنت وحيدا قبل قدوم زوجتي وأولادي وتعرّفت على

المؤمنين من الإيرانيين المخلصين وبعد نجاح الثورة الإسلامية دُعيت لكثير من المؤتمرات التي أقيمت هناك، وكنت إلى جانب الدراسة ألقي بعض المحاضرات في المناسبات المتعدّدة وخصوصا في الأوساط الطلابية وفي مساجد باريس التي كان يرتادها المسلمون من جميع الجنسيّات والطّوائف واصبح نشاطي معروفا بعدما أشرفت على مؤتمر الحجّ في ضواحي باريس والذي دعوت له جمعا غفيرا من العلماء ومن جميع أنحاء العالم وكنت بصحبة الأخ محمّد الحكيمي والأخ محمّد باقر فضل اللّه اللذين كانا يديران شؤون المؤتمر ويسهران على إنجاحه.

وكنّا في باريس وفي مكتبة أهل البيت وفي المؤتمرات لا نفترق أبداً فإذا أردت أن تسال عن التيجاني فعليك بالحكيمي وفضل اللّه. ولكثرة الأسفار والنّشاطات الثّقافية ولوجود مكتبة أهل البيت في قلب العاصمة أصبحنا معروفين لدى السّلطة الفرنسية التي بدأت تضايقنا من حين لآخر حتّى انتهت إلى تفريقنا فقد ارتحل الأخ محمّد الحكيمي إلى لندن كما رجع الأخ باقر فضل اللّه إلى بيروت وبقيت بمفردي في باريس.

وتعرّفت بالأخ رشيد بن عيسى الجزائري وهو أيضا من الرّجال العارفين الذين عرفوا الإسلام وهو مع ذلك عارف بكلّ دسائس الفرنسيّين المعادين للإسلام، وقد عملنا معا في عدّة مؤتمرات على كشف الحقائق وفضح المتآمرين وكنّا نسافر الأيام واللّيالي للمشاركة في النّدوات الطلابية التي كانت تجمع الجزائريّين والمغاربة والتونسيّين في اغلب المدن الفرنسية.

دُعيت مرّة إلى مؤتمر الأخوة الإبراهيمية الذي أقيم فيChantilly في ضواحي باريس الشّمالية وكان شهر رمضان ووجدت نفسي المسلم الوحيد بين جمع كبير من اليهود والنّصارى، وكان المحاضر أحد الأساتذة المبرّزين في جامعة السورّبون ومعه الأب "ريكي" والأستاذ الكبير ميشال لولون وبعض تلامذة الفيلسوف "هانري كوربان" وتكلّم الأستاذ المحاضر لمدّة ساعة كاملة محاولا التقريب بين وجهات الدّيانات الثلاث الموحّدة وهي اليهودية والمسيحيّة والإسلام وضرورة التقاء علماء الدّيانات المذكورة وتفويت الفرصة على الذين يستغلّون

الدّين للوصول إلى أهداف سياسيّة أو الذين يتستّرون بالدّين وهم يدعـــون إلـــى التّطرف والإرهاب ليروّعوا سكان العالم الآمنين. وفهمت بأنه يقصــــد الثـــورة الإسلامية وما سمّاه بالصّحوة الدينيّة عند البعض، أو بالانتماء القومي والطّـــائفي عند البعض الآخر.

وبعد إنهاء كلمته فتح باب النّقاش وكنت أول المتكلّميـــن فســـألت الأســـتاذ المحاضر هل يعتقد بنبوّة محمّد؟

واحمرّ وجهه وقال: لماذا هذا السّؤال؟

وتكلّم الأب ريكي قائلا له: اجب على سؤاله بصراحة فتلجلج وقال: أنـــا لا اعتقد بنبوّته.

فقلت: إذا كنت لا تعتقد بنبوّته، فأنت تكذب على نفسك وعلينا منذ ســـاعة، وما قلته في محاضرتك ليس إلا هراء.

وقامت ضجّة في القاعة، فقلت: وهذه ليست غريبة بالنســـبة إليكـــم فـــأنتم تكذّبون كلّ الأنبياء والمرسلين بما في ذلك موسى عليه السّلام.

واستغرب الأستاذ المحاضر من كلامي كما استغرب كلّ الحاضرين فقـــال في ابتسامة صفراء: نحن لا نكذّب إلا محمّداً.

قلت: لقد نسبتم إلى سيّدنا عيسى عليه السّلام قوله بأن كلّ من جاء قبله لـــم يكونوا غير دجّالين ولصوص ولكنّ الخرفان استمعت إليهم واتّبعتهم.

فقال: مستحيل لا يوجد ذلك أبداً ففي أي كتاب قرأته ؟

قلت: في إنجيل يوحنّا.

قال: أبداً، لا يوجد هذا الكلام في أي إنجيل من الأناجيل الأربعة الرســـمية والمعترف بها عند الكنيسة.

وبينما نحن في اخذ وردّ وإذا بعجوز تجلس ورائي تجذبني مـــن معطفـــي وهي تقول:

صدقت يا سيّد، ما تقوله صحيح وهو موجود مع الأسف وهاك الكتاب.

التفتّ إليها فرأيت يدها ترتعش وهي تمدّ إلي بالإنجيل وقد فتح على تلك الصفحة التي تكلّمت عنها.

آخذت الإنجيل منها وشكرتُها ثمّ قرأت على الحاضرين تلك الفقرة، فثارت ضجّة أخرى أكبر من الأولى وبدا التشويش هنا وهناك.

أعطيت الكتاب المقدّس إلى الأستاذ المحاضر، فنظر فيه ثم ناوله إلى الأب "ريكي" الذي قرأه بدوره ثم أعطاه للّذي بجانبه فقرأه ثم قال وهو يريد تبرير كلام المسيح: نعم إن السيد المسيح لم يقصد بكلامه هذا موسى وإنما قصد المشعوذين والدجّالين الذين ادّعوا النبوّة قبل المسيح.

وظنّ أنه حلّ اللّغز بهذا التأويل الخاطئ وأسكت فورة الغضب التي طغت على بعض الحاضرين.

فقلت له: أتأسف يا سيّدي بأن تأويلك ليس صحيحا ولا ينطلي على كلّ من عرف الأساليب الفنيّة والتقنية للكلمات المقدّسة، وبما أني دكتور من السوّربون في علم الأديان اعرف معنى الخرفان المستعار للتّعبير عن المؤمنين الصّادقين فقول المسيح المنسوب إليه بأن الخرفان استمعت إليهم واتّبعتهم يعني أن المؤمنين الصّادقين آمنوا بنبوّتهم ورسالتهم، وأنا على علم وأنتم أيضاً تعرفون أن المؤمنين الصّادقين لم يؤمنوا بنبوّة المشعوذين والدجّالين.

وقامت ضجّة من جديد وارتفعت الأصوات، فقرّر الأب "ريكي" مدير المؤتمر أن يوقف الحوار مؤقّتا للاستراحة مدّة نصف ساعة.

وخرج النّاس من القاعة وخرجت معهم إلى البستان الكبير الذي يحيط بالقصر، ولم أعرف أحدا أتمشّى معه فبقيت بمفردي تحت شجرة كبيرة استظلّ بظلّها واستنشق عبير أزهارها.

فجاءني شخص عرفت من لباسه بأنه راهب كبير، قدّم نفسه بعدما سلّم عليّ وقال: أنا الأب "ميشال لولون" وأنت بالتأكيد تونسي؟

قلت: نعم وكيف عرفت ذلك؟

قال: هذه الجرأة لا يملكها إلا التونسيّون وعرفتك من لهجتك لأن أكثر أصدقائي من تونس.

فرحت بملاطفته وأخذ بيدي ومشينا إلى مكان بعيد عن النّاس وهو يسألني ما هي مهنتي وماذا افعل في فرنسا ومن الذي دعاني لهذا المؤتمر.

وأجبته على كلّ أسئلته بصدق واختصار فقال: أنصحك أن لا تعود إلى القاعة مرّة ثانية لأني أخاف عليك.

قلت: ولماذا تخاف عليّ ؟

قال: أنت فجّرت قنبلة وسط الحاضرين وسوف لا يسكتون عليك وقد تكلّمتَ بكلام خطير وتعدّيتَ الخطّ الأحمر.

قلت: أتخوّفني أم تهدّدني؟

فضحك وضغط على ذراعيّ وقال: لا بالعكس أنا أخاف عليك منهم.

قلت: ممّن ومن هم؟

قال: أتدرى أن كلّ الحاضرين في القاعة من أحبار اليهود الذين قدموا بالأمس من إسرائيل وهدفهم هو احتواء الجمعيّات والمنظّمات الإسلامية والمسيحيّة على السّواء.

قلت: ولماذا ؟

قال: إنهم يشعرون بالخطر في الصّحوة الدينية التي أيقظت المسلمين والنّصارى فيريدون باسم الأخوّة الإبراهيمية أن يجمعوا المسلمين بالخصوص حتّى لا ينزلقوا مع إيران في حربها ضدّ اليهود، وأنت بكلامك هذا الذي قلته في القاعة أفسدت عليهم كلّ شيء، قلت: ولكنّي لم أتكلّم عن اليهود.!

قال: أتدرى من هو الأب "ريكي"؟

قلت: لا أعرفه وما عرفته إلا في هذا اليوم. قال: إنه من الآباء الذين سجنوا في الحرب العالمية مع اليهود وقد تأثّر بهم وأصبح منهم وهو مستشار الرّئيس الفرنسي "فرنسوا ميتران" الذي تأثّر هو الآخر بهم وتزوّج منهم.

قلت: وما شأني أنا بكلّ هؤلاء؟

قال: كلمة واحدة من الأب "ريكي" وستجد نفسك إمّا في السجن أو مطرودا إلى بلادك، ولذلك أنصحك بعدم الرّجوع للمؤتمر. شكرته على عواطفه نحوي ووعدته بعدم الرّجوع.

قال: أنا مسؤول عن منظّمة اسمها G.R.I.C ومعناها Groupe de Recherche Islamo Christianisme جماعة البحوث الإسلامية المسيحية.

وأتمنّى أن تكون عضواً معنا في هذه المنظّمة وعندنا فروع في كلّ دول العالم حتّى في تونس.

ثم أخرج لي من جيبه بطاقته الشخصيّة فيها اسمه وعنوانه ورقم الهاتف واعطني إيّاها قائلا: نحن في انتظارك تعال متى شئت.

شكرته مرّة ثانية وودّعته وخرجتُ مسرعا وركبتُ أول تاكسي وجدتها في طريقي إلى باريس.

اتّصلت به في أول فرصة سمحت وفرح بي كثيرا وقدّمني إلى الأعضاء الذين وجدتهم هناك منهم "روجيه غارودي" و"فانسان مونتاي" وبعض الشخصيات الأخرى من المصريّين والجزائريّين.

بقيت أتردّد على الجماعة مدّة سنتين كاملتين نلتقي في الشهر مرّتين ونتباحث في مختلف المواضيع واذكر أني تحادثت مرّة مع روجيه غارودي بخصوص إيران وسألته ما رأيه، فقال: بأن إيران فسدت بعد هروب أبو الحسن بني صدر، وعلمت بأنه صديق حميم للرّئيس المخلوع بني صدر الذي هرب من إيران وطلب حقّ اللّجوء من فرنسا.

وبدأت السّلطة الفرنسية تراقبني وتضايقني وتفرض عليّ تأشيرة للخروج من فرنسا حتّى يعرفوا وجهة سفري، وفي كلّ مرّة أسافر إلى إيران وأعود إلى باريس إلا وجدت ثلاثة منهم بلباس مدنيّ ينتظرونني في المطار فيحقّقون معي ويفتّشون كلّ ادباشي بدقّة.

وازدادت التّتبعات بعدما أسست أنا وبعض الأصدقاء جريدة أسبوعية باسم القدس، اكتب فيها مقالات إسلامية تتعلّق بتعريف النّاس على علوم أهل البيت

وفضائلهم أو مواضيع تخصّ المسلمين الذين يعيشون في فرنسا خاصّة وفي أوروبا عامّة.

والتقيت في إحدى المؤتمرات بالأخ عبد الكريم "دوسال" الفرنسي الذي أسلم قبل عشرين عاما وحجّ بيت اللّه الحرام مرّات عديدة هو وزوجته، ودار الحديث بيننا عن الثورة الإسلامية وعن المذاهب الإسلامية، فامتنع عن البحث وقال بأنه ترك دينه المسيحيّ من أجل الخلافات الموجودة فيه، واعتنق الإسلام الذي لا خلاف فيه.

فقلت له :أنا أخاف عليك أن تصطدم في يوم من الأيام بالخلافات الموجودة عند المسلمين فماذا ستفعل عندئذ؟ أتترك الإسلام وتبحث لك عن دين جديد ؟

فقال: بصراحة أقول لك إني منذ زرت الإمام الخميني في "نوفل لوشاتو" وتعرّفت على بعض الإيرانيين فهمت أن هناك خلافا كبيرا بيننا وبينهم.

ولم تمض فترة قصيرة على الأبحاث التي أثرتها معه حتّى استبصر للحقّ وغيّر اسم زوجته التي كان يناديها عائشة فأصبحت "الزهراء"، وألحّ عليّ أن أسافر معه إلى قريته "اكلي" التي تبعد عن باريس 170 كلم حيث له هناك أصدقاء جرّهم هو إلى الإسلام وعددهم أكثر من عشر عائلات، وقال بأنه يريد هدايتهم إلى الحقّ ولكنّه لا يملك الحجج وأنا بإمكاني إقناعهم بسهولة.

لبيّت دعوته وسافرت بصحبته والتقيت بالجماعة الفرنسيّين الذين أسلموا منذ وقت بعيد وسهرت معهم بصحبة الأخ عبد الكريم ليلتين فاستبصروا جميعا رجالا ونساء، وبقيت معهم ثلاثة أيام أعلمهم كيفيّة الوضوء والصّلاة والتّيمم وما هناك من فقه أهل البيت عليهم السلام.

وبقيت أتردّد على القرية بصحبة عبد الكريم وعائلته واستدعيت زوج أختي من قفصة وهو طبيب متقاعد فجاء إلى القرية وختن الرجّال وأولادهم في يوم مشهود وسرى الخبر في كلّ القرية بأن الجماعة قبلوا عمليّة الختان في سنّ الكبر وأنهم لا يأكلون اللّحوم التي تباع عندهم وإنما يشترون الخرفان ويذبحونها بأيديهم.

وجاء فريق من الصحافة يصوّرونهم ويسألونهم عن هذا التّحول، وطالعتنا الصحف المحليّة بعناوين مثيرة وصور مذهلة على الصفحات الأولى كتبوا عنوانا

بارزا يقول: الفرنسيّون في "اكلي" يقولون مرحبا بالإسلام وسحقا للمجتمعات الغربيّة، الفرنسيّون الذين أسلموا يختتنون في نفس اليوم هم وأولادهم، ولا يأكلون أكلنا لاعتقادهم بنجاستنا، الفرنسيّون الذين اعتنقوا الإسلام يقولون لو يأمرنا الإمام الخميني بمحاربة أهلنا لفعلنا.

وبدأت التّحريات والأبحاث، بعض الجرائد عندهم كتبت بأن الدكتور التّيجاني وهو تونسيّ الجنسية يدرّس بمعهد" بالزاك "في باريس يتردّد كثيرا على إيران هو السّبب في غسل دماغ الفرنسيّين الذين أسلموا وهو يتعهّدهم من حين لآخر وينوي التّحول من باريس للإقامة بينهم.

وبالفعل فقد اشتريت بيتا مهجورا في القرية بثمن رخيص وبدأت في ترميمه بإعانة الإخوة المسلمين هناك الذين ألحّوا على نقلتي بينهم.

وبدأت التهديدات تصلني عبر الرّسائل، ثم تطّورت إلى التهديدات الصريحة في التلفون، يرنّ جرس التّلفون عندنا في البيت في الثالثة صباحا أو قبل طلوع الفجر فأرفع السّماعة فيقال لي :هنا الجبهة الوطنية الفرنسية، سنقتلك.

وفي ذات ليلة رنّ جرس التّلفون قبل الفجر رفعت السّماعة فقال :أنت التّيجاني السّماوي.

قلت: ماذا تريد؟

قال: بيتك احترق

قلت: عليك اللّعنة، وأغلقت التّلفون.

فعاود الجرس مرّات ورفعت السماعة.

فإذا به يقول :هنا مركز الجندرمة الفرنسي والضّابط الأعلى هو الذي يكلّمك، فلماذا تلعنني، هذه هي أخلاقكم ؟

اعتذرت له وأفهمته بأن بعض المجهولين كانوا يهدّدوني قبله، فقبل اعتذاري وأفهمني بأن بيتي اكلته النّار وطلب منّي الحضور فورا إلى عين المكان.

وسافرت في الصّباح الباكر لأرى بيتي أصبح كوماً من الرّماد وتبخّرت كلّ الأحلام والآمال التي كان يتطلّع إليها مسلمو "اكلي".

وكثرت التحقيقات والأبحاث وبدأت الشرطة الفرنسية تلاحقني أكثر، وتضيّق عليّ في استخراج الوثائق، وبعد أن كانت تمنحني الإقامة لمدّة ثلاث سنوات، أصبحت إقامتي تتجدّد في كلّ عام، ثم تقلّص العام إلى ثلاثة أشهر.

ووجدت نفسي أقف بصحبة زوجتي وبناتي ساعات متعدّدة أمام مكتب الهجرة والأجانب ليجدّدوا لنا الإقامة وتتكرّر هذه العملية المذلّة في كلّ ثلاثة أشهر يسبقها أسبوع كامل من الركض والعناء لتحضير الأوراق التي يريدونها.

وعرفت الأسباب أو بعضها، ذلك أنني كنت في كتابة مقالاتي الشهريّة للمجلّة أهاجم العنصريّة الفرنسية وأنتقدُ حقد الفرنسيين على الإسلام والمسلمين وحملتهم العارمة ضدّ الحجاب الإسلامي وتشجيعهم لسلمان رشدي الذي يسبّ الإسلام والمسلمين وعلى رأسهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، كما أنتقد حربهم للجمهورية الإسلامية بصفة علنيّة ومدّهم صدّام بكلّ أسلحة الدّمار للقضاء على الإسلام في إيران.

أعود بك أيها القارئ العزيز إلى القصّة التي بدأت بها الرحلة الفرنسية، قصّة ميشال وكلبه والوفاء بينهما لترى كيف تعيش المجتمعات الغربيّة تلك التّناقضات في الوقت الذي يتفانى الفرنسيّ ويهيم بحبّ كلب ويصرف عليه الأموال الطّائلة ويبكي لفقدانه ويبني له قبرا من المرمر يكتب عليه أرقى معاني الحبّ والحسرة. تراه يحقد على بشر مثله فلا يتأثّر لفقره وبؤسه ولا ينجده عند الحاجة بل يقول قولته الشّهيرة "كلّ إنسان حسبه نفسه والربّ للجميع".

نعم سوف أطلعك أيها القارئ على المجتمع الفرنسي الذي عشتُه طيلة عشرين عاما حتى لا تغترّ مثلي بالظّواهر ولكي تعرف أن فرنسا لا زالت تحمل راية الحروب الصليبيّة لمحق الإسلام أينما كان وحيثما وجد.

أنت تعرف قضيّة سلمان رشدي الذي كتب الآيات الشيطانية ليسبّ ويشتم الإسلام والمسلمين وعلى رأسهم رسول اللّه وتعرف أن الإمام الخميني هو الوحيد الذي أفتى بقتله وتسبّب ذلك في قطع الدول الغربيّة علاقاتها بإيران.

كلّ هذا قد يُعزى إلى السياسة وإلى خوف الغرب من الإسلام الذي ظهر بقوّة في إيران بعد سقوط الشّاه. لكنّ فرنسا هي التي حملت الرّاية وفي حين

امتنعت بعض دور النشر في بريطانيا من طباعة الآيات الشيطانية، أخـــذت دور النشر الفرنسية تتسابق لطباعة الكتاب وترجمته ونشره والتشجيع عليه كي يبـــاع بالجملة.

ووصلت الدّناءة بهم أن صعّدوا الممثّلة "ايزابـــــال أدجـــاني" إلـــى القمّـــة ووسّموها بميدالية ذهبية لتقرأ صفحة واحدة من كتاب سلمان رشـــدي بحضـــور الآلاف من المخرجين والصّحافيّين في مهرجان السينما الذي يقام في كان.

ولماذا "ايزابال أدجاني" بالذّات لأن أباها جزائري مسلم وقـــامت السّـــلطة الفرنسية بعد ذلك بدعوة سلمان رشدي إلى فرنسا ووفّروا له من الحماية ما لـــم يوفّر لرئيس دولة وخصّصوا له برامج في التّلفزيون ليشتم المسلمين وعددهم في فرنسا يفوق خمسة ملايين.

هذا في وقت تدّعي فيه وسائل الإعلام الفرنسية بأن فرنسا تحـــترم حريّـــة التعبير واحترام الفكر.

وهذا كذب مفضوح وغير صحيح والدّليل على ذلك أن المسلمين في فرنسا استدعوا الشيخ أحمد ديدات الذي يقيم في جنوب أفريقيا وهو مشـــهور بـــالحوار العلمي بين المسيحيّة والإسلام.

وقدم الشيخ احمد ديدات إلى فرنسا وكنت ممّن حضر في المطار لاستقباله، ولكنّ السّلطة الفرنسية منعته من الدّخول رغـــم جـــوازه البريطـــاني وجنســـيّته البريطانية وبقي في المطار ثلاث ساعات ورجع من حيث أتى ولم يسمحوا لأحد من الذين جاؤوا لاستقباله بملاقاته.

هذه واحدة، أمّا الثانية: فإن أحد الفرنسيين قدّم أطروحة الدكتوراه في جامعـــة ليون الفرنسية وناقش موضوع الأفران اليهودية وحرقهم في عهد النّازية وكشـــف بالأدلّة على المبالغة في عدد الضّحايا، فصادروا كلّ أبحاثه وطردوه من الجامعة ثم قُدّم للمحاكمة وحكمت المحكمة بسجنه عامين لاتّهامه بإنكار الحقائق التّاريخية.

أمّا الثالثة: فضحيّتها المفكّر الكبير روجيه غارودي الـــذي كـــان عندهـــم فيلسوفا عظيما عندما كان شيوعيّا وما إن أسلم وكشف خفايا الصّهاينـــة حتّـــى انقلبوا عليه وشتموه واتّهموه بكلّ أنواع التّهم وقدّموه هو الآخر للمحاكمة وحكموا عليه بالسجن أيضاً.

أمّا الرّابعة والعاشرة فحدّث ولا حرج فحريّة التعبير بالنسبة إليهم تعني شتم الإسلام والمسلمين وتجريدهم من كلّ فضل وفضيلة، فهم يكرهون الإسلام أكثر من كلّ الدّول والشّعوب الغربيّة الأخرى، والكتب التي تكتب عن نبّي الإسلام في فرنسا كلّها سلبية تقلّب الحقائق وتنفّر النّاس من الدّين الإسلامي.

أمّا العنصرية ضدّ العرب المسلمين فقد ترعرعت في فرنسا وتغّذت بالأحقاد الصهيونية واليهودية المتطرّفة.

فإنك تلاحظ أنه خلال الحرب اللّبنانية لا يسمح للّبناني المسلم بالدّخول إلى فرنسا إلا بتأشيرة ينتظرها شهرين ولا يحصل عليها إلا بعد غربلة دقيقة.

أمّا اللّبناني المسيحي فيأتي إلى فرنسا بكلّ سهولة ويعطى حقّ اللّجوء، فما هو الفرق بين اللّبناني الأول واللّبناني الثاني، وكلّهم عرب؟

الفرق واضح أن اللّبناني الأول عربي مسلم أمّا الثاني فهو عربي مسيحي.

وهذا يذكّرني بحادثة أخرى وقعت في فرنسا وكادت تتسبّب في أزمة حكومية، ذلك أن الفلسطيني المعروف جورج حبش قدم إلى باريس للمعالجة الفورية، وما أن أذيع خبره حتّى قامت قيامة الفرنسيّين وانتقدوا الحكومة كيف تسمح بمعالجة الإرهابيين الذين يقتلون اليهود في إسرائيل وكتبت الصّحف وكثرت المعارضات والإضرابات والانتقادات فخرج عليهم في التّلفزيون وزير الداخلية ليقول لهم: إنه جورج يعني مسيحي، فسكت النّاس كلّهم أجمعون وانطفأت ثورتهم بسرعة فائقة.

وهذه العنصرية ليس كما يزعم البعض أنها ظاهرة طارئة لا تتعدّى حزب الجبهة الوطنية الذي يتزعّمه "جان ماري لوبان" فهذا غير صحيح والادلّة عكسه تماما وإذا كان "جان ماري لوبان" كما يقول هو على نفسه كشف عن حقيقته فهو غير منافق، أمّا الذين يزعمون محاربة العنصرية فهم منافقون يقولون ما لا يفعلون بل هم الذين يغذّون العنصرية.

وإذا كان المفكّرون من الشعب الفرنسي والنّخبة المتميّزة من القضاء الذين من المفروض أن يكونوا حياديّين ويحكمون بالعدل وينبذون العنصرية هم أنفسهم عنصريّون فلا لوم على رعاع النّاس والحثالة من الشعب البسيط.

والمثل عشته في سنة التسعين في فرنسا وكتبت عنه في المجلّة منتقدا إيّاه بشدّة وهو ما جرّ عليّ المصائب في محكمة جنائية في مدينة ليون الفرنسية مثل أمام القضاء رجلٌ فرنسي في الخمسين من عمره موقوف منذ سنتين لقتله شابا جزائريا في التاسعة عشرة من عمره، وسبب القتل أن الرجل اطلّ من شباكه في الصباح فرأى الشاب الجزائري يحوم حول سيّارته فأخذ بندقيّته وأطلق عليه النّار فأرداه قتيلا، مع العلم أن الأبحاث أثبتت أن الشاب لم يلمس السيارة وربّما كان يطوف حولها معجبا بها ولكنّ القاتل ادّعى بأنه ظنّ أن قتيله سارق سيسرق سيّارته فحكمت عليه المحكمة بسنتين سجنا وثلاث سنين بتأجيل التنفيذ يعني خرج في ذلك اليوم باعتباره قضى سنتين موقوفاً بالسجن.

وكانت قاعة المحكمة مليئة بالجزائريين الذين تعاطفوا مع أهل القتيل وجاؤوا لحضور المحاكمة، فضجّ الناس عند سماعهم التصريح بالحكم في حين كان المحامي يعانق موكّله المجرم ويضحكان، كانت أمّ القتيل تسقط على الأرض مغشيّا عليها وكان أخوة القتيل يتصايحون لهذا الظلم وتظاهر الجزائريون أمام "قصر العدالة" وتدّخلت قوّات الأمن والشرطة فضربت المتظاهرين وحبست البعض منهم.

وفي المحكمة نفسها وفي المدينة نفسها والقضاة أنفسهم مثُل بعد هذه الحادثة بشهر واحد رجلٌ فرنسي متّهم بمحاولة قتل زوجته التي ادّعت أنه أطعمها حبوبا ليقتلها واعترف الرّجل بما نسب إليه فحكمت المحكمة بسجنه سبعة عشر عاما.

نعم سبعة عشر عاما لمحاولة قتل ومع أن الزوجة لم تمت، وعامين لمن قتل متعمّدا شابا في مقتبل العمر بريئاً لمجرّد الظنّ بأنه سارق.

"**فإن كانت هذه ليست عنصرية فالقضاة الفرنسيون مجانين**" . هذا هو العنوان الذي اخترته لإدانة القضاء الفرنسي العنصري.

وكثرت التّتبعات وكثرت الإهانات التي كنت اشعر بها في كلّ مرّة أريد تجديد الإقامة، ونصحني بعض أصدقائي بطلب الجنسية الفرنسية كي استرجع بعض الحقوق وكي استريح من هذه الإهانات.

طلبت الجنسية الفرنسية ورغم إقامتي في فرنسا عشرين عاما ورغم حصولي في فرنسا على دبلوم الدّراسات المعمّقة والدكتوراه المرحلة الثالثة والدّكتوراه الدولية ورغم أن ابني محمد علي ولد في فرنسا مع ذلك قوبل مطلبي بالرفض بدعوى أن وجودي في فرنسا هو لطلب العلم فلست معدوداً من العمّال.

ولكنّ الشرطة السريّة بدأت تغازلني فتقوم بدعوتي من حين لآخر للتحقيق ويقولون لي: لماذا أنت ضدّ فرنسا ولا تحبّ الغرب، لماذا تكتب دائما لشتمنا ؟ نحن بإمكاننا أن نعينك ونساعدك، وحتّى الجنسية التي طلبتها نعطيك إيّاها، المطلوب منك فقط أن تساعدنا على بعض الأمور.

قلت وأنا اعرف قصدهم: أيمكن الأمور أساعدكم عليها وكانوا ثلاثة يتكلّمون بالتناوب.

قالوا: بما أنك دكتور مفكرّ وتسافر إلى كلّ دول العالم خصوصا إلى إيران ولك معارف واسعة ومهمّة ونحن كما تعلم عندنا في فرنسا خمسة ملايين من المسلمين أفارقة ومشارقة ومغاربة وأتراك شيعة وسنّة إيرانيين وسعوديّين فالمطلوب منك أن تتعاون معنا لكي نعرف سياستهم واتّجاهاتهم ومتطلّباتهم وبالتّالي نقوم بما يلزمهم كي لا يحصل عندنا إرهاب وتفجير وأنت تعرف كلّ ذلك.

وتكلّم رئيسهم قائلا: إذا وافقت فلن يكلّفك ذلك إلا تقرير كتابة تقرير ونحن ندفع كلّ المصاريف التي تلزمك وإذا قلت نعم فأنا سأشرع من الآن في تحضير ملفك للحصول على الجنسية بأسرع وقت ممكن.

تكلّم ثالثهم ليقول: نعم نحن نفخر بأن يكون أمثال الدكتور السماوي فرنسياً تستفيد من معرفته فرنسا والفرنسيّون.

أطرقت برأسي إلى الأرض وأنا أجمع أنفاسي وظنّوا أنني استسلمت للأمر الواقع.

ورفعت رأسي لأقول لهم بكلّ بساطة وبغير تردّد: "جئتم متأخّرين فأنا لا أتعامل مع أمثالكم وقد قرّرت الرّجوع إلى بلادي حيث أهلي وعشيرتي، ولا بقاء لي وسط الذّئاب والكلاب الوحشيّة والعنصرية، طبعا أنا لا أقصدكم أنتم بالذّات".

ضحك كبيرهم وقال: طبعا أنت تقصد الفرنسيّين ونحن لسنا منهم، وضحك أصحابه وأخرجوني من مكتبهم السّفلي تحت الأرض.

وما زدت بعدها إلا شهرين ريثما جمعت أغراضـــي ومكتبتـــي ورجعــت لوطني قائلا:

بلادي وأن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضـــنوا عليّ كـــرام.

والحمد لله رب العالمين

تم بعون الله تعالى الجزء الثاني

من كتاب فسيروا في الأرض فانظروا ...



فهرس الموضوعات

الجزء الثاني